

الفكر والثبات فزالمعاصرة
وشمالاً أفريقيا

المكتبة العربية

تصدرها

الثقافة والإرشاد القوي

بشرعيتها

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر
الدار القومية للكتاب والنشر - الدار المصرية للتأليف والترجمة



الجمهورية العربية المتحدة
الثقافة والإرشاد القومي

الفكر والثقافة في المعاصرة في شمال أفريقيا

تأليف
أنور الجندي

انتشر في دار الشؤون للطباعة والنشر القاهرة

١٩٦٥ - ١٣٨٥

نَتَائِجُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عنينا بدراسة الفكر والثقافة المعاصرة في المغرب العربي رسم صورة واضحة وموجزة في نفس الوقت للحياة العقلية في خلال هذه المرحلة التي بدأت باليقظة قبيل الاحتلال اللاتيني للشمال الإفريقي بأقطاره الأربعة ، تصلح لأن تكون مفتاحاً لدراسة واسعة ، وقاعدة أساسية لبحوث مستفيضة عن حركات النهضة واليقظة في مجالها الديني والسياسي ، وقضايا الوطنية والعروبة والإسلام وما يتصل بهذا من مختلف شئون التعليم والثقافة والصحافة والأدب والتاريخ في مرحلة ممتدة من ١٨٣٠ إلى ١٩٥٤ ، وهو موعد استقلال تونس والمغرب واندلاع الثورة الجزائرية مؤذنة بالحرية للمنطقة كلها .

وعندى أنه قد تحقق بهذه الدراسة خلق الإطار الذي يصلح لكتابة موسوعة كاملة عن الفكر والثقافة المعاصرة في المغرب العربي وهو المجال الذي لم يطرقه باحث بصفة مستوعبة متكاملة في الأقطار والزمان الذي شمله هذا البحث .

والذاك فهو كتاب جديد حقاً في موضوعه . حتى يمكن القول بأنه أول كتاب يصدر في المشرق العربي . وهو غير مسبوق بأثر بحث على هذا النحو من الشمول حتى في المغرب نفسه ؛ فإن جميع البحوث التي صدرت في المغرب العربي كانت في الأغلب مرتبطة بأقطارها ومختلف الكتب التي تناولت الحياة الثقافية في المغرب اقتصر بعضها على الأدب وحده ، وبعضها الآخر اهتم بالأدب القديم . أما هذه المرحلة بالذات التي نطلق عليها . (مرحلة اليقظة) على أساس أنها سبقت في الشرق بالدعوة الوهابية التي دقت ناقوس الخطر ، وأيقظت العالم الإسلامي من سباته ، فلم تكتب عنها دراسة شاملة مستوعبة قوامها أن للمغرب طابعاً فكرياً واضحاً وأكيداً وإن امتزج بالفكر العربي الإسلامي مع المشرق ككل .

ولقد كنت أعتقد — منذ زمن طويل — أن علينا ديناً كبيراً للمغرب العربي حين قصرنا عن تقديم دراسة شاملة لآثاره ، وأعلامه وكفاحه الفكري والثقافي . وحين حالت الظروف والأحداث دون التقاء جناحي الأمة العربية زمنياً ، وقد انتهت هذه المرحلة منذ أشرقت شمس الحرية على ليبيا ، وتونس ، ومراكش ، والجزائر ، ولم يعد هناك عذر في هذا القصور والتقصير .

وقد أولينا أنفسنا شرف الريادة في هذا المجال على الأقل بالنسبة للعصر الحديث . وإنني لأرجو أن أكون بذلك قد استجبت لتلك الروح الصادقة المحبة التي ربطت المغاربة بالشرق ، وجعلت عيونهم دائماً علينا ، حتى ما فتئت ألسنتهم وأقلامهم وصحفهم تذكر مشرقنا بكثير من الحب والإعجاب وتعجب علينا تقصيرنا في مجازاة تقديرهم وإعجابهم بكتابنا ببعض رد الجميل ، وكثيراً ما طالعت هذا العتب في صفحات متصلة ومتعددة ، وكان أغلبه عن كتب الباحثين في تاريخ الأدب العربي ممن تجاوزوا المغرب في فصولهم فلم يذكره .

وكثيراً ما قرأت مثل هذه العبارة :

« مما يؤسف له أن كثيراً من إخواننا المفكرين بالشرق يجهلون كل شيء عن المغرب . وأن عدداً لا يستهان به منهم معلوماتهم عن بلادنا ناقصة أو مشوهة » .

« أو هذه العبارة » عندما كنت في باريس اجتمعت بكثير من المشاركة يسألون عن تونس . فإذا حدثتهم عجبوا ، وقالوا : ما كنا نظن أن البلاد التونسية على ما وصفت .

والتيقن برجل من العراق تظاهر بأنه مثقف فلما علم أنني من تونس قال لي : هل هناك من يتكلم اللغة العربية في تونس فتعجبت من سؤاله وقلت له إن البلاد التونسية تعد في العصر الحاضر من أشد الأقطار الإسلامية اهتماماً باللغة العربية واعتزازاً بالإسلام .

وفي تونس الجامعة الزيتونية ليس لها من عمل لإخدمة اللغة العربية والشئون الإسلامية . قلت وآخاً : على الرابطة الشرقية كيف انحلت حتى صار المسلمون يجهلون بعضهم إلى هذا الحد ! . . »

(١) محمد داود — مجلة الاسلام « أكتوبر ١٩٢٢ » .

(٢) محمد المختار بن محمود — مجلة الزيتونة « ١٩٥٦ » .

ويذكر آخر كيف أن الصحف المصرية والعربية لا تقابل كفاح الشمال الإفريقي بما يليق به من « التأييد والتشجيع » وأنه لا يوجد « في دوائر الطبقات الحرة المفكرة منها أدنى اهتمام والتفات لما يجري من القمع والإرهاب والزجر والعقاب والظلم والاعتصاب في كل أقطار الشمال الإفريقي . »

يحدث هذا بينما الشمال الإفريقي يحب البلاد الشرقية ويعمل على توطيد وتحقيق الرابطة الشرقية. « فما من حادثة تقع في الشرق ، وما من مصاب يناله وما من مؤامرات تدخل عليه إلا وتجدها الصدى والاهتمام في تونس مما لا تجده في كثير من الأحيان بالنسبة لحوادثها الخاصة وكوارثها العامة وللتونسيين من الإخلاص في حب الشرق والتهافت على استطلاع أخباره والتنقيب عن أناره الشيء العجيب » فالتونسي يعرف عن الحجاز والشام ، ومصر ، والعراق ، وإيران ، وأفغان ، وبعض ممالك الشرق تفاصيل تدهشك بدقتها وأصالتها .. ، هذا هو موقف تونس من الشرق ، فهل للشرق نحو تونس مثل هذه العاطفة ؟ وهل يعرف الشرق عن أحوال تونس ورجالها مثلما تعرفه تونس عنه ؟ وإنك إن تفتح ما شئت من كتب المشرقين وجرائدهم ومجلاتهم فلن تجد من يعرف عن تونس قليلاً أو كثيراً ، ولا تجد فيها تعرضاً لتونس وأخبارها ، فإذا فرضنا أنك تعرّ على حديث عن تونس فإنك تجده مملوءاً بالأغلاط والحقائق المقلوبة ، والأستاذ الزيات قد ألف تاريخ الأدب العربي ، تعرض للأدب في مختلف أطواره وبلداته ، ثم انتقل من المشرق إلى أقصى المغرب ماراً إلى بلاد الأندلس من غير أن يقف ولو قليلاً ، ولا يمكن لإخواننا الشرقيين أن يعترضوا علينا بأننا لم نظهر أنفسنا لهم ، ولم نطلعهم على ما عندنا من الآثار وعلى ما نحن عليه من القيمة الأدبية والعلمية ، وذلك لأنهم هم المطالبون بالبحث والتعرف علينا كما تعرفنا عليهم . (١)

هذا نموذج من عشرات النماذج من الجزائر وليبيا والمغرب ، تحمل العتاب ونشير إلى ما يكسبه أدباء المشرق عامة ، ومصر خاصة دون أن يذكر المغرب ، ولعل هذا كان في عصر مضى ، حيث كان الاستعمار البريطاني في مصر ، والفرنسي في المغرب يقطع الأواصر ، ويقيم السدود ؛ ويحاول أن يمزق أديم وحدة الفكر في الأمة العربية جميعها ؛ ولذلك كان لا بد اليوم من أن يقدم مثل هذا العمل ، ليحقق الترابط والتجاوب ، وليكشف عن

(١) محمد المختار بن محمود - مجلة الزيتونة « ١٩٣٦ » .

عوامل الوحدة الفكرية في الأمة العربية كلها ، فما من عمل في المشرق إلا وله صدهاء في المغرب ، وما من حدث في المغرب إلا وله صدهاء في المشرق ، وتيار الفكر العربي الإسلامي يجري كالجداول من منبعه إلى مصبه ومعاهد العلم تتلاقى في مناهجها لا فرق بين الأزهر والزيتونة ، ولا بين مدارس مكة والنجف ودمشق وبين معاهد قاس والجزائر وقسنطينة وبرقة .



وليس في بحثي هذا صفة للإقليمية بحال من الأحوال ، ولا هو تشيع لهدف معين أو دعوة معينة ، فالفكر المغربي في كتابي هذا جزء من الفكر العربي الإسلامي الممتد في العالم الإسلامي والعربي جميعاً . ربما تميز بطابع معين في خلال هذه الفترة هو طابع المقاومة . ولكنه متصل باللغة العربية والإسلام والتاريخ على نحو متكامل موحد لا انفصال فيه . ومن خلال هذه الدراسة يبدو مدى ارتباط المغرب كله كمقدمة للانصهار في بوتقة الوحدة العربية الكاملة ، وارتباط الحركات الفكرية في المشرق والمغرب ارتباطاً كاملاً فيه التجاوب ورجع الصدى ، وفيه التأثير والتأثر .

فالتيارات تبدأ هنا أو هناك ثم تتسع حتى تشمل ما بين المشرق والمغرب . وقضايانا جميعاً — مشاركة ومغاربة — متصلة متشابهة . واستجابتنا للأحداث واحدة . وكل صوت ارتفع في المشرق أو المغرب تلاقى مع الآخر في امتزاج وحنان . وقضايا فلسطين والجزائر — وهي كبرى قضايانا في هذه الفترة — كانت تلقى أعمق المشاعر وتمتد إلى الشعر والقصة والصحافة والتأليف . وعلى الرغم من كل السدود والقيود التي حالت بين الجناحين فترة فإنهما لم ينفصلا أبداً ، كانت عين المغرب على المشرق دائماً . وكانت صحف المشرق تنبض بالأحاسيس المغربية وأقلام رجاله تكتب وألستهم تخطب . وما مرت فترة على المشرق دون أن يرده سفير من سفراء الوطنية والفكر . والشناقطة والثعالبي والقاسي وبورقيبة وأطقيش والحضر أسماء مغربية غالبية لم تنقطع عن مشرقنا لحظة .

وإذا كان لي أن أقول : إن هذا الجناح الأيسر من الأمة العربية كان موضع بالناس في المشرق منذ تكشفت أمامنا حقائق الأمور . وتلاقت أفكارنا مع هؤلاء الأبرار الذين قدموا يحملون لنا قصة كفاح مجيدة . فلما أتيح لدعوة الوحدة العربية أن يعلو صوته ويمتد أمرها ، كان لابد أن تتناول الدراسات — في مجال الفكر والثقافة والأدب — الأمة

العربية كلها ، وبدا مدى القصور لدينا في مراجع المغرب العربي ودراساته ، وأعلامه ،
هنالك كان لابد من تخصيص جهد وافر لعمل يكمل هذه الحلقة المفقودة ، وقد أتاح
لنا إخواننا في ليبيا وتونس والجزائر ومراكش على إثر الاتصال بهم فرصة كبرى لا طلاعنا
على إنتاجهم وآثارهم ، كما وجدنا في دار الكتب المصرية ، ومعهد الدراسات العربية
عديداً من المراجع والدوريات ، واثمينا من إخواننا الذين راسلونا. أمثال : عبد الله كنون ،
وعبد الكريم غلاب ، وعلى مصطفى المصراي ، ومحمد علي دبوز ، وأبو القاسم كرو ، والدكتور
عزيز الحبابي ، وعلال الفاسي ، ومحمد الصباغ ، وأحمد السطاتي ، وعبد القادر الصحراوي
معوثة كبرى في الحصول على عديد من المراجع والدوريات ، أمدتنا حقيقة بما كشف لنا
آفاق البحث وأتاح لنا الفرصة لاستجلاء الغامض وكشف الحقيقة . وكان لمجلة (دعوة
الحق) المغربية فضل لا ينسى ، فقد أمدتني مجموعتها بفيض كبير من النصوص والدراسات ،
ولقد كان يمكن أن يكون هذا الأثر أكبر مما هو في الواقع لو تفضل إخواننا الذين وجهنا
إليهم رسائلنا الخاصة والمفتوحة على صفحات الجرائد بمراسلتنا .

ويمكن القول بأننا استطعنا بهذا العمل أن نقدم إطاراً لعمل كبير في مجال خصب ،
وكل أمل أن يكون هذا العمل قد وضع لبنة في بناء الفكر العربي المعاصر ، وسد فراغاً
في مجال من مجالات الدراسة الأدبية يمكن أن يكون نقطة البدء لعمل أكبر .

والله الموفق .

أنور الجندی

(القاهرة ؛ الهرم) سبتمبر - ١٩٦٤

تَمَهِيدٌ

لكي ندرس الفكر والثقافة المعاصرة في المغرب العربي بأقطاره الأربعة ، أو المغرب العربي الكبير ، كما يطلقون عليه أخيراً ، لابد من نظرة سريعة إلى حياة هذا الجناح الأيسر من الأمة العربية الذي يعيش على أرض إفريقيا ، والذي يطلق عليه الشمال الإفريقي باعتباره يحتل منطقة متصلة على شاطئ البحر المتوسط : تبدأ من حدود السلوم وتضم ليبيا وكان يطلق عليها من قبل : طرابلس وبرقة ، ثم تونس والجزائر وكان يطلق عليها جزائر الغرب ، والمغرب وكان يطلق عليها مراکش أو المغرب الأقصى ولا يزال اسم المغرب قائماً حتى الآن في مجال الحديث للفرقة بين الإقليم وبين التعبير عن المنطقة ككل تحت اسم المغرب العربي .

وقد مر الشمال الإفريقي منذ بدء التاريخ بمراحل تاريخية ست هي : البربر ، والفينيقيون ، والرومان ، والوندال ، والروم ، والبيزنطيون ، والعرب . كما يمثل المغرب العربي بأقطاره الأربعة وحدة طبيعية متماسكة ، ورقة جغرافية متشابهة الخصائص والمناخ ، ووحدة تاريخية في مقاومة الغزو وإنشاء الحضارة وطابع الفكر الذي أصبح منذ بزوغ الإسلام مزيجاً عربياً إسلامياً قوامه سكانه البربر الأصليون ، والعرب المسلمون الذين دخلوا البلاد وامتزجوا بالسكان في وحدة تبلورت على مدى الزمن .

ومنذ بزوغ الإسلام امتدت هذه الوحدة الجغرافية والتاريخية إلى المنطقة العربية كلها حيث تمثل المغرب العربي في صورة جناح أيسر للأمة العربية والعالم الإسلامي جمعاً وزادت وحدة جديدة هي وحدة الفكر والثقافة التي أصبح قوامها الفكر العربي الإسلامي الذي أنشأته الحضارة الإسلامية في خلال توسعها وامتدادها حتى وصلت إلى الأندلس ، وجنوب فرنسا .

ومنذ ذلك الوقت التقى المغرب مع الشرق في وحدة فكر وثقافة وسياسة ، ولم تعد هناك حدود بين أجزاء العالم الإسلامي الذي سار فيه العلماء والفقهاء والأدباء مشرقين أو مغربين ؛ كابن بطوطة ، وابن خلدون ، وعشرات من الأعلام الذين وردوا مكة والأزهر وتلقوا العلم بهما وحملوا معهم أثارة من هذا العلم وبعض مخطوطاته .

وكذلك فعل المشاركة الذين ذهبوا إلى أقصى المغرب وإلى الأندلس ، وبدأت وحدة الفكر واحدة في إنتاج المشاركة والمغاربة ، حيث جمعهم طوابع الثقافة العربية الإسلامية وأساسها القرآن ، والحديث . والفقه ، واللغة العربية ، وجمعهم التاريخ بأحداثه ووقائعه وبطولاته .

وإذا كان العرب قد عبروا (١) من المشرق إلى المغرب بعد الفتح الإسلامي فإن الأصول الأولى لسكان الشمال الإفريقي هي أصلاً من الموجات التي قذفت بها جزيرة العرب إلى إفريقيا ، وهما البربر واللوبيون وهناك من يرى أن البربر واللوبيين جنس واحد . أما البربر فقد قدموا من الشرق على فترات ما قبل التاريخ في الأغلب على ما نحو ما تكشف عنه الدراسة في أطوائها . وأما اللوبيون فهم بالحق عرب كنعانيون قدموا الشمال الإفريقي حوالي ١٣٠٠ فاندمجوا بأبناء عموماتهم البربر وأصبحوا أمة واحدة . أما الفينيقيون الذين وردوا المغرب في عام ٨١٤ قبل الميلاد . وأسسوا قرطاجنة فهم من أصل سامي كنعاني موطنهم الأصلي جزر البحرين ، ثم لبنان وقسم من سوريا . وهم أصحاب الحروب الثلاثة البونيقية مع روما حيث احتلت قرطاجنة في عام ١٤٦ ق.م. والرومان هم أول من قسم الشمال الإفريقي الموحد إلى ثلاث مقاطعات ليصل عليهم استعمارهم . وقد واجههم المغرب بمقاومة جبارة ممتدة حتى سقط الاستعمار الروماني في عام ٤٣٩ م. حيث احتل الوندال الشمال الإفريقي من عام ٤٣١ إلى عام ٥٣٤ م. وخلفهم الروم البيزنطيون من عام ٥٣٤ إلى عام ٦٤٢ م. . وكان استعمارهم مريراً . واجهه الأهالي بالثورات والحروب والمقاومة . وأشرق نور الإسلام وامتد إلى مصر منذ سنة ٢٧ هجرية وإلى الشمال الإفريقي ٤٩ هـ وبرزت أسماء معاوية بن حديج وعقبة وحسان وموسى بن نصير وطارق .

ومنذ ذلك التاريخ تحول المغرب العربي تحولاً حديداً . وبدأت صفحة إسلامية لاتزال تمتد إلى اليوم بمقوماتها وقيمها وثقافتها ومكها .

وكان للمغرب دوره الضخم في مجال العلم والثقافة والفكر ، وأمانته لذلك واضحة في دور جامعته الزيتونة (تونس) والقروين (فاس) ثم امتداده الثقافي إلى الأندلس

(١) ك وحدة المغرب العربي ، عبد العزيز بن عبد الله ١٩٥٦ م ١ ، مجلة البصلة مارس ١٩٦٤ ومجلة دعوة الحق إبريل ٦٢ ويولية ٦٢ ويونية سنة ٥٨ ، محمد زنيبر وعبد الرحاب بن منصور .

وجامعاتها في قرطبة وأشبيلية ... ومنذ عام ٦٥٦ ميلادية حتى ١٨٣٠ م وهو تاريخ الغزو الأوربي للجزائر كان للمغرب دوره الضخم في عالم الثقافة واللغة والفكر والتاريخ والحضارة . حيث ظهرت دول الأغالبة والفاطميين والصنهاجيين والمرابطين والموحدين والحفصيين ، وبرز أمثال أسد بن الصرات وسحنون وابن هاني وابن رشيق والمعتمد ابن عباد وعبد المؤمن بن علي وابن رشد وابن عرفة وابن خلدون . وعشرات لا يحصيه العدد في مجال ضخم يمثل قطاعاً حياً كبيراً من الحضارة الإسلامية والثقافة العربية .

وقد جاء الاستيلاء العثماني حوالي ١٥٧٣ م على ليبيا وتونس فالجزائر . أما المغرب الأقصى فقد تعذر على القوات الفاتحة وظل محتفظاً باستقلاله ، ولم يكن العهد العثماني إلا امتداداً طبيعياً في العالم الإسلامي كله للإمبراطورية الإسلامية .

★ ★ ★

وكانت الحروب الصليبية في المشرق إرهاباً لاتجاه أوروبا الناهضة إلى السيطرة على العالم الإسلامي والتحكم فيه . ثم كان غزو نابليون لمصر في عام ١٧٩٨ وبريطانيا في عام ١٨٠٧ تمهيداً لغزو فرنسا للشمال الإفريقي القريب منها ، والذي كان له دوره الضخم في غزو أوروبا وفتح الأندلس من قبل ، وقد بدأ غزو الجزائر في عام ١٨٣٠ حيث بدأت المقاومة الحربية بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري ، امتدت خمسة عشر عاماً حتى عام ١٨٤٧ . وكانت مقدمة لأمرين :

الأول : غزو تونس وليبيا ، والمغرب بعد ذلك بسنوات وهو ما يعنينا في هذه الدراسة ، وهو يقظة الفكر العربي الإسلامي وتفتحه بالمقاومة والتحدى للنفوذ الغربي الذي تمثل في ميدانين : ميدان السياسة الوطنية ، وميدان الفكر ، ومن ثم بدأت اليقظة ممثلة في حركات ذات طابع إسلامي واع قوامها العودة بالإسلام إلى منابعه ، وفتح باب الاجتهاد ، وتحرير النصوص من التقاليد ، وفتح الباب أمام المغرب العربي للانتفاع بحضارة الغرب وثقافته على النحو الذي يمنحها القوة ، ويدفعها إلى الأمام ويمكنها من مقاومة السيطرة والنفوذ الغربي العنيف .

والحق أنها كانت معركة ضخمة أشد قوة وأعنف تحدياً من معارك الحرب والقتال ؛ فقد كان على الفكر الغربي بقيمه أن يغزو الفكر العربي الإسلامي المغربي ، وأن يحطم قيمه الأساسية ويسيطر عليه ويحوّله إلى تبعية خالصة ، وكانت وسائله إلى ذلك عنيفة مريرة في مجال التعليم والصحافة وفي مجال الإسلام واللغة العربية والتاريخ

العربي . وقد استعان على ذلك كله بنظريات ودعاوى ومؤلفات وجامعات وبعثات كالأباء البيض والمبشرين ، وحمل في سبيل ذلك لواء دعوات قوامها التجنيس والتغريب والفرنسة والإدماج ، وجرت محاولاته في التفرقة بين عنصرى الأمة بالقانون والمدرسة والمحكمة واللغة . ومضت محاولاته للتصاء على اللغة العربية وجعلها غريبة في المدرسة والبنك والمحكمة .

وامتدت المحاولة عنيفة مريرة ، ولكن الفكر العربي الإسلامى المغربى عاش معركة مقاومة طويلة امتدت من عام ١٨٣٠ إلى عام ١٩٦١ تحررت خلالها ليبيا وتونس والمغرب ثم الجزائر وبدأت صفحة جديدة من الاستقلال .

ونحن في هذه الدراسة نحاول أن نرسم صورة للفكر والثقافة المعاصرة في المغرب العربي كله خلال هذه الفترة الدقيقة من حياة المغرب العربي . وهى فترة الاحتلال والنفوذ الأجنبي ونصور إلى أى حد كان نفوذ التغريب ، وإلى أى مدى بلغت المقاومة قمة التحدى حيث كان السلاح الوحيد البتار في هذه المعركة هو «سلاح الكلمة» .

والحق أن المغرب أثبت مقدرته خارقة في هذه المعركة وصمد صموداً جباراً ، وواجه الأمور بيقظة وحنكة وسلامة أعصاب لاحتلها ، واستطاع بذلك أن يكسب أغلب الأرض التى كانت في يد النفوذ الأجنبي ، وأن يفرض على الاحتلال الفرنسى والإيطالى والأسباني قوة شخصيته التى لاترول ولا تمحى .

القِسْمُ الْأَوَّلُ

حَرَكَاتُ الْيَقْظَةِ وَالنَّهْضَةِ

السنوسية — السلفية — الإصلاحية

جمعية العلماء — الطرق الصوفية

مدخل

حمل المغرب الكبير - منذ قبيل الدعوة الإسلامية واعتنقها - لواء الفكر الإسلامي وأسهم فيه بجهود ضخمة ، وأبرز أعلاماً وكتاباً وفقهاء وفلاسفة ، كما أسهم في الحركة الثقافية مرتبطاً مع المشرق بالرحلات وتبادل الآثار . وكان لمنازته الكبيرتين : الزيتونة والقرويين أثر لا حد له في بعث الفكر العربي الإسلامي وحمايته وتطويره . فإذا جاء النفوذ الأجنبي ينشر ظلامه على هذه المنطقة ، ومن بعدها الاحتلال الفرنسي للجزائر في عام ١٨٣٠ مرهصاً باحتلال تونس وليبية والمغرب الأقصى ، كانت مقاومة الغزو الحربي والعسكري والثقافي الغربي مصدر يقظة للفكر العربي الإسلامي على قاعدة التحدي ورد الفعل .

هنالك بدأت حركة اليقظة والبعث والإحياء في ميادين ثلاثة :

- ١ - التجديد في مجال الدين وتحريره من الجحود وفتح باب الاجتهاد.
 - ٢ - العمل الوطني والسياسي ، وظهور أدب المقاومة والصحافة .
 - ٣ - التطور الثقافي والفكري في ميدان التعليم والثقافة وكتابة التاريخ .
- وقد جرى التجديد الديني في مجال بعث مفاهيم الإسلام الأولى ، والعودة إلى منابع الأساسية والتحرر من الوثنيات والخرافات ، وأطلق على هذا العمل اسم «السلفية الجديدة» .

أما العمل الوطني فقد قام في سبيل المطالبة بالحرية والاستقلال ومقاومة الحماية والاحتلال والدعوة إلى وحدتين :

- ١ - الوحدة المغربية بين الأقطار الأربعة .
 - ٢ - والوحدة العربية الكبرى وفي ظل هذا العمل ظهر أدب المقاومة والتجمع . وقامت الصحافة بدورها الكبير في مقاومة حركة الإدماج والفرنسة .
- وفي المجال الثقافي بدأت حركة التطور الثقافي والفكري من أجل : حماية اللغة العربية . ومقاومة التغريب ، وبعث التاريخ وتجديده ، وتجديد المفاهيم العربية الإسلامية ، وإبراز القيم الأساسية إزاء الغزو الفكري الغربي .

برزت معالم النهضة واليقظة في المغرب العربي مبكرة ، واتخذت صورة الحركات الجماعية ذات الطابع الإسلامي قبل أن تطأ قوات الاحتلال الفرنسي للجزائر أرض هذا الجناح من الوطن العربي . وقد تمثلت هذه المعالم في دعوات مختلفة لى العودة لمنابع الإسلام الأولى ، والتحرر من الحمود الذى ران على المجتمع الإسلامى نتيجة إغلاق باب الاجتهاد ، والتحجر عند المظاهر الزائفة التى غلبت على صورة الإسلام النقية فى قرات الضعف الطويلة التى مرت بالعالم الإسلامى ، بعد أن تدهورت الإمبراطورية العثمانية ودخلت فى مرحلة الانهيار .

وما كادت أقدام الاحتلال تطأ أرض الجزائر فى عام ١٨٣٠ حتى بدأت حركات المقاومة الفكرية تسير بخطوات واسعة بجوار المقاومة العسكرية ممثلة فى الحركة السنوسية التى قادها رجل من الجزائر هو محمد على السنوسى الذى هزه حادث الاحتلال الفرنسى للأرض المغربية ، ودفعه إلى العمل السريع من أجل المقاومة على أساس حركة تجمع شاملة تعم العالم الإسلامى كله ، وتحاصر الاستعمار وتحاول أن تقضى عليه .

وقد بدأت الحركة السنوسية فى برقة ، ولكنها مدت نفوذها إلى المغرب كله وإلى إفريقيا فى الجنوب . ولم تلبث الحركة السلفية أن ظهرت فى (المغرب الأقصى) وانبسط نطاقها ثم ظهرت الحركة الإصلاحية فى تونس ، وكانت بذور اليقظة تنمو فى الجزائر على أيدي الأبرار حتى تبلورت بعد سنوات فى جمعية العلماء .

وهكذا توزعت حركات النهضة الشمال الإفريقى كله وتلاقى على اختلاف مظاهرها وأساليبها ، فلم تكن السنوسية فى (برقة) ، وهى حركة صوفية فى مظهرها أقل نفوذاً وإيجابية من حركات السلفية (فى فاس) ، أو الحركة الإصلاحية فى (تونس) ، أو جمعية العلماء فى (قسنطينة) فهى تتلاقى جميعها فى هدفها الأساسى وهو مقاومة الاستعمار الغربى بكل الوسائل ، وتنقية الإسلام من الزيوف التى حوالت المسلمين إلى الحمود ، وفتح باب الاجتهاد والكشف عن جوهر الإسلام الحى ، وبث الثقافة الإسلامية ، ونشر مفاهيم الإسلام فى العلم والجهاد ، ومقاومة العدو الغاصب وحماية الثغور ، والدفاع عن الحمى وإبراز ملامح الشخصية العربية الإسلامية بمقوماتها وتاريخها الملىء الحافل بالبطولات والأعجاد ، ولم تتوقف هذه الحركات عند هذا الحد بل ذهب بعضها إلى إعلان ضرورة الأخذ من الحضارة الغربية ما يزيد الأمة العربية والمسلمين قوة على مقاومة التثؤذ الأجنبى والسير مع موكب النهضة العالمية .

والحق أن الدور الذي قامت به هذه الحركات كان بعيد المدى وقوى الأثر
بقى إيقاظ المغرب ودفعه إلى الحركة والحياة والمقاومة . ولم تنس دور الطرق الصوفية
في إذاعة الإسلام والتبشير به ، مع الكشف عن أخطائها والتماس بعض فرقها الاتصال
بالنفوذ الأجنبي ، مما دفع حركات السلفية إلى مقاومتها مقاومة عنيفة . وبالحملة :
فإن حركات اليقظة والنهضة ذات الطابع الإسلامي كانت مقدمة لحركات العمل الوطني
والسياسي التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى وقد تبلورت بعض هذه الحركات
في نطاق الكفاح الوطني من بعد .

كما كانت زيارة الشيخ محمد عبده لتونس والجزائر ذات أثر بعيد المدى في تأكيد
هذا الاتجاه السلبي الواضح الدلالة في العمل الفكري والوطني جميعاً ، وعاملاً من عوامل
الربط بين الحركات الفكرية والوطنية بين المشرق والمغرب .

ولاشك في أن هذه الحركات كانت تمثل المقاومة الفكرية والوطنية للاستعمار
والاحتلال والنفوذ الأجنبي الذي بدأ يتغلغل في الشمال الإفريقي باحتلال الجزائر ،
فتونس ، فليبيا ، فالمغرب في خلال المرحلة السابقة على الحرب العالمية الأولى . ودور
السنوسية مع الاحتلال الإيطالي يمثل ذروة العمل العسكري والسياسي لهذه الحركات
التي امتدت من بعد ، وتبلور بعضها في المنظمات الوطنية لحركة السلفية المغربية .
وظهر بعضها الآخر كجمعية العلماء الجزائريين ليحمل لواء المقاومة في مجال اللغة
العربية والإسلام على تغطية الميادين الفكرية والثقافية التي قصرت عنها المنظمات
السياسية .

أولاً - الحركة السنوسية

بدأت الحركة السنوسية في صورتها العملية في عام ١٨٤٠ م ، عندما عاد من مكة « محمد علي السنوسي » إلى برقة ، وعندما بنى الزاوية البيضاء بالجبل الأخضر في عام ١٨٤٢ م ، وقد امتدت دعوته منذ ذلك الوقت ، مؤثرة أبعد الأثر في الشمال الإفريقي كله ، ناشرة للإسلام في أواسط إفريقيا حتى بحيرة تشاد .

وقد رعاها مؤسسها الأول حتى توفي في عام ١٨٥٩ ، منافحاً عن دعوته ، يعمق مجراها ويركز دعائمتها ، ويوسع من آفاقها .

ولم يكن (محمد علي السنوسي) في حياته الحصبة وقبل إعلان دعوته إلا عاملاً في سبيل اليقظة والحرية منذ مطالع حياته .

وإذا كانت الحركة السنوسية قد بدأت خطواتها في (برقة) فإنها قد بدأت فعلاً من الجزائر ، ولم يتوقف امتدادها منذ ظهورها حتى شملت المغرب العربي كله ، وتخطته إلى الجزيرة العربية وغيرها .

ذلك أن (محمد علي السنوسي) كان جزائرياً في الأصل ، ولد في عام ١٧٨٧ م في (مستغانم) ، وكان قد تخطى الأربعين عندما احتل الفرنسيون بلاده ، وكان هذا الحادث هو نقطة البدء في عمله الضخم من أجل مقاومة النفوذ الغربي .

فقد هزه الحادث هزاً حنيفاً ودفعه إلى الخروج من الجزائر في سبيل العمل من أجل الحرية للوطن الإسلامي كله ، تحريراً قائماً على أساس مفاهيم الإسلام ، كان احتلال الجزائر هو أول حادث للغزو الغربي المسلح للعالم العربي ، وهو الذي لفت نظره إلى العمل .

وكان سبيله إلى العمل ، هو رحلة طويلة إلى المغرب ، حيث أمضى سبع سنوات من سنة ١٨٢٢ - ١٨٢٩ م بين جامع القرويين في فاس ، ودراسة القادرية والشاذلية والدرقاوية والناصرية وغيرها من الطرق الصوفية ، وزيارة الزوايا على طول المنطقة ، حتى وصل (خطه توات) من مفاتيح الصحراء .

ثم بدأ رحلته الأخرى إلى المشرق لاستكمال دراسته وبجته ، فأتجه إلى القاهرة ،
واتصل بالأزهر وعلمائه ، وأعلن آراءه ، محاولاً إيجاد بيئة صالحة لدعوته ، غير أن
علماء الأزهر ، الذين كانوا إذ ذاك غارقين في مغلق التقليد عارضوه وقاوموه ،
وقد حجب محمد علي السنوسي من قبول العلماء لحكم محمد علي وإلى مصر واستبداده
وظلمه واستسلامهم له دون مقاومة أو معارضة ، ثم ولى وجهه نحو الجزيرة العربية ،
ف قصد مكة حيث اتصل بالوهابيين ، والتقى معهم في مفاهيم تحرير العقيدة وتطهيرها .

وفي مكة عرف أحوال المسلمين وأخلاقهم ، واستطاع أن يتصل بالكثيرين من
القادمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي - في مواسم الحج - وأن يخاطبهم دارساً
باحثاً مع مفكرهم ...

وفي مكة التقى بالسيد أحمد بن أدریس القاسي ، مؤسس الطريقة الإدريسية وأقاما
معا حتى توفي ابن أدریس في عام ١٨٣٥م وأقام هو زاوية جبل أبي قبيس ، ومنها
قصد إلى اليمن لمتابعة جولاته ودراسه .

ومن ثم أحس أنه قد استكمل بحثه عن الدولة العثمانية وممالكها ، وحال المسلمين
في مختلف أقطارهم ..

هناك صح عزمه على العمل ... بعد أن تبين له أنه لا يوجد بالعالم الإسلامي مرشد
أو مصلح ، وكان قد قضى على الحركة الوهابية ، وبدأ ضعف الدولة العثمانية التي
عجزت عن حماية الجزائر ، أو الدفاع عنها إزاء الغزو الفرنسي وقد صور مشاعره
إذ ذاك بقوله : « أفكر في العالم الإسلامي ، فبالرغم من سلاطينه وأمراءه وروثائه
وعلمائه ، فهم لا يزيدون على أن يكونوا كقطيع من الغنم الذي لا راعي له . بكل محل
من محلات الإسلام تجد المسلمين وعلماء الدين ، ولكنك لا تجد في العالم الإسلامي
« مرشداً » حقيقياً تكون غايته سوق الجميع إلى هدف واحد ، إن ديننا الحنيف
دين توحيد أسس على الاتحاد ، ولكن الخلاف والتفريق قد سادا جميع النواحي ،
لأن العلماء والمشايخ ليست لهم غيرة دينية حتى ينشروا العلوم والمعارف ، انظروا
إلى أحوال السودان والصحراء تجدوا أفواجاً من الشعوب يعبدون الأوثان ، ويوجد
في كل مسجد من مساجد المعمورة جماعة من العلماء غير العاملين ، لا هم لهم غير
راحة أجسادهم ، حريصين على لذاتهم ، غير قائمين بواجباتهم ، لا ضمائر لهم
تؤنبهم على إهمالهم إرشاد هؤلاء المساكين ، وقد اتصل بنا خبر أحوال العالم الإسلامي

من القوافل التي ترد إلى بلادنا ، إنا مغلوبون في كل محل ، وإن المقاطعات والخطط المعمورة تذهب من أيدي المسلمين في كل وقت وبسرعة البرق ، فالإسلام في حالة من التدهور الخيف وهو ما فكرت فيه .. ،

في ظل هذه المشاعر والمفاهيم عمل (محمد علي السنوسي) على بناء قوة عربية إسلامية في صحراء ليبيا ، تقوم دعائمها على أساس الزوايا المتناثرة ، وتمتد لتطوق العالم الإسلامي كله . إلى السودان ، إلى غرب وأواسط أفريقيا ، إلى صحراء ليبيا ، إلى مصر ، إلى مكة .. على نحو يحمل صورة الطرق الصوفية ، ولكنه يعتمد أساساً على المفاهيم السلفية المتحررة :

(١) عودة الإسلام إلى منابعه الأولى .

(٢) تطهير العقيدة من أدران البدع والخرافات .

(٣) توحيد المذاهب ، وجمع العالم الإسلامي على وحدة حقيقية .

(٤) فتح باب الاجتهاد .

(٥) نشر الإسلام في البلاد التي لم يتشر فيها .

(٦) مقاومة النفوذ الأجنبي .

وقد استطاعت الدعوة السنوسية أن تحقق في هذا المجال كله عملاً ضخماً ، امتد منذ عام ١٨٤٠ أكثر من قرن كامل حتى تحررت ليبيا من النفوذ الاستعماري .

وكان موقفهم الواضح الضخم الذي كشف عن أصالة الدعوة وقوتها ، هو مقاومة الغزو الإيطالي في عام ١٩١١ ، وكيف كبدوا القوات الإيطالية الضحايا ، وصمدوا في المقاومة سنوات طويلة ، امتدت خلال الحربين العالميتين .

وفي مجال نشر الإسلام في القارة الإفريقية كان عملهم بالغ الأهمية والقوة ، فقد استطاعوا تخليص الأطفال الأرقاء وعتقهم بشرائهم من القوافل التي كانت تنجر بالرقيق القادمة من السودان ، والقيام على تربيتهم في جغوب وغدامس وغيرهما . حتى يبلغوا أشدهم وفق منهج معد من التربية والتعليم ، ثم يسرحوهم إلى أطراف السودان حتى بحيرة تشاد يدعون قومهم وبنى جلدتهم إلى الإسلام ، وهكذا كانوا يقدمون في كل عام مئات من مبشرى السنوسية ينبثون في مختلف أنحاء القارة يبشرون بالإسلام ، وقد بلغوا سواحل الصومال شرقاً إلى السنغال غرباً .

وقد استطاع هؤلاء مع عديد من التجار المسلمين الذين بشهم السنوسية أن ينفذوا إلى قلب القارة وأطرافها لدعوة الأتوام « القيتشين » ، وبناء زوايا جديدة في الأقطار الواسعة ، بل إنهم استطاعوا أن يؤسسوا ممالك مثل سلطنة رايح وأحمد وسامورى .

وهكذا قامت السنوسية بوظيفة الجهاد والتبشير ، ومقاومة الاستعمار والنفوذ الأجنبي ، حتى كانت فرنسا تعتبر السنوسية العدو الأول في إفريقيا ، وتحرض عليها الخلافة العثمانية ، حتى تقضى عليها ، كما قصت على الوهاية في الحجاز . وكثيراً ما ادّعت أوروبا أن الحركة السنوسية تهدد السلطنة العثمانية في ممتلكاتها قبل أن تهدد أوروبا .

وقد عدها كتابهم ، وفي مقدمتهم (دوفرير) ، المسئولة عن جميع أعمال المقاومة التي وقعت ضد فرنسا في الجزائر ، والمذبحة لجميع تكباتها في الشمال الإفريقي وفي السنغال ، وإلى السنوسية نسبت ثورة محمد عبد الله في تلمسان وصحراء الجزائر في عام ١٨٤٨ ، ١٨٦١ ، و ثورة الصادق ييجال أوراس ١٨٧٩ ، وثورات أولاد سيدى الشيخ في عام ١٨٧٩ - ١٨٨١ ، والحركات المعادية لفرنسا في عام ١٨٨٢ ، وحوادث طرابلس ضد فرنسا في عام ١٨٧٩ - ١٨٨٣ .

وعندهم أن السنوسية هي أخطر أعداء النفوذ الفرنسى في شمال إفريقيا والسنغال ، وأنها العقبة الكبرى في سبيل توسعهم الاقتصادى والسياسى داخل إفريقيا ، كما أنها العائق الأول في طريق أهدافهم في القارة الواقعة شمالى خط الاستواء .

وقد ظل هذا الخوف الدائم من السنوسية معلناً في الصحف الأوروبية منذ بدأت هذه الحركة ، وقبل أن تدخل في معارك حقيقية مع الاستعمار الإيطالى (خلال الفترة من عام ١٨٤٠ - ١٩١١ م) . وظل كتاب أوروبا الاستعماريون يحذرون من ظهور زعيم إسلامى عظيم في شمال إفريقيا ، كما كتب (الكابتن دارى) من رجال الجيش البريطانى يحذر من قيام زعيم إسلامى تتوحد تحت لوائه قبائل الطوارق وعشائر العرب والبربر ، وتنبا بأنه إذا استفحل أمره وعززت نجد قواته ، فإن العالم الإسلامى كله يصبح بدأ واحدة ، ويستطيع أن يزحف على أوروبا فيكتسحها ، وتستطيع جيوش المسلمين إذ ذاك محاصرة باريس وتدميرها .

وتقول صحيفة السعادة الفرنسية العربية (١) التي كانت تصدرها الحماية في مراكش إنك أينما طفت في مدن ليبيا من برديه حتى العقيلة وطرابلس وقراها ودساكرها وواحاتها ومضارب البدو ، وجدت اسم السنوسي محفوراً على الصخور ، أو مكتوباً على الجدران ...

والحق أن السنوسية استطاعت أن تصارع النفوذ التبشيري المسيحي العميق الجذور المؤيد بنفوذ الدول الغربية في أواسط أفريقيا وشرقها وغربها ، وأن تسيطر عليه حين حولت بحيرة تشاد مركزاً للدعوة في أواسط إفريقيا ونشرت الإسلام في وادى الباقرمي - والبوركوه وتبو ونهر ينوي إلى أن بلغوا النيجر الأدنى .

ولقد كانت حصافة مؤسس الدعوة « محمد علي السنوسي » ويقظته هي العامل الأول في نجاح هذه الدعوة وامتدادها ، بينما سقطت دعوتان معاصرتان له هما : الوهاية في قلب الجزيرة العربية ، والمهدية في السودان ، وذلك لحياذيته العجيبة ، وطبيعية « عدم التدخل » التي اتخذها بالنسبة لكل ماحوله من مضطرب الأحداث ، فهو لم يجابه خطر الجزائر إلا مرة واحدة عندما قصد إلى قابس محاولاً دخولها ، وكان الفرنسيون قد أحيطوا علماً بذلك ، فحشدوا قواتهم على الحدود التونسية الليبية ، والحدود الجزائرية الليبية ، للقبض عليه ، هنالك عاد من قابس بعد أن أنقذ إليها الأسلحة التي كانت معه مع بعض أتباعه المتكبرين ، وعاد إلى طرابلس حيث أمضى بها بعض الوقت ، ثم واصل سفره إلى برقة حيث التقت رغبات أهالي القبائل على مبايعته للعمل ، فأنشأ (الزاوية البيضاء) أول زاوية له في صحراء إفريقيا ، وكانت زاويته الأولى في الجزيرة العربية في جبل أبي قيس .

وهو لم يتدخل في عديد من الدعوات التي وجهت إليه ، ورفضها جميعاً . وكان أبرز معالم حياذيته موقفه من دولة الخلافة التي قضت على الدعوة الوهاية بنفوذ وقوات محمد علي في مصر ، وكان في الإمكان أن توجه إليه مثل هذه الحملة .

ورفض دعوة من ألمانيا لمساعدتها ضد فرنسا في إفريقيا في عام ١٨٧٢

ورفض دعوة من تركيا لمساعدتها ضد روسيا في عام ١٨٧٦

ورفض دعوة لإيطاليا لمساعدتها ضد تقدم فرنسا في تونس في عام ١٨٨١

فعل ذلك على الرغم من خصومته (١) العنيفة لفرنسا ، وعدائه العنيف لها لأنه كان حريصاً على ألا يحل النفوذ الإيطالي محل النفوذ الفرنسي .

ورفض دعوة عرابي في عام ١٨٨٢ م والمهدي السوداني من بعد في طلب الالتجاء إلى الأراضي الليبية .

ولعل هذا الموقف الصلب القائم على تخطيط دقيق قوامه الحيدة التامة هو الذي مكن السنوسية من الحياة والبقاء والامتداد خلال الثمانين عاماً ، حتى دخلت معركتها الأولى مع الاحتلال الإيطالي .

ولا شك أن « الزاوية السنوسية » كانت عملاً رائعاً في مجال الدعوة التي نبئت في الصحراء ، عند التقاء طرق القوافل ، حيث تبدو الزاوية كالواحة التي تجذب إليها السارين في الرمال ... وحيث تقوم الزاوية بجوار الآبار ، أو على الأطلال التي خلفها الرومان في الصحراء ، أو في مواضع الزراعة ، أو في المواقع الاستراتيجية ، أو على حدود مصر أو تونس أو الجزائر أو السودان .

وتضم الزاوية مسجداً ومدرسة لتحفيظ القرآن ، ومعهداً لتدريس العلوم الإسلامية ومساكن للطلاب الغرباء ، ومكتبة علمية ، وفي زاوية جغبوب مكتبة تحوى ثمانية آلاف مجلد في الفقه الإسلامي والتاريخ وتفسير القرآن الكريم والأدب وعلم الفلك (ضاعت هذه المكتبة بعد احتلال الإيطاليين لواحة جغبوب عام ١٩٢٥) .

وكانت فكرة (محمد علي السنوسي) إحاطة العالم الإسلامي كله بحزام من الزوايا ، تكون فيه ليبيا قاعدة الانبعاث والانتشار ، وجغبوب المركز السياسي الأول ؛ ولم تكن الزوايا مؤسسات علمية فحسب ، ولكنها كانت مراكز عمل ودعوة وجهاد . مراكز اقتصادية وثقافية ومعسكرات حرب ، وكانت إلى ذلك معاهد لزراعة الأشجار والرعى ، ومصانع لصناعة الأسلحة ، وفي زاوية جغبوب (جار أبواب) لأول مرة في العالم الإسلامي في العصر الحديث أنشئت أولى مصانع الأسلحة والذخائر الحديثة ، ومخازن الأدوات الحربية ، وكانت الأسلحة ترد إليه من موانئ مجهولة .

وقد تحولت هذه الزوايا جميعها عندما بدأ الغزو الإيطالي عام ١٩١١ إلى مراكز حربية للمقاومة استمرت إلى عام ١٩٣١ عندما استشهد عمر المختار .

(١) المجلة المصرية م ١ ص ٢٠٩ . مجلة المجتمع العربي م ١٩٤٧ .

علال الفاسي : الحركات الاستقلالية . روم لاندو : أزمة المغرب العربي .

امتدت الدعوة السنوسية في خلفاء (محمد ع السنوسي) وكان دورها الكبير في عام ١٨٩٥-١٩٠٢ في ابنه محمد المهدي الذي بلغت الزوايا في عهده ٣٠٠ زاوية ، وأصبحت السنوسية قوة روحية كبرى امتدت إلى إفريقيا . وقام أحمد الشريف السنوسي بدور كبير في معارك مقاومة الاحتلال الإيطالي في عام (١٩٠٢-١٩١١) حيث اعتزل وترك ميدان المعركة للأمير إدريس السنوسي ، وفي هذا المجال ظهر كثيرون من المجاهدين السياسيين والمحاربين أمثال سليمان الباروني ، وعمر المختار ، وبشير السعداوي . وقد استطاعت السنوسية إنشاء الحكومة الصالحة . فحكم السنوسيون في بلادهم وقامت إمارتهم واعترفت الدولة العثمانية بهم ، ورفعوا راية الجهاد المقدس حينما أعار الطلاب على ليبيا ١٩١١ .

ولم يقف ذلك من نشاط الدعوة ولا أهدافها في اليقظة وانتوسع والامتداد في قلب إفريقيا ومجاهلها ...

وشاركها في ذلك عدد من الطرق الصوفية التي وسعت مجال الإسلام كالتيجانية (من السودان العربي « تمبكتو » إلى شواطئ الأندلس) والشاذلية التي قاومت الفتح الفرنسي في المغرب ، والقادرية (عبد القادر الجيلاني) ، وقد قاموا بنشر الإسلام من السنغال إلى الغرب من مصب النيجر ، يفتحون الكتائب والزوايا ، ويلقنون صغار الزنوج الإسلام ، ويرسلون النجباء منهم إلى طرابلس والقيروان والأزهر ، غير أن الدعوة السنوسية ظلت مع ذلك كله (حركة) وليست طريقة صوفية بحتة ، واختلفت اختلافاً واضحاً عن الطرق التي آذرت الاستعمار الفرنسي وعاونته خانت المقاومة العنيفة التي قادها الأمير عبد القادر الجزائري ، بل كانت السنوسية - كما أوردنا - الحنجرة المصلت على الاستعمار الفرنسي والإيطالي من بعد ، وعلى كل نفوذ أجنبي .

وبالجملة فإن الدعوة السنوسية كانت أول عوامل المقاومة إزاء :

- ١ - النفوذ الفرنسي في إفريقيا .
- ٢ - التبشير المسيحي في السودان وإفريقيا .
- ٣ - العدوان الإيطالي على طرابلس وبرقة .

وهي دعوة لم تستند إلى القوة في نشر مفاهيمها ، بل اعتمدت على الإقناع والفكر والتربية ، وبث التعليم والثقافة ، وجمعت بين أساليب السلفيين في تصحيح العقائد وتحرير الأفكار ، وأساليب الصوفية في إصلاح النفس والتربية والرياضة الروحية .

وقد سبقت السنوسية دعوات اليقظة في الشرق ، وعاصرت الوهابية أولى هذه الدعوات ، واستعارت منها كل الحركات التي تلتها ، وأهمها حركة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده .

وقد مكنتها الحيلة واليقظة من الامتداد والاستمرار ، بينما سقطت الدعوات الأخرى ، ومن ثم استطاعت أن تعمل عملاً ضخماً بعيد المدى في تحرير العالم الإسلامي وتوحيده ، والدعوة إلى الإسلام في صحراء إفريقيا .

ثانيا الحركة السلفية

لم تكن يقظة العالم الإسلامي - والمغرب العربي جزء منه - إلا منبعثة من أعماقه ، ظهرت الوهابية قبل الحملة الفرنسية على مصر وظهرت السنوسية في قلب المغرب العربي إبان احتلال فرنسا للجزائر وامتدت وتعمقت ، وارتبطت في مفاهيمها بالوهابية . وامتدت دعوات الإصلاح والبعث في الشرق والمغرب لم تتوقف ، في صور متعددة ، وظهرت في تركيا حركة الاتحاديين بزعامه مدحت ، وظهر جمال الدين الأفغاني في مصر والهند ، وخلفه محمد عبده على اختلاف في الأهداف والوسائل

وكما أثار احتلال الجزائر روح العمل للإحياء والبعث الإسلامي ممثلاً في السنوسية يحمل لواءها رجل من الجزائر في أرض برقة . بدأت الحركة السلفية في تونس بقيادة الشيخ المكي بن عزوز ، من شيوخ الزيتونة السلفيين ، بعد الاحتلال بسنوات . وقد كون الشيخ ثلة من المتورين ، وحارب العلماء الذين قاوموا دعوة خير الدين ، وكان من أهم هؤلاء المتورين الشيخ الثعالبي .

زار الشيخ محمد عبده تونس في عام ١٨٨٣ وهو في طريقه إلى أوروبا عقب الثورة العرابية فعقد الروابط مع جماعة « العروة الوثقى » السرية التي أنشأها مع جمال الدين الأفغاني والتي ارتبط بها المسلمون في المشرق والمغرب جميعاً ، وكانت « العروة الوثقى » بعيدة الأثر في المغرب ؛ فعلى نخطها صدرت صحافة تؤمن بالإصلاح ، ثم كانت المنار من بعد ١٨٨٩ بعيدة الأثر في المغرب كله وكان للزيتونة أثرها الواضح في اليقظة والتعليم ، وأتيح لخير الدين - وهو في منصب الحاكم - أن يجدد مناهجها . وبنشئ المدرسة الحلدونية . التي تحمل طابع الجمع بين الدراسات العربية الإسلامية البحتة والدراسات الغربية واللغة الفرنسية ..

وفي الجزائر ظهرت الحركة السلفية متأخرة قليلاً ، غير أن ممن شاع ذكرهم في هذه الفترة محمد بن يوسف أطفيش من وادي ميزاب ، والذي عد من مجددى القرن الرابع عشر ، وتجاوزت مؤلفاته ثلثمائة مصنف ، ولد ١٢٦٣ هـ .

وفي (المغرب الأقصى - مراکش) امتدت اليقظة وأخذت طابعاً واضحاً يختلف عن الطابع السنوسي في برقة والطابع السيامي العصري في تونس ، ذلك هو الطابع السلتي الذي كان أشد تأثراً بالعروة الوثقى والمنار وأفكار الشيخ محمد عبده ، الذي زار تونس مرتين ، والجزائر مرة ، ولم تتح له زيارة المغرب الأقصى .

وكان محمد بن كنون (المتوفى ١٣٠٢ هـ - ١٨٨٤ م) على كثير من الأقوال ، مجدد القرن الثالث عشر - فهو أول من دعا إلى تحرير العقيدة في المغرب ، وعرف باستيفاء شروط العلامة المجتهد ، إلى إقدام وهمة وجراءة في الحق ، لا يخاف لوماً ، ويحضر مجلسه الولاية والأمراء ، وهو يصرح بإنكار أحوالهم وما هم عليه ، وقد كان شديداً على انحرافات الصوفية والطرق ، مندداً بالبذع المستحدثة التي شوهت الإسلام ، مهيباً لا يستطيع أحد معارضته في الحق (١) . وقد اضطهد وسجن من أجل دعوته ، غير أن أنصاره قاموا فأطلقوا سبيله ، وظل يقوم بالنهي عن المذكر والأمر بالمعروف طيلة حياته ...

ولا شك أن محمد بن كنون سبق دعوة محمد عبده وتأثر المغرب كله به ؛ فقد بدأ دعوته على الأقل قبل عشرين عاماً من وفاته أي ما يقرب من ١٨٦٢ م .

ثم جاء من بعده المولى سليمان وعبد الله السنوسي وأبو سيف الدكالي ، ثم كان بروزها الأوضح حينما حمل لواءها محمد بن العربي العلوي .

وأعتقد أن الدعوة السلفية في المغرب كانت تمثل تياراً عميقاً من تيارات اليقظة الثلاثة : التيار الذي تحمله السنوسية ، وتيار الإصلاح المدني الذي دعا إليه خير الدين في تونس ، والتيار السلتي المرتبط بالدعوة الوهابية ، والذي يقاوم الطرق الصوفية .

والحق أننا لا نستطيع أن ننسى أثر هذه الطرق في العمل من أجل اتساع رقعة الإسلام على الرغم من انحراف بعضها في مفاهيمه ، وقيام بعضها الآخر بدور الحياة لدعوة الحرية ومعارضته للاستعمار المحتل .

وإذا كان محمد بن كنون وعبد الله السنوسي (الذي تعلم في المشرق) قد سبقا صيحة محمد عبده ، فإن محمد عبده بعد زيارته لتونس في عام ١٨٨٣ قد أخذ يوثق

(١) كتاب «الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي» محمد الحجوي

صلاته بالمغرب حتى زاره مرة أخرى بعد عشرين عاماً وكان له اتصال بنخبة من المثقفين بالمغرب الأقصى ، ووقعت بينه وبين العلماء مناقشات في مسألة التوسل ، وأيده « المهدي الوزاني » في قصة الفتوى الترنسفالية ، كما جرت بينه وبين الشيخ إدريس بن عبد الهادي مراسلة بشأن بعض الكتب السلفية ، ومن أبرز من حمل لواء هذه الدعوة ، رجل وصفه العلامة عبد الله كنون بأنه (عبده المغرب) « ذلك هو الشيخ شعيب الدكالي الذي زار المشرق وعاد منه إلى المغرب الأقصى ١٣٢٥ هـ ، فالتف حوله جماعة من الشباب ، وكان قد رأى الحركات المتفشية في المشرق من سياسية واجتماعية ودينية ، فلما رجع رفع عقيرته بدعوة إصلاحية كان قوامها إيقاظ الأمة من غفلتها إلى واجباتها الدينية والدنيوية ، وقد تعرف العلماء في دعوته روح شيخهم كنون ومرتعه الذي ما حادوا عنه إلا لقصور الباع وضعف في الطباع ... (١) »

وكانت « المنار » تصل إلى كل مكان في العالم الإسلامي وقد تأثر بها المغرب كله وتكونت لها جماعات في الجزائر ووادي ميزاب ومراكش والسوس الأدنى والأعلى ..

ثم حمل لواء الدعوة « محمد بن العربي النعولي » الذي وصفه تلميذه علال الفاسي بأنه كان صاحب الفضل الأول في تكييف الدعوة السلفية التي بدأها من قبله السنوسي والدكالي .

وكان يدعو إلى التجديد الإسلامي الذي يرمى إلى بعث الإسلام الصحيح وتطهيره من خرافات الأدياء الذين ألصقوا بالدين ما هو منه براء ، وكانت صيحته أن الإسلام دين تقدمي صالح لكل زمان ومكان ، وأنه يزود صاحبه بكل عناصر المعرفة .

وتناول بحثه تطوير أحكام الشرع التي تختلف أشكالها باختلاف العصور ، وإن بقيت مقاصدها وروحها دائمة الوحدة كاماة الانسجام ، وقد لقيت الدعوة السلفية من الجامدين مقاومة كبرى ، غير أنها استطاعت أن تعمق مجراها وتنتصر ؛ فقد كانت تجمع ثلثة من الشباب حول ابن العربي . وفي الرباط مثلها حول أبي شعيب الدكالي . وغمرت صحف الجزائر وتونس والمغرب بالبحوث والدراسات فصلاً عن المصبرات والخطب ، وانضم السلفيون إلى الحركة فأصبح من دعائها .

وكان هدف « السلفية » : تطهير العقيدة وتربية الشخصية الإسلامية والعودة إلى

(١) كتاب « النعاشيب » لعبد الله كنون

روح السنة وفتح الذهن البشرى لقبول كل جديد ، وإعلان حرية العقيدة وحرية الفكر ، وقد رفضت السلفية فكرة (لادينية الدولة) وعملت على تجديد أساليب التعليم بالمدارس القرآنية ، وتجديد أساليب الدراسة في جامعة القرويين ، وأنشأت فرعاً نسائياً مستقلاً ... وقد أعطى هذه الحركة قوتها ومدادها عامل التحدى ، عندما استعان الاستعمار برجال الطرق والزوايا ، واتسع اتجاه الفرنسيين في المغرب كله إلى مقاومة الإسلام واللغة العربية ووضع المناهج الرسمية « لفرنسة المغرب عن طريق تمسيحه (١) » وصدر الظهير البربرى في (١٦ مايو ١٩٣٠) كخطوة في هذا الاتجاه .

وساعد على نجاح الدعوة مقاومة الفرنسيين لها ، فكان لها رد فعل في تحطيم نفوذ أنصار الاستعمار من رجال الطرق أمثال : عبد الحى الكتانى وعبد الرحمن الدرقاوى . ويسجل الحسن السائح رأى المفكرين الغربيين في أن الحركة السلفية هي الحركة الكبرى التى رجعت إلى الدعوة الإسلامية ، وحطمت مزاعم الاستعماريين الغربيين ، وعنده أنه لولا هذه الحركة لكان على الغرب أن يستعبد الشرق روحياً وفكرياً إلى أمد بعيد . وهذا الرأى جدير بالاعتبار ، فقد اعتمد الاستعمار على تصوير الإسلام بصورة المسلمين الذين كانوا يعيشون في العالم الإسلامى إبان احتلاله ، ووجد من بعض أصحاب الطرق عوناً له ، لذلك كانت حركة السلفية التى برزت في الحجاز ومصر وامتدت إلى المغرب الأقصى بالذات عاملاً من عوامل الدفاع عن حقيقة الإسلام وجوهره ، وكان تطهير الفكر الإسلامى وتنقيته بالعودة به إلى منابعه الأولى عاملاً من عوامل مقاومة للنفوذ الفرنسى في المغرب كله ، وكان لها رد فعل واضح عندما أعلنت فرنسا الظهير البربرى ١٩٣٠ الذى كان نقطة تحول في الليقظة الفكرية والحركة السياسية الوطنية ، فقد أولت السلفية البربر يقظة فوّت على الاستعمار دعوته إياهم ، فكشفوا خدعته وتدافعوا مع مختلف عناصرهم للدفاع عن كيّانهم كمسلمين تربطهم عقيدة وثقافة واحدة .

وقد امتدت الحركة السلفية من المغرب الأقصى إلى الجزائر ، وتمثلت في الحركة التى قادها ابن باديس في الثلاثينات ، ويرجع علال الفاسى أول ظهور للحركة السلفية بالمغرب يقول : « عندما تجاوب سليمان العاوى سلطان المغرب مع زعماء الوهاية في نجد ، وقال : إن أول شخص تصدى في قومنا لنشر دعوة كاملة للسلفية في هذا العهد هو الشيخ عبد الله السنوسى أحد علماء القرويين الذين سافروا إلى المشرق ، واتصل بأقطاب الدعوة في

(١) عبارة علال الفاسى

مصر ، والحجاز ، وقد دعا دعوته داخل جامع القرويين وتجمع حوله ثلة من الطلبة وألب عليه جماعة من العلماء ، ومن الذين تتلمذوا على الشيخ السنوسي أستاذنا الكبير محمد ابن العربي ، ومن تلاميذه في مصر « الشيخ أحمد محمد شاكر » وعنده أن ابن العربي هو إمام السلفية في مراكش ، وخير مرجع للوطنيين في آرائه وأفكاره ، قال عنه (وكان في حدود السبعين » عام (١٩٥٥) أنه درس في القرويين وتخرج على شيوخها ، وكان من مريدي الطريقة التيجانية . اشترى بندقية في أول الجهاد مع فرنسا وتوجه مع المجاهدين لمقاومة المهاجمين ، وعاد للتدريس في جامعة القرويين ، وتولى مناصب آخرها وزارة العدل ، ودروسه عامرة بالدعوة للإصلاح وهو قوى الحافظة عظيم الحجة شديد الجراءة في الحق ، له مواقف في القرويين في الدعوة إلى إصلاح الجامعة وإدخال الأنظمة الجديدة لها ، نفي إلى الصحراء عام ١٩٤٥ ورفض مبايعة لصيق العرش بعد محمد الخامس ، وأفتى بضرورة تأييد القدائين ، فنتى مرة أخرى ، وصور علال انقاسى تطور الدعوة السلفية بعد « بزوغ نجم جمال الدين » حيث أخذت صبغة جديدة تتسم بطابع الشمول لكل جوانب الفكر والروح والعمل ، وتبلورت في دعوة قوامها التجديد المطلق لكل مظاهر الحياة الإسلامية . وقد تخرج على يد جمال الدين علماء أعلام . برز منهم الشيخ محمد عبده .

وعنده أن الجانب السياسى قد طغى على المدرسة السلفية في مصر والمشرق العربى . وأن الجانب الاجتماعى والعقلى طغى على المدرسة السلفية في الهند . أما المغرب فقد تأثر بكلتا المدرستين واحتلت العروة الوثقى وكتب جمال وعبده وآثار المصلحين السلفيين مكاناً من الهند إلى مراكش « وأصبح الكل يشعر بهبة جديدة ترد من الشرق وتتفاعل مع حاجاته التى يحسها

يقول : « وأنه ، وإن لم يتيسر للشيخ محمد عبده أن يصل إلى المغرب الأقصى بعد أن زار تونس والجزائر ، وألقى فيها دروسه التى لا يزال صداها يرن في مساجد القطرين ، إلا أن المراسلة قد تمت بين المصلح المصرى وبين علماء البلاد ، فقد كتب الشيخ محمد عبده إلى الملك عبد العزيز والشريف مولاى إدريس عبد الهادى ، صاحب أكبر مكتبة خاصة يطلب إرشاده لبعض أمهات الكتب النفهية .

« وعندما قامت الضجة على الشيخ محمد عبده في قضية الفتوى الترنسفالية بدبائح أهل الكتاب ، تصدى مفتى فاس الشيخ المهدي الوزاني لذلك الأمر فألف رسالة يؤيد فيها وجهة نظر مفتى القاهرة . »

وقال علال : إن الهجوم المرنسي في عام (١٩١٢) عرّض هذه الحركة لعنف شديد ، فقد استعان الاستعمار برجال الطرق والزوايا ، وأن فرنسا عمدت إلى مقاومة الإسلام بعد الحرب الريفية (بقيادة عبد الكريم الخطابي) حيث صدر الظهير البربري (١٦ مايو ١٩٣٠) « فتقدمنا نحن جنود السلفية للقيام برد الفعل العظيم ، فأصبحت الحركة (سلفية وطنية) » ويحدد علال الفاسي أهداف الحركة السلفية في ثلاث : تطهير العقيدة ، وتجديد أساليب التعليم ، والدفاع عن الدين .

ثالثا — الحركة الإصلاحية

كان أبرز التيارات الداعية إلى اليقظة والبعث في تونس هي الحركة الإصلاحية التي امتدت منذ حمل لواءها « خير الدين التونسي » حتى الحرب العالمية الأولى . فتونس التي جاورت الحركة السنوسية في طرابلس ، والحركة السلفية في مراكش ، اختارت تياراً جديداً هو الإصلاح العصري الذي يحاول الجمع بين الدين والسياسة ويزواج بين الحضارة والإسلام ، ويفتح الطريق أمام العالم الإسلامي ، ليأخذ بأسباب القوة التي اصطنعها الغرب كوسيلة لمقاومته بها ، ويرد على التساؤلات والاستفهامات الكثيرة حول المزج بين المدنية والروحية ، وثقافة الشرق ، وحضارة الغرب .

هذا التيار الذي رسم طريقه خير الدين التونسي في مقدمة كتابه « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » إنما استعلن لأول مرة في حركة الاتحاد والترقي التي قادها « مدحت » ودعا فيها إلى تحديد سلطات الحكام والأمراء والولاة بإصدار دستور وإنشاء حكم نيابي مقتبس من الأنظمة الغربية . وكان ذلك ثمرة من ثمار الاتصال بالثقافة الأوروبية الحديثة وأفكار الثورة الفرنسية ، وقد درس خير الدين حركات تركيا في محاولة العمل على إيجاد دستور عثماني . ورأى تردد المسلمين والخلافة العثمانية أزاء الحضارة الغربية والفكر الغربي . وكان من رأيه أنها السبيل الضروري لمواجهة أوروبا والغرب ، والوسيلة المثلى لمواجهة التطور العالمي ، إيماناً منه بأن من يقف إزاء هذا الزحف فإنه سيطويه ويذهب به ، ومن الخير للمسلمين أن يفتحوا الأبواب أمام هذه الأنظمة ، وأن يأخذوا منها ما يصلحهم ، وأنه لا بد لهم من اتخاذ نظام الشورى الذي يقيد الحاكم ، ونعى على المسلمين ضعفهم ، وأرجع مصدره إلى ترك السلطات كلها في أيدي حكامها المستبدين ، وإنه لا يمكن منازلة أوروبا والوقوف أمامها إلا بمثل سلاحها ، وهو العلم وأسباب العمران . وقال : إن الذين لا يستحسنون ما تأتي به المدنية الغربية إنما ينكرون أنظمتها وعلومها بينما يتنافسون في أزياء حضارتها من الملابس والأثاث وأدوات الترف .

وقال : إن معنى ذلك هو فتح الباب للأخذ عنهم فيما لا ينفع وغلقه فيما ينفع ، وتساءل كيف نصد عن الأخذ عنهم . وتركهم يستغلون خيراتنا ومواردنا وينعمون بها

ثم نكتفى نحن بفتات موائلهم ، إنهم ما وصلوا إلى استغلالنا إلا بمعارفهم ، وإن معارفهم لم ترق إلا بالعدل والحرية .

وأعلن خطأ الذين يقولون بأن المدنية الغربية لا تناسب الأمم الإسلامية ، لموقفها الاجتماعي ، وقال : إن أوروبا عندما بدأت نهضتها كانت أسوأ حالاً منا ، وأن الأمة الإسلامية - كما يشهد المنصفون - لها من عقليتها واستعدادها وسابقة مدنياتها ما يمكنها من السير في هذا المجال إذا أذكت حررتها الكرامة ، فالحرية والطموح غريزتان في المسلمين تأصلتا فيهم بتعاليم دينهم ، وقال : إن التمسك بالدين لا يمنع من النظر فيما لدى الأمم الأخرى ، والأخذ بأحسنه ، خاصة فيما يتعلق بالمصالح الدينيّة ، فليس بالناس يعرف الحق ، ولكن بالحق يعرف الناس ... وإن الجهل هو الذي يدفع المسلمين إلى التمسك بنظمهم المعيبة ، وإن هناك قوماً يعرفون مزايا الإصلاح ، ولكنهم يقاومونه ، لأنه يسلبهم منافعهم الذاتية ، ومطامعهم الشخصية ، فيحاربونه تحت ستار ما يزعمون من أضرار ، وما يخلقون من أسباب .

ومن دعوته الأخذ بالنظام الديمقراطي الذي يقيد الحاكم ، والمجالس النيابية التي يكون الوزراء مسئولين أمامها .

وقال : إن المسلمين ليسوا متأخرين جداً ، فهناك في أوروبا من هم أكثر تأخراً ، ونعى على ما يقوم به الغربيون من وضع العراقيل في سبيل تنظيم الممالك الإسلامية لشئونها ، وإدخال وسائل الإصلاح التي تراها .

وقال : إن القادة في العالم الإسلامي هم رجال الدين ورجال السياسة ، وإلهم منقسمون غير متعاونين ولا متلاقين في وجهات النظر ، وإن رجال الدين يعلمون الشريعة ولا يعلمون الدنيا ، ويريدون أن يطبقوا أحكام الدين على النحو التقليدي بصرف النظر عما جد واستحدث ، أما رجال السياسة فهم يعرفون الدنيا ولا يعرفون الدين ، ويريدون أن يطبقوا النظم الأوروبية بحذافيرها ، وكلا الأمرين خطأ ، ولا بد من التقاء الفكرتين وامتزاجهما ، وعلى العلماء الاتصال بأمور الدنيا ومجاراتها بالاجتهاد ووضع الحلول المناسبة لكل ظرف ولكل موقف ، وعلى رجال السياسة تفهم أصول الدين واعتباره أساساً من أسس بناء المجتمع والأمة .

وقال : إن أنظمة الدين الأساسية يجب أن تراعى ، أما الأمور التي لم ينص عليها وتقتضيها مصالح الأمة فيجب أن تقاس بمقياس المنفعة والمضرة ويعمل فيها العقل .

وجملة رأيه أنه يمكن اقتباس الصالح من المدنية الحديثة ونشره في المملكة الإسلامية وفي مقدمته : الحرية بنوعيتها : الشخصية والسياسية ، ثم تأسيس القوانين ومسئولية الوزراء أمام مجلس شورى .

ولا شك أن دعوة الإصلاح التي حمل لواءها « خير الدين التونسي » وأعلنها في تونس ، وحاول تطبيقها عند ما تولى الحكم خلال سبع سنوات أتيح له خلالها أن يصدر أول دستور في العالم الإسلامي كله ، وهو قانون عقد الأمان في عام ١٨٥٧ ، وقد صدر قبل الدستور العثماني في تركيا - هذه الدعوة أمر جدير بالتقدير بالنسبة للفكر العربي الإسلامي في المغرب ، ومن أجل هذا اتصل هذا التيار وعمق ، والتقى بمثله في المشرق .

بل إن خير الدين نفسه قد اضطر تحت ضغط النفوذ الغربي أن يهجر تونس ويتولى الصدارة العظمى في الإمبراطورية العثمانية في أوائل حكم السلطان عبد الحميد ، وأن يطبق دستور مدحت لولا أنه اصطدم بجمود العثمانيين في فهم الفقه الإسلامي ، وتذبذب عبد الحميد على حد تعبير علال الفاسي

ودعوة خير الدين قد تضمنها كتابه « أقوم المسالك » الذي طبع في تونس عام ١٨٦٧ ، فأصبح بذلك علامة على هذه الحركة وذلك التيار الذي تطور من بعد وتحول واضطرب وانحرف ، ولكنه في الصورة التي عرفها خير الدين كان معتدلاً لا يبرز فيه عنصرا الصدق والإيمان بمستقبل العالم الإسلامي .

وقد تأثر خير الدين في دعوته هذه بعامل هام جداً وبعيد المدى ، وهو احتلال الفرنسيين للجزائر عام ١٨٣٠ في مطالع شبابه وقد أتيح له أن يجمع الثقافات الإسلامية الثلاث : بدراسة العلوم الشرعية واللغوية والتاريخ ، والثقافة العصرية بدراسة اللغة الفرنسية والتركية ، والثقافة العسكرية بدراسة الحروب والوقائع ومؤامرات الدول الاستعمارية وخططها . وقد أتيح له في مطالع حياته أن يترجم عدداً من هذه الكتب العسكرية من التركية والفرنسية .

ثم كان له من بعد أن يعمل في ميدان السياسة ، وشهد كيف بدأت فرنسا ، من اليوم الأول لاحتلالها الجزائر ، تبسط نفوذها في تونس وتسيطر على وسائلها الاقتصادية ، وتحول دون تنفيذ الإصلاحات التي تحقق لها الحرية والتقدم ، كما عايش تجربة الحكام المستبدين في ظل الاحتكارات وامتصاص دماء الشعب ، والتسلط ونهب أموال المواطنين

وإرهاقهم والاستبداد بهم ، وتهريب هذه الأموال إلى خارج البلاد ، وكيف اضطربت مالية البلاد وانتابتها الأخطار .

ثم أتيح له بعد صدور الدستور في عام ١٨٥٧ أن يعمل على عقد المجلس التشريعي الذي تأخر تكوينه إلى عام ١٨٦٠ ، إيماناً منه بأنه سيكون وسيلة لحماية البلاد من الاستبداد والتسلط ، وقد رأس هذا المجلس فترة قلما اصطدم بالعقبات والمناورات ودسائس القناصل ، انصرف عن العمل إلى عزلته محاولاً أن يرسم أفكاره في صورة « دعوة » تلك التي انبثقت عنها مقدمة كتابه « أقوم المسالك » . وقد أتاحت له هذه التجربة رحلاته في أوروبا وزياراته المتعددة لأقطارها وجولاته في تركيا ، واتصالاته برجال الاتحاد والترقي ومدحت . وقد أثارت أراؤه اهتماماً كبيراً في الدوائر الأوربية وترجم كتابه إلى الفرنسية بعد أقل من عام من صدوره ، في وقت كانت تحفز فرنسا لاحتلال تونس وقد قرر أن الباعث له على إعلان هذه الآراء أمران :

١- إغراء ذوى الغيرة والحزم من رجال السياسة والعلم بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة إلى تحسين حال الأمة الإسلامية ، وتنمية أسباب تمدنها بمثل توسيع دوائر العلوم والعرفان ، وتمهيد طرق الثروة من الزراعة والتجارة وسائر الصناعات ، وأساس جميع ذلك حسن الإدارة المتولد من الأمن المتولد منه الأمل ، المتولد منه إتقان العمل ، المشاهد في الممالك الأورباوية .

٢ - تحذير ذوى الغفلات من عوام المسلمين من تماديهم في الإعراض عما يحمد من سيرة الغير الموافقة لشرعنا ، لما انتقش في عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغي أن يهجر حتى يشددون النكير على من يستحسن شيئاً منها .

وهذا الإنكار على إطلاقه خطأ محض ؛ فإن الأمر إذا كان صادراً من غيرنا وكان صواباً ، فلا وجه لإنكاره وإهماله ، بل الواجب الحرص على استعماله ، وكل متمسك بدينه ، وإن كان يرى غيره ضالاً في ديانته - فذلك لا يمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن من نفسه من أعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية ، والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها .

★ ★ ★

ولا شك أن صيحة « خير الدين » كانت إرهاباً بالتطورات التي واجهها الفكر العربي الإسلامي والثقافة العربية تحت تأثير النفوذ الأجنبي ، وإحساساً بالخطر الذي كان يطوق تونس والمغرب كله ، بل والمشرق العربي أيضاً ، في فترة لا تزيد على أربعة عشر عاماً ، عندما احتلت تونس وفرضت عليها معاهدة الحماية في عام ١٨٨١ .

غير أنه لا بد من الإشارة إلى أن « خير الدين التونسي » قد التقى في مطالع حياته بعالم من الزيتونة هو (محمود قبادو) الذي عمل معه في مكتب العلوم الحربية ، والذي كان بطبيعته صوفياً من أصحاب المجاهدة ، وقد استطاع قبادو نتيجة اتصاله بأعمال تحرير الدراسات الأوربية في الفنون الحربية مع المستشرق كاليقاريس وخير الدين أن يؤكد استجابة الإسلام للنهضات والعلوم باعتباره مدار التفوق والحضارة ، وأن يقنعهم بأن العلوم كانت مزدهرة عند المسلمين إبان نهضة دولتهم ، ثم تأخروا حينما تخلوا عنها واستسلموا إلى التقليد والضعف ، واقتبست أوربا هذه العلوم عن المسلمين وسارت بها على النحو الذي كون نهضتها ، فلا سبيل للمسلمين إلا أن ينهضوا مرة أخرى ويستعيدوا بالاعتباس ما فاتهم من أمر العلوم ، وتطور الفنون الحربية والهندسية والكيميائية . ومن هنا وجد خير الدين التونسي الإجابة عن التساؤل الحائر الذي كان يعم العالم الإسلامي إذ ذاك وهو : هل من حق المسلمين اقتباس هذه الحضارة ، وهل يتعارض ذلك مع الإسلام ؟

ومن هنا انفتح الطريق أمام علماء الزيتونة إلى الاجتهاد والفكر السلفي ، ولكن الدعوة الإصلاحية كانت أقوى نفوذاً وأبعد أثراً فبرزت بصورة أشد قوة .

وقد اجتذبت الدعوة الإصلاحية مختلف الطوائف المثقفة ، وسار معها من الزيتونين الشيخ سالم أبو حاجب ومحمد بيرم ..

ومضت الدعوة إلى وجوب اللحاق بالمدينة الغربية والأخذ منها على النحو الذي دعا إليه في مصر رفاعة الطهطاوي ، وفي الهند أحمد خان ، وفي تركيا مدحت .

وأتيح في هذه المرحلة لخير الدين أن يتولى الصدارة العظمى سنوات قليلة ، وأن يغادر تونس قبل الاحتلال الفرنسي ...

وبذلك انطوى هذا الطور من الدعوة الإصلاحية .

ثم تجدد بعد الاحتلال بصورة أخرى ، غير أن قيادة خير الدين – تلميذ ابن خلدون – الفكرية ظلت حية قوية ، فقد كان أثره في إنشاء المدرسة الصادقية التي تجمع بين علوم

الإسلام والعلوم الحديثة ، وإصلاح التعليم في الزيتونة ، وإنشاء المكتبة والمطبعة والصحيفة الأولى « الرائد التونسي » عملاً كبيراً بعيد المدى ، مما انبثق عنه من بعد حركة خريجي الصادقية ؛ مزدوجي الثقافة إسلامية وغربية المسماة (الحلدونية) وعلى رأسهم « البشير صفر الموصوف بأبي النهضة الثقافية التونسية ، وقد عمق هذا الاتجاه أمور .

(أولها) : قيام جمعية العروة الوثقى التي أنشأها جمال الدين الأفغاني في الهند عام ١٨٨٢ بعد احتلال تونس ومصر ، واشترك فيها من المغرب العربي عبد القادر الجزائري قائد الثورة الجزائرية ومحمد بيرم تلميذ خير الدين ، ومحمد السنوسي محرر الرائد التونسي ؛ و هذا الأخير هو الذي سافر إلى الشرق ، واتصل بأعضائها ، وعاد إلى تونس مروجاً لدعوتها .
(ثانيها) صدور جريدة العروة الوثقى في باريس ١٨٨٤ بحرها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، وكانت تصل إلى تونس سرّاً .

(ثالثها) زيارة الشيخ محمد عبده لتونس (نوفمبر ١٨٨٤) وإقامته بها أربعين يوماً ، واتصاله برجال جامع الزيتونة والشباب المثقف وأتباع خير الدين .

وقد كان أثر ذلك هو تأكيد الاتجاه الإصلاحى الذى دعا إليه خير الدين ، والذي اختار الشيخ محمد عبده منهجاً قريباً منه بعد اختلافه في الوسائل - لا الغايات - مع جمال الدين الأفغاني واقتناعه بأن منهج المقاومة بالعنف الذي يؤيده الأفغاني لم يحقق الهدف ، ولذلك فإن منهج الإصلاح الدينى والاجتماعى هو في الأغلب محقق النتائج . وكان خريجو الصادقية - التي أنشأها خير الدين - وهم مزدوجو الثقافة (إسلامية وغربية) على هذا الرأى .

وقد برزوا في المناصب بعد الاحتلال ، حيث أراد النفوذ الأجنبي كسبهم إلى صفه ، ومنهم من سافر إلى باريس وتلقى تعليمه هناك ، وبرز منهم محمد البشير صفر - الذي كان على حد تعبير الفاضل بن عاشور - متين التعلق بخيرائدين متناهي الإعجاب بمواقفه ، بليغ الاعتناء بتوجيهاته ، قوى التعصب لمبادئه .

ولقد كان النفوذ الفرنسى قوى الوطأة على هذه الطائفة ، محاولاً أن يدفعها إلى طريق التغريب ، مغرياً لها بأن المستقبل للغرب وثقافته ، وأن الاتجاه العربى الإسلامى في الثقافة إلى زوال ... لولا حكمة البشير صفر ، الحذر المتمسك بأعجاد العروبة والإسلام .

وقد اتجه هذا الترابط حول الهدف إلى قيام « الحلدونية » هيئة للعمل على بث العلوم

العصرية باللغة العربية ، وقد جمعت الهيئة بين خريجي الزيتونة وخريجي الصادقية ، وكان
ترابطها حول أهداف الإصلاح الذي دعا إليه خير الدين .
ومن ثمرة هذه النهضة أن ظهر رجال كثيرون آثروا الفكر العربي ، في مقدمتهم
عبد العزيز الثعالبي ، ومحمد بن الحوجة ، ومحمد الخضر حسين .
كما ظهر زعماء قادوا الحركة السياسية والوطنية في مقدمتهم علي باش حانبه .

رابعاً — جمعية العلماء

كانت الجزائر بؤرة اليقظة في المغرب العربي كله ، وكان احتلالها علامة على حركة المقاومة الواسعة في الفكر والثقافة ، ونقطة البدء في مطالع التحدي ورد الفعل بين الإسلام والعروبة من ناحية ، وبين مؤامرات النفوذ الغربي في صورها المتعددة من ناحية أخرى .

فقد كانت الجزائر هي أول أقطار العالم العربي والمغرب احتلالاً ، وجاءت وضعيتها في الاحتلال على أقسى ألوانه ، تمثلت في الاتجاه إلى إدماجها إدماجاً نهائياً ، واعتبارها جزءاً من فرنسا ، أو فرنسا الجنوبية ، كما كانوا يطلقون عليها ، وتضمن الدستور الفرنسي نصوصاً مبكرة تعتبرها مقاطعة من الجمهورية الفرنسية تمثل في البرلمان الفرنسي . وقد قاومت الجزائر بقوة السلاح طويلاً ، ولم تستسلم قط ، ثم جاءت جمعية العلماء على رأس المائة عام من الاحتلال علامة على الثبات في المقاومة والإصرار على طابع الجزائر الإسلامي العربي الذي لا سبيل إلى محوه ، أو القضاء عليه .

ولا شك في أن حركة عبد الحميد بن باديس كانت أكبر علامة على « التحدي ورد الفعل » فقد حاولت فرنسا ١٩٣٠ أن تحتفل بمرور مائة عام على احتلال الجزائر أي على « تغريب الجزائر » وبلوغها الغاية في الإدماج والفرنسة ، ولكن حركة جمعية العلماء محت هذا المعنى محواً تاماً ، وأكدت بقاء الجزائر عربية مسلمة ، وظلت عبارة ابن باديس النارية تدوى وتصنع الأجيال . « إن الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا ، ولا يمكن أن تكون فرنسا ، ولا تريد أن تصبح فرنسا ، ولا تستطيع أن تصبح فرنسا ولو أرادت ، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها ، وفي أخلاقها وعنصرها ، وفي دينها ، لا تريد أن تندمج ، ولها وطن محدود معين ، هو الوطن الجزائري »

« إن هذه الأمة كانت قبل الاستعمار ذات مقومات من دينها ولسانها ، وذات مقومات من ماضيها وحاضرها ، كانت أرق عقلاً وأسمى روحاً ، وأوفر علماً وأعلى فكراً من أمم البلقان لذلك العهد ، ولو سارت سيرها الطبيعي ، ولم يعترضها الاستعمار بعوائقه وبوائقه لأنجبت المعلم الذي يملئ الحكمة ، لا المعلم الذي يمالئ الحكومة . إننا أمة علم ودين ، لم ينقطع سنداننا فيهما إلى آبائنا الأولين ، فلو أن المعلم الذي

جاءتنا به فرنسا علم ناصحاً وربى مخلصاً ، وثقف مستقلاً ، ولم يقيد الاستعمار ببرامجه
لظهرت آثاره الطيبة في الأمة (١) .

« إننا نريد (٢) نهضة شعبية قوية ، تجلي شخصية الشعب الجزائري ، وتكشف
مجد الماضي ، بما ينير له طريق الحياة من جديد ، لا أقوالاً مكررة عن سياسة انتخابية
يديرها الاستعمار ، إدارة تزيد في تمكينه من غير أن يشعر بذلك أحد ممن راضهم عليها
وسخرهم لخدمتها . ونريد انقلاباً جزائرياً يتركز على إعداد نشء صالح تمثل فيه
عنصرية الحدود ، فينهض نهضة إسلامية عربية تأخذ من عظمة الماضي وبقطة الحاضر
ما يعصمها من الزلل والانحراف ، وهي تسير في طريق المستقبل باسم » ..

هذه هي ملامح الدعوة التي حمل لواءها « عبد الحميد بن باديس » ، وجاهدت
من أجلها جمعية العلماء منذ برزت إلى الوجود في نفس اللحظات التي قام فيها الاستعمار
الفرنسي بالاحتفال بمرور مائة سنة على فرسة الجزائر ، وحين دعا الدعاة إلى أنه
لا وجود لشخصية الجزائر وأن الجزائريين ليسوا إلا فرنسيين مسلمين .

وكانت الأحزاب السياسية تذهب شمالاً وجنوباً مع أهواء السياسة ، حتى ظهرت
جمعية العلماء ، فركزت دعائم المقاومة الفكرية الإسلامية العربية الجزائرية على قواعد واضحة
ورسمت لها طريقاً صريحاً هو الحفاظ على اللغة العربية والإسلام والشخصية الجزائرية
والتراب الجزائري ، بعيداً عن مداورات السياسة ومناورات الأحزاب ، يقول
ابن باديس : « قمنا (٣) بالدعوة إلى ما كان عليه السلف الصالح من التمسك بالقرآن
الشريف ، والصحيح من السنة الشريفة ، عرف القائمون بتلك الدعوة ما يلاقونه من
مصاعب ، وأقحم في طريقهم من وضع الدين شيوا على ما وجدوا عليه آباءهم من خلق
التساهل في الزيادات والذبول التي ألصقها بالدين المغرضون وأعداء الإسلام »

وعنده أنه إنما أقدم على ذلك محافظة على جوهر الإسلام ، ورغبة في انتشال الشباب
المتقف بالثقافة الجديدة من وهدة الشك في كل شيء يعزى إلى الدين بسبب ما يجده من
خرافات وسخافات لا يمكن للعقل أن يصدقها ، وأن يعزوها إلى دين اشتهر بانصاله
بالعقل اتصالاً وثيقاً ، بحيث لا يقبل من تعاليمه ما لا يقبله العقل . وقد رأى أن الإقدام
على انتشال هذه الطبقة من الشباب من آكد الواجبات في مثل هذه الظروف التي طغى

(١) و(٢) خطابات ابن باديس « ابريل ٢٦ الشهاب » ٢٥ أكتوبر ١٩٢٧ و ١٤ يوليو

١٩٢٩ الرابطة العربية والشهاب « ابريل ١٩٢٦ » .

فيها تيار المادة على كل شيء لا سيما وقد أوشك الإلحاد والمروق من الدين أن يغزو هذه الطبقة التي هي عدتنا في المجتمع الجزائري الإسلامي، وقد شجعها على ذلك ما تقرؤه وتطلع عليه من سخافات الطقوس المسيحية وغيرها... مما أبلجها إلى المروق والزراية بكل ما يعزى إلى الدين.

وقد تدرج دعاة الإصلاح بتلك القوة المعنوية التي جردوها من تعاليم الإسلام الصحيحة، فما عتموا أن خلقوا جواً صالحاً لدعوة تلك الطبقة الماربة المتبرمة إلى ما يتفق ومنتجات العلم والعقل إلى دين هو طليعة الأديان من جهة أنه دين صالح للرقى من كل ناحية يتلاءم وقوانين الاجتماع البشري. وبذلك بدا أن الثقافة الجديدة لا تتنافى مع الإسلام..»

ولم يقف ابن باديس عند النثر، بل حمل الشرلواء دعوته. ومن أبرز شعره هذه القصيدة التي كانت حذاء الركب الصاعد، ونشيد الطلائع الزاحفة:

شعب الجزائر مسلم	وإلى العروبة يتسب
من قال حاد عن أصله (١)	أو قال مات فقد كذب
يا نشء أنت رجائنا	وبك الصباح قد اقرب
خذ للحياة سلاحها	وخض الخطوب ولا تهب
وارفع منار العدل والإحـ	سان واصدم من غضب
يا قوم هذا نشؤكم	وإلى المعالي قد وثب
كونوا له يكن لكم	وإلى الأمام ابننا وأب
واذق نفوس الظالم	بن السم يمزج بالرهـ
واقلع جذور الخائـ	بن فمنهم كل العطب
واهز ز نفوس الحامديـ	ن فربما حي الخشب
نحن الألى عسرف الزمـ	ن قديمنا الجـم الحسب
ومعين ذاك المجـ	د في نسل العروبة ما نضب
من كان يبغى ودنـ	فعلى الكرامة والسرحب
أو كان يبغى ذلـ	فله المهانة والخسـرب

(١) توصل هنا همزة الوصل ولا تقطع، حتى لا يتكرر الوزن

هذا نظام حياتنا
حتى يعود لشعبنا
هذا لكم عهدى به
فإذا هلكت فصيحى
بالنور خط وباللهب
من مجده ما قد ذهب
حتى أوسد فى التراب
نحى الجزائر والعرب

تلك دعوة عبد الحميد بن باديس على رأس المائة من احتلال الجزائر عنوانها التحدى الصارم من أجل بقاء الجزائر عربية مسلمة ليس بالقول والخطب والكتابة والصحافة ، وكلها كانت أدواته ، ولكن بالعمل الإيجابى الواسع الآفاق ، العميق العريض ، فقد أنشأت جمعية العلماء ثلاثمائة مدرسة فى المساجد ، تعلم اللغة العربية والقرآن والإسلام ، فإذا قلنا اليوم إن ما بقى لهذا اللسان من لغة الضاد فى الجزائر فإنما كان كله من عمل هذه النهضة بعد أن ألغت فرنسا اللغة العربية من جميع مدارس الجزائر الرسمية إلغاء شاملاً ، ونشأ فعلاً جيل لا يعرف اللغة العربية ولا يتكلمها ، فقد حق القول وصدق .

وهو عمل تم فى ظل الاحتلال الفرنسى للجزائر ، التى لم تكن قطراً محتلاً أو موضوعة عليه الحماية كتونس أو المغرب ، وإنما هو قطر أصرت فرنسا أن تعتبره جزءاً من جمهوريتها وإقليماً من أقاليمها .

وقد بدأت جمعية العلماء الجزائريين فوضعت خطة لنشر التعليم العربى الإسلامى الخالص على مرحلتين فى المدن والقرى ، كانت المرحلة الأولى هى تلك المدارس التى كان يعدها الاستعمار غربية وهى فى وطنها ، ويعاملها بمعاملة الثقافات الأجنبية الخطرة ذات المبادئ الهدامة التى تغلقها الإدارة متى شاءت من غير محاكمة ، وتطرد مدرسيها على حد تعبير جريدة البصائر .

والمرحلة الثانية بدأت عام ١٩٤٧ بإنشاء معهد علمى يجمع أبناء الأمة الذين كانوا يشدون الرحال لتلقى العلم فى القرويين (فاس) أو الزيتونة (تونس) .

وقد قاومت فرنسا حركة ابن باديس وجمعية العلماء ، ولكن المجاهد العنيد لم يتوقف .. من رام أن يحول بيتنا وبين فكرتنا التى تؤمن بها ويؤمن بها المؤمنون الصادقون ، فقد حاول عبثاً قلب الحقائق . ونحن لذلك لا نترشح عن تلك الفكرة قيد شعرة ،

مهما طمى سيل الكوارث على أمة ، لما للشعب الجزائري من الصفات المرغوب فيها ،
الكامنة كمن النار في الكهرباء .

« إن هذا العبد - يقصد نفسه - له فكرة معروفة ، وهو لن يحيد عنها ، ولكنه
- وهنا محل الشاهد - يبلغها بالتي هي أحسن ، فمن قبلها فهو أخ في الله ، ومن ردها
فهو أخ في الله ، فالأخوة في الله فوق ما يقبل وما يرد .

« والاستعمار ما مكن لنفسه في بلاد الإسلام إلا بقوة المسلمين ، فلو أنهم قطعوا
عنه قوتهم لانكمش ، وانقلب إلى أهله مذموماً مدحوراً .

« أنا (١) أحارب الاستعمار لأنني أعلم وأهذب ، ومتى انتشر التعليم والتهذيب
في أرض أجذبت على الاستعمار ، وشعر في النهاية بسوء المصير .. »

وهنا تبدو مفاهيم عبد الحميد بن باديس واضحة . إنها مقاومة الاستعمار الفرنسي
بالتعليم ، وهي الدعوة التي حمل لواءها الشيخ محمد عبده قبل نهاية القرن التاسع عشر ،
وأذاعها في تونس والجزائر خلال زيارته الثانية عام ١٩٠٣ . فقد آمن ابن باديس بأن
العمل الأول والأعظم في مقاومة الاستعمار الفرنسي في الجزائر هو حماية اللغة العربية ،
لغة القرآن ، وذلك بإذاعتها ، ونشر التعليم كوسيلة كبرى لمقاومة الاستعمار الذي يعيش
على الجهل ، وكانت دعوته مستنيرة مستبصرة قائمة على أساس السلفية الواضحة النقية ،
قوامها العودة بالإسلام إلى منابعه الأولى ، ومقاومة الخرافات والزيوف ، ومحاربة الفرق
الضالة التي عاونت المستعمر ، وكان مؤمناً بأن الإسلام لا يقاوم الحضارة ، ولا يعارض
التطور ، ولا يقف أمام تيار النهضة والعلم والكشف والاختراع ، بل إنه يحث عليها ،
وينهض بها .

ولذلك فقد عمل على إحياء اللغة العربية ، وتقوية الشعور بالشخصية الجزائرية « إننا
نرى أن الأمة الجزائرية موجودة ومتكونة على مثال ما تكونت به سائر أمم الأرض ،
وهي لا تزال حية ، وهذه الأمة تاريخها اللامع ووحدتها الدينية واللغوية ، ولها ثقافتها
وتقاليدها الحسنة والقييمة ، كمثل سائر أمم الأرض » .

وهو يؤمن بالتراب الجزائري ، والجزائر جزء من الأمة العربية « إن لنا وراء هذا

(١) خطابات ابن باديس ٢٥ أكتوبر ١٩٢٧ و ١٤ يوليو ١٩٢٩

الوطن الخاص أوطاناً أخرى عزيزة علينا ، هي دائماً منا على بال ، ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص نعتقد أنه لا بد أن نكون قد خدمناها وأوصلنا إليها النفع عن طريق خدمتنا لوطننا الخاص ... »

وعلى هذا النحو مضى ابن باديس يعمل في الاتجاهين بالعرض والعمق جميعاً ، فهو الخطيب الذي يهز المشاعر والأرواح ، وبسيطر على الجموع ، وهو الكاتب الدقيق العبارة ، النقي الأسلوب ، الواضح العكرة . وهو الصحفي والمدرس والمحدث والرحالة . وهو الذي يشق المدارس والمعاهد في طول البلاد وعرضها ، ثم هو الذي يمضي يومه كاملاً في حلقة الدرس ، يفتح الدروس بعد صلاة الصبح حتى ساعة الزوال بعد الظهر ، ومن بعد المغرب إلى صلاة العشاء ، فإذا خرج من المعهد ذهب رأساً إلى إدارة جريدته « الشهاب » يكتب ويحرر ويراسل البصائر ، ويجيب عن الرسائل فيففي موهناً من الليل ، حتى إذا نودي لصلاة الصبح كان في الصف الأول .

لم تصرفه الصحافة عن التدريس ، وما من نظرية ظهرت في التربية والتعليم أو كتوف العلم والتفكر إلا استوعبها . وأبدى رأيه فيها . وما من صحيفة ظهرت في المشرق أو المغرب إلا نظر فيها واستخلص منها ما ينفع بني جنسه ووطنه ودعوته . وهو الذي انتظن اغامهم لتيارات ساسة المغرب في الشرق ، وما تحمل في أطوائها من زاوية دعوته ، ومن زاوية أمر العرب والمسلمين . ذلك إلى خبرة عميقة بالسياسة الاستعمارية في الجزائر يتعقب أخطاءها عن علم وبصيرة . ويغند مزاعم المستعمرين ما اتصل منها بالإسلام أو باللغة العربية ، أو بتفوق العنصر الأوربي على العربي الإسلامي .

وقد دل صدق الدعوة وعمق الفكر على استمرارها وحياتها . فهي وإن اتصلت بدعوات الفكر العربي الإسلامي في العالم الإسلامي كله . مرتبطة بالسلفية والإصلاح ، وإذا كان لها طابعها المختلف عن السنوسية في ليبيا والسلفية في المغرب ، فهي مرتبطة في معالمها العامة مع دعوة الشيخ محمد عبده والمناار . إلا أنها تمثل الحاجة الروحية والتفكيرية للجزائر ، وتملاً الفراغ الذي يتمثل في الجزائر بصورة واضحة كرد فعل وإجابة على التحدي الذي أراده النفوذ الثقافي الغربي في الجزائر . محاولاً إحياء الشخصية الجزائرية بصفة خاصة . واللغة العربية والإسلام بصفة عامة . ويمكن القول انه بهذه الدعوة قد حقق استعلان الجزائرية الشخصية العربية الإسلامية واضحة .

« إنا (١) بالأمس حين لم نلتفت هذه اللفتة إلى ماضينا وقوتنا السماوية ما كنا نرهب أحداً ولا نستطيع أن نشعر بوجودنا أحداً ، أما اليوم فبهذه اللفتة القصيرة إلى تراثنا المجيد فقد استطعنا أن نعلن عن وجودنا ونخيف بعد أن كنا نخاف .. »

وقد ربط بعض الباحثين ، وفي مقدمتهم (٢) « ماسنيون » بين جمعية العلماء وحزب السلفيين المتشددتين الذين يترعون نزعاً نصف وهابية ، واعتبرها شعبة من الحركة التي كانت تمثلها في القاهرة مجلة المنار ، كما ربط بينها وبين الحركة السلفية في المغرب التي نشأت عنها الأحزاب الوطنية هناك ، وقال : إن برنامجها ينطوي على الرجوع إلى تعاليم القرآن « التي لم يتطرق إليها الفساد » .

ومما يذكر أن الجماعة في أيامها الأولى كانت جماعة صغيرة (٣) لم ينضم إليها إلا القليلون . وأنها لذلك لم تجد من السلطات الفرنسية الحاكمة مقاومة تذكر ، « لأن العلماء السلفيين فيها أقلية غمرتهم كثرة جارفة من الطرفين : والعلماء التابعين للحكومة ، فظنت — أي السلطات — أنها بالفتنة الكثيرة تقضي على الفتنة الصغيرة ، وقد حاولت فعلاً — كما ذكر حمزة بوكوشة في بحث له بالبصائر — قلب نظامها ، غير أن الفتنة القليلة استطاعت أن تثبت وتقاوم ، هناك رأت الحكومة أن تنشئ جمعيات تحت أسماء مختلفة لمحاربة جمعية العلماء ، فكان نصيبها الإخفاق ، وثبتت جمعية العلماء على نشر العربية بالمدن والقرى ، وتعريب ما غربه الغرب من المعالم والآثار ، حتى ضاق دعاة التبشير والاستشراق ذرعاً بها ، لأنها أحبطت بعض ما صنعوا .

ويقول حمزة بوكوشة بعد مرور عشرين عاماً على إنشاء الهيئة « إن لها في عتق كل هيئة وطنية في الجزائر منة وديناً سواء أكانت سياسية أم اجتماعية أم اقتصادية . »

ويستطيع أن يقدر مدى عمل جماعة كبار العلماء من يراجع كتابات الفرنسيين قبل عام ١٩٣١ (تاريخ إنشاء الهيئة) حين أعلنوا : (٤) « لقد أذللتنا الدين الإسلامي ، وبلغ الأمر ألا يعين فقيه أو إمام إلا إذا شارك في أعمال الجاسوسية الفرنسية ، ثم عليه كي يرتقى في الدرجة أن يثبت قدراً كبيراً من الحماس والإخلاص للإدارة »

(١) خطب ابن باديس — الشهاب م ١٩٢٩

(٢) الحركات الاستقلالية في المغرب « لعل الفاسي »

(٣) ، (٤) الحركات الاستقلالية في المغرب العربي « لعل الفاسي » .

هذا بالإضافة إلى سياسة التنصير التي رسمت وتفذت وفتحت الباب للبعثات التبشيرية .

وكان عبد الحميد بن باديس قد عاد ١٩١٣ من المشرق ، بعد أن تعرف على الحركة السلفية والفكرية في العالم العربي (الحجاز ومصر) وقد عزم على القيام بالعمل الكبير الذي وهب نفسه له ، فبدأ يخطب في جامع قسنطينة الأعظم ، يعلم ويربّي ويوجه ، فلما منع من التدريس لم يلق السلاح ، وانتقل إلى الجامع الأخضر وعرفت دروسه هناك بالدروس العلمية ، كما عرف بكلماته في مسجد سيدي قموش ..

هنالك كان يلتقي محاضراته بعد الفجر ، ولا ينتهي إلا بعد صلاة العشاء ، يلتقي فيما بينها من (٩-١٢) درساً بين الخاص والعام ..

والتف حوله البشير الإبراهيمي ، والعربي التبسي ومبارك الميلي وأحمد توفيق المدني والطيب العقبي . وظل كذلك حتى بدأ عام ١٩٢٤ يعلن عن مشروعه ، غير أنه لم يتمكن من إبرازه ، وإن أخذ يسرى في الأوساط الشعبية والأدبية ، وتبلورت الفكرة وانتظرت لحظة البزوغ ، وقد كانت في ظل احتفالات فرنسا في عام ١٩٣٠ م بمرور مائة عام على احتلال الجزائر ، وكان الفرنسيون اهتموا بهذه المناسبة ، وحشدوا لها وسائل كثيرة لإقناع الشعب الجزائري بأنه لم يعد إلا جزءاً من شعب فرنسا، وأنه انتهى كشعب عربي وانتهى أهله كسلمين ، وأن اللغة العربية انتهت ، وأن الشخصية الجزائرية انمحت فلا وجود لها .. وأعلنوا على لسان الكردينال لافيغري حينما زار الجزائر أن الجزائر صارت مسيحية وأن لغتها الوطنية هي الفرنسية .

هنالك انتفضت الفكرة وأخذت طريقها إلى مجال الحركة ، ومضى الأمر هيناً أول الأمر ، ثم تعمق وبدأت الحرب تعنف . وسبق ابن باديس مرات للمحاكمة ، ومضى الصراع بين جمعية العلماء والاستعمار الفرنسي ومبشره وبعض الزوايا والطرقين ، واستخدم الاستعمار مختلف أساليب الحياة . وحرص العلويين والشاذليين والقادرين على جمعية العلماء ، ودبرت محاولة لاغتيال ابن باديس نفسه ، وتعهد بتنفيذ المؤامرة اتباع العلويين لولا يقظة أعضاء الجمعية .

وعندما سافر ابن باديس إلى فرنسا مع اللجنة الوطنية عام ١٩٣٦ لتنفيذ مرسوم ١٩٠٧ القاضي بفصل الدين عن الدولة . والذي طبق على الأديان الأخرى ما عدا الإسلام .. انبرى له دلافيه . رئيس وزراء فرنسا وقال له : إن لدى فرنسا مدافع

طويلة ، فرد ابن باديس بقوة قائلاً : إن لدينا مدافع أطول ، فدهش ديلاديه وقال له ما هي هذه المدافع قال ؟ : إنها مدافع الله ...

وبرز عمل جمعية العلماء كاشفاً على أن للجزائر ثقافة مميزة هي الثقافة العربية الإسلامية ، وبالتالي فإن الجزائر ترتبط روحياً وتاريخياً بالعالم العربي ، وأن للجزائر تاريخاً قوياً وأن ذلك يتضح خلال الحقبة التي ظهرت فيها الجزائر (القرن ١٦ إلى القرن ١٨ م) كقوة بحرية هائلة في البحر المتوسط ، هذه الحقبة التي يسميها المؤرخون القوميون عصر الجمهورية الجزائرية المستقلة . حتى يثبتوا صفتها الدولية قبل الاحتلال الفرنسي .

وقال ابن باديس - قبل أن يموت في ١٦ أبريل ١٩٤٠ - حكمته الخالدة :
« إن الأمة الجزائرية لن تزال حية ما حافظت على دينها ولغتها ... »

ومضت جمعية العلماء في طريقها حيث ولى أمرها « البشير الإبراهيمي » أخلص زملاء ابن باديس ، فحققت نتائج باهرة ، فأصبح لها حتى ١٩٥٣ ثلثمائة مدرسة - ٧٠٠ مدرس - ٧٠ ألف تلميذ وتلميذة .

وفي عام ١٩٥٢ أجرت جمعية العلماء أول امتحان لنيل الشهادة الابتدائية العربية ، ومن قبل ذلك أنشأت أول معهد للتعليم الثانوي باسم معهد ابن باديس (١٩٤٧) بلغ ما ضمه عام ١٩٥٣ ألف وخمسمائة طالب ، وقد احتل زملاء ابن باديس وأعوانه المتاعب والمشاق ، ولطالما أغلقت معاهدهم ومدارسهم ، وسيقوا للمحاكمات والسجون .
والمنافى ...

خامسا - الطرق الصوفية

لعبت الطرق الصوفية في المغرب العربي دوراً هاماً وخطيراً . هذا الدور له اتجاهان :

١ - اتجاه إيجابي ضخم بعيد المدى في نشر الإسلام في القارة الإفريقية على نحو أذهل المستعمرين وأقضى مضاجعهم .

٢ - اتجاه سلبي أو مضاد في الالتقاء بالاستعمار الفرنسي وتأنيده والتأثير على العامة للإذعان له .

ولاشك أن الحركات الفكرية في المغرب كان مبعثها إسلامياً ، وأن الدعوة السنوسية هي في أساليبها تعد من الطرق الصوفية وإن كانت في مفاهيمها ومنهجها تستقي من مفاهيم الإسلام الأساسية ؛ وتدعو إلى تنقية الإسلام من البدع ومقاومة الغاصب ، ومناهضة النفوذ الأجنبي .

ويمكن القول بأنها الطريقة الصوفية الأولى والكبرى في الشمال الإفريقي وأنها ذات الأثر الضخم الواضح في نشر الإسلام .

وقد سار معها في هذا الاتجاه : القادرية التيجانية (ولا نعرض هنا للمهدية في السودان حتى لا نخرج عن نطاق البحث)

فالتيجانية نشأت في الجزائر (فاس) حول نهاية القرن الثامن عشر (١٧٨٢) ثم امتدت إلى السودان وقلب إفريقيا . وكانت ذا مدارس عديدة تعمل على نشر العقيدة ، وقد اتخذت أساليب القوة في مقاومة خصومها ونشر العقيدة الإسلامية .

أما القادرية التي كانت أوسع نطاقاً في المغرب فإنها لم تنشأ أصلاً بها ، ولكنها انبعثت من بغداد ودخلت وسط إفريقيا في القرن الخامس عشر ، ثم انتقلت حثيثاً إلى الشمال الإفريقي فأنشأت زاويتها الكبرى في (مزارات) أسسها الشيخ غنثار الكبير وانقسمت بعد وفاته .

وكانت تنوم أساساً على الفقه والعلم والدعوة القوية ، ويرسل أتباعها أولاً بأول

إلى مدارس القيروان وطرابلس وإلى الزيتونة في تونس وإلى الأزهر في القاهرة فإذا عادوا إلى بلادهم استطاعوا نشر العقيدة مزودين بالوسائل .

ويرى شكيب أرسلان أن القادرية هم أحسن مبشرى الإسلام من إفريقية إلى السنغال إلى بنين قرب مصب النيجر ، ينشرون الإسلام بطريقة الاستعمار والتجارة والتعليم .

والشاذلية من أوليات الطرق التي أدخلت التصوف إلى المغرب ومركزها بوبريت في مراكش ، ومن أبرز دعاة (العربي الدرقاوي المتوفى ١٨٢٣) وقد أوجد عند مريدبه حماسة شديدة امتدت إلى المغرب الأوسط وكان للدرقاوية دور فعال في مقاومة الغزو الفرنسي .

وعلى الحملة فقد كانت هذه الطرق مراكز وجماعات للدعوة الإسلامية ، فقد أخرجت عشرات من الدعاة الفاقهين الفاهمين الذين انبثوا في إفريقية ، وكان لها دورها الواضح في نشر الدعوة ومواجهة جماعات التبشير المسيحية ومقاومتها ، وكان دورها البالغ في مقاومة النفوذ الفرنسي والإيطالي والإسباني المتسلط على المغرب العربي كله منذ عام (١٨٣٠ في الجزائر ، وعام ١٨٨١ في تونس ، وعام ١٩١١ في طرابلس ، وعام ١٩١٢ في المغرب الأقصى) .

وقد صور أحمد توفيق المدني في كتابه (تاريخ الجزائر) دور هذه الطرق في هذه المرحلة فقال : إنها استطاعت أن تحفظ الإسلام في هذه البلاد في عصور الجهل والظلمات ، وعمل رجالها الكاملون الأولون على تأسيس الزوايا (الرباطات) يرجعون فيها الضالين إلى سواء السبيل ، ويقومون بتعليم الناشئة ، وبث العلم في صدور الرجال ، ولولا تلك الجهود التي بذلوها لما كنا نجد الساعة في بلادنا أثراً للعربية ولا لعلوم الدين ، فالزوايا الكبرى هي التي كونت دائماً في هذه البلاد طبقة فاضلة من العلماء والفقهاء وحفظة القرآن الشريف ، وكانت وساطة فعلية في نقل الإسلام إلى بلاد أقاصي الجنوب والسودان .

غير أن بعض هذه الطرق كان لها دور خطير في مؤازرة الاستعمار ، وأبرز هذه المواقف موقف « التيجانية » من تأييد الاستعمار الفرنسي ، ومقاومة الأمير عبد القادر الجزائري في كفاحه ضد فرنسا خلال المعركة الطويلة التي استمرت سبعة عشر عاماً .

وأما نصوص كثيرة عن موقف التيجانية من الأمير عبد القادر الجزائري أهمها ما جاء في كتاب محمد عزيز (حقائق عن المتاعب الجزائرية) .

فقد تناول في فصول متعددة دور مشايخ الطرق في مقاومة الأمير عبد القادر ، وكيف انبثروا في البلاد يشبطون المهمل بالنسبة للمقاومة ، ويطالبون الشعب بالانتظار والهدوء حتى تصل السفن الفرنسية ، وقد قربت حكومة الجزائر بعض هؤلاء ، واتخذت منهم أصدقاء بالإضافة إلى المكافآت والنياشين . وكما رفضت الحكومة الفرنسية مطالب وفود الشعب الجزائرية ونوابه ، محاجة إياهم بعرائض مذيلة بإمضاءات المشايخ ، ومن جعلتهم الوفد الذي كان يرأسه الدكتور ابن جلول ، والذي سافر إلى باريس عام ١٩٢٢ ؛ وأشار محمد عزيز إلى ما ذكره الحاكم الفرنسي في هذا المجال من أن الحكومة الفرنسية تعظم زاوية من زوايا الطرق أكثر من تعظيمها لشككتة جنودها وقوادها وأن الذي يحارب الطرق إنما يحارب فرنسا .

وقد سجلت مجلة الفتح (م ٦) قصة صاحب السجادة الكبرى الذي ألقى خطبة الإخلاص (١٣٥٠هـ - ١٩٣١م) وهو سيدى محمد الكبير رئيس الطريقة التيجانية بين يدى الكولونيل سيكوفى الفرنسى وصف فيها فرنسا المستعمرة بأنها أم الوطن الكبرى ، وقال : إن من الواجب علينا إعانة حيية قلوبنا فرنسا مادياً وأدبياً وسياسياً ، وقال : إن أجدادى قد أحسنوا صنعا في انضمامهم إلى فرنسا قبل أن تصل إلى بلادنا ، ففي عام ١٨٣٨م كان أحد أجدادى قد أظهر شجاعة نادرة في مقاومة أكبر عدو لفرنسا (عبد القادر الجزائرى) وفي عام ١٨٧٠م حمل سيدى أحمد تشكرات الجزائريين ، وبرهن على ارتباطه بفرنسا قلبياً ، فتزوج من (أوريلي بيكار) وبفضلها تحولت منطقة (كوردان) من أرض صحراوية إلى قصر منيف رائع ، وهو أول مسلم جزائرى تزوج بأجنبية ، وقد أصدرت كتاباً أسمته (أميرة الرمان) تعنى نفسها ملأته بالمثالب والمطاعن على الزاوية التيجانية ، وذكرت أن سيدى أحمد تزوجها على يد الكردينال لافيجرى على حسب الطقوس ، المسيحية ... الخ .

وموقف آخر واضح الدلالة في مراکش وهو تأييد عبد الحى الكتانى للاستعمار الفرنسى ، مما دعا رجال الحركة السلفية إلى الدعوة لمقاومته بعنف ، وقد قاومه أبو شعيب اندكالى ، ومحمد بن العربى ، وأصدر المولى عبد الحفيظ رسالة في الرد على التيجانية ، كما أمر بإقفال زاوية الكتانيين بعد أن انكشف أمرهم في تأمرهم على الدولة وعلى البلاد . وبدا هذا الموقف أيضاً في خيانة بعض مشايخ الطرق في حرب الريف التى كان يقودها عبد الكريم الخطابى .

وكانت هذه المواقف علامة على انحراف الصوفية في مرحلتها الثانية بعد وفاة

مؤسسيها ودعاتها الأول ، حيث انتقلت من معاهد علم وإرشاد إلى ما سماه أحمد توفيق المدني استثمار غفلة العامة وبلههم ، حتى ينالوا منهم مال السحت . الذي « ينفقه رجال الزاوية على ملاذهم وملاهيهم ومنكراتهم » وآل (١) أمر الكثير من الزوايا والطرق إلى إحداث وثنية في الإسلام ، وأصبح شيخ الطريقة يتصف بأوصاف الربوبية ، فهو الذي يعطى وهو الذي يمنع ، وهو الذي يقبض وهو الذي ييسط . وأصبح شيخ الطريقة أو الضريح أكبر مكانة في القسم به من القسم بالله . وتفتت على إثر ذلك بدع وأباطيل لا تشوه وجه الإسلام السمع فحسب ، بل تسود وجه البشرية برمتها ، وذلك بضرب الدفوف والرقص ، واختلاط الرجال بالنساء ، وأكل الحشرات السامة ، والتمرغ على الأشواك ، ومن رجال الطرق من يقوم بهذه الحفلات بمدن مخصوصة في مواسم معينة ، يقصد جلب السائحين إليها ، وتقاضي أجورهم ، ويقومون بدور المهرجين في الملاعب . — والأوروبيون يعتقدون أن ذلك هو الإسلام . « أ . ه . » .

ولقد كان هذا كله عاملاً في يقظة الدعوة السلفية ، والاتجاه إلى مقاومة هذا الانحراف الذي لزمه الاتصال بالاستعمار وتأنيده . ودعوة الناس إلى قبول الأمر الواقع ، وتثييط همم المجاهدين .

وقد كتب أحمد توفيق المدني كتابه هذا عام ١٣٥٠ هـ الموافق ١٩٣١ م وهو العام الذي برزت فيه إلى الوجود حركة جمعية العلماء التي قاومت نفوذ الطرق الصوفية ، وحملت عليها حملات عنيفة .

وقد جاء في عبارته : « هذه الزوايا لا بد من تحطيمها ومحو أثرها من الوجود ، وتقوم الآن في القطر الجزائري حركة إصلاحية جسيمة ضد هذه المنكرات ، على رأسها الشيخ الطيب العقبي ، الذي كرس حياته وأمواله للتبشير بالإسلام ، ودحض مقدمات المبتدعين » .

وقد شارك أحمد توفيق المدني في هذه الحركة ، وكان من العاملين البارزين في صفوف حركة جماعة العلماء زملاء الإمام « ابن باديس » مع البشير الإبراهيمي ، والعربي التبسي ، والمبارك الميلي ، والطيب العقبي .

(٢) تاريخ الجزائر - أحمد توفيق المدني - ١٣٥٠ هـ

من أعلام اليقظة والنهضة

١ - عبد الحميد بن باديس (١٩٢١-١٩٤٠)

« رائد الإصلاح الديني والاجتماعي في الجزائر »

يقف « عبد الحميد بن باديس » علماً على مرحلة النضال في الثلاثينات من هذا القرن في الجزائر ، فبعد مائة عام من الاحتلال والمقاومة ، وقف ابن باديس عام ١٩٣٠ ليرسم الخطة المثلى للمقاومة . إنها ليست في المعركة العسكرية ، فقطعاً لن تستطيع الجزائر أن تقف أمام قوات فرنسا وأسلحتها الحديثة في ذلك الوقت . ولن تكون في النضال السياسي القائم على الخطط والمفاوضات والوعود البراقة الخادعة ؛ وإنما جوهر النضال وحقيقته كما فهمه - عبد الحميد بن باديس - هو في التربية الروحية والاجتماعية للأمة . وحماية اللغة العربية من جور الأجنبي الذي خطط للقضاء عليها ، والدعوة للوحدة العربية ، وتحرير الفكر العربي من شوائب التقليد وقيود المرتقة والطرقين ، الذين كانوا أسلحة ضد وطنهم في صف الاستعمار ، وشوكة في جنب الدعوة إلى الحرية والمقاومة .

كان هذا هو العمل الديني الذي تبلور في عقل ابن باديس بعد أن جال جولاته الطويلة في الشرق ، بين الحجاز ومصر والعالم العربي .

والتقى بالعشرات من أعلام الفكر والوطنية والحرية ، وقرأ آثار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، وعبد العزيز جوايش ، وعبد الرحمن الكواكبي : وكون فكرة واضحة عن العمل النافع .

ولم يكن العمل الذي تصدى له (ابن باديس) هيناً ولا ميسوراً . فقد كانت تعرف فرنسا ما وراء صيحات الساسة ورجال الأحزاب ، وتعرف كيف توجههم وتحركهم ، أو توقف نشاطهم ، أو تحول اتجاههم ، أما إذا كانت الدعوة تحمل هذا اللون من الكفاح الذي يبدأ من نقطة « الصفر » ويتغلغل في القرى والساكن منشئاً المدارس والمكاتب في قاب المسجد ، لتعويض الجزائريين عن إلغاء التعليم باللغة العربية في معاهدهم وكتباتهم ومدارسهم ، تعليمياً لهذه اللغة في أعماق القرى نفسها ، فإن فرنسا سوف تحارب هذا العمل أعنف الحرب ، وسترصد لهذا الداعية البليغ العبارة ، الحلو الصوت ، الجميل الصورة ، الفاهم الذكي ، كل مرصد ، وستقف في وجه كل موقف .

لذلك كان لابد أن يعمل ابن باديس في دهاء وبقظة ودقة فلا يثير عليه نائرة الاستعمار ولا ضير عليه أن يترك جانب السياسة ، حتى يركز هذه الدعوة .

وقد بدأ عمله حيث كان يلقي درساً في الجامع الأخضر بقسنطينة ، فاستمع إليه المئات ، ويتحدث فيه على النحو الذي كان يتحدث به جمال الدين الأفغاني في قهوة « ماتيا » ، أو الشيخ محمد عبده في الرواق العباسي ؛ ويفسر القرآن بنظرة جديدة ، ويدخل آراءه الإصلاحية في تنايا الحديث على نحو لا يصطدم مع القوة الرجعية أو قوى الاستعمار التي تساند قوى الرجعية وتحميها .

وقد استمر الشيخ على ذلك سنوات حتى بدأ حملته على الطريقين والرجعيين من رجال الدين الذين يعتصمون بفرنسا ، كان ذلك في عام ١٩٢٥ عندما بدأ يوسع دائرة التدريس إلى مساجد متعددة في الجزائر ، وإلى إصدار صحيفة تحمل لواء الفكرة الإصلاحية ، وكانت هي جريدة المنقذ ، في عام ١٩٢٦ والتي سارع الاستعمار بإغلاقها . فلم يلبث أن أصدر جريده الشهاب وخفف لمجته حتى تستمر وتعيش .

صدر « الشهاب » في عام ١٩٢٧ واستمر إلى عام ١٩٤٠ ، وتأتى اسم (ابن باديس) ، والتف حوله المثقفون والعلماء وخريجو الزيتونة ، وهو ماض في العمل ، يوسع نطاق مدارس في المساجد ، ويقاوم علماء الدين من الرجعيين ، وهذه حلقة من حلقات الكفاح شهدتها (تونس) وشهدتها (مراکش) أيضاً ، وأطلق عليها (الحركة السلفية) وقد وجدت قبولا في نظر المثقفين لمفاهيمها الحرة الواضحة المتقدمة مع الزمن ...

وفي عام ١٩٣٠ أخذت فرنسا تعد للاحتفال بالعيد المئوي لاحتلال الجزائر ، وكان لابد للشيخ ابن باديس أن يضرب ضربته وقد قويت جبهته واشتد عودها ، وضمت مئات من المثقفين المؤمنين بحق الجزائر في الحرية وأنها ليست جزءاً من فرنسا ، وأن اللغة العربية هي عماد هذه الحرية . هناك جابه فرنسا في أعياد الاستعمار بإنشاء جمعية العلماء برياسته ، ودخل دور الكفاح بقوة ، حيث فتح ميداناً جديداً للعمل ، هو مقاومة التغريب ، والدعوة الفرنسية الزائفة إلى أن الجزائر جزء من المغرب ، أو البربر من أصل فرنسي ، أو أن اللغة الفرنسية يجب أن تسود الجزائر ، وتظل اللغة العربية لغة إضافية ثانوية . بدأ مقاومة أنصار الثقافة الفرنسية من العملاء ودعاة التغريب . وبذلك امتدت المعركة إلى جناحين ، هما محاربة الجحود والرجعية والتعليق في الفكر العربي الإسلامي ، ومحاربة تمجيع الشخصية العربية الجزائرية ، وسلبها مقوماتها وتحويلها صورة مهزوزة للفكر العربي .

ولم يكن ابن باديس ضيق الأفق فقد كان مجددا يترسم خطا المصلحين في تحرير الأمة العربية من كل ما يعوق تقدمها ، ولم يكن عدواً للفكر الغربي ، وإنما كان عدواً للاتجاهات الاستعمارية فيه .

ورسمت جمعية العلماء التي امتدت واشتد عودها دعوتها في إحياء الإسلام وتطهيره من البدع والخرافات ، والعودة به إلى منابعه الأولى ، وبعث اللغة العربية وإذاعتها إلى أوسع مدى في الجليل الجديد من الشعب وتقديمها على اللغة الأجنبية ، وإحياء القومية الجزائرية باعتبار أن الجزائر جزء من الأمة العربية .

وقد صور ابن باديس أهدافه في عبارات موجزة واضحة :

« إن خدمة الإنسانية في جميع شعوبها ، والحدب عليها في جميع أوطانها ، واحترامها في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها ، هو ما تقصد إليه ونرمي إليه ونعمل على تربيتها وتربية من لنا حق عليه . »

« إن لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطاناً أخرى عزيزة علينا ، هي دائماً منا على بال . ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص نعتقد أنه لا بد أن نكون قدمناها وأوصلنا إليها النفع عن طريق خدمتنا لوطننا الخاص . »

« إن الإسلام عقد اجتماعي عام في جميع ما يحتاج إليه الإنسان من جميع نواحي الحياة لسعادته ورقبه . دلت التجارب من علماء الأمم المحدثه على أن لا نجاة للعالم مما هو فيه إلا بإصلاح عام على مبادئ الإسلام . »

« مبدؤنا في الإصلاح الديني والدنيوي أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها . »

« اخدموا العلم بتعليمه ، وانشروه وتحملوا كل بلاء ومشقة في سبيله ، وليهن عليكم كل عزيز ، ولتهن عليكم أرواحكم من أجله . »

« إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا . ولا يمكن أن تكون فرنسا ، ولا تريد أن تصبح فرنسا ، ولا تستطيع أن تصبح فرنسا لو أرادت ، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها ، لا تريد أن تندمج ، ولها وطن محدد معين هو الوطن الجزائري . »

وكتب يوم عيد الحرية الفرنسي ١٤ يوليو ١٩٣٩ يقول :

« أيتها الحرية التي يتغنى بمفاتنك الشعراء ؛ وتسفك في سبيلك الدماء ، أين أنت في هذا الوجود ؟ كم من أمم تحتفل بعيدك وقد وضعت نير العبودية على أمم وأمم . وكم قوم نصبوا لك التماثيل في الأرض ، وقد هدموك في القلوب والعقول . فتشت عنك في الشعوب القوية فوجدت العناية الطغاة قد قيدتهم الأطماع في تراث الضعفاء . فتشت عنك في الشعوب الضعيفة فوجدت الانتصار المرهقين قد كبلهم استبداد الأقوياء ، آه أيتها الحرية المحبوبة . واشوقاه إليك بل واشوقاه إلى شهدائك . المحيا محياهم والممات مماتهم . »

* * *

ولد الشيخ عبد الحميد بن باديس في عام ١٨٨٩ على أرجح الأقوال - بمدينة قسنطينة ، حيث درس بها العلوم ، والتحق بالجامعة الزيتونية في تونس ، سافر للحج عام ١٩١٢ فطاف سوريا ولبنان ومصر والمدينة ، واتصل بعلماء هذه الأقطار ، ثم عاد إلى وطنه وقد أزمع العمل في مجال الإصلاح الديني والاجتماعي .

وقد كان ابن باديس من أسرة عريقة قديمة ذكرها ابن خلدون في كتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر) وكان ميسوراً يستطيع أن يعيش حياة رخية هائلة ، دون أن يعرض نفسه لمناعب الاستعمار الفرنسي ، ولكنه كان صادق الإيمان بالعمل لأمنته ، قوى القلب والوجدان .

ولقد هددته فرنسا مرة ومرة فلم يصرفه ذلك عن هدفه .

قال له مسيو ميرانت الكاتب العام للإدارة الفرنسية : إن موارد الأسرة ستقطع عنه إذا استمر في هذه الحركة .

ولكن تهديده بقطع موارد الأسرة كلها إذا ظل يتحدى السلطة لم يردده عن هدفه ، قال : « إن أبي شيخ كبير . أما أنا فلن أتوقف عن المسير في الحركة . »

وقد مكنته ثراؤه من التنقل والرحلة في أنحاء الجزائر مؤسساً للمدارس ، ومنفقاً من ثروته الشخصية ، ثم جمع التبرعات وداعياً إلى النفقة في سبيل تأسيس المدارس الوطنية ، وبناء المدارس في القرى .. حتى استطاع مع زملائه وأعوانه (العقبي والإبراهيمي) بناء ٣٥٠ مدرسة في مختلف أنحاء الجزائر كانت تخرج أكثر من ١٥٠ ألف مواطن يتقنون اللغة العربية .

وخلق ابن باديس بهذا العمل تياراً ضخماً ، لم تستطع فرنسا القضاء عليه ، واستمر في دعوته على صلابة في الإيمان بالفكرة ، ومرونة في مواجهة الغاصب حتى يفوت عليه غرضه .

وصور غرضه في وضوح فقال : نريد انقلاباً جزائرياً يرتكز على إعداد نشء صالح تتمثل فيه عبقرية الحدود ، وتنهض نهضة إسلامية عربية تأخذ من عظمة الماضي ويقظة الحاضر ما يعصمها من الزلل والانحراف ، وهي تسير في طريق المستقبل الباسم . وكان يصور طريقته في العمل على نحو دقيق يقول : « تستطيع الظروف أن تكيفنا ، ولكنها لا تستطيع أن تقهرنا » .

وكان ابن باديس داعية يقطاً ، يحذر من الألقاب ويقول : إنها كانت وبالاً على هذا الشرق ، وداءه الذي سرى في أعصابه فخرها طيلة هذه القرون .

وعندما ذهبت الوفود إلى فرنسا لتطالب بتغيير السياسة الاستعمارية قال : « إن الوفود لا تستطيع أن تغير شيئاً . ولكن الشعب هو الذي يستطيع أن يغير كل شيء . وإن الاستعمار يقوى اليوم بجنوده وأشباعه وأعوانه من رجال الطرق الصوفية وأحزابهم المخدوعين ، ومتى نفّض الشعب عن نفسه غبار الجهل والغفلة أدرك وجوب تسير شئون نفسه ، وأخذ يضع كل شيء موضعه » .

وهذا ما حدث بالفعل من تأثير دعوته ، وكانت أبرز فكرة حطّمها ابن باديس هي فكرة أن الجزائر فرنسية ، كانت صحيفتا الشهاب والبصائر تحمل لواء هدم هذه الفكرة . وكان كثيرون من زعماء الجزائر قد أعلنوا منذ عام ١٩٣٤ هذا الرأي . ولقد عمل ابن باديس على دحضه ، وأكد أن للجزائر شخصيتها العربية المستقلة .

وعندما تجمعت الحصومات عليه من الرجعيين والدعاة لثقافة فرنسا ولغتها والاستعمار نفسه لم يشته ذلك عن استمساكه بدعوته ، وقال كلمته الخالدة : « من رام أن يحول بيننا وبين فكرتنا التي نؤمن بها . فقد حاول عبثاً قلب الحقائق ، فنحن لا نترشح عن الفكرة قيد شعرة مهما طمى سيل الكوارث على أمة لها ما للشعب الجزائري من الصفات المرغوب فيها ، الكامنة ككون انور في الكهرباء .. »

وصدق . وعاش حياته مجاهداً حتى توفي في ١٦ أبريل سنة ١٩٤٠ ، وقد ترك أثراً قوياً وبعيد المدى في مرحلة الثورة الجزائرية التي حققت تحرير الوطن ، واليوم تعرف الجزائر قدر ابن باديس وتذكره وتحثي بآثاره وكلماته الخالدة .

٢ - علال الفاسي

هذا رجل عريض الاسم يذكر في مجال الحركة الوطنية ، كما يذكر في مجال الحركة السلفية ، ونذكره هنا في مجال العمل الفكري الثقافي الذي وهبه عدداً كبيراً من البحوث والدراسات في مجال الدراسات التاريخية والثقافية والإسلامية ، وأمامي من كتبه :

« النقد الذاتي » و« الحركات الاستقلالية في المغرب العربي » و« مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها »

وهي تكني لتحله مكان العلماء قادة الفكر المغربي الأعلام . وآراؤه العميقة البناءة في مجال فلسفة فكرية عربية إسلامية مغربية ، واضحة في مجال الدراسات التي تعرضنا لها .

وهو إلى هذا شاعر يذكر في مقدمة شعراء المغرب العربي ، يقول روم لاندو ، « كان يُنظر إليه لا على أنه الزعيم السياسي فحسب ، بل نبي الوطنية وشاعرها أيضاً ، ومعظم الأناشيد الوطنية التي يتغنى بها المراكشيون منذ عشر سنوات على الأقل من نظمه ، وكانت شهرته وأدبه في الشرق الأوسط تماًماً كشهرته في وطنه » .

وهو الخطيب الذي يدهش كتاب الغرب كيف احتفظ بسلطته العظيمة على الجماهير « صوت عميق كالجرس تندفق كلماته كالسيل الدافق »

وفي رأي أن مجاله الأكبر هو مجال الدعوة الفكرية ، فهو ثمرة الحركة السلفية التي قادها محمد عبده والمناور ، والتي صيغت انعالم الإسلامى كله بصيغة الفكر الحر القائم على المنطق والفلسفة .

وأمامي نظرة بقلمه لمفاهيم الفكر المغربى تمثل مذهبه وطريقة تفكيره : « إذا نحن نظرنا للبلاد المغربية نجدها لا تصل برأ إلا عن طريق الصحراء الواسعة التي تربطها بالشرق الأوسط وبمهابط الوحي الإلهى فى الأراضى المقدسة ، وتجد سلسلة الجبال الأطلسية تحيط بها فى شكل منطقة محكمة ، فتقويها على اثبات فى كيانها المنزول

عما وراء البحار ، ولكنها في الوقت نفسه تمنحها المناعة المحدقة بها عمق المحيط وسذاجة المتوسط ، وتصل بها الأرض إلى الصحارى الكبرى التي تعكس في باطنها أشعة الوحي وسعة القلب وقوة الإيمان .

هذه الطبيعة الأرضية المغربية لم تستطع أن تجد النموذج النفسى الذى يمكن أن تتحد معه إلا فى المثل العليا التى وردت عليها عن طريق البر ، تستطيع أن تتأكد ذلك بنفسك كلما رجعت للتاريخ القديم وما بعده فى هذه البلاد ، فإن القرطاجيين وحدهم هم الذين استطاعوا أولاً أن يتحدوا مع المغاربة زمناً طويلاً ، وأن يغرسوا فى وسط المغرب لغتهم وعاداتهم ودياناتهم الفينيقية التى لانزال نجد الآثار العديدة منها فى تقاليدنا وأساطيرنا إلى اليوم ، وعلى العكس منهم فإن كل الذين وردوا للمغرب من وراء البحار لم يقدروا أن يتعمقوا النفس المغربية أو يغرسوا فى دواخلها حضاراتهم ومدنيتهم .

ولقد وصلت المسيحية للمغاربة عن طريق المشرق ، ولكن ما أصبحت هذه الديانة رسمية فى روما حتى أنكرها أهالى إفريقيا الشمالية قاطبة .

وأنا لا أريد أن أتوسع فى ذكر الأمثلة التاريخية الدالة على هذه الحقيقة ، لأنها معروفة فى كتب التاريخ ، وإنما يكفى أن نذكر بأن الرومانين والقوط وأبناء روما الشرقية كلهم لم ينجحوا فى غرس أفكارهم ولا مدنيتهم فى بلاد المغرب العربى ، والعلة فى ذلك على ما نرى هو أن نموذجهم النفسى وطبيعة الأرض التى جاءوا منها لم تكن متفقة مع ما اختاره المغاربة من نموذج مشرقى ولا مع الطبيعة التى لأرض المغرب . وهذه العلة نفسها هى السبب فى نجاح الإسلام فى بلادنا ، وهى السبب فى التأخى الذى حصل بيننا وبين العرب ، لأننا كنا متأخين فى الطبيعة وفى النموذج النفسى قبل أن نلتقى .

ونحن اليوم بأرضنا ونموذجنا النفسى إزاء الأزمة التى تعرض عادة فى أثناء هجوم نماذج نفسية أجنبية ، والحقيقة أننا لم نجد له الآن فى أعماقنا عزماً قوياً على نبذ مثلنا الأعلى وكياننا القومى .

إن المغربى منذ كان يحب الحرية ويعشقها ، وهو لذلك يدافع عنها ، ويبذل كل مجهوداته للتمتع بها ، وقد وصل حبه للحرية إلى أن نبذ كثيراً من الأنظمة ، ورفض الاتصال بالعالم الخارجى ، وانزوى على نفسه .

وهذا الحب للحرية لا يزول من روح المغاربة أبداً حتى ولو طالت عليهم الآماد وأخفى مقاومتهم الاضطهاد ، لقد لبثوا مئات السنين مع المحتلين قبل الإسلام ، ولكن ذلك لم يقتل في نفوسهم حب المقاومة ، ولا منعهم من أن يتطابوا الحرية بمجرد ما برق لهم النموذج النفسى الذى يعشقونه على أسنة رماح العرب وأبطالهم .

والمغربى منذ كان ، وفى كل أطواره التاريخية ، لم يقبل أن يكون تابِعاً لسلطة روحية خارجة عن الوطن ، فقد اعتنق المسيحية ولكنه رفض أن يخضع للكنيسة الرسمية ، واعتنق الإسلام ولكنه رفض أن يتبع الخلافة العباسية ، وليس أدل على هذه العقلية من دراسة الطرق والزوايا الموجودة فى المغرب ، فإننا لا نجد واحدة منها تخضع لمشيخة رسمية خارج الوطن ، إن ذلك لم يقع بين الحاكين ، ولكنه وقع بطبيعة الوطن المعتر بكيانه الخاص ، وبطبيعة المغربى الذى يقبل المبدأ ، ولكنه لا يقبل أن يستعبده أحد من أجله ، وأظن أننا الآن فى تجاربنا الحاضرة سنصل لا محالة إلى الاقتناع بضرورة استمرار هذا الخلق المغربى الكريم ، فلا تقبل أى تسلط روحى يتركز خارج بلادنا ، لنا الحق فى أن نختار من المبادئ ما نشاء ، ولكن لا بد أن نصهرها ونكيفها بالطبيعة المغربية التى تحب الاستقلال فى كل شيء .. »

هذا جانب من فكره الفلسفى الاجتماعى ، فإذا عرض للشريعة الإسلامية برز فى مقدمة أعلامها (١)

« .. لقد مضى على المسلمين حين من الدهر نسوا ما ذكروا به ، وذهلوا عما يحتوى عليه دينهم من هدى وإرشاد ، واتبعوا ما تملى شياطين الاستعمار من آراء وتشريعات لا قبل لهم بها ، ولا امتناع لعقولهم بمغازيها ، ولا تحتل من مجتمعهم شيئاً ، وإنما هى أنقاض لحضارات متباينة مع حضارتهم ، أرغموا على قبولها بالحديد والنار ، وبالضغط الفكرى الذى يتمثل فى هذه المدارس الأجنبية والبرامج الأعجمية . وإن الاستعمار الغربى فى بلاد المسلمين لم يحدث من الخراب فى الأرض وفى الأجسام ما أحدثه فى العقول والقلوب والأفهام .

فقد أصبح المسلمون بما تسرب إلى بواطنهم بجهلهم أنفسهم ، ولا يعرفون من حقيقة أمرهم شيئاً ، واختلفوا باختلاف عدوهم ، فمنهم من يؤمن باليمين ، ومنهم

(١) كتابه « مقاصد الشريعة ومكارمها » ص ٢٧١

من يؤمن باليسار ، ومنهم من يظل فارغاً من كل عقيدة ، ومجرداً من غير التبعية في الهوى وفي الشهوة ، فكان عاقبة أمرهم أن تسلط عليهم هذه الحكومات البوليسية في كل مكان تصلبهم ظلماً ، ولا تألوهم اضطهاداً وهضماً ، فإذا انتبهوا وظنوا أنهم قادرون على أن يقاوموا الجور وينازلوا الطغيان ، جاءهم الفكر الغربي بما يوجههم نحو ضغيان آخر واضطهاد جديد ، وسيقون كذلك ما داموا ينشدون العدل من غير الإسلام ، والإصلاح من غير القرآن .

وقد صدق مالك حين قال : « لن يصلح أمر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها » فعسى أن يتبته طلبتنا والدارسون للقانون والأخلاق منا ، والمتيقظون على العموم إلى أن الفقه الإسلامي وحده الكافي لعلاج المجتمع ، والأخلاق القرآنية وحدها المحققة لتوازن القوى وتعادل الأحداث الاجتماعية في البر والتقوى ، فيتقدمون إلى دراسة الفقه واستخلاص أسرارهِ ، وإلى الأخلاق واستنباط جمالها ومعالمها ، ثم يجاهدون جهاد الأبطال لإقرار شريعة الإسلام قانوناً للدولة ، وأخلاق القرآن معياراً للشرف والفضيلة والقيم الاجتماعية .

فأما عقلاء أمتنا فما زالوا يتألمون من هجوم الاستعمار الفكري عليهم ، وما زالوا يحللون مع أنفسهم أسباب الانحطاط الذي أصاب بلادهم وقومهم ، فلا يردونه إلا إلى إعراض الكل عن شريعة الإسلام وتعاليم الحق ، أما المثقفون ثقافة غربية من أبناء قومنا فهم مقتنعون بأن الفكر الغربي هو كل شيء ، والقانون الأجنبي هو المثل الأعلى ، ولكن عندهم أنهم لم يدرسوا الفقه الإسلامي ، ولا تعرفوا إلى مصادره ، ولا تعمقوا أسرارهِ ومقاصده .

أما فلاسفة الدنيا وعظماء الغرب التزهاء فقد سبقوا بعقلهم وإنصافهم إلى إدراك ما في فقهِنا الشرعي من محاسن ومميزات لم يصل إليها غيره من القوانين ، وشهدوا أن كل من يهمل الإنصاف والعدالة يجب أن يستمد من شريعة الإسلام وأخلاق القرآن .. ،

وهكذا عاش علال الفاسي حياة الفكر المغربي (العربي الإسلامي) المعاصر ، وعرض لمشكلاته وقضاياهِ في عشرات من مؤلفاته ، ومقالاته الموزعة في عديد من الصحف ، وفي مقدمتها مقالاته في مجلات البيئة ، وصحراء المغرب ، ودعوة الحق ،

وله عشرات البحوث عن « محمد عبده وموقفه من الشبه والمتشابه » ومستقبل اللغة العربية في المغرب « الإسلام وهل هو في حاجة إلى فلسفة » وتاريخ التشريع الإسلامي .
وأخص بالذكر كتابه « النقد الذاتي » يصور فيه كيف يبنى العقل العربي ؟ مع التحديد يقول :

« قرأت لكل فصل من كتابي - قبل أن أكتبه - عشرات المؤلفات العربية والمعرية والفرنساوية والمنقولة للغة الفرنسية المتباينة ، وقارنت بينها بقدر الاستطاعة ثم عرضتها على تجاربي في الكفاح ، وتقليباتي بين الكادحين في أقطار عديدة طيلة خمسة وعشرين عاماً » .

« هذا الكتاب دعوة إلى وضع البرنامج المفصل الذي يحقق الإصلاحات العميقة التي تنشرها أمتنا متى تم لها الاستقلال وظهرت بالحرية ، مؤمناً بالمحافظة على شخصيتنا ، والاستفادة من تطور الفكر العالمي » وهو بهذا يعد واحداً من دعاة المدرسة الوسطى : مدرسة بناء حضارتنا على أساس من تاريخنا وأمجادنا وشخصياتنا .

وقد جمع علال الفاسي في حياته الفكرية الطويلة بين التدريس في القرويين والعمل السياسي والصحافة ، وهو إلى ذلك شاعر له شعر مشهور في الصحف والمجلات المغربية ، وكان قد استهل حياته الأدبية شاعراً حفيماً بالكرامة والرجولة وذلك في مثل قوله :

أبعد مرور الخمس عشرة ألب وأهو بلذات الحياة وأطرب ؟
ولى نظر عال ونفسي أبيبة مقاما على هام المجرة تطلب
وعندي آمال أريد بلوغها تضعع إذا لاعت دهرى وتذهب

وربما ذهب إلى التواضع في تقدير شعره حين يقول :

وما أنا ذو الشعر الذي طار صيته وردده من لايزال مناغياً
فأتى بالسحر الحلال تحدياً وأنظم من شعري عقوداً غواليأ

٣ - مالك بن نبي

قدم المغرب العربي الكبير في مجال النهضة الفكرية عشرات من الأعلام ، نـ مختلف ميادين الفكر والأدب والصحافة والإصلاح السياسي والديني ، وقدم دعاة ومفكرين وصحفيين ومفكرين وفلاسفة ، ومالك بن نبي من أبرز هذه النماذج التي قدمها المغرب للفكر العربي الإسلامي ، قدمه المغرب العربي من الجزائر ، وقدمه الفكر العربي الإسلامي باللسان الفرنسي مرة وباللسان العربي مرة أخرى .

و« مالك بن نبي » يختلف كثيراً عن الدعاة والمفكرين والكتاب . فهو فيلسوف أصيل له طابع العالم الاجتماعي الدقيق الذي أتاحت له ثقافته العربية والفرنسية أن يجمع بين علم العرب وفكرهم المستمد من القرآن والسنة والفلسفة والتراث العربي الإسلامي الضخم ، وبين علم الغرب وفكرهم المستمد من تراث اليونان والرومان والمسيحية .

واستطاع أن يمتلك من مناهج البحث ما يجمع بين ابن خلدون وفخر المغرب وفخر العرب والمسلمين جميعاً كرائد وضع أصول علم الاجتماع ، وبين أساليب المفكرين الغربيين ومناهجهم .

ويرى « عبد السلام الهراس » (١) أن فلسفة مالك تقوم على النظر في التاريخ الإنساني الطويل ، والتعمق في أحداثه وأسبابها . واستنباط الحقائق الاجتماعية التي نستطيع أن نفيد منها في معالجة أزمتنا الحاضرة على ضوء ما أصابنا في الماضي من فشل أو نجاح .

وتتلخص آراء مالك بن نبي فيما يلي :

ان الإنسانية مرت بأكبر تجربتين حضاريتين في التاريخ : التجربة الرومانية ، والتجربة الإسلامية . وقد كانت التجربة الأولى متجلية في الروح الإمبراطورية التي يتسم الإنسان إلى مواطن يتمتع بكامل الحقوق . وإلى غير مواطن مسلوب من كل الحقوق ، وعلى هذا الأساس حكمت وقتنت وعابجت ومنحت . وهي وإن أخفقت

(١) مجلة دعوة الحق : نوفمبر ١٩٥٨ وفبراير ١٩٥٩ ، نوفمبر ١٩٥٩ .

كتب الباحث : الدكتور عبد السلام الهراس - تطوان عن مالك بن نبي عددا من الدراسات .

معالجة مشكلات الإنسان قديماً ، فقد أتيح لها أن تبدو في صورة جديدة في عصرنا الحاضر .

فالحضارة الغربية المعاصرة تخطت الحضارة الإسلامية التي سبقتها في الزمن ، وكانت حلقة ضرورية في سلسلة الحضارات الإنسانية ، تخطتها لتصل بالحضارة الرومانية ، وتأخذ منها روحها الاستعمارية ، وتشرب مبادئها ، وكثيراً من نظراتها الجوهرية .

يرى أن العالم الإسلامي ليس مريضاً بالفرقة والجهل والاستعمار ، وإنما هي أعراض « مرض » فقط ، أما المرض الحقيقي فيجب أن يلتمس وراء هذه الأعراض الخداعة التي شغلت العالم الإسلامي وأتعبته وضلته عن معرفة حقيقة الداء ، ومن ثم جهل حقيقة الدواء ، والمرض يكمن في « النفس » ، في الذات الإسلامية ، ويطلق « القابلية للاستعمار » وهذه القابلية هي الجاذبية التي تجذب نحوها الاستعمار ، فللقضاء على الاستعمار يجب أولاً القضاء على سببه الجوهرى الذى يكمن في النفوس ، أى « القابلية للاستعمار » .

ويعرف مالك بن نبي الحضارة بأنها تساوى (إنسان + تراب + وقت) فكل نتاج حضارى هو نتيجة اشتراك ثلاثة عوامل لا غير .

١ - التراب : المادة المكونة لهذا النتاج الحضارى .

٢ - الإنسان : الذى صنعه .

٣ - الوقت : الذى صنع فيه ، وليس هناك عنصر آخر يستطيع أن يدخل في تكوين وصنع هذا النتاج الحضارى .

إن مجرد وجود هذه العناصر الثلاثة ليس بكاف لإيجاد حضارة ، وإلا لكان مجرد أكسجين وأدروجين بنسبة معينة كافياً لتكوين الماء ، إنه لابد من مركب لهماذين العنصرين كالشرارة الكهربائية ، وكذلك الحضارة فإنها تحتاج لمركب ، يركب بين عناصرها ، وهذا المركب أو الشرارة يجب ألا نخلقها اختلاقاً ، بل إننا لا نستطيع إيجادها، وإنما يبحث عنها في التاريخ ، فهو الوحيد الذى يسعقنا بالخبر عن الشرارة المكونة للحضارات ، والتي استطاعت أن توجد العلاقة بين العناصر الثلاثة ، وعن تلك العلاقة انبثقت المدنية ، هذه الشرارة هي الدين . فالحضارة لا تنبثق إلا بالعقيدة الدينية ، وينبغي أن نبحث في كل حضارة من الحضارات عن أصلها الدينى الذى يمثلها .

وأن للحضارة مداراً تسير فيه ، هذا المدار يتكون من ثلاث مراحل :

١ - مرحلة الروح ، وذلك عندما تكون الحضارة في عنفوان قوتها .

٢ - مرحلة العقل : عندما تبلغ الحضارة أقصى توسعها .

٣ - مرحلة الغريزة : التي تعود بالإنسان إلى مستوى الحياة البدائية .

فالحضارة الإسلامية مرت بهذه المراحل ، ابتدأت المرحلة الأولى من قوله تعالى : « اقرأ » إلى حرب صفين ، ومن هناك دخلت في مرحلة العقل إلى زمن ابن خلدون ، وهنا استسلم العالم الإسلامي لقيادة الغريزة التي لا تزال لها القيادة إلى اليوم .

إن أوروبا قد بدأت تدخل مرحلة الغريزة على الرغم من هذه الصحوه العلمية الجبارة التي انفصلت عن الضمير ، ومحاولة تقليدنا لأوروبا في هذه المرحلة التطورية من حياتها محاولة تدل على جهل بأسس المدنية وحقيقتها وبواعثها ، فالمدينة ليست بضاعة تشتري ولا أشياء تنقل أو صوراً تحاكي ، وإنما هي معان نفسية روحية تنبثق من الذات ، من الروح ، من الفطرة .

وأبرز معالم تفكير مالك بن نبي وفلسفته هي :

١ - اتخاذ التاريخ الإسلامي المغربي أساساً لبحثه ، فهو يتحدث عن : إنسان مابعد الموحدين كعلامة على سقوط الحضارة الإسلامية ويؤرخ لتلك الظاهرة في التاريخ الإسلامي بسقوط دولة الموحدين « الذي كان في حقيقته سقوط حضارة لفظت آخر أنفاسها » ثم يبدأ تاريخ الانحطاط بإنسان مابعد الموحدين «

٢ - ما أسماه محور واشنطن - موسكو . ومحور طنجة - جاكرتا :

ويصنف مالك بن نبي المجتمعات المعاصرة إلى نوعين :

المجتمع الذي يعبر عن حدوده الجغرافية . بخط (واشنطن - موسكو) ويسميه المجتمع الصانع .

والمجتمع الذي يعيش على خط (طنجة - جاكرتا) ويسميه المجتمع المتخلف .

ولسنا نستطيع هنا أن نستقصى فلسفة مالك بن نبي ولا يحيط أفكاره ، إنما نحاول أن نعطي صورة سريعة في مجال تطور الفكر العربي الإسلامي في المغرب في المرحلة التي تلت مرحلتى : السلفية والإصلاح العصري .

ويمثل مالك بن نبي مرحلة جديدة هي مرحلة الفكر المغربي العربي الإسلامي بعد

الحرب العالمية الثانية ، وهو مجال ضخم خصب لا يزال تمتدأ وفسيحاً ، وفي حاجة إلى دراسة واسعة .

فقد ولد مالك بن نبي في الجزائر (مدينة قسنطينة) ١٩٠٥ في بيئة متدينة ، درس القضاء في المعهد الإسلامي المختلط ، ثم توجه إلى دراسة عصرية ، والتحق بالمعهد العالي للهندسة في باريس ، حيث تخرج مهندساً في الميكانيكا الكهربائية .

وفي باريس اتصل ببيئات السربون ، والكوليج دي فرانس ، ومعهد اللغات الشرقية ، واتصل بعشرات من المفكرين والباحثين والمستشرقين .

يقول عبد الرحمن الطهامزي (١) : إنه فوجيء بعد تخرجه بشيء لم يكن يتوقعه ، فوجيء بالأبواب أمامه مقفلة ، إنه لم يستطع القيام بالتمريبات اللازمة لكل مهندس تخرج حديثاً ، لأن الاستعمار الفرنسي أدرك العقلية التي يحملها «مالك» الذي لم يكف عن الاتصال بأحداث العالم العربي والتجاوب معها .

ويرى عبد السلام المراس : أنه لم يكن بمنزل عن المراقبة الاستعمارية التي تغطت لنبوغه واتجاهه الفكري وعقيدته الراسخة . وأن موقف الاستعمار بالنسبة لهؤلاء هو المؤتمرات الثقافية والدهاء التربوي حتى يستطيع أن يجعل منها «وسيلة» فعالة بارزة لخدمة أغراضه على مستوى عال فإذا لم يجد ، التجأ إلى سياسة التضييق والتبئيس والحق ، وقد يلجأ أخيراً إلى القتل ، ولقد اتبع الاستعمار هذه الخطة مع مالك بن نبي ، فقد حاول في أول الأمر أن يحيطه بجو ثقافي خاص ليتغذى منه بما يحقق أهداف الاستعمار فيه ، كما أحاطه بشخصيات فرنسية كبيرة لتحدث فيه الأثر المرجو المحدد ، لتزييف إحساساته واتجاهه ، غير أن العقيدة كانت أرسخ من أن يعث بها الاستعمار أو أن ينال منه شيئاً ، فأغلق الاستعمار في وجهة باب الرزق ، وعزل والده من وظيفته ، وسلط على مالك من يحاربه من بني جلدته ، حتى يستقر في ذهن مالك أن المسلمين لا يستحقون أن يخدموا ، لأنهم لا يقدرّون مجهوداته الإصلاحية .

وعاش مالك في صراع مع الاستعمار ونشر أول مؤلفاته في سنة ١٩٤٨ م في الجزائر ، وهو «مشكلة النهضة الجزائرية» وتحدث فيه بصراحة عن جمعية العلماء ، وقال إنها تحولت عن رسالتها بقبول الاشتراك في مؤتمر عام ١٩٣٥ م ، وهاجمته جريدة «البصائر» ، واستطاع مالك أن يتجه إلى الشرق فيزور مكة ويقم في القاهرة ، ويبدأ فيها عمله الضخم

(١) مجلة المكتبة «كانون نان ١٩٦٢»

خلال سبع سنوات (١٩٥٧ - ١٩٦٣) حيث اصدر عدداً كبيراً من مؤلفاته المرسومة بموسوعة مشكلات الحضارة وأهمها :

شروط النهضة ، فكرة الإفريقية الآسيوية ، الظاهرة القرآنية ، وجهة العالم الإسلامي ، مشكلة الثقافة ، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، تأملات في المجتمع العربي ، في مهب المعركة ، ميلاد مجتمع الخ .

وقد عاد « مالك بن نبي » إلى الجزائر ليشترك في نهضتها ويسهم في تطبيق فلسفته في مجال اليقظة الفكرية الجديدة في المغرب العربي كله .

٤ - الطيب العقبي

شاعر وداعية من أبرز دعاة جمعية العلماء الجزائريين ، عاش في المشرق في مطالع حياته وعاد إلى الجزائر (مارس ١٩٢٠) . ولد ببلدة سيدى عقبة سنة ١٣٠٧ هـ وانتقل مع عائلته إلى الحجاز وقرأ القرآن وتعلم بالحرم النبوي ، وتناول الكتابة في الصحف الشرقية قبيل الحرب العالمية الأولى ، وعد من أعضاء النهضة العربية فأبعد عن المدينة على أثر حركة الشريف حسين إلى تركيا ، فالأناضول . فبقى بها عامين حتى عقدت الهدنة فعاد إلى المدينة ، وعين مديراً لجريدة القبلة والمطبعة الأميرية ، وفي الجزائر تفرغ للتدريس ، وعأوده الحنين إلى الصحافة فأنشأ جريدة الإصلاح .

وكان في عام ١٩٢٩ يتأهب لتحقيق مشروع خلاصته تجديد الإسلام في حدود القرآن وتنقيته مما لصق به من البدع ونشر دعوته ، فاشترك في جمعية العلماء التي أسسها عبد الحميد بن باديس ، وأنشأ نادي الترقى وظل يعمل بها حتى اتهم في (أغسطس ١٩٣٦) بالتحريض على اغتيال مفتي الجزائر الذي كان من أعوان فرنسا (ابن والى عمر) الملقب بكحول .

وهو إلى هذا من الشعراء : يقول تعاطيت نظمه قبل الحلم بالمدينة المنورة ، وقبل أن أتمكن من أساليبه العربية ، ثم لما تقدم ذوق العربي حكمت على شعري القديم بالإعدام . ثم جمعت ما يكاد يقرب من ديوان للمرة الثانية فطوحت بي طوائف الحرب والإبعاد

عن تلك البلاد بغتة وبلا استعداد ، فحالت بيني وبين كتي ، ومن شعره قوله .

حي الجزائر مادامت تحيينا	وانهض بشعب قضى في جهله حيناً
وسر حثينا إلى تلك الطريق إلى	حيث المعارف حيث العلم يهديننا
واذكر حديث جدود قبلنا سلقوا	عساك بالعلم بعد الجهل تحيينا
كنا قلادة جيد الدهر وانقرطت	ومن يمين العلا كنا رياحيننا
ردوا علينا علوماً لو بها بخلت	جلودنا كنتم للبهيم ترعوننا
هبوا بني وطني من نوم غفلتكم	جل المصاب وخطب الدهر يرمينا
تعلموا العلم وامشوا في مناكبها	وجانبوا كسلا أودى بماضينا

القِسْمُ الثَّانِي

قَضَايَا الْوَطَنِيَّةِ وَالْعُرُوبَةِ وَالْإِسْلَامِ

الكفاح الوطني ، امتزاج العروبة والاسلام ،
التراث والتراب المغربي ، البربر ،
وحدة المغرب ، التقاء المغرب والمشرق .

مدخل

لا يتيسر دراسة تطور الثقافة في المغرب العربي منفصلة عن الحركة الوطنية ؛ فإن النفوذ اللاتيني في ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى ، كان هدفه القضاء على الثقافة العربية الإسلامية ممثلة في مقومات الفكر والدين والاجتماع والتعليم واللغة . وكانت المقاومة الوطنية في ذاتها حركة تحد ورد فعل لحملة التغريب التي تمثلت في صور متعددة هي : التجنيس في تونس ، والإبادة في ليبيا ، والإدماج في الجزائر ، (الظهير البربري) والفرنسة في المغرب الأقصى .

وتتمثل جوهر المعركة الثقافية بين الفكر العربي وموجة التغريب في عدة قضايا أساسية كبرى ، أبرزها :

١ - محاولة خلق روح إقليمية في كل إقليم من أقاليم المغرب بإحياء أجداد ما قبل الإسلام .

٢ - خلق صراع بين العنصرين المترجين : العرب والبربر .

٣ - محاولة الفصل بين العروبة والإسلام ، وهما لا ينفصلان في المغرب .

٤ - قضايا الوحدة المغربية والوحدة العربية .

٥ - محاولة فصل المغرب العربي عن المشرق العربي .

وقد مرت الثقافة العربية في المغرب العربي بمرحلتين :

الأولى : مرحلة الاحتلال والحماية والنفوذ الأجنبي المباشر ، (والأخرى) مرحلة الاستقلال ، وقد عنيينا في هذه الدراسة بالمرحلة الأولى .

وقد انتهت مرحلة الاحتلال : سنة ١٩٥٤ تقريباً بالنسبة للمغرب وتونس ، وعام ١٩٦١ بالنسبة للجزائر . ولاشك أن مرحلة الاستقلال ما تزال في بدايتها ، إذ لم تزد على عشر سنوات لما يتخلص فيها المغرب من عقايل الاستعمار ، فما تزال بقايا النفوذ

الاستعماري في الفكر والثقافة والتعليم واللغة قائمة ، وإن كانت تتناقص على التوالي وتزول آثارها يوماً بعد يوم ولذلك فإن دراستها بتوسع تتطلب الانتظار بعض الوقت حتى تبلور آثارها ونتائجها .

ولاشك في أن هناك قضايا مشتركة للثقافة والفكر العربي المغربي واجهتها المنطقة كلها . وهناك قضايا محلية أو إقليمية واجهها كل قطر على نحو خاص ، فليس شك في أن المغرب العربي بأقطاره كلها قد سقط تحت النفوذ اللاتيني (فرنسا : تونس والجزائر ومراكش) ، (إيطاليا : ليبيا) ، (إسبانيا : الريف المغربي) إلا أن هناك تفاوتاً زمنياً ونوعياً في درجة هذا النفوذ ، فقد احتلت الجزائر سنة ١٨٣٠ ، ولم تسقط تونس إلا عام ١٨٨١ (أي بعد خمسين عاماً) وليبيا سنة ١٩١١ أما مراكش فقد سقطت عام ١٩١٢ أي بعد ٣١ عاماً من احتلال تونس ، ٨٢ عاماً من احتلال الجزائر .

وكان للجزائر وضعها الخاص ، فقد اعتبرتها فرنسا جزءاً من دولتها وأسمتها (فرنسا الجنوبية) وأطلقت على أهلها (الفرنسيون المسلمون) ، وهنا تختلف المواجهة لأبرز قضايا الفكر والثقافة : وهي اللغة والإسلام والقضية الوطنية والوحدة بين الأقطار الأربعة .

★ ★ ★

وقد مهدت الحركات الإسلامية التجديدية والإصلاحية في خلال فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى للمرحلة التالية التي مرت بالمغرب كله بعد عام ١٩١٨ حيث تطورت الحركة الإصلاحية والسلفية إلى حركة وطنية . ولا يمنع هذا من أن العمل الوطني ظهر في تونس قبل هذه الفترة ، ولا يمنع أيضاً بين أن الحركة الإسلامية الإصلاحية انبعشت في الجزائر بعد ذلك وسارت في خط واحد مع العمل الوطني وأمدته بالقوة والحيوية ، وفي المغرب لم يكن هناك فارق كبير بين معاني الإصلاح الإسلامي والعمل الوطني ، بل كانا شقين للنهضة الفكرية والثقافية .

أولا - الكفاح الوطني من أجل الحرية

أبرز معالم الفكر العربي في المغرب هو الكفاح الوطني من أجل الحرية ، وتعد جميع وجوه الإحياء والبعث والتجديد في مجالات اللغة العربية والإسلام والنثر والشعر علامات مميزة لمقاومة التجزئة والاحتلال والحماية ، والدفاع عن وحدة المغرب وترابه ، والتقاء أجزائه الأربعة ثم التقاء المغرب كله مع المشرق العربي في وحدة الأمة العربية والتقاءه في وحدة الفكر مع العالم الإسلامي .

وليس غريباً أن يكون الكفاح الوطني من أجل الحرية هو القضية الأولى في مجال الفكر العربي المغربي المعاصر ، فقد طال . طال هذا النفوذ الأجنبي في صورته المتعددة منذ بدأ احتلال الجزائر ١٨٣٠ ، وما اتخذته فرنسا ذاتها في كل قطر من الأقطار الثلاثة من أساليب مغيرة ، هدفها القضاء الكامل على الذاتية المغربية - كما يسمونها - ومحوها في محاولة ضخمة لما أسموه « فرنسا الجنوبية » أو « المسلمون الفرنسيون » .

وقد امتدت هذه المرحلة من الكفاح الوطني في الأقطار الأربعة إلى الستينات تقريباً ، فإن تمحور ليبيا ١٩٥٠ ، وتونس والمغرب ١٩٥٤ ، والجزائر ١٩٦١ كان عاملاً هاماً في أن يصبغ هذا الكفاح الوطني جوانب الفكر العربي المغربي في مختلف ميادين الأدبية والاجتماعية والسياسية ..

ويمكن القول بأن هذه المرحلة من الكفاح التي تمتد من (١٨٣٠ - ١٩٦١) وهي فترة الاحتلال للجزائر أسبق هذه الأجزاء المغربية احتلالاً وآخرها استقلالاً ، قد تميزت بعملين كبيرين :

العمل الأول : الكفاح المسلح

العمل الثاني : المقاومة الوطنية السياسية .

ففي مجال الكفاح المسلح كانت هناك حركات متعددة في كل من ليبيا وتونس والجزائر ومراكش أهمها :

- حركة الأمير عبد القادر الجزائري (الجزائر ١٨٣٠-١٨٧١) .
- حركة الأمير عبد الكريم الخطابي (المغرب) خلال خمس سنوات (١٩٢١ - ١٩٢٦) وكان قوامها ٧٥ ألف مراكشي بينهم (٢٠ ألف مسلح) حشدت لها فرنسا ٣٢٥ ألف محارب يقودهم ٦٠ جنرالاً فضلاً عن مائة ألف محارب من الإسبان .
- حركة المقاومة السنوسية للاحتلال الإيطالي (١٩١١ - ١٩٣٠) .
- حركات المقاومة التي قادها في المغرب « الشيخ ماء العينين » واكتسح بها مناطق الجنوب ، واحتل مدينة مراكش (٨ أغسطس ١٩١٢) واستمرت إلى ١٩٣٥ .
- وفي الجزائر بطولة لالة فاطمة ١٨٤٧ - ١٨٥٧ ومقاومة الزعاطشة بقيادة أبوزيان ١٨٥٢ ، ومقاومة الأغواط ، وثورة ١٨٦٤ المعروفة بأولاد سيدى الشيخ بقيادة سليمان ابن حمزة . دامت خمسة أعوام كاملة .
- وثورة الجرجرة بقيادة الشيخ محمد المقراني في جبال الجرجرة عام ١٨٧٢ ، وثورة محمد البدوي في شرشال وثورة ١٨٥٣ في أوراس .
- وقد أعان القائد الفرنسي جيوم نتيجة هذه المقاومة المسلحة الضخمة في كلمات أبلغ من كل تعبير : « لم تأت إلينا أى قبيلة دون قتال مرير ، وما خضعت لنا قبيلة قبل أن استنفدت آخر وسائل المقاومة » .
- وفي هذه المعارك بذل المغاربة أرواحهم رخيصة وقاوموا محاولات الإبادة الجماعية المنيرة - وتسميم الآبار وإحراق الغلال وتدمير القرى على أهلها ...
- وفي الجزائر اعترف الفرنسيون بقوة الشكيمة الجزائرية ، قال دون دورليان : إن هؤلاء الرجال ذوى الحمية والبأس قد أذاقوا الفرنسيين متاعب لم يعرفوها في كامل حروبهم الإمبراطورية ، وساهموا أكثر من أى جيش نظامى آخر في تدمير الجيش الفرنسى ، وتعددت شهادات قادة فرنسا بعظمة الجزائريين .

الحركة الوطنية

وقد تبلور العمل الوطنى في المغرب العربى بعد انتهاء المقاومة الحربية في الأحزاب السياسية والقيادات الوطنية ، وظهر منها في ليبيا : سليمان البارونى واحمد الشريف السنوسى

وفي تونس : على باش حانيه ، عبد العزيز الثعالبي ، الحبيب بورقيبة ، صالح بن يوسف
وفي الجزائر : مصالي الحاج ، وعباس فرحات .

وفي المغرب : علال الفاسي ، أحمد بلا فريج ، عبد الحالق الطريس . ومحمد الوزاني .
وقد حملت هذه الأحزاب لواء الحركة الوطنية . وواجهت الاحتلال على درجات
مختلفات في المطالبة بالحرية ، وأخذ بعضها أسلوب « المراحل » والبعض الآخر أسلوب
الإدماج (في الجزائر) أو الاتحاد مع فرنسا . ودعا بعضها إلى الاستقلال الذاتي .
ووقع الخلاف بين الأحزاب في كل قطر .

وفي المغرب بدأت الحركة الوطنية بعد انتهاء حرب الريف وبعد إعلان الظهير الذي
أدى إلى التحالف بين القوميين ورجال الدين ، وكان لهذه الحركة أثرها في ولادة الحركة
الوطنية ، على حد تعبير (روم لاندو)

وظهر علال الفاسي ، وأحمد بلا فريج ، ومحمد الوزاني ، وعبد الحالق الطريس .

وفي الجزائر ظهر نجم شمال إفريقيا ١٩٢٧ . ثم حزب الشعب الجزائري وحزب
البيان وبرز مصالي الحاج وعباس فرحات .

وفي تونس ظهرت الحركة الوطنية بإنشاء حزب « تونس الفتاة » بقيادة على باش
حانيه ، ثم ظهر عبد العزيز الثعالبي الذي كان مفكراً عظيماً أكثر منه سياسياً ، ثم واصل
الكفاح الحبيب بورقيبة وزملاؤه .

واصطدمت هذه الأحزاب بالمستعمر واعتقل رجالها وسجنوا مرات ، ونفوا إلى
وسط إفريقيا ، وإلى فرنسا ، وهاجر الكثيرون منهم إلى مصر أمثال علال الفاسي
وعبد العزيز الثعالبي وبورقيبة .

وتمثل الحركة الوطنية صورة الكفاح السياسي الذي بدأ بعد الحرب العالمية الأولى
وأبرز مظاهر العمل الوطني في هذه المرحلة هي :

• وحدة العمل بين الأحزاب السياسية في المغرب كله من أجل حرية المغرب كله .

• تأييد قضايا فلسطين والمشرق العربي .

• اتخاذ القاهرة مركزاً للحركة الكفاح المغربي العربي .

• إصدار صحف ونشرات باللغة الفرنسية للرد على اعتراضات الفرنسيين بلقاهم .
وقد حملت الحركة الوطنية لواء الدفاع عن اللغة العربية والتاريخ المغربي ومقاومة
أعمال الفرنسية والتجنيس ومؤامرات التغريب والتبشير والتمسيح ...

١ - التجنيس في تونس

وقد جرت المحاولات التغريبية التي كانت تستهدف تحويل المغرب إلى فرنسا الجنوية
في خطوط متعددة ، بدأت في تونس بمحاولة (الفرنسية) عن طريق المسلمين ، فبدأت
تنشر الدعوة لتجنيس المسلمين بصفة فردية ، ولكنها لم تلبث أن دعت إلى ذلك عن طريق
قانون أقره البرلمان الفرنسي ، وبذلك انتقلت مسألة « التجنيس » إلى محاولة جماعية
عام ١٩١٤ .

وقد وجدت هذه الحركة مقاومة ضخمة من الصحافة العربية في تونس ، ووضعت
المسألة على بساط البحث ، واشتركت فيها مصر بفتاوى علماء المسلمين ، وتناولتها جميع
أقلام الكتاب التونسيين ، وجرت أنهار المداد على أعمدة الجرائد السيارة على حد تعبير
(انقلاب الجيلاني) .

ولقيت مسألة التجنيس معارضة عامة من التونسيين ، أعربت « عن ثبات تاريخ
الأمة واستقرار جنسيتها » .

وأعلن الشعب مقاطعة المتجنسين ، وعدم الزواج منهم ، أو التعامل معهم ، ومنعهم
من دخول المساجد .

وقد كان نظر التونسيين في إبان هذه المعركة متجهاً إلى « الأندلس » بعد اندماج
جانب كبير من العرب والمسلمين في جنسية الغالب وآل الأمر إلى فقد قوميتهم الأصلية ،
ثم تبدلت حضارة الأندلس وانقرض الجنس العربي .

واشترك في مقاومة التجنيس عدد كبير من الباحثين والكتاب وأصحاب الصحف :
الطيب بن عيسى (جريدة الوزير) سليمان الجادوي (جريدة مرشد الأمة) حسين
الجزيري (جريدة النديم) علي كاهيه (مجلة الفجر) عثمان الكعاك - الطاهر الحداد
(جريدة الأمة) محمد محي الدين ، محمد نعمان ، حسونة الغباشي ، عبد الرحمن الكعاك .

« فأحمد توفيق المدني » يهاجم هذا الاتجاه ويرى أن هذا الأمر يقضى على التوازن الاجتماعي بالهيئة التونسية ، وأن الذين سيطلبون التجنيس ، إنما يدعوهم إلى ذلك حب الأرباح والامتيازات المادية التي تخولها التجنيس ، وبمرور الزمن تتكون طبقتان متبايتان : طبقة من تونسيين متجنسين . لهم كل الامتيازات الخاصة التي للفرنسيين ، وأخرى مؤلفة من التونسيين الحقيقيين الذين بقوا مسلمين ، هؤلاء هم الذين سيحافظون على ماضيهم المجيد ، هم الذين سيذكرون دائماً الأسماء الخالدة التي تكمل تاج ثروتهم التاريخية والأدبية . أمثال طارق بن زياد ، وموسى بن نصير ، وهارون الرشيد ، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن خلدون ، ومجنون ليلى . والمعري ، وأولئك الذين سيقون محافظين في ذاكرتهم على ذكرى عائلات الملك التونسي الماجد ، عائلات الأغلبة وبني حفص ..

وأعلن « عثمان الكعاك » أن المسلم إذا تجنس بالجنسية الفرنسية لزمه أن يعرض عن أحكام شريعته وينبذها ظهرياً . ذلك أن الشريعة الإسلامية لم تكن مجرد عقائد ، بل منها ما يتعلق بالمعاملات والأحوال المدنية ونظام العائلة كالميراث والنسب .

وعنده أن الفرنسيين بعد أن قهر الحلفاء دولة الخلافة العظمى وجردوها من كل ولاياتها الإسلامية يفتحون باب التجنيس بالجنسية الفرنسية حتى يتجرد التونسيون من كل مميزاتهم الإسلامية .

وقال : إن التجنيس يقطع الصلة بين الدين والأدب واللغة والأخلاق والتاريخ ، هذه المؤسسات التي تستمد منها غذاءها الديني والسياسي والاجتماعي وعندما هاجمه الدكتور (قاطان) رد عليه قائلاً :

أنسيت يا : م . قاطان ما كان للجنسية التونسية من الفضل على الشعب الفرنسي؟ أنسيت ما قام به العرب من تمدين فرنسا أثناء القرون الوسطى ؟ ، أنسيت أن كليات ومدارس فرنسا أثناء القرون الوسطى كانت عامرة بالأساتذة العرب ؟ ، أنسيت أن الفرنسيين أخذوا العلم عن العرب ؟ .

وقال : إن شعب تونس على طول التاريخ ظل حافظاً لكيانه . فلم يندمج في أى قومية ولا امتزج بالرومان ، ولم يدعن لقرطاجنه ولا رومية ، ولم يندمج في العنصر الكنعاني ولا الإيطالي .

٢ - ظهير المغرب (١)

في ١٦ مايو ١٩٣٠ أصدرت فرنسا في المغرب ظهيراً (قانوناً) أطلق عليه « الظهير البربري » المهدف منه فصل العرب عن البربر :

ويقوم مفهوم الظهير على أساس أن الأمة المغربية تتكون من فريقين أحدهما بربري والثاني عربي ، وأن هذا الأخير فتح بلاد الأول واستعمرها ، وأن مهمة فرنسا هي تحرير الأول من سيطرة الثاني الدينية واللغوية والعقيدية ، ليصبح شاعراً بوجوده الخاص ، قادراً على أن يحفظ التوازن السيامي الذين يمكن فرنسا من البقاء الدائم في المغرب .
ويتم ذلك بوسائل أساسية :

- ١ - إقصاء اللغة العربية عن المحاكم ، واستعمال اللغة البربرية مع الحروف اللاتينية.
 - ٢ - إقصاء العربية عن المدارس التي تؤسس لأبناء البربر ، ومنع تعليم الديانة الإسلامية بها .
 - ٣ - الحيلولة بين سكان المناطق البربرية وبين الاتصال بالمناطق العربية ، وفتح الطريق أمام رجال التبشير ليقوموا بالدعوة للمسيحية .
- وجملة أهداف الظهير البربري هي محو الإسلام ، وإقصاء الشريعة الإسلامية والقضاء على اللغة العربية .

ولا نبالغ إذا قلنا : إن العالم الإسلامي اهتز لهذا الحدث ، وكان لمصر دور كبير في المقاومة عن طريق صحفها ، وكانت « مجلة الفتح » وقلم محب الدين الخطيب من أجراً الكتابات في هذا المجال .

وكان لجمعية الشبان المسلمين والهداية الإسلامية (عبد الحميد سعيد ومحمد الخضر حسين) ورجال الإسلام والفكر في مصر دور كبير في توجيه النداءات واستصراخ العالم الإسلامي .

وكانت كتابات « الأمير شكيب أرسلان » من أوروبا نارية الطابع ولا حد لقوتها وعنفها .

(١) راجع فصل « مروية البربر » في هذا الكتاب

وقد تحركت الأقلام المغربية في مصر وسوريا والعراق نخوض المعركة ، وفي عبارات كاتب من المغرب العربي هو أبو القاسم كرو (تونس) تبلو وجهة نظر الفكر المغربي إزاء هذه الحركة :

« الواقع أن الظهير البربري جاء كنتيجة منطقية لكل المقدمات التي بذلت قبله ، كما أنه يعتبر متمماً لها ، ومستثمراً لفوائدها في وقت واحد .

ولست هذه السياسة العنصرية التي أعلنها الظهير البربري جديدة في طرق الفرنسيين الاستعمارية ؛ فقد سبق لهم أن حاولوها من قبل في الجزائر منذ القرن التاسع عشر ، ففي عام ١٨٥٩ أنشأت فرنسا في الجزائر ما أسمته بمحاكم الجماعة بين القبائل والعشائر البدوية ، وهي محاكم تستمد أحكامها من العرف البربري القديم بدلاً من الشريعة الإسلامية ، وقد ظنت فرنسا أنها بهذا العمل تمهد السبيل إلى إخراج البربر من دائرة الإسلام ، وتعيد الطريق أمام (الآباء والأخوات البيض) لتنصيرهم وفرنستهم ، ولكنهم كانوا أصعب مراساً وأقوى إيماناً فتأروا على هؤلاء المفرقين ثورات عديدة كاسحة ، كانت أشدها هولا ورعباً ثورتهم العاتية عام ١٨٧١ .

ولكن فرنسا لا تتوقف ولا تلبث أن تنشئ في مراكش عام ١٩١٣ معهداً لللغات البربرية للدراسة أصولها وكلماتها تمهيداً لبعثها لغة في التعليم والكتابة .

وفي عام ١٩١٥ كوّن الفرنسيون لجنة الأبحاث ، وقد أعيد إنشاء محاكم الجماعة في مراكش ، بحيث لا تكاد تبلغ إلى عام ١٩٢٢ حتى نجد أن عددها قد وصل إلى ثمانين محكمة ، لكل واحدة منها سكرتير فرنسي .

ويعمى الاستعمار بعد ذلك في متابعة سياسة البربرية ، فيوجه عنايته مرة أخرى إلى اللهجات البربرية بغية إحيائها ودرسها وتوحيدها في لغة واحدة وتدوينها ووضع نحو لها ، والاهتمام بآدابها وقصصها وأمثالها وأساطيرها ، كل هذه الأعمال كانت - في حقيقتها - بمثابة مقدمات لإعلان ذلك القانون الاستعماري « الظهير البربري » الذي كان يهدف إلى تقسيم سكان مراكش إلى شعبتين : عرب وبربر ، ونشر العداوة العنصرية والبغضاء بينهم ، ليصبحوا أعداء متحاربين فكان صدور الظهير بمثابة الفتيل الذي أشعل نار الثورة بين جميع السكان في مراكش ، وكان في مقدمة النافرين البربر أنفسهم ...

وذكر أبو القاسم كرو أن أحد الفرنسيين تقدم باطروحة لينال شهادة علمية عن عمل فرنسا بالمغرب فيما يختص بالتعليم ، وجاء فيها « من الخطر أن تترك كتلة ملتحمة من

المغاربة تتكون ولغتها واحدة وأنظمتها واحدة ، ولا بد من أن نستعمل لفائدتنا العبارة القديمة (فرق تسد) . إن وجود العنصر البربري هو آلة مفيدة لموازنة العنصر العربي ، ويمكننا أن نستعمله ضد المخزن (الحكومة المراكشية) نفسه ، وقال المسيو جلای : يجب أن نعلم البربر كل شيء ماعدا الإسلام ، وأن نحذف من مدارس البربر الديانة الإسلامية واللغة العربية ، وأن تكتب اللهجات البربرية بحروف لاتينية .

وقد لقيت حركة الظهير البربري نفس الفشل الذي لقيته حركات التجنيس والفرنسة والتغريب التي حاكمتها فرنسا واحدة بعد أخرى في تونس والجزائر ومراكش

٣ - الإدماج في الجزائر

حاولت فرنسا أن تعتبر الجزائر جزءاً من فرنسا وتعتبر أهلها مسلمين فرنسيين . واستهدفت في ذلك ما أطلق عليه سياسة « الإدماج » وقد أعلن في مجلس النواب الفرنسي عام ١٨٤٨ أن أرض الجزائر قطعة من فرنسا وأنها جزء من الوطن الأم ، وأن الجزائريين يتخبون مندوباً عنهم في المجالس الفرنسية بباريس ، وعلى طول المدى ظهر زعماء في الجزائر من دعاة الإدماج كالكتور ابن جلول .

وقد بلغت سياسة الإدماج أقوى مراحلها عام ١٨٨١ ، عندما أصدرت فرنسا مرسوماً بإلحاق الجزائر إدارياً بفرنسا ، وصدر قانون الجنسية الذي أضفى الجنسية الفرنسية على كل أبناء الأجانب الذين ولدوا في الأرض الجزائرية .

وجرى منح العنصر الأوربي الامتيازات الواسعة على حساب السكان الأصليين ، وتحويل الجزائريين إلى رعايا حقيقيين لفرنسا ، وجرى سيل الهجرة الجماعية الأوربية عامة والفرنسية خاصة لفرض نسبة كبرى من الجنس الموالي لفرنسا على السكان الأصليين والاستيلاء على أكبر مساحة ممكنة من الأرض . وبلغ جملة الأجانب المستعمرين في أوائل القرن التاسع عشر مليون أجنبي ، ولم يتوقف الزحف بل توالى .

ثانياً - امتزاج العروبة والإسلام

قال ابراهيم قاهر :

« الاسلام والعروبة هما العاملان
الاساسيان اللذان احيا المغرب واخرجاه من
ظلمات الاستعمار اللاتيني ، وساعده على
تكوين وحدته اللغوية والدينية والسياسية ،
فالاسلام والعربية هما اللذان اشعرا أهل جزيرة
المغرب بأن لهم شخصية جبارة ، وأن لهم دورا
يعبونه ، وهما اللذان بوتقا وبلورا الشخصية
المغربية »

أبرز ملامح الشخصية العربية المغربية أنها تجمع بين العروبة والإسلام ، وفلسفتها في
هذا تقوم على مفاهيم واضحة من صميم الواقع ، هي أن العروبة والإسلام كل لا يتجزأ
ولا يفصل ، وأنه إذا كانت الوحدة العربية هي التقاء سياسياً شاملاً يجمع الأمة التي
تتكلم اللغة العربية في مجال واحد من المحيط إلى الخليج ، فإن الإسلام هو مادة الثقافة
والتاريخ والقيم والمثل التي تقوم عليها الرابطة العربية .

فعروبة المغرب كما تناولها كثير من الباحثين إنما تقوم أسسها على : اللغة والدين والتاريخ
المشترك . والأكثرية الساحقة من البربر تتكلم العربية وبها يتفاهم السومى مع الريفي ،
والشلىح مع القبلى . يضاف إلى هذا أن البربر يحرسون على تعلم العربية لكونها لغة
دينهم ، ولأنها اللغة العلمية القومية الوحيدة التي تساعد على تطورهم الفكرى بينما لا تنى
لهجاتهم البربرية بأكثر من معنى التخاطب .

وقد التقت الآراء في الأقطار الأربعة التي تكون المغرب العربى على هذه المفاهيم
وواجهت المغالطات الاستعمارية التي تحاول أن تجعل الشمال الإفريقى من أصل أوربى
مرة ومسيحى مرة أخرى ، وخليط مرة ثالثة .

فالسيد البشير : لإبراهيمى رئيس « جمعية العلماء » وخليفة عبد الحميد بن باديس
قيادة الحركة الفكرية في الجزائر يقول :

« إن عروبة هذا الوطن جرت في مجاريها طيعة مناسبة ، لم يشبها إكراه ، ولم يشبها
حنف ، ولم يؤثر فيها عامل دخيل ، ولم تقم على تحيل أو استغفال ، كانت الأمم التي
كانت تغطي هذه الأرض قبل الاتصال بالعرب مهياة للاتصال بالعرب .

إن الدول التي قامت في هذا الشمال كاللبنانية والرسومية والموحدية والصنهاجية
والمرينية والزيرية ليس لها من البربرية إلا النسبة العرقية ، وهي فيما عدا ذلك عربية صميعة ،
عربية في الضروريات المقسومة للدولة ، عربية في الضروريات ، وعربية في
الكماليات .

ينكر الاستعمار عروبة الشمال الإفريقي بالقول ، ويعمل نحوها بالفعل وهو في
جميع أعماله يرمى إلى توهين العربية بالبربرية ، وتقل الموجود بالمعدوم ، وإنما يعتمد
العربية بالحرب لأنها عماد العروبة ومسكة الدين أن يزول ، ولأن لها كتابة ، ومع الكتابة
العلم ، وأدباً ومع الأدب التاريخ . »

★ ★ ★

والسيد « علال القاسي » المفكر العربي الإسلامي المغربي ، ورئيس حزب الاستقلال
في المغرب يقول :

كان هناك صراع في تاريخ المغرب بين نفوذ العائلة اللاتينية والعائلة العربية التي تركب
ذهنيتها من مجموع تأثيرات الحضارة المغربية واليونانية والسامية ، ولكننا نجد
أن النصر كان دائماً حليف هذه الحضارة العربية التي تكون الأساس الأصيل لحضارة
البحر الأبيض المتوسط ، هذا الأساس الذي لا يعني بالمادة بقدر ما يعني بالروح ، وذلك
برهان على تكيف الذهنية المغربية على مركب هذا الأساس الذي يحس بالقرابة الأصيلة
بينه وبين سائر أنحاء العالم .

على أن المغرب على الرغم من ارتضائه للإسلام ديناً والعروبة لغة قد ظل دائماً معتداً
بوجوده الخاص ، ناشداً مكانه تحت شمس العروبة ، غير راض أن يكون في مؤخرة
القافلة العربية أو بعيداً عن مركز القيادة فيها .

طال الاستعمار الروماني والبيزنطي والوندالي في البلاد ، ولكنه لم يستطع أن ينال
من معنوياتها أو يقضي على شخصيتها ، وما هوذا الاستعمار الفرنسي والإسباني يزداد
طفحاً ويحسب أنه بالإرهاب والعنف والكيد سيقضي على وجودنا كأمة عربية مستقلة ،

ولكن التاريخ سيعيد نفسه ، وسيبقى هذا الاستعمار ولن يبقى من أثره إلا ما يسجله من صفحات (١) .

ويقوم الفكر المغربي على أساس : اللغة العربية والإسلام معاً .
يقول جمال البغدادي القادري : إن الخطط العريقة للفكر الجزائري ، أنه فكر عقائدي يؤمن بالله وحده ، ولا يكاد يفصل بين مفهوم العروبة ومفهوم الدين ، ولعله كان سباقاً للدعوة إلى هذه الازدواجية العميقة ، ويعتبر تقديمياً إذا قارناه بما يجري في الشرق على لسان كثير من الكتاب هنالك ، والذين يحاولون إبعاد الدين عن المعنى القومي . «

والواقع أن هذا الارتباط يرجع إلى امتزاج العنصرين العربي والبربري - الذي هو أيضاً عربي الأصل - وقد جرت محاولات الاستعمار طوال معركته مع المغرب حول القضاء على هذين العنصرين ، وكانت المقاومة دائمة متصلة في الحفاظ عليهما معاً .
والواقع أنه لا سبيل إلى الفصل بين اللغة العربية والإسلام الذي هو وجه الثقافة العربية ومقومها ، وهو الرابط الحقيقي بين المغرب العربي والشرق العربي .

وقد عاش المغرب العربي يلتقي نظرتين دائبتين : أولاهما إلى المشرق العربي ، وهي تمتد حتى تصل إلى نهاية المدى في العالم الإسلامي ، والأخرى إلى أوروبا .

وكانت عقائده وأفكاره مستمدة من المشرق ، ومن جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، ولم تفلح كل المؤامرات التغريبية في تحويله عن هذه الوجهة أو القضاء عليها . .

وفي أحلك ساعات المحنة ، كان المغرب يصر على شخصيته الواضحة ذات المعالم الكاملة ، المختلفة عن الشخصية الفرنسية ، وأبرز معالم هذه الشخصية المغربية هي : العروبة والإسلام ممتزجين . لقد كان السيد عبد الحميد بن باديس في معركته الكبرى يؤكد دائماً أن الجزائر ليست فرنسا ولن تكون فرنسا ، وكانت دعوته هي : الجزائر . اللغة العربية . الإسلام .

وفي تونس ردد كتابها دوماً وهم يتحدثون عن تكوين الثقافة المغربية أنها ثقافة عربية في لغتها ، إسلامية في كنهها مع علوم عصرية .

وفي المغرب يتحدثون عن : المزج بين « للعروبة والإسلام مزجاً رائعاً » .

(١) كتاب « الحركات الاستقلالية في المغرب العربي » ١٩٤٨ .

وأنه بالرغم من تنوع الثقافة بين الزيتونة وفرنسا وأسبانيا فإن الإجماع أكيد على هذه المفاهيم ، ولم يشذ عن ذلك إلا القليلون الذين دعوا إلى أن تكون لغة الثقافة هي الفرنسية ، والدكتور عزيز الحبابي يقول : إن القاعدة الأساسية التي يبنى عليها المغرب حياته هي الإسلام .

وقد حملت الدعوات والحركات الفكرية في المغرب العربي : من السنوسية (ليبيا) إلى السلفية (المغرب) إلى الإصلاح (تونس) إلى جمعية العلماء (الجزائر) مقاومة صلح المغرب العربي من عروبه وإسلامه معاً بإحياء الشخصية المغربية العربية الإسلامية عن طريق تطهير الإسلام وإحياء اللغة وفتح المدارس والزوايا ، وإحياء التاريخ .

وكان هذا في رأي الدعاة والمفكرين في المغرب العربي أمثل وسيلة للوقاية من الدويان في الأمة الفرنسية، والاندماج في العناصر الأجنبية . وعاونت جامعة الزيتونة وجامعة القرويين ، والمساجد على حماية اللغة والإسلام معاً ويرى روم لاندو أنه على الرغم من مرور سنوات طويلة على المغرب وهو تحت الحكم الفرنسي فإن الثقافة واللغة الفرنسية لم يمتصها إلا مئات قليلة ، وظل شعب مراكش ينظر إلى الثقافة الفرنسية على أنها شيء أجنبي دخيل ، مؤمناً باللغة العربية على الرغم من معرفة الفرنسية .

وقال لاندو : لقد اتضح أنه بالرغم من كل الجهود التي ظل الفرنسيون يحاولونها أكثر من نصف قرن لتحويل المراكشيين إلى صورة منقولة عن محاولاتهم لفرنسة الجزائريين فإن هؤلاء أخذوا يتجهون أكثر فأكثر إلى ثقافتهم الخاصة وتاريخهم الماضي .

ويقول « لاندو » إنه في الجزائر أيضاً فشلت حركة الفرنسية ، وانتصرت اللغة العربية . وأكد هذا كله رسوخ قدم الحضارة الإسلامية واللغة العربية على النحو الذي لم يسر للزحفة الفرنسية - برغم شدتها واستبدادها - بمقاليد السلطة - أن تضع ذلك موضع جدال - على حد تعبير علي القليوطي .

وظل مفهوم الإسلام في المغرب هو المفهوم الحقيقي كما صورته عامر غديرة (تونس) ، انه ليس ديناً فقط ، بل هو مدنية كاملة وحضارة عظمى ، وهو دين وهو أيضاً أدب وموسيقى ونقش وفن معماري ، وهو دين وجهاز خلقى كامل ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهو دين وجهاز قانوني تام ، نظر في الميراث ، ودقق في مسائل الزواج تدقيقاً ، وهو فلسفة واسعة متشعبة منها نشأ الاعتزال والصوفية . .

ويعتبر محبوب بن ميلاد موقف (تونس) من العروبة والإسلام فيقول : إن الحادث التاريخي الحاسم الذي طبع الشخصية التونسية بطابع لا يلبى على مر الدهور ، هو انفتح الإسلامى ، فأصبحت أمة من الأمم العربية لغة وأدباً وفتناً ، الإسلامية إحساساً ومعتقداً ومبادئ وقيماً . فتونس جزء لا يتجزأ من الإنسانية العربية الإسلامية ، ويرى محمد الحليوي أن الثقافة العربية هي الثقافة الإسلامية ، العربية اللسان الإسلامية التاريخ .

وعند « على البهلوان » أن الثقافة المغربية هي الثقافة العربية الإسلامية ، ولا يمكن التفريق بين اللفظين ، وعنده أن مميزات الثقافة العربية الإسلامية : العقل ، والابتعاد عن الغموض ، والبيان ، والاتزان .

وأن مستقبل الثقافة في تونس مرتبط بمستقبل الثقافة في الشرق العربي ارتباطاً كلياً .

والرأى بين المفكرين أن الثقافة في تونس مرتكزة على الماضي الإسلامى ومآثره الفكرية والخلقية والأدبية ، وقد اتخذتها الحركة الوطنية عماداً وحاجزاً ، يصد عنها محاولات الاستعمار .

ويرى الطاهر الحميرى (تونس) أن الدين واللغة من العناصر التي تكسب الثقافة لونها الخاص ، وأن الثقافة العربية في المغرب « إسلامية التاريخ ، عربية اللسان » ويرى أحمد عبد السلام (تونس) أن الثقافة العربية أشد الثقافات اتصالاً بماضيها ، وتجلى تلك الصلة القوية في رجوع العرب إلى ماضيهم كلما اعترضهم في حاضرهم مشكل من المشاكل .

وأن الثقافة ترتكز على ماضى الأمة ؛ ماضيها الحى في نفوس أفرادها ، فهذا الماضي جزء من الحاضر لا يتجزأ عنه لا ماضيها المدون في كتب التاريخ ويرى أبو القاسم كرو (تونس) أن مقومات الثقافة هي اللغة العربية وإنتاجها الفكرى ، ومجموعة القيم والمثل الخلقية والاجتماعية ، والطابع الخاص الذى تتميز به الثقافة واللغة العربية في المكان الأول .

ويقول عبد الكريم غلاب (المغرب) : إن حضارة الإسلام بما فيها العقيدة والخلق والفكر الاجتماعى هي التي سبرت تاريخ المغرب وكونت وحدته . وإن فهم الإسلام في المغرب كان سليماً لم تغلب عليه خرافات المصلين ، وإنه لا خوف من التيارات المادية في المغرب ، لأن الإسلام ليس دين خرافة ولكنه دين توحيد وعلم وتقدم وحضارة .

ويؤكد الأستاذ أحمد توفيق المدني المؤرخ الباحث التونسي المولد ، الجزائري
النشأة ، ومن الرعيل الأول في جمعية العلماء ، إن (المغرب العربي) لا يفرق بين
العروبة والإسلام ، فالأثنان مفهوماً واحداً ، لا يكون المسلم إلا عربياً ، ولا يكون
العربي إلا مسلماً ، ولنا نحو العربية والعروبة نفس التقديس الذي لنا نحو الإسلام .
وقال : إن الإسلام كان عنصراً أساسياً من عناصر الثورة الجزائرية الكبرى ،
وكان أقوى الدوافع للقيام بالثورة أولاً وللإستمرار فيها ثانياً ، وكان عنصراً أساسياً
في نجاح الثورة وإن الذين شاركوا في الكفاح المسلح كان الدافع الأساسي لهم هو
الدفاع عن الدين إلى جانب الدفاع عن الوطن .

ثالثاً - التراث المغربي والتراب المغربي

في معركة التحدي ورد الفعل ركز الفكر المغربي اهتماماته الضخمة على ماضي المغرب وأمجاده وعلى التراب المغربي ووحدة ، فاحتضن التراث والتراب وأشاد بهما ، وبهما تغنى الكتاب رداً على الدعوات الباطلة التي أثارها دعوات التغريب والفرنسة الفكرية ، وصيحات الازدراء والسخرية التي وجهت إلى « التاريخ » و « الأرض » المغربية .

وقد برز من أجل هذا في كل قطر من أقطار المغرب دعاء أقرب ما يكون إلى الأدب القومي الإقليمي المحض ، غير أنه لم يكن إقليماً بالصورة التي تشكر لعروبة المغرب ، أو لوحدة ، أو للوحدة الكبرى ، أو للثقافة العربية الإسلامية . وإنما كانت هذه الإشادة بالأبجاء الإقليمية « ضرورة » من ضرورات الدفاع عن الحرية ، والدعوة إلى التحرر من أغلال القرينة وتجريد المغرب من مقوماته ومحاولة إدماجه في قومية أخرى غير قوميته . وإذا كانت تونس تشيد بأبجاء الأغالية ، بينما مراکش والجزائر تشيد بالموحدين ، فإن تونس كانت دائماً تذكر « الزيتونة » ، كما تذكر المغرب « القرويين » وكانت الأقطار الحزاة اسماً تتلاقى في آلامها وأحداثها ، ولا تتخاصم أو تتناكر لوحدها الشاملة .

ولقد جرت الدعوة إلى كتابة الأدب القومي : « أدب المغرب الغنى بمناظره الطبيعية الخلابة ، وهذه وديانه وخلجانه وهضابه وسهوله وجبانه وغاباته ، وقد كسته الطبيعة وحبته يجمهاها الفائق الذي يلهم من الصور البيانية والأخيلة الشعرية ما تعجز عن التعبير عنه ريشة أمهر المصورين ، وما لو استلهمه أدباؤنا بلحاءوا بالمرقص المطرب ، والمعجز المقحم ، الذي يسمو بهم إلى مرتبة الخلود .. » (١)

وتبدو صورة الحب للتراب المغربي في مناجاة علي مصطفى المصراقي لطرابلس : « طرابلس الغرب اسم حلو عذب ، سمعته لأول مرة من أمي وأبي وهما يقصان علي

(١) مجلة الانيس - المغرب م ١٩٥٢ .

مسامعى تاريخ هذا البلد ، وقصص البطولة فيه ، وأدوار الجهاد الوطنى لأبنائه ،
وكانا مشردين مهاجرين فرا من اضطهاد الاستعمار الظالم مع آلاف المهاجرين وقوافل
القادمين على الإبل والأقدام ، قاطعين الصحراء اللافتة ، تاركين وطناً مغصوباً ،
قادمين أرض مصر الحبيبة قبله الأحرار .

وتحس دائماً من كتاب المغرب اعتزازاً به ، فهو عند (عبد الله كتون) المغرب
الذى فتح الأندلس ، وركز راية العروبة فى أرضها ، وحماها وذاد عنها مدى القرون
الثمانية التى خفق علمه عليها ، وأسس أكبر دولة عرفها شمال إفريقيا ، إذ كانت تمتد
ما بين حدود مصر الغربية إلى جنوب أوروبا ، وامتازت حضارته بما تحتفظ به من
عناصر عربية أصيلة ، فإنها وإن كانت بحكم نشأتها على الصعيد الإفريقى وحول البحر
الأبيض المتوسط ، لا تخلو من بذور تكوين أولية ترجع إلى هذه البيئة الخاصة ، إلا
أن تأثيرها بحضارة دمشق أيام حكم الولاة كان أقوى ، وزادها التفاعل مع حضارة
قرطبة أيام حكم المرwanيين قوة ، فاصطبغت بالصبغة العربية التى لم ترايلها بعد ،
ولئن بقيت إلى عهد المرابطين آخذة ومعطية فإنها فى عهده الموحدين والمرينيين ،
كانت صاحبة اليد العليا فى الأندلس التى تنطق آثارها المتخلفة عند هذين العهدين
بأنها وليدة العظمة الموحدية والعبقريّة المرينية ، وعلى ذلك فإنه حين كانت موجات
دول المماليك التركية تندفق على مشرق البلاد العربية كان مغربها يتمخض عن دول
عربية حسنة الرعاية للتراث العربى والحفاظ عليه .

ويجربى تمجيد (١) « تونس » على لسان الحبيب بورقيبة ، فهى التى تطل من
شرفتها المغربية على أوروبا وعلى الشرق ، وسواحلها تستقبل الرجال والآراء المتواردة
من الشاطئين ، وهى مرتفع يتصب حاجزاً وسط البحر عندما تعصف فيه عواصف
يثيرها البشر ، هذه المكانة الجغرافية الاستثنائية هى بلا شك التى حبت تونس بشخصيتها
القوية ورسمت لها مصيرها ، فهى أداة وصل ، وفى إمكانها أن تقوم سداً بين العالم
الشرقى والعالم الغربى .

وتربة تونس مثقلة بدماء المعارك التى دارت فوقها خلال التاريخ ، وقد تجابه فيها
أول الأمر الغرب اللاتينى أو الجرمانى مع الشرق الفينيقى أو الإسلامى قبل أن يمتزجا .

(١) خطاب بورقيبة - نشرة الدكتور مرة النص فى كتابه « العالم العربى » .

وعنى الكتاب يبحث كلمة (المغرب) . ف يرى عبد الوهاب منصور أن الأجداد أطلقوها على مايقابل المشرق في عرفهم ، وإن كانوا لم يحددوا حدوده الشرقية بدقة ، فهو عند فريق منهم يبتدىء من الضفة الغربية لوادى النيل ، وعند فريق ثان من عقبة السلوم ، وعند فريق ثالث من خليج سرت ، حد إقليمي برقة وطرابلس .

وقد يتوسعون في هذا الإطلاق قليلاً ، فيجعلون كلمة المغرب شاملة لكل الأراضي الواقعة بالحوض الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط ، كالأندلس والجزائر الشرقية (الباليار) وجزائر صقلية وسردينيا وقرسقة ، كما يجعلون كلمة مغاربة شاملة لسكان هذه الأقطار جميعاً ، فإذا أطلقت غير مضافة ولا موصوفة ، فهي الأراضي التي يتكون منها القسم العربى لشمال إفريقيا فقط .

وقد أطلق الجغرافيون على هذه الأراضي أسماء كثيرة منذ فجر التاريخ إلى أيامنا ، مثل ليبيا وإفريقيا الصغرى ، والسلسلة الإطلمنية ، والبربرية ، وبلاد البربر ، ودعته الهيئات القومية بالمغرب العربى .

ويرى عبد الكريم (١) غلاب أنه لابد من الإيمان بأن همة أهل المغرب قد صنعت منه محطة استقبال وإرسال ، وجعلت منه مركز الثقل للحضارة المتجهة نحو الأندلس ، وحماية هذه الحضارة من فكرة الاسترجاع التي ظلت تراود الإسبانيين ثمانية قرون ، وقد كان دور المغرب هاماً في تحمل حماية الفردوس المفقود أربعة قرون أو تزيد .

ويقول : نقلنا من حضارة الرومان كل ما لا يدخل في باب الاستعمار ، ونقلنا علوم اليونان عن طريق العرب ، ونقلنا حضارة العرب ودينهم ولغتهم وأدبهم ، وأسهمنا في كل وسائل الحضارة ، ثم رحلنا بحضارتنا هذه مجتازين مضيق الحوض إلى الأندلس وجنوب فرنسا ، وحمينا هذه الحضارة مايقرب من ثمانية قرون ، مؤثرين ومتأثرين ، ودعمنا أسس هذه الحضارة في المغرب العربى : في الجزائر وتونس وليبيا ، وانتقلنا بحضارتنا وديننا ولغتنا إلى الجنوب ، إلى السنغال والسودان ، وكل الحملات التي وجهت لبلادنا باءت بالفشل حتى كان تأخرنا الحضارى سبباً في تخلصنا من وسائل المقاومة المادية ، عند ذلك قهرنا وما خضعنا ، ثم بدأنا نقاوم تخلصنا من الاستعمار .

ولم ير إعجاب وتقدير واعتزاز كاعتزاز المغرب بأعلامه ومؤسسته ، فتونس

(١) مجلة البيئة - العدد الاول - مايو ١٩٦٢ .

أحد معاقل العالم الإسلامى الثلاثة (الزيتونة) أنجبت أمثال ابن خلدون وابن رشيق وابن شرف وسحنون وأسد بن القرات وأبى الحسن وأبى اسحاق الحصرى القيروانى والمغرب ، يفخر بابن تومرت الذى سجل وحدة المغرب ، وبالقرويين حيث إن الشيخ محمد الايرارى يدرس أصول الموسيقى لطلاب من كافة أنحاء العالم فى أواخر الثالث عشر ، ومحمد بن سليمان مخترع كرة الدوائر الفلكية المشهورة ، وعبد الله اليفرنى . ولقد حظى ابن خلدون بجاه عريض ، وكتبت عنه مئات البحوث : هذا العلامة مؤسس علم الاجتماع الذى يمثل وحدة المغرب أصدق تمثيل ، انتقل من بلاط تونس إلى بلاط فاس ، ومن أشيلية إلى يجابة ، ومن تلمسان إلى غرناطة ، ولكنه لم يفرض نظريته فى الحياة السياسية واكتفى بأن دونها ، وهو يمثل خصائص الفكر فى الشمال الإفريقى : فكرة الشمول .

والمغرب العربى هو الذى أثر فى العالم الجديد منذ القرن السادس عشر حيث دخلت الحضارة العربية أمريكا الجنوبية بواسطة الغزاة البرتغاليين الذين اكتسحوا ذلك العالم الجديد ، فقد تلقت البرازيل ، خلال ثلاثة قرون متوالية ، تأثير المدنية الأندلسية فانسمت جميع مظاهر الحياة الاجتماعية الأمريكية بطابع مغربى ينمو ويضعف حسب الأوصاف .

والمغرب هو الذى فرض نفوذه على البحر الأبيض المتوسط الذى كان رومانياً فأصبح طوال العصور الوسطى بحراً عربياً يبحره وسواحله ، وأساطيله ، وأصبحت لغة القرآن هى اللغة الدولية للتجارة والعلم ، والأسطول الموحدى الذى كان يضم ٤٠٠ قطعة ، أصبح أول أسطول فى المتوسط .

ولا ينسى الفكر المغربى العربى الإسلامى ، « القيروان » رابعة العواصم العربية الكبرى فى نشر الثقافة ، حيث انتقلت منها إلى السودان الغربى وإلى الأندلس لغة العرب وثقافة الإسلام ، ومن أهل القيروان نبغ أقطاب اللغة والأدب كالفراز والحصرى وابن رشيق ، وورثت الزيتونة القيروان ولا ينسى المغرب أبطاله ومجاهديه عبد القادر وعبد الكريم وعمر المختار وماء العينين ، وأعلامه فى الأندلس من أمثال موسى أبى الغسان يقول عبد المجيد بن التهامى : « أنعرف أيها الطفل العربى ، كم تمنيت أن يكون فى كل عواصم الإسلام تمثال لموسى . أبى الغسان الغرناطى (فارس غرناطة) تمنيت ذلك إذكاء لشعورنا القومى ، وإشارة إلى العصر الذى ازدهرت فيه العروبة والإسلام .

ويرد الفكر المغربي على آراء المستشرقين : نعم ، طال أمد الاستعمار الروماني والبنظي والوندالي في البلاد ، ولكنه لم يستطع أن ينال من معنوياتها ، أو يقضي على شخصيتها .

فالمغرب مع ارتضائه الإسلام ديناً والعربية لغة ، ظل دائماً معتداً بوجوده الخاص ، ناشداً مكانه تحت شمس العروبة ، وهو منذ القديم كذلك ، وإنك لتجد في كتب ابن جبير وابن خلدون وفي شعر ابن هانيء من الأدلة الواضحة على تمسك المغربي بوطنه ، وحبه لبلاده ، وتفضيله لها حتى على الأوطان الشقيقة مالا نجده في آثار أدباء الأمم المعاصرة لهم ، هذه الروح القومية هي التي دفعت المغرب العربي إلى الاستبسال في سبيل الذب عن كيانه طيلة القرون الوسطى الأوربية كلها ، بعد أن توالى عليه هجمات عديدة من دولتين شديتني التعصب هما إسبانيا والبرتغال . (١)

ولا ينسى الفكر المغربي أن يشيد بفضل على الثقافة العربية الإسلامية ، فمنذ وقت بعيد أخذت الثقافة المغربية الإسلامية طابعاً خاصاً متميزاً عن طابع المشرق في الخط المغربي ، فكان هناك قلم مغربي خاص ، وفي الفن الإسلامي طابع خاص ، وفي الثقافة الدينية « المالكية » ، وفي الناحية الفكرية « الترعة السلفية » ، ومدرسة القيروان ومدرسة فاس .

كما لا ينسى أهل تونس أن يفخروا بماضيهم الفينيقي والقرطاجني .

أما الأندلس فإن الفخر به عظيم ، لا ينسى أبداً ، ويقاوم الفكر المغربي محاولة الفصل بين حلقات ماضيه ؛ فهي قبل الإسلام وبعده حلقات من أمجاده ، لذلك لا يرضى عن الغربيين حين يحاولون الربط بين الفترة اللاتينية السابقة للإسلام ، وفترة النفوذ الفرنسي بعد عام ١٨٣٠ مهملين ثلاثة عشر قرناً من التاريخ المغربي ، وعندهم أن التاريخ هو « ذاكرة الأمة » . ولا مستقبل للأمة إذا لم تكن واعية للماضي . ولا يتصور الفكر المغربي « الثقافة المغربية » إلا ضمن الثقافة العربية الكبيرة تحتضنها وتغذيها وتتفاعل معها ، كما لا يتصورها إلا مفتوحة على ثقافات البحر الأبيض المتوسط تتفاعل معها كذلك في حوار لا ينقطع .

وعندما غمرته التيارات الحديثة ، استطاعت طبيعة المغرب أن تتمرد على هذا الغزو الموجه ، لتثبت قوة الاستمرار الحضاري والثقافي ، ولتقضي على إرادة العزلة

(١) الحركات الاستقلالية في المغرب العربي - علال القاسي

التي حاولت التيارات الاستعمارية ان تفرضها على المغرب . ولا ينسى الفكر المغربي هجوم فرسان مالطة على طرابلس، وهجوم الإسبان على تونس، وغزوة لويس التاسع ضد الحفصيين ، والاستعمار الإيطالي :. ولا ينسى فاجعة (ماي ١٩٥٤) ومعركة سطيف .

رابعاً - عروبة البربر

قال الحسن السائح :

« الذين يدرسون اللغة البربرية يشهدون لها ، لامجال
للشك في انتسابها الى الأرومة السامية التي تجمع بينهما
جنسيا وسلاليا

اللغة البربرية من العائلة اللغوية السامية كاختها
العربية ، وهي من اللغات السامية القديمة المعبر عنها في
تاريخ اللغات .

وهي تتشابه مع العربية في كثير من المفردات ، واصل
الاشتقاق ومخارج الحروف ، وقد نقحت هذه اللغة مرة
أخرى بالعربية القحطانية بعد جلاء يهود خير عن ضواحي
يثرب واقامتهم بشمال افريقيا ، كما نقحت قبل ذلك بالعربية
قبل الميلاد بخمسة قرون ، أي عام ٤٨٠ ، حيث هاجرت
قبائل كنعانية عربية الى بلاد افريقيا » .

لا أعتقد أن قضية من قضايا الفكر المغربي (العربي الإسلامي) واجهت اهتماماً وشغلت
الباحثين والمثقفين في المغرب والعالم العربي والإسلامي وفي أوروبا وفرنسا بالذات
كما شغلتهن هذه القضية التي ركز الاستعمار الفرنسي عليها ، وحاول أن يجعل منها
وسيلة إلى تمزيق وحدة المغرب العربي الذي التقى فيه العنصران العربي والبربري منذ
أربعة عشر قرناً وامتزجا امتزاجاً تاماً ، وقد جمعهما الإسلام واللغة العربية .

فضلاً عما أسفرت عنه البحوث العلمية وأكادته وقائع التاريخ وأسانيده من
أن البربر في الأغلب والأكثر سلالة عربية أصيلة ، وموجة من موجات الجزيرة
العربية .

وفي مختلف كتب التاريخ المغربي التي ألفها كتاب فرنسا والمغرب كانوا يحرسون
على محاولة التشكيك في (١) امتزاج العنصرين (٢) في عروبة البربر . (٣) إبراز وجوه

من الخلاف في التقاليد والعادات والطباع والأخلاق . (٤) الإدعاء بأن البربر الذين فتحوا إسبانيا وغزوا فرنسا وفتحوا إيطاليا إنما كانوا برايرة مسيحيين ، وأنهم منحدرون من شعوب أوربية أصلاً . (٥) الإدعاء بأن البربر شعب مستقبل بعيد عن العرب (الغزاة) . (٦) الدعوة إلى إحياء عاداتهم وتقاليدهم والعرف الخاص بهم ليكون مصدراً للتشريع المدني .

وكان الكاتب الفرنسي جونييه في مقدمة من حملوا لواء هذه الدعوة مستعملاً أساليب البحث والعلم أداة لخدمة الغايات الاستعمارية ، كما تناول هذا أيضاً المؤرخ موسان في كتابه « تاريخ الرومان » ودعا المستشرق ماسينيون في دروسه في الكوليج دي فرانس إلى جامعة بربرية لتعاون الجامعة العربية .

ودعا جودفري ديمومبين في رسالة التعليم إلى التفريق بين العنصرين ، وأنه من الخطر ترك كتلة ملتحمة من المغاربة ، وفي دائرة المعارف الإسلامية ردد (ج. بفر) (١) هذه الآراء .

وكانت فرنسا قد اتخذت طريقها فعلاً إلى هذا العمل بإجراءات ذات صفة رسمية بإنشاء معهد اللهجات البربرية ، وفي عام ١٩١٤ حيث صدر ظهير سبتمبر المعروف الداعي إلى احترام التقاليد البربرية ، وفي عام ١٩١٥ كون الفرنسيون لجنة الأبحاث البربرية ودراسة الأعراف وجمعها ، ولحقه ظهير ١٦ مايو ١٩٣٠ الذي كان أضخم الخطوات في هذا السبيل

وانبرى الفكر المغربي العربي الإسلامي لهذه المسألة الخطيرة فواجهها مواجهة علمية ، وحققها من جميع جوانبها التاريخية والاجتماعية والسياسية ، وكان في مقدمة من تصدوا لهذا البحث : عثمان الكعاك (تونس) ، علال القاسي ، محمد المكي الناصري ، محمد سعيد الزاهري ، إدريس الكنانى (المغرب) .

١ - وخلاصة رأى عثمان الكعاك الذى ألف كتاباً مستقلاً عن البربر - هو أن البربر في عمومهم أمة يمينية عاربة قحطانية ، نرحوا من الجزيرة العربية إلى السودان والمغرب والأندلس وجزائر البحر المتوسط ، هذه الأمة العاربة القحطانية قامت بأول فتح عربى للمغرب ، ونشرت العمران بالدم العربى الفتح فى ديار المغرب ، وسجلت لأول مرة ونهائياً عقد ملكية المغرب للعروبة . والنسابون للبربر من (محمد بن حزم إلى

(١) حوليات الثقافة العربية ج ٢ « ساطع الحمري » .

إلى ابن خلدون) لا يجعلون للبربر عرفاً في غير (حمير) ، والبربر يكرهون جداً إلى اليوم أن يقال إنهم بربر ويسمون أنفسهم (أمازيغ) أى أشراف .

وليس البربر متوحشين ولا همجاً (الكلمة اليونانية ببروى) بل هم أرباب حضارة عربية ، والناشرون للحضارة العربية الأولى بأصقاع القارة الإفريقية . ولا اعتبار لما يذهب إليه بعض العلماء الفرنسيين من أن البربر من (السلت) أى من جنس (الغالين) قدماء سكان فرنسا ، فهذا الادعاء سياسى لا علمى ، يراد به إدماج البربر في الفرنسيين ، والتفريق بين البربر والعرب .

البربر عرب من اليمن ، والفينيقيون أيضاً عرب مستعربة شماليون من بنى كنعان ، أصلهم من فنيقيا أى الشام ، نرحوا إلى شمال إفريقيا في القرن الثاني عشر (ق . م) وأسسوا عاصمتهم قرب تونس ، كما أسسوا عدة مدن على طول الساحل المغربى قبل بتزرت (تونس) وبونة والجزائر والجيجل (بالجزائر) وطنجة وسلا (المغرب الأقصى) .

وقد أدت لحمة الدم العربى بين البربر العاربة والفينيقيين المستعربة إلى الأخوة طوال أحد عشر قرناً ، وشملت دولة الفينيقيين الأندلس وجنوب إيطاليا وجزائر البحر المتوسط وغانة الكبرى والمغرب الكبير .

واللغة الفينيقية شقيقة للعربية ، لأنها عربية قديمة . بقيت حية رغم الاحتلال الرومانى .

٢ - دحض أحمد الأخضر بالبرهان ما يزعم علماء الفرنسيين من الفروق البعيدة بين العرب والبربر في الأصول واللغة والمزاج وقال : الحقيقة أنهما شعب واحد فرقت بينهما الليالى ، ثم عادت الفروع فالتقت تحت راية الإسلام وأن عرق البربر ضارب بواجمير وإلى قيس .

هذه المحاورة رد علال القاسمى على الكاتب الفرنسى (جونيه) حول أصل كلمة (بربر) 'مة بربر تدل على السرعة وفي المسير مستشهداً على ذلك بشعر أورده وذلك قوله « ليكف مارس الجبار ! قفوا سبروا بربر » وقد عرف في أن المؤرخين أطلقوها على البرابرة المقيمين على شاطئ النيل ، إن عائلة من الشعوب الناطقة بالبربرية كانت تمتد من مصر وحتى نال ، ومن المتوسط إلى النيجريا ، ومن المعروف أنه يوجد في ادى البربر ، إذن فالإطلاق ورد على هذه العناصر ذات

العائلة اللغوية الواحدة من جهة السرعة في كلامها أو إقامتها بشاطئ النيل السريع ، ومن هناك دخلت في اللغة الرومية والكتنانية .

٤ - أما محمد سعيد الزاهري (١) فقد تناول هذا الموضوع بإفاضة ، وعنده أن القول بأن البربر هم من أصل لاتيني لم يقم عليه دليل يؤبه له من العلم والتاريخ ، وقد همد أصحابه إلى النقوش والصور التي لا يزال بعض البربر إلى الآن يضعونها على الأواني فقالوا : إنها تشبه بعض الوجوه التي وجدت في إيطاليا ، مما يدل على أن البربر من أصل لاتيني .

ويزعمون أن البربر ، حينما كانوا لاتين وكانوا نصارى ، نبغ منهم رجال في السياسة والدين ، ولأنهم بعد أن صاروا عرباً مسلمين انحطوا وتأخروا .

وزعم المؤرخ الفرنسي (رن) أن البربر كانوا أوزاعاً بين الأمم والشعوب ، وقال : إن أكثرهم هنود وآريون .

ويرى الزاهري أن ما تواتر عليه رأى المؤرخين هو أن البربر يجمعهم جذعان عظيمان هما البتر والبرانس ، وأن البتر من أبناء قيس عيلان بن مضر ، وأن قبيلتي كتامة وصنهاجة من قبائل البرانس ، وهما من عرب اليمن تركهما أفريقش (أحد تبايعه اليمن) في ليبيا هذه التي سميت باسمه (إفريقية) فيما بعد ، وذلك حينما رجع من غزوها .

وروى ابن عبد البر ، عن بعض النسابة من البربر ، أن البتر والبرانس هما جميعاً لأب واحد ، هو النعمان بن حمير بن سبأ ، ويرى المسعودي وغيره أنهم أوزاع من اليمن وغسان وخزام واخترام وغيرها من قبائل العرب ، وقيل هم من العماليق ، وقيل من العبرانيين والفينيقيين ، وقيل من المصريين ، إلا أن (ابن خلدون) يرى أن البربر كلهم من ولد (مازيع بن كتعان بن حام بن نوح) ولا يستثنى إلا قبيلتي كتامة وصنهاجة الحميريتين ، على أن ابن خلدون ليس على دعواه دليل إلا ما حكاه من أن البربر لا يسمون (الأمازيغ) وهذا لا يكتفى في إثبات هذه الدعوى . فقد تكون فئة (اندججت في البربر فغلبت عليهم اسمها) .

- هو أن

وقد انقرض اليوم هذا الاسم بالمرة ...

إلى السودان

وأن كثيراً من المؤرخين يرون أن البربر عرب ، وأنهم يتزلزلوا قامت بأول صميمها . ومن هذا انحل المشكل الذي حار فيه أكثر الفرنجة المغرب ، وسجلت من (محمد بن حزم إلى

(١) المقتطف - يونيو ١٩٢٤

تاريخ البربر ، حاروا في امتزاج العرب والبربر امتزاجاً شديداً ، حتى صاروا في مدة قليلة أمة واحدة متجانسة الأخلاق والعادات ، وهذا أمر عجب له كتاب الفرنجة أشد العجب ، وقالوا : إنه لم يوجد له مثل في التاريخ .

والعرب والبربر هما من عنصر واحد يجري في عروقهما دم واحد .
العرب حينما توغلوا في هذه البلاد يفتحونها لم يتخذوا لهم ترجماناً بينهم وبين البربر ، وهذا معناه أن اللغة البربرية لم تكن يومئذ تريد على أنها لهجة عربية محرفة يفهمها العربي دون مشقة أو عناء ، وكان يومئذ أكثر أسماء الأعلام من البربر عربياً ، وهذا طارق ابن زياد : سمى طارقاً في أوائل الفتح الإسلام وقد كان أبوه زياداً قبل ذلك .
وخطبة طارق تمثل النفسية العربية في أكرم صورها وأسمى معانيها ، ومعنى هذا أن طارقاً عربى بطبيعته ومزاجه .

لو أن ابن خلدون نظر إلى اللغة البربرية لكان له رأى آخر في أصل البربر ، وإذن لوجد فيها ما يدل على عروبة البربر ، أو ما يدل في الأقل على أصلهم للسامي ، فهذه اللغة البربرية هي عربية لا في ألفاظها ومفرداتها فقط ، بل أيضاً من حيث تراكيبها وحروف المعاني فيها .

★ ★ ★

وجملة القول أن عروبة البربر أكيدة وصحيحة . وأن كل النظريات التي قدمها الغرب للتشكيك في عروبة البربر لم تتأيد بل دحضها التاريخ . وقد قام شانترويرتلون بدراسات لسكان الأطالس والقبائل في الجزائر وجنوب تونس وهضبة الحمير فقاما بالجماع والذقون والأنوف ، ولم يستطيعا أن يصلوا إلى شيء يؤيد نظريتهم ، ولم تفلح نظريات المؤرخين الفرنسيين الذين حاولوا تفكيك التاريخ المغربي والإلحاح على عناصر معينة منه للبربر دور بارز فيها ، والواقع أن البربر أنفسهم قاوموا هذه المحاولة وعارضوها .

خامسا - وحدة المغرب العربي

ليست وحدة المغرب العربي في حاجة إلى الدفاع عنها أو تأكيدها ، فهي حقيقة تاريخية واقعة ، غير أن الاستعمار حاول أن يشكك فيها ، وذلك بإقامة الحدود بين الأجزاء المختلفة ، متخذاً في كل قطر سياسة تختلف عن الأخرى ، رغبة في خلق قوميات ضيقة ، كما جرى على خلق قضايا ومساائل يريد بها تصوير ملامح متغايرة لصورة واحدة ، ومضى النفوذ الأجنبي عن طريق البحوث العلمية والتاريخية غير الخالصة لوجه العلم ، وعن طريق الصحافة التي كان يصدرها في المغرب العربي يصور للعالم الإسلامي أن ليبيا غير تونس ، وأن الجزائر غير المغرب ، وأن كل قطر من هذه الأقطار يختلف في عناصره وتاريخه وأخباره ، وأن هناك خلافاً في التاريخ وفي الجغرافيا وفي الفكر .

ولم يكن هذا كله في حقيقته إلا محاولة ماكرة لتمزيق وحدة المغرب العربي الذي هو بجملته قطاع كامل من الوحدة العربية والعالم الإسلامي .

ولقد واجه الفكر المغربي هذه القضية مواجهة علمية تاريخية ، وقدم الأدلة والأسانيد على دحض ما ذهب إليه دعاة التغريب والتزيق والتقسيم .

يقول علال الفاسي : إن وحدة المغرب شيء قار في النفوس ، ثابت في الذهنيات ، يجري به الدم المشترك ، ويسرى به الإيمان المتوقد في الأرواح ، ويصعد به التاريخ العميق الذي سجل على صفحاته سطوراً من نور ، وقد قضى الاستعمار الإسباني والتركي أولاً ، ثم الفرنسي أخيراً أن يوزع مغربنا ، ولكن الوحدة العملية لا تؤثر فيها آفات الدهر ولا أحداث المستعمرين .

ويفصل هذا عبد العزيز بن عبد الله ، الذي يقرر أن المغرب في عرف المؤرخين العرب هو مجموع الأقطار الإفريقية الممتدة غرباً من مصر بما فيها برقة وطرابلس ، والتعريف يستند إلى حقائق إنسانية لها مظاهر سلافية واقتصادية واجتماعية ناتجة عن الإطار الجغرافي ، كما أن لها عوامل تاريخية تمخضت عن وحدة الفكر والراث . إن جزيرة المغرب محاطة بالبحر من أهم جهاتها (شمالاً وغرباً وشرقاً) وتعتبر الصحراء امتداداً طبيعياً لها في

الفيافي الإفريقية ، ومجموع سكان هذا الجزء من العالم يحملون نفس الاسم ، وهو (أمازيغ) من طرابلس إلى قابس إلى الصويرة .

وقد دهش المؤرخون الغربيون للسرعة الحارقة التي كان المغرب يسترجع بها وحدته السياسية في ظرف سنوات معدودة ، بحيث تمتد المملكة بمجرد انبثاقها من مركز إلى مركز إلى أقصى التخوم .

ويزعم المؤرخون الغربيون انعدام نقطة مركزية أصلية تلتف حولها الأمة ، ويقولون : إن الوطنية العربية أو البربرية ، لا تتركز على التراب ، ولا تستلزم وجود وطن له حدوده وذاتيته الخاصة . وقد واجهت هذه النظرية النقد والتفنيد ، إذ أن أبرز مظاهر وحدة المغرب العربي هي « المظهر الجغرافي » الذي تمخضت عنه كثير من المظاهر ، وبالأخص الحاجيات الاجتماعية ، والوحدة الاقتصادية . ذلك بأن أقطار إفريقيا الشمالية تتجلى كجزيرة جبلية شاسعة تمتد من الشرق إلى الغرب في مسافة ينيف طولها على ١,٨٠٠ كيلو متر وعرضها على ٤٠٠ كيلو متر ، ويحف بها البحر من ثلاث جهات ، في حين تغفل جنوباً في فيافي الصحراء ، وإذا استثنينا هذه الصحراء الشاسعة التي هي امتداد طبيعي للمغرب العربي ، وجدنا أن مساحة إفريقيا الشمالية تبلغ ٨٠٠ ألف كيلو متر ، ويمتد الأطلسان الأوسط والكبير نحو الشمال الإفريقي عبر المغرب العربي بوساطة الأطلس التلي ، بينما يفرج الأطلس الأكبر شرقاً إلى جبال القصور ، ثم يستطيل (أطلس صحراوي) نحو الشمال الشرقي في سلسلة سابقة تتخللها ممرات واسعة ، وفي (تونس) يلتحق الأطلسان ، الواحد بالآخر ، ثم يمتزجان .

وتتسم الشواطئ بنفس المظهر ، ضفاف واطئة في المحيط الأطلسي ، دون أي نتوء صخري ، وعلى ضفاف المتوسط شواطئ تتخللها فرض ضيقة مفتوحة لرياح الشمال والشمال الشرقي .

وخلاصة القول أن إفريقيا الشمالية واحدة في جميع مظاهر حياتها الماضية والحاضرة . (كما عبر عن ذلك الكولونيل بوطسن في كتابه عن إفريقيا الشمالية) فهي كتلة متراسة لا يمكن تجزئتها :

• جزيرة هائلة عاش سكانها منطوين حول أنفسهم آلاف السنين .

• أرومة واحدة .

• القطر اللبي امتداد طبيعي للمغرب العربي تجمع به بالمغرب وحدة الجنس ، علاوة

على وحدة التاريخ والحضارة ، وإن كان يتفصل عن المغرب جغرافياً واقتصادياً ، لأن الأطالس تمتد إلى تونس فقط ، ولأن الصحراء تمتد في ليبيا إلى الشواطئ نفسها .

وعن طريق مصر دخل إلى المغرب الفاتح العربي ، وبعد خمسة قرون تدفقت موجة العرب الهلاليين والسليميين ، والفينيقيون هم الذين حملوا من الشام إلى المغرب للمرة الأولى الزيتون والكرم والتين والرمان .. (١) »

وقد تناول عدد من الباحثين هذه القضية من زوايا متعددة ، ولكنها لا تخرج عن تأكيد « وحدة المغرب العربي » .

الوحدة اللغوية : جميع أهل المغرب يتكلمون اللسان العربي ، ويكتبون بالأحرف العربية ، وبعد خمسين سنة ستنتهي بقية اللغة البربرية القديمة التي عمل الاستعمار جهده على حفظها .

المغاربة مسامون ، ٢٨ مليوناً من السكان على طول خمسة ملايين ونصف من الكيلومترات .

أقطار الشمال الإفريقي كالحلقات المفرغة التي لا تطلق إحداها حتى تمسك بالأخرى .

لا يوجد في العالم شعب يمثل هذه الوحدة ويتكلم لغة واحدة وله أصل واحد ومشرب واحد .

وحدة عنصرية وجنسية أمكنها أن تصارع المحتلين وتقف في وجه المغيرين الأجانب الذين تعاقبوا على أرضها .

المغرب العربي يتكون من سلالتين : هما البربر الذين هم من أصل عربي أساساً ، والعرب ، وقد امترجوا منذ ثلاثة عشر قرناً وصهرهم الزمن في بوتقة واحدة ، سر امتراجهما هو وحدة العنصر ، وهذا سر التوافق الذي تم بينهما لسرعة فائقة .

الفينيقيون عرب مستعربة ، والبربر عرب عاربة ، واللغة الفينيقية ابنة عم شقيقة اللغة العربية ، ومن هنا جاءت الوحدة الجنسية واللغوية .

★ ★ ★

وقد حاول الاستعمار مقاومة هذه الوحدة بتمزيقها ، فكانت الشخصية المغربية ذات الطاقة العجيبة من الثبات أمام الهجمات الواردة من الخارج ، تنافح في قوة .

ولم تستطع القوى الاستعمارية القضاء على وجودها ، وقد تناول هذا البحث عديد من الباحثين ، يقول عبد اللطيف خالص (المغرب) إن الاستعمار حاول أن يطمس كيانا المغربى ولكننا قاومنا ، والواقع المغربى يدل على أننا أمة لها مقومات قوية ، وقيم مثلى ، وأخلاق وطنية ، وحضارة عريقة ، وأن هذا الوجود القومى المغربى كان قبل دخول الإسلام ، وأن المهاجرين للمغرب والمهاجرين إليه لم يستطيعوا أن يقضوا على وجوده وذاتيته ؛ بل أدمجتهم بلادنا في شخصيتها ، وعمرتهم بذهنيتها وأخلاقها ، وحفظت بذلك تبلورها القومى وكيانها المسدود في وجه كل غاصب ، وظلت الشخصية المغربية موجودة قائمة الذات داخل « المغربى » ، محافظة على وجوده برغم ارتضائه الإسلام ديناً ، والعربية لغة ، وقد نبغ في ميدان السياسة مغاربة يغارون على شخصية بلادهم وسيادتهم ، منهم ابن خلدون ، وابن بطوطة ، وابن جبير ، والفشتالى ، وابن زاكور ، وابن رشد ، وابن حزم ، والحاتمى ، وابن حبّوس ...

★ ★ ★

ولهل المغرب (١) هو أشد هذه الأجزاء دعوة للوحدة المغربية وحديثاً عنها ، وذلك رداً على ما حاول « جون جنتر » ترديده حين قال : وتعد مراکش بصفة خاصة غربية ، وقد وصفها غليوم بأنها كسرة منفصلة من القارة الأوربية . ومن المغرب الأقصى (مراكش) بالذات ارتفعت الصيحة لوحدة المغرب العربى وعقدت مؤتمر طنجة (مايو ١٩٥٨) الذى حضرته تونس والجزائر ومراكش ، وكان علال الفاسى قد دعا إلى وحدة المغرب العربى بعد قيام وحدة مصر وسوريا .. « رأينا توحيد العرب تتحقق في مصر وسوريا ، وبين العراق والأردن » فإن وحدة المغرب أمتن جغرافياً وتاريخياً من كل تلك التواحييد ، وأن حاجة المغرب وتونس والجزائر إليها أكثر من حاجة الدول العربية الأخرى .

إن المغرب قد أعرب عن هذه الرغبة وحقها في كل مرة سنحت فيها الظروف وتركته المطامع الاستعمارية ، وإن أزهى عصور التاريخ قد جعلت بلادنا وطناً راقياً واسع الأطراف متسع المكتات ينشر السلم والعدل والحضارة في كل الأنحاء .

(١) يسجل كثير من الباحثين بأن على باشا حانية « تونس » هو أول من حمل لواء توحيد المغرب العربى في ميدان الكفاح ضد الاستعمار .

وإن الشعب الذى يعيش فى كل المغرب والجزائر وتونس شعب واحد مكون من سلالات واحدة ، فيه العرب والبربر ، وفيه الأفارقة والمنحدرون من سلالات أوربية ، وكلهم تبلور فى هذه « العروبة المغربية » المعتزة بكيانها وبما لها من شجاعة وإيمان ، واللغة التى نتحدث بها هى لغة الضاد التى تفخر دائماً بأن لنا فيها من النبوغ والقدرة ، ما نتفوق به أحياناً على غيرنا من أبناء عمومتنا فى المشرق ، وحتى اللهجات التى تحتفظ بها بعض القبائل فى الجبال واحدة ، وتنتمى على اختلاف مجموعاتها إلى فصيلة واحدة مع العربية ، هى الفصيلة السامية ، والإسلام دين الأغلبية الساحقة دافعت عنه طيلة ألف سنة كاملة .

لقد عمل الذين سبقونا لتحقيق هذه الوحدة فى الحرب العالمية الأولى بقيادة على باش حانيه والحمامى والشقابي وغيرهم ، وبثورة ماء العينين والسنوسى ... ،
وجملة القول أن الوحدة المغربية تقوم على أسس كاملة :

- الوحدة الجغرافية بين أقطار المغرب العربى كلها تقع فى جزء واحد فى قارة واحدة على بحر واحد .
- الوحدة السلالية ، فالمغاربة جميعاً ينتمون إلى السلالة البربرية العربية الممتزجة المتوحدة الأصل .

• الوحدة اللغوية : اللغة العربية والأحرف العربية .

• الوحدة الدينية : (الإسلام)

• وحدة الطباع والعادات

• وحدة التاريخ المشترك

للاستزادة من التفاصيل تراجع :

- ✱ المغرب وطن واحد لا يتجزأ : محمد المكي الناصرى (مجلة الوحدة المغربية ١٩٣٧) .
- ✱ وحدة المغرب العربى : عبد العزيز بن عبد الله (مجلة دعوة الحق يونية ١٩٥٨) .
- ✱ الاتحاد المغربى : عبد الوهاب بن منصور (مجلة دعوة الحق يونية ١٩٥٨) .
- ✱ مفاهيم الوحدة المغربية : عبد الله العامل الكتانى (مجلة دعوة الحق يوليو ١٩٦٢) .
- ✱ مرامل الوحدة فى المغرب العربى : محمد زنيبر (مجلة دعوة الحق ابريل ١٩٦٢) .

سادسا - التقاء المغرب بالشرق

لم يتوقف التقاء المشرق بالمغرب ولم ينقطع ، خلال أحلك فترات الظلام والضغط والإعنات التي فرضها الاستعمار الفرنسي على هذه المناطق وأغلقها . كانت هناك بعض الصحف العربية والمصرية بالذات الموالية للاستعمار الفرنسي والتي تحمل وجهة نظره تدخل إلى المغرب ، وفي مقدمتها الأهرام وصحف دار الهلال . وكان عشرات من المجاهدين يقطعون الصحراء حتى يصلوا إلى مصر ، ويردوا الأزهر ، وكان المنرب في خلال أزماته يتطلع نحو المشرق دائماً ، ولقد فتحت صحف عربية مصرية وطنية صفحاتها دائماً لصرخات تونس والجزائر ومراكش ، كالبلاغ وكوكب الشرق والجهاد والسياسة اليومية على فترات . وتخصصت صحف لقضايا المغرب كالفتح (محب الدين الخطيب) والهدى الإسلامي (محمد الخضر حسين) والمنهاج (إبراهيم أطفيش) .

وعاش في القاهرة عشرات من المجاهدين ، لا يتوقفون عن كشف مساوئ الاستعمار الفرنسي والإيطالي والإسباني في الشمال الإفريقي ، عاش عبد العزيز الثعالبي خمسة عشر عاماً بين القاهرة وبغداد ، وكتب ألوف الصفحات ومئات المقالات ، وطوف في العالم الإسلامي كله داعياً للمغرب ، وكذلك فعل الخضر حسين ، وإبراهيم أطفيش ، وقد أقاموا بالقاهرة إقامة دائمة ، وعاش شكيب أرسلان في لوزان يغرق صحف القاهرة (الشورى والفتح وكوكب الشرق والجهاد) بمقالاته النارية كلما ادلهمت الأحداث : التجنيس في تونس ، الظهير البربري في المغرب (مراكش) مقتل عمر المختار (طرابلس) وهكذا دون توقف .

وكانت القاهرة مورد أعلام المغرب ومجاهديه : عبد العزيز الثعالبي ، علال الفاسي ، الحبيب بورقيبة .. ، والوزاني والورتلاني وغيرهم وكانت أندية القاهرة وصحفها مفتوحة لآرائهم ودعواتهم .

ومنذ فجر النهضة هاجر الأمير عبد القادر الجزائري إلى سورية ومعه مئات من من أعوانه وأهله ، وجاء محمد يرم إلى مصر ، وكتب في صحفها ، وعبد الكريم الخطابي ورد مصر بعد نفيه عشرين عاماً في جزيرة (رينو) ، وفي العراق أقام أبو القاسم

كرو ، وألقى عشرات المحاضرات ، وكتب عديد المقالات عن : ايا المغرب العربي ، .

وعاشت مصر حلماً في أذهان المغاربة وقلوبهم ، حتى لقد كتبت صحيفة الوحدة المغربية تقول : « إن في عنق كل مغربي ديناً لمصر » .

كل جزء من المغرب العربي كان المشرق قبلة له ومنطلقاً . يقول محمد كامل التونسي (١) للمجالس الأدبية في تونس اهتمام كبير بمصر ، فهم يباهون بقراءة أدبهم ويفخرون باقتناء كتبهم نثراً وشعراً ، فما من أديب في تونس إلا ويجمع ثروة ثمينة من شعر أكابر الشعراء المصريين ، والمكتبة التونسية أغلب ما تحويه من مؤلفات الكتاب المصريين .

وإذا ما جاءهم من الشرق من له إلمام بالأدب التفوا حوله ، وطالبوه بما عنده من الإنتاج الحديث لأدباء مصر . وقد حاول الاستعمار إبعاد الثقافة المصرية من الشرق عنهم ، ليستعاض عنها بثقافة أجنبية لا تتصل بأرواحهم ، ووضع العقبات في طريق الثقافة العربية جملة .

وفي الجزائر كانت العيون على المشرق دائماً ..

يقول الهادي السنوسي « من منا معشر الأدباء الجزائريين من لم يفتح عينيه منذ انتهت الحرب الكبرى الأولى على آثار مدرسة إسماعيل صبرى وحافظ وشوقي وطه وأحمد أمين والمنفلوطي والزيات من أفراد الرعيل الثاني ، أقول الثاني لأنهم سبقوا بطبقة الشيخ محمد عبده وبمن التف حوله من أمثال رشيد رضا وعبد العزيز شاويش وطنطاوي جوهري وعلي يوسف وتوفيق دياب والمرصفي ، وخلف من بعد هؤلاء الحلف الصالح كأحمد أمين والمنفلوطي والرافعي . فكانت الهلال والمقتطف والمنار ، هذه الثلاثة على الخصوص ، رسل النهضة الأدبية الشرقية إلى الشمال الإفريقي ، وكان أساتذتنا لا يفتنون يتحرون لنا من منظومهم ومشورهم ما يؤثروننا به لتثقيف عقولنا وإصلاح ألسنتنا ، وتبصيرنا بما تجود به أفكار المدرسة الحديثة في عالم العرب ، وكانت بحوث أحمد أمين ذات ميزة خاصة لما تشتمل عليه من رزاة وتمشى مع ما تقتضيه سنة النشوء والارتقاء بعيدة عن الطفرة التي رمى بسببها كثير من الأدباء بالمروق عن القومية والحظيرة الدينية ، وكان اللقاح الفكري لهؤلاء يعمل فيهم أكثر مما تعمل مدارسهم ..

ويرد أبو العباس أحمد التيجاني (الرباط) النهضة في أوائل هذا القرن إلى عديد من المقالات والصحف والمجلات والمؤلفات (وأهمها) جريدة اللواء لمصطفى كامل ، والعروة الوثقى (جمال الدين ومحمد عبده) والرد على هانوتو في تهجمه على الإسلام ، وأم القرى للكواكبي .. وشعر البارودي ، وحافظ ، والسيد عبد الله النديم .

كان ذلك بمتزلة حقبة أيقظت النفوس من سباتها العميق ، ثم أخذت دائرة التفكير تتسع اتساع الدوائر في الماء .

ولطالما رددت الصحف والمجلات في المغرب الدعوة لتوثيق هذه الروابط بين المغرب والمشرق وتأكيدها .

فمجلة الفجر التونسية في أول أعدادها بعد انتهاء قيود الحرب العالمية الأولى وعودة الصحف تقول : نحن والمصريون متحدون لغة وديناً ومتقابلون في الأخلاق والعوائد ، ومتفقون في عدة أمور أخرى ...

« إنه ليس بيننا إلا خطوات قليلة يمكن اختزالها بوثة نشيطة تجعلنا معهم في مستوى واحد ، تنأجهم وينأجوننا بأغة العلم ، وتعاون على استرجاع مجد لغتنا العربية » .

وتعالت الصيحة دائماً بالارتباط بين جناحي الأمة العربية :

وفي وقت مبكر (في الثلاثينات) يكتب محمد داود في مجلة السلام (١) :

هل وطننا المغربي إلا جزء من العالم الإسلامي العظيم ؟

هل أمتنا المغربية إلا عضو عامل في جسم الأمة العربية الكبرى ؟

نقدر أسباب رقي الأمم ذات العظمة المادية ، مع المحافظة التامة على جميع مبادئ ديننا الحنيف ، ودون أن نفرط في مقدساتنا القومية ، إن تاريخنا الإسلامي العربي حافل بالواقف المشرقة ، وإن كتب سلفنا الصالح مفعمة بالمبادئ السامية ، نريد أن تأخذ من أدبنا لباب نهضتنا ونترك القشور ، تأخذ تجاربهم في العلم والعمل والجد والمثابرة .

★ ★ ★

وتهز قضية فلسطين المغرب العربي هزاً عنيفاً ، فتجاوب معها في عشرات المقالات والصرخات .

(١) مجلة السلام - أكتوبر ١٩٣٢

تقول البصائر : إن (١) الجزائر وطنكم الصغير ، وإن أفريقيا الشمالية وطنكم الكبير ، وإن فلسطين قطعة من جزيرة العرب ..

ومن أقصى المغرب ينشد (إدريس الجاني) شعره متاجياً فلسطين :

لا ترعك الدماء والأشلاء يا فلسطين قالفداء بقاء
لا تهابي وإن تكاثرت صرعا لك وإن أرجفت بك الأعداء
لا تهابي وإن غدوت أتوناً ترامي يحوفه الأشلاء
لا تهابي وإن ثكلت ألوفاً من بنيك الألى حداهم وفاء

ومن تونس ينادي (الطاهر القصار)

فلسطين هـذي الوغى فائتي وغنى بلحن المني واسجعي
فياحبذا موته بعدهـا تشاد الحياة على الأضلع

وفي أحداث طرابلس تجاوزت مصر وسوريا ، وحملت صحافتها لواء الدفاع وكشف جرائم الاستعمار الإيطالي ، وفي حادث الظهير البربري ، هزت مصر العالم الإسلامي وارتفعت الأصوات في القاهرة ودمشق وبغداد والقدس . ودعا شكيب أرسلان إلى مقاطعة فرنسا وعدم التعامل معها ، وتراجعت فرنسا على إثر هذه الاستجابة الضخمة ، وكانت « مجلة الفتح » وعبد الدين الخطيب في مصر حجر الرحي .

★ ★ ★

وإذا وقعت في مصر أحداث التبشير ، تنادي من صحراء الجزائر صوت مجلجل ، في صحيفة النبراس (٢) « أيها المسلمون الجزائريون ! كيف نرى أطفالنا وأفلاد أكبادنا يفتنونهم عن دينهم ثم لا نتحرك ولا تذهب أنفسنا عليهم حسرات ؟ فلتفق جمعية العلماء المسلمين من سبأها ٢ » .

ولا يموت بالشرق أديب أو عالم أو مفكر ، إلا وتهتر دوائر الفكر والأدب في المغرب كله ، في تونس ، والجزائر ومراكش ... حافظ ، وشوقي ، الرافعي ، رشيد رضا

وفي مجلة الزيتونة يرثي محمد الحبيب شلبي « الرافعي » (٣) قائلاً :

(١) محمد البشير الإبراهيمي - ٢١ جوان ١٩٤٨ « البصائر » .
(٢) عن الهادي الترابي « فاس » ١١ اوت ١٩٣٣ « النبراوي » .
(٣) مصطفى صادق الرافعي .

ولم تكن في دعوتك المتحمسة وافكارك الجريئة وفنك العالى بالمتطفل على موائد الأغراب ، أو المقلد لأوضاع الدخيل ، فيجىء إنتاجك زائغاً متصنعاً ، لا تنلوقه ولا نستسيغه ، ولا نجد له وقعاً في نفوسنا ، ولا هزة في شعورتنا ، بل لا نجد له إلا ربكة واضطراباً كما يفعل عبيد التقليد ودعاة التفرنج .. بل كنت تستمد الإلهام من من قلبك مستنبطاً بأنوار النبوة ، مستعيناً بهدى ثلاثة عشر قرناً من عصارة الفكر العربى ...»

ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل إنهم ليطلقون اسمه على أبنائهم ؛ وأخونا محمد على دبوز بمعهد الحياة بالقراره .. في جنوب الجزائر يسمي ابنه (مصطفى صادق الرافعى) ويحىء القاهرة فيذهب إلى طنطا ليزور دار الرافعى ويرى آثاره ..

والشيخ رشيد رضا يلتقى في تونس تقديراً ضخماً ، فهو صاحب المنار ، هذه المدرسة الفكرية الثقافية الإسلامية ، التى غدت المغرب كله أكثر من ثلاثين سنة .. وكذلك يلتقى محمد فريد مثل هذا الأعزاز والتقدير ، ولا غرو فهو صديق المغاربة ، زارهم في أوائل القرن ، كما زارهم الشيخ محمد عبده ، وكان لزيارتهما أثر بعيد المدى .

★ ★ ★

سفرء من المشرق

في مطالع النهضة اتجه أعلام من المشرق إلى المغرب وكان أبرزهم محمد فريد والشيخ محمد عبده وشكيب أرسلان ومحمد عبد الله عنان ومحمود عزمى واحمد فهمى العمروسى ومحمد فريد أبو حديد وحسين مؤنس وسامى الدهان وعمر فروخ .

وذهب إلى الأندلس أحمد زكى باشا ، والأب أنستاس الكرملى وأمين الريحانى ومحمد لبيب البتانونى ومحمد ثابت .

أما الشيخ محمد عبده فقد زار تونس والجزائر مرتين ، الأولى عام ١٨٨٤ ، والأخرى بعد عشرين عاماً (١٩٠٣) وقد أقام في زيارته الأولى أربعين يوماً تعرف فيها على الأمراء والأعيان ، وحضر الدروس في الزيتونة .

وكان ذلك في سبيل تكوين فروع بلجماعة العروة الوثقى التى أنشأها جمال الدين الأفغانى في الهند ، وامتدت إلى مصر والمغرب العربى ، وكان من أبرز أعضائها في تونس محمد السنوسى ومحمد بيرم .

وبعد أن انقضت جماعة العروة الوثقى ظل هؤلاء الطلائع من المصلحين متصلين بالشيخ محمد عبده ومجلة المنار وانقطعت كل حركات الشمال الأفريقي بطابع السلفية الذي قدمته هذه المدرسة الكبرى .

وعاد الشيخ محمد عبده فزار تونس والجزائر عام ١٩٠٣ ، واهتزت لمقدمه أندية العلم والأدب والإصلاح ، وأقبل على استضافته عظماء البلاد وعلمائها ، على حد تعبير (الفاضل بن عاشور) ، والتقى به المتقدمون عليه ، واشتد الجدل بينه وبينهم في مسائل كثيرة .

وفي هذه الزيارة التقى بأعلام تونس أمثال عمر البكوشي ، وعبد الجليل الرواشي ، وعمر أبو حاجب ، وعلى بوشوشه (صاحب الحاضرة) والبشير صفر ، ومحمد بالفتح بالخرجة والطاهرين عاشور ، ومحمد النخلي .

وكان أبرز أعماله الفكرية هناك محاضراته المشهورة « العلم وطرق التعليم » وزار الشيخ محمد عبده الجزائر وتحدث فيها عن تفسير سورة العصر .

★ ★ ★

وعندما عاد الشيخ محمد عبده إلى مصر ، ووقع الخلاف بينه وبين العلماء بشأن الفتوى الترنسفالية الخاصة باستعمال المسلم للقبعة وأكل ذبائح النصارى أيده علماء تونس ، وألف الشيخ ابن عاشور رسالة في تأكيد موقف الشيخ محمد عبده .

ولقد قيت دعوة الشيخ محمد عبده إلى تخليص الإسلام من البدع صدى بعيداً في المغرب كله ، بعد أن اكتشفوا مؤازرة مشايخ الطرق للمستعمرين وتثييط حركة المقاومة . وكانت خلاصة دعوة الشيخ محمد عبده في المغرب أن الطريق الوحيد للخلاص هو الرجوع إلى مبادئ القرآن السامية وألا يقتصر الإصلاح على الناحية الدينية ، وعلى المغرب أن يأخذ العلوم الحديثة التي هي مصدر القوة عند الغرب .

وكان للاتفاق الودي الذي عقدته فرنسا وبريطانيا سنة ١٩٠٤ بإطلاق كل منهما يد الأخرى ، فرنسا في تونس ، وبريطانيا في مصر ، كان له أثره البعيد ؛ فقد زاد الرابطة بين القطرين ، بعد أن تكشف ترابط الاستعمار على هدف واحد هو القضاء على الأمة العربية ، وعندما توفي الشيخ محمد عبده كانت مرآة التونسيين ومقالاتهم تمثل جانباً هاماً مما قيل في هذا الإمام ، كما تمثل طابع الفكر المصري العربي الإسلامي وارتباطه بالدعوة التي دعاها ، وبالمنار ومدرسته السلفية .

وكان لشكيب أرسلان ، وهو من تلاميذ الشيخ محمد عبده ، أثر واضح في الحركات الوطنية في المغرب العربي كله ، ويرى الكثيرون من المراقبين أن « شكيب » كان روح الحركات التحررية بالمغرب ، واتصل شكيب (١) في تونس بالزعيمين صالح الشريف وعلى باش حانبة ، وقد منعه الاستعمار الفرنسي من دخول تونس ، ولأعلام المغرب ذكريات عديدة معه ؛ فقد حدثني العلامة عبد الله كتون عن أثره في النهضة المغربية ، وذكر عبد الحالق الطريس أنه كان ينصح بسلوك الاعتدال مع الإسبانيين باعتبارهم الشر الصغير الذي ينبغي الاستفادة من مجاملته للقضاء على الشر الكبير .

وتحدث محمد الفاسي عن لقاءهم به عام ١٩٣٠ في مجريط بإسبانيا ، وزيارتهم معه لخزانة الأسكوريال ، وكيف زار بعد ذلك المنطقة الحليفية والتقوا به في تطوان ، وهي نفس الزيارة التي لقيه فيها عبد الله كتون .

ومن سويسرا كانت اتصالات شكيب أرسلان بشباب المغرب متصلة ، أمثال علال الفاسي وأحمد بلا فريج ، يوجههم ويثير حماسهم ، ويرسم لهم طريق العمل ، وقد أصدر أحمد بلا فريج بتوجيهه مجلة فرنسا بالمغرب سنة ١٩٣٢ .

وعندما أعلن الظهير البربري في مايو سنة ١٩٣٠ كان شكيب أرسلان أعنف كتاب العالم العربي مقاومة له ، وكذلك فعل في مقاومة الحملة الجديدة على طرابلس بقيادة موسولينى ، وكذلك كان موقفه في حرب الريف بقيادة عبد الكريم ، وله في ذلك عشرات المقالات التي نشرت في القاهرة بالإضافة إلى مقالاته المتعددة إبان الحرب الطرابلسية عام ١٩١١ في المؤيد ، ولطالما خطب في مؤتمرات طلاب شمال إفريقيا ، وتذكر جريدة الوحدة المغربية (مارس عام ١٩٣٧) جانباً من توجيهاته في أحد هذه المؤتمرات وهذه عباراته :

« إن هذه الأمة الإسلامية يجب أن تتألف قلوبها وتتحد عاطفتها .. إننى أرى في المغرب مزايا لا تنكر ، فهو معتر بقوميته ، متمسك بتقاليده ، أما في الشرق (يقصد المشرق) فلأننا مع الأسف نراه يقتبس من أوروبا ويقلدها تقليداً أعمى . إن علينا أن نحافظ على مميزاتنا لأننا نستمد منها قوتنا الأدبية .. »

(١) انظر الملحق من شكيب أرسلان - ص ١٢٢ .

وكانت زيارة محمد فريد لتونس والجزائر بلا شك بعيدة الأثر في هذا الترابط القوي بين المشرق والمغرب ، وقد زار فريد المغرب عام ١٩٠١ ، ثم زارها عام ١٩٠٥ .

وكان محمد فريد جريئاً فقد سجل صورة كاملة للمغرب في هذه الفترة ، ونشرها المؤيد واللواء ، وفي كتابه المطبوع « من مصر إلى مصر » . وأثارت ضجة كبرى وكان من أثرها أن منع المؤيد واللواء من دخول الجزائر ، وقد عني فريد بالجزائر بالذات ، وأشار إلى أنه كان يظن ما ينشر عن أحوال الجزائر مبالغاً فيه ، أو مصدره كراهية الفاتح الأجنبي حتى قاده حب الاستطلاع فرأى بعينه ، وتحقق بالخبر ماسمعه بالخبر .

« وتأكد أن مسلمي الجزائر في تعاسة ليست بعدها تعاسة ، فلا مطالبة هناك للحرية الشخصية ، ولا للملكية العقارية ، بل ولا للحقوق الشخصية ، أراض تسلب ، وأراض تترع ملكيتها ، لتوزع على المهاجرين من الفرنسيين بلا ثمن ، وأوقاف خيرية تصادر مقابل ترتيب شيء زهيد للقيام بحاجيات مابقي من الجوامع والزوايا ، بعد هدم ما هدم منها ، وما حول كنائس ، وأبرياء تزج في السجون ، بعد أن تحكم المحاكم الفرنسية ببراءتهم ، ومسلمون يمنعون من نيل الوظائف ما لم يتجنسوا بالجنسية الفرنسية التي تقضي باتباع قانون الأحوال الشخصية الفرنسية ، مع ما في ذلك من مخالفة القرآن في أهم المسائل التي لها ارتباط بالعائلة الإسلامية وأحكام الزواج والطلاق والإرث وما شاكلها .. »

وفي زيارته لمراكش كانت عباراته حزينة يائسة « أقول بكل أسف إن من يريد أن يرى بعينه كيف تموت الأمم ولا تبدى أى حركة لحفظ كيائها ، فلي توجه إلى مراكش ، خصوصاً بعد أن يزور إسبانيا ويمر بقادس ... »

وينحدث عن الحرية الشخصية في الجزائر ، فيقول : « إن الأهالي هناك يعاملون بقوانين مخصوصة غاية في الشدة والصرامة ، فهم محرومون من حرية الكتابة وحرية الاجتماع ، وحرية السفر ، وحرية مطالعة الكتب والجرائد ، نعم يصعب على الذي يعرف حب الفرنسيين للحرية والمساواة أن يصدق ذلك ، ولكن من يتكلف مشقة زيارة بلاد الجزائر يتحقق أن ما هو جائز في بلاد فرنسا غير مباح للمسلمين في المستعمرات ، وإن كان مباحاً للفرنساويين ، فلا يجوز لهم أن يؤلفوا جمعية ولو لفتح المدارس ونشر

التعليم المجرد ، وهذا الإذن لا يمنح مطلقاً ، كما أنهم لا يجوز لهم تأسيس مطبعة أو جريدة .

ولا يوجد في جميع إقليم الجزائر غير جريدة المبشر ، وهي جريدة رسمية تتحدث في فضل فرنسا على العرب ، والحض على التعامل بالولاء . وقد منعت عنهم الجرائد العربية ، فلم أجد في جميع مدينة الجزائر نسخاً من اللواء ولا من المؤيد ، مع أن المشتركين فيها كثيرون ، ولا تصل هذه الجرائد إلا لإدارة المبشر مبادلة ، وهناك تحفظ في حرز مكين حتى لا تخرج بعض أعدادها من الإدارة فتصل أخبار الإسلام والمسلمين إلى إخوانهم الجزائريين .

وقد منعت الجرائد الفرنسية التي كانت تنشر أخبار انتصار الإسلام على الأروام أيام حرب اليونان مع الدولة العلية .

ولما أرسلت لي الجرائد أثناء إقامتي بمدينة الجزائر حجزتها إدارة البوسطة وأرسلت لي جميع الجوابات ، فقصدت إلى المسيو ميرانت رئيس تحرير جريدة المبشر ، وطلبت منه توصيل جرائدي إلى أوروبا بإرسالها بعنواني إلى باريس فأرسلها لي بطريقة استثنائية ..

ومن الغريب في بلاد الجزائر أنه لا يجوز أن يسافر خارج المركز الذي يقيم فيه في دائرته إلا بإذن من البوليس . لقد مضى على فتح فرنسا للإقليم الجزائري سبعون عاماً وجيشها للآن لم ينقص عن خمسين ألف محارب ، يكلفها ٥٧ مليوناً من الفرنكات سنوياً ، وما ذلك إلا لتخوفها من الأهالي ، وعدم اطمئنانها إلى جانبهم ، ولكن لا يمكن استمالتهم بهذا الضيق وتلك المعاملة المخالفة لقوانين العدالة ، والحالة الحاضرة في الجزائر برهان قاطع على تأخر الفرنسيين في ميدان الاستعمار ، وعدم اقتدارهم على النجاح في هذا الطريق الوعر .. (١) .

وحضر محمد فريد مؤتمر المشرقين الذي عقد في الجزائر (وكانوا يطلقون عليها إذ ذاك جزائر الغرب) وقد حضر هذا المؤتمر في الجزائر من المشرق : سلطان محمد ومحمد عسل وعبد العزيز جاویش وعثمان غالب من مصر ، وميرزا عبد الحسين.

(١) اللواء ٢ : أكتوبر ١٩٠١
٩ : أكتوبر ١٩٠١ .

خان من فارس ، وألقى الشيخ محمد عسل كلمة عن اللغة العربية وقال : إنها غنية بنفسها ويمكن للإنسان أن يستغنى بها عن غيرها في وضع أسماء المحترعات الحديثة . وألقى سلطان محمد موضوعاً عن الشريعة الإسلامية قال : إنها تصلح لكل زمان ، وألقى حسن حسنى عبد الوهاب (تونس) بحثاً عن احتلال العرب لجزيرة صقلية وآثارهم فيها . وفي هذا المؤتمر لم ينس الاستعمار نفسه ، فقد ألقى المستشرق فولرس الألماني ومدير دار الكتب المصرية خطاباً مثيراً هاجم فيه الإسلام .

ورد الشيخ جاويش على فولرس الألماني وفند المقدمات التي بنى عليها كلامه ، فأبان فسادها بالمرّة من الوجهة اللغوية ، وتكلم عن تاريخ جمع القرآن وتوزيع نسخه على البلاد الإسلامية وبلاغته .

قال محمد فريد « ولما انتهى جاويش قام المسيو فولرس والحزى باد على وجهه ، وتقدم إلى الرئيس وطلب منه بصوت خافت أن يسحب موضوعه لكيلا ينشر في أعمال المؤتمر وكذلك لا ينشر تفنيد الشيخ شاويش .. »

ثم تكلم محمد فريد عن المصحف الجارى طبعه في باريس ، والذي تقدم به المسيو دى منيار في كراسة ، وقال : إني لما تصفحتها وجدت فيها ثلاث عشرة غلطة بخلاف المكرر ، وكل منها تدل على جهل المشتغل بالتصحيح باللغة العربية وليست من الغلطات التي تقع من مصنفى الحروف .

وتكلم أحد موظفى حكومة الجزائر (روبر) عن عوائد العرب في مقاطعة « وهران » وتناولهم بالطعن والسب ونسب إلى الدين الإسلامى أموراً مشينة .

قال محمد فريد « فأنبرى له شاب جزائرى اسمه « مختار بن الحاج سعيد » يتقن الفرنسية ، وطلب منه أن يقدم على مايقول برهاناً من القرآن والسنة . فقال الفرنسى : إنه لم يقصد إهانة للدين مطلقاً .. وطلب جزائرى من المدرسين في تلمسان اسمه (عبد الرحمن) من الرئيس أن يكلف مسيو (روبر) بسحب جميع ما قاله . وعدم إدراجه في أعمال المؤتمر ، وإلا فسيحضر أمامه ليناقشه الحساب ..

وقال محمد فريد : « لقد أظهر الجزائريون في هذه الحادثة ما لم أكن أتوقعه منهم بالنسبة لقسوة الفرنسيين في معاملتهم ، وأخشى أن ينتقموا منهم فيما بعد »

...

وقام الشاب الجزائري - مختار بن سعيد - الذى اعترض على ما قاله روبر

موتلا مذكرة عن تعليم الأطفال في الزوايا ، وأبان فساد الطريقة المتبعة فيها ، وأنها عقيمة ، وأن التلميذ يضيع عشر سنوات في حفظ القرآن دون أن يفقه له معنى .. في حين أن التلميذ في المدارس النظامية يكون قد حصل على الثانوية ...

وتكلم المسير برناس الفرنساوي في موضوع الحج إلى بيت الله الحرام فهاجم المسلمين ...

وقدم أرمني من أعضاء المؤتمر (أركليان) بحثاً عن معاملة المسلمين لغيرهم فرفضه المؤتمر ، فنشره في جريدة (الديش) الجزائرية في (٢٨-٤-١٩٠٥) .

وقد انبرى له البشير صفر رئيس جمعية الأوقاف بتونس ، وكتب رداً أرسله إلى جريدة الديش ، فنشرته (١-٥-١٩٠٥) تحدث فيه عن معاملة الإسلام الكريمة العادلة للذميين والساميين وأتى بالشواهد العديدة التي تكذب ما زعمه العضو الأرمني وصور كيف عامل الأتراك المسيحيين عند دخولهم الآستانة .

وقال : إن مذابح الأرمن مرجعها تحريض اللجان الثورية الأرمنية ، ولو كان العثمانيون يرون أن الفتك بالأرمن من المقربات الدينية لأهلكوهم .. هـ .

هذه هي الصورة التي قدمها محمد فريد للجزائر عام ١٩٠١ ، ١٩٠٥ من خلال زيارته لها ، وفي رحلته إلى تونس عام ١٩٠٢ كشف عن أعمال الاستعمار وقال : إنها أقل وطأة منها في الجزائر .

كما التقى بأعلام التونسيين وتحدث معهم طويلاً حول عوامل النهوض والمقاومة : وانتقد على الفرنسيين حبس حركة الفكر والضغط على الجريدة التونسية الوحيدة (الحاضرة) ومراقبتها المراقبة الشديدة ، وعدم إدخال الجرائد الإسلامية الأجنبية التي تبحث في شؤون المسلمين عامة .

وقال : إنه قابل المسؤولين الفرنسيين وجاهر بانتقاد حالة تعليم المسلمين وعدم وجود تعليم عال أو ثانوي بتونس ، وعدم صلاحية التعليم الابتدائي لأولاد المسلمين « لأنه يرمي إلى نشر اللغة الفرنساوية وإماتة اللغة الشريفة العربية والتضييق على أولاد المسلمين ، وإيجاد العقبات في طريقهم لتقليل عددهم بهذه المدرسة الثانوية الوحيدة حتى لم يبق بها إلا تلميذ واحد من أولاد المسلمين ، مع أن عدد تلاميذها ستمائة ، بينهم نحو الثلث من أولاد اليهود ...

وقال محمد فريد : أنه كان من رأى الكاتب الفرنسى العام بالنسبة لحرية الصحافة أن الأهالى شديدا الحمية ، أقوياء الشكيمة ، ولو أطلق لهم عنان حرية الجرائد لثاروا وقاموا في وجه الحكومة الفرنسية ، وعلق محمد فريد على هذا الرأى بقوله « إنه غير سديد لأن الضغط يوجب إيفار الصدور وإثارة الأحقاد بخلاف ما لو أطلقت لهم حرية الكتابة .. »

وقال فريد : إنه التقى بعدد من المثقفين التونسيين : « تناولنا الطعام في فندق صغير يشرف على البحر في ليلة مقمرة مع بعض الرفاق من أدباء وفضلاء التونسيين ، كنت أود ذكر أسمائهم لولا خوئى من أن تتعقبهم الحكومة الفرنسية فتلحق بهم الأذى ، وكانت الموسيقى تصدح ببعض الألحان العربية ، فيصل إلينا صوتها ، وضوء القمر يرصف على صفحات البحر إلى مد النهر ، فما أجملها من ليلة لولا أن الحديث كان دائماً فيها على الإسلام ومصائبه ، وتسلط الإفرنج على بلاده يتقصونها من أطرافها .. »

وقال فريد : إنه قابل الوزير الأول محمد العزيز بوعتوره ، ولاحظ أنه يتجنب الحديث في الشئون التونسية .

واعترض على الصورة الأولى التى واجهته في ميناء تونس(١) : « بأول شارع البحيرة ، تمثال جول فرى الوزير الفرنسى الذى كان له اليد الطولى في فتح الإيالة التونسية ، وأمامه على القاعدة تمثال معمل فرنساوى ينظر إليه بإعجاب ، وتمثال فتاة عربية يدها معف النخل تقدمه له شكراً على احتلال فرنساويين لبلاد أجدادها .. وهو رمز لم يصب كبد الحقيقة ، وعلى النافذة في الحلف طفل فرنساوى يعلم القراءة لطفل عربى وفوقها صورة الوزير الذى كان وزير الخارجية أيام الاحتلال .. »

وقال فريد معلقاً : وهذا رمز مخالف للواقع ، لأن فرنساويين لايسعون إلى تعليم التونسيين بل يذلون الجهد في عرقلة مساعيهم لكيلا يتعلموا .

وذكر فريد أن تونسياً نئ تقياً إدارياً إلى إحدى البلاد مدة ثلاثة شهور لأنه كان يقرأ (المؤيد) على القهوة بمسمع من إخوانه فاعتبر هذا تحريضاً على الثورة وأضاف قوله : « فأين المعاملة التى ينادى بها الفرنسيون من أنهم رجال الحرية ، وأين ما ينشرونه بجرائدهم من الطعن على الدولة العلية »

(١) محمد فريد - اللواء ١٢ اكتوبر سنة ١٩٠١

وتحدث عن النهضة التي تقوم بها الجمعية المكدونية التي أسسها بعض الفضلاء لتدريس بعض العلوم العصرية ، وأشاد بالعلامة البشير صفر صاحب الفضل الأول وقال : إنه من الشبان الأذكياء الذين جمعوا بين الثقافتين العربية والفرنسية .

ومن زار المغرب العربي وله فيها ذكر طيب فارس الشدياق ، ورد تونس حيث عمل في الصحافة وأقام بها ثمة ، أما فارس الشدياق فقد التقى بالباي أحمد باشا عام ١٨٧١ في باريس ونظم قصيدة في مدحه ، فلما التقى به أعجب الأمير به واستقدمه في مركب حربي وولاه رئاسة تحرير جريدة « الرائد التونسي » الجريدة الرسمية للدولة إذ ذاك ، وكان لهذه الحفاوة والتكريم أثره في نفس فارس الذي لم يلبث أن أعلن إسلامه وأسمى نفسه « أحمد » تيمناً بالباي ، ونجد فيما بعد الثلاثينات رحلة الأمير محمد علي ، وهي زيارة لها طابع استعماري واضح ، فما كان يمكن للأمير المصري صديق فرنسا (وهو يمر بتونس والجزائر ومراكش) أن يصدع بكلمة حق ، وكان جل اهتمامه موجهاً للآثار والقصور والمساجد ، وهو لم يتقابل الوطنيين ولا المثقفين ، وإنما قابل الحكام وكبار الفرنسيين ، ولم يلفت نظره سوى المباني والأثاث الفاخر والطرز المختلفة .

وقد أشار في رحلته التي طبعت عام ١٩٢٥ ، والتي كتبها بالفرنسية وترجمها (أحمد مختار) إلى هدفه من هذه الرحلة « ما أردت استطلاعاً هو المدنية العربية ، وما خلفته من المدن الكبيرة والمساجد الفاخرة ، والأسوار المنيعة العالية التي تحيط بتلك المدن ، وغير ذلك مما يصع أمام أعيننا آثاراً عمرانية تدل على عظمة العرب ومجد الإسلام في القرون الوسطى التي عرفها التاريخ عند غيرهم بعهود الظلام ، ولو أنني رأيت شيئاً من آثارهم في بلاد الأندلس منذ عشرين سنة ، إلا أن ولوعي بصناعة المغرب وكوني من غواة فن المعمار المغربي الذي يوجد من نسقه في داري ، وبالحملة ميلي للاطلاع على كل ما يتعلق بهم من لغة وأخلاق وصناعة ، وتباين في مذاهبهم وعناصرهم القومية »

وكان محمود عزمي (مصر) في كتابته عن زيارة المغرب (نوفمبر - ديسمبر ١٩٤٦) مثلاً لأتباع المدارس الغربية الاستعمارية ممثلاً في قوله « فهناك تفاعل بين الحاكمين والمحكومين » والحاكون هم الفرنسيون والمحكومون هم المغاربة ، والمغاربة هم سلالة لأصول متمازجة من الكنعانيين والفينيقيين والعرب ، والمستعمرون مستقرون في المساحات الواسعة التي امتلكوها من الأراضي الخصبة ، وهكذا

وهو معنى بالحديث عن حزب «اتحاد البيان» لأنه يرمى إلى إقامة جمهورية جزائرية داخلية في الاتحاد الفرنسي ..

سفراء من المغرب

واستقبل الشرق عشرات من أعلام المغرب ، منهم من عاش في مصر حياته كالشقيطي والحض حسين ، ومنهم من قصد إلى الآستانة كخير الدين التونسي وعلى باش حاميه ، وسليمان الباروني وأحمد الشريف ، ومن قصد دمشق كالشهير السعداوي ومنهم من عاد كالبنقالي . ومنهم من مر مرور الطيف وحمل معه أمانة الفكر كابن باديس ، ولا نرى رحلة أبعد أثراً في دعم هذه الروابط كرحلة عبد العزيز الثعالبي .

ولا ننسى فضل مغاربة عاشوا في المشرق ، وتأقلموا فيه وكانوا بعيدى الأثر ، أذكر منهم الآن : عبد العزيز جاويز التونسي الأصل ، ودوره في اليقظة الفكرية معروف ، وصلابته في الحق مشهورة . وطاهر الجزائري ودوره في دمشق ونهضة الفكر بعيد المدى ، وعبد القادر المغربي تلميذ جمال الدين وعلامة اللغة والفكر في دمشق والعالم العربي ، وقد ذكره (محمد القاسي) عندما اختير بديلاً له في مجمع اللغة ، وأشار إلى ما كان له من مواقف في قضية المغرب « إذ كان في الصف الأول من المناضلين عن حق المغرب العربي في الحرية والكرامة . وشباب المغرب مدين له بفضل كبير حيث إن كتابه (الأخلاق والواجبات) مقرر في كل المدارس الثانوية الرسمية والحرية ، وقد كان له أحسن الأثر على الناشئة بما يمتاز به من الأسلوب السهل ، وروح الحماسة التي تسوده وتجعله محبباً عند التلاميذ .. »

أما «التركزي الشنقيطي» فقد كان صديقاً للشيخ محمد عبده وأستاذاً للشيخ البكري : ظل متصلًا بهما منذ جاء من المغرب وأقام بمصر ، وكان قد رحل إلى مكة فأنصل بأميرها ، وانتدبته الحكومة العثمانية أيام السلطان عبد الحميد للسفر إلى إسبانيا والاطلاع على ما بها من مخطوطات (توفي عام ١٩٠٤) وكان جريئاً حر الرأي انتقد رسالة التوحيد ، وأجاب الشيخ عبده عن نقوده في مجلس الدرس مع الثناء عليه . وليس هو بالشنقيطي الوحيد الذي ورد الشرق وأقام به (١) .

(١) اقرأ ملحقاً من الشناتة في آخر هذا البحث .

وفي مصر عاش محمد بېرم بعد خروج خير الدين التونسي ، وأخرج كتابه الضخم «صفوة الاعتبار» مسجلاً فيه رحلاته إلى أوروبا والعالم العربي.

وشارك المغرب في النهضة الفكرية والسياسية التي جرت في الشرق ، فالثعالي وأطفيش قد مثلا المغرب كله في المؤتمر الإسلامي عام ١٩٣٠ وتحدث الثعالي فيه عن العمل لإعادة بناء الأمة العربية موحدة لا تتجزأ .

وكما التقى على صحف مصر والمشرق كتاب المغرب انذين كانوا في الأغلب يرسلون كلماتهم وصيحاتهم بدون توقيع أو بتوقيعات رمزية خوف البطش بهم .. التقى على صحف المغرب كتاب من المشرق : على الحلي (العراق) عبد القادر رشيد الناصري (العراق) الدكتور عمر فروخ (لبنان) وكاتب هذه السطور الذي حرر في صحف تونس والجزائر والمغرب وليبيا ، ومما يذكر في هذا الصدد أنني وجدت في جريدة البلاغ عام ١٩٣٧ عشرات من برقيات الاحتجاج من مختلف الهيئات والبلاد المغربية في إبان إحدى أزمات فلسطين : كطوزر والمنستر ، ومناقس والقصور وسوق الأربعاء والسلمانية وعين دراهم ، وكذلك برقيات متعددة عن مظاهرات المغرب الأقصى لتأييد فلسطين وخاصة في فاس والرباط .

ويصدق ما قاله عبد العزيز سيد الأهل في هذا المجال : إن تاريخنا الشرقي لم يفصل قط عن تاريخ المغرب العربي ، وإن تونس كانت معبر قوادنا إلى أوروبا ، يغزونها ، وينقلون حضارتنا إليها ، وفي أرض تونس قضت جمهرة كبيرة من كبار رجال الفتح ، وكانت مسلك التيار الذاهب إلى الغرب والوافد منه ، وكانت المنفذ الذي سارت فيه مع الجيوش الفاتحة العقائد والتجارات وألوان الحكم والاجتماع .. »

ولم تكن هذه الروابط بين المشرق والمغرب جديدة ، ولا فرضتها ظروف الضغط الاستعماري ، وإنما هي قديمة جداً ، مستمرة أبداً .

وقد صور هذا المعنى حسن حسني عبد الوهاب (تونس) حين أشار إلى أن الفينيقيين حين ابتنوا مدينة قرطاجنة عمدوا إلى تشييدها بأسلوب المصريين في فن البناء والنقوش ، ولقد كانت مصر مهد الحضارة الباقية شواهدا على الزمن تراثاً يدفع من شرق البحر الأبيض ، إلى الدنيا ثروة متجددة من الكمال المثالي ، وإن تكون تونس إلى جانبها مظهراً يمثل العالم فيه يشهد فيها على الجانب العربي من هذا البحر أكمل مثل للتمدين القرطاجني العجيب فهما يعيشان على كفتي البحر وعلى رأس الصحراء ، كأنهما

صدرنا عن بيت واحد ، له المزاج الذى لا يستطيعه إلا من كان من أهل الدار .
إن الحضارة المصرية فى فجرها الأول قد سجلت الحقيقة التى يعرفها كل من فى
تونس ، وهى أن البلاد التونسية عرفت أول ما عرفت من المصريين .

إن تونس كانت تابعة للفسطاط ، سحنون وأسد بن القرات فى الفسطاط ، الليث
ابن سعد هو أستاذ إبراهيم بن الأغلب التميمى التونسى ، أهداه الليث الجارية (جلاجل) ،
وابراهيم بن الأغلب هو مؤسس أول دولة تونسية عربية وهى (دولة الأغالبة - ١٨٤ هـ)
من مدينة المهدية تحرك الأسطول الإفريقى لجوهر الصقل إلى مصر ففتحها للفاطميين ،
ونقل المعز إليها معالم أختها تونس ، وباب زويلة هو اسم المهدية القديم ، والمغاربة هم
الذين شيدوا الأزهر ٣٦١ هـ وخلد مؤرخو مصر أسماء أمراء تونس (الزركشى فى كتاب
أخبار الدولتين) والشاعر إبراهيم الرقيق القيروانى التونسى أحب مصر وهتف باسمها .

هل الريح إن سارت مشرقة تسرى تؤدى تحياتى إلى ساكنى مصر
وعبد الرحمن بن خلدون انتقل من تونس إلى مصر ، ومحمد بيرم الخامس ، ومحمد
ابن عزم من علماء تونس لى حفاوة مصر ، ومن مصر وفد إلى تونس الشيخ حمزة
فتح الله مصحح المطبعة التونسية الرسمية (١) .

وذكر المؤرخون الإمام أبا الفضل المشرالى (التونسى) الذى قدم مصر وألقى
بها دروساً فى فقه المالكية فى الجامع الأزهر ، وقال عنه الحافظ الشوكانى إني ما رأيت
مثله ، ولا رأى هو مثل نفسه ، وإن من لم يحضر دروسه لم يحضر العلم ، ولا سمع كلام
العرب ، ولا رأى الناس ، ولا خرج إلى الوجود ... »

وتحدث (محمد البشير النيفر) عن أثر المشرق فى الثقافة التونسية فقال : إن تونس
بعد الحملة الأسبانية عليها (عام ٩٨١ هـ) وحريق مكتبتها الإسلامية ، أعادت تجديد
ثقافتها بالاستمداد من مصر ومن المغرب الأقصى ، ومن أثر ذلك أصبحت المدرسة
المصرية تسود التعليم بكتبها وأساليبها .

وإن الإشعاع العربى انتشر فى تونس بفضل رجلين تعلمتا فى مصر هما : محمد
الحجيج عام ١١٠٨ ، ومحمد زيتونة عام ١١٣٨ .

وقال : إن محمد الزرقاني والنقراوى والمنوف رجعوا من مصر إلى الحاضرة . ومن المسافرين إلى القاهرة الغرياني والحجني والمكني وعلى بن خليفة ومحمد بن الحسن ... وغيرهم ممن توزعوا في الجهات الساحية .

وذكر أن محمد الأومى (عام ١٣٠٤) قدم من مصر بخزانة كتب واسعة ، وقال : إن بعثات الراحلين إلى مصر كان لها فضل كبير ، لإفاضة الحيوية والتحقيق على ما هو موجود في تونس من معارف .

ولمّا بهؤلاء وبالقادمين من المغرب الأقصى ، أمكن لجامعتها الإسلامية أن تبالغ خطاها وأن تكون شجى في خلق الاستعمار الفرنسى حين أراد الاستحواذ على العقلية التونسية .

وقال : لقد تعاونت الرحلة إلى مصر والكتاب المصرى على المساهمة منذ أجيال في تلوين الثقافة وتكوين الامتراج .. »

ولا نحب أن نطيل في هذا المجال ، وإنما نذكر أثرين كبيرين ، أحدهما من المشرق إلى المغرب وهو الغزوة الهلالية ، وآخر من المغرب إلى المشرق وهو فتح الفاطميين لمصر والشام .. وإنشاء الأزهر ودار الحكمة . وقد زار (ابن تومرت) زعيم الموحدين مصر والتقى فيها بأبى بكر الطرطوشى صاحب سراج الملوك وتلقى منه ، كما زار ابن بطوطة مصر والمشرق كله ، وعاد يقص أخبار هذا الجناح ؛ وأشار كثير من الباحثين إلى التقاء صعيد مصر وعرب أولاد على غرب الإسكندرية وشمال إفريقية وأعلى النوبة في لهجة واحدة لما ملاحظها الخاصة التي تميزها عن سائر اللهجات العربية (١) .

ومن هذا الترابط الجذرى أن عرب إفريقيا يرجعون في جملتهم إلى قبيلتي بنى هلال وسليم ، ولخاتين القبيلتين بنو عمومة في مصر ، وقبيلتا البربر (هوارته ولواته) وبطونهما المغربية تلتقى مع فروعها في صعيد مصر .

وهناك التقاء في مذهب ، نقله أسد بن الفرات بعد أن التقى بالإمام مالك في المدينة ، وكان سحنون بن سعيد إمام المغرب شامى الأصل ، وابن زيتون قاضى الجماعة في تونس من الذين عاشوا في المشرق .

أما ابن خلدون فقد جاء مصر بعد أن تجاوز الخمسين ، وأقام بها حتى توفى بها . ومصر عنده ، خضرة الدنيا وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ،

(١) طه الحاجرى « مجلة المجلة » - مارس ١٩٦٤

ولإيوان الإسلام ، وكرسى الملك ، حتى لتلوح القصور والأواوين فى جوها ، وترهر
الخوانك والمدارس بأفاقها ، وتضىء البدور والكواكب من علمائها .. ،

لقد كان التقاء المشرق بالمغرب جذرياً وعميقاً ومتصلاً ... وبعيد المدى ؛ فأبو على
القالى البغدادي صاحب الأملى يصبح أستاذاً فى الأندلس ، ويدخل أبو إسحاق الموصلى
قرطبة ، ويخرج ابن عربى المغربى الأندلسى إلى المشرق ، وبعده بقرون يخرج أبو الحسن
الشاذلى ليكونا منارة المشرق فى التصوف . ويرد الغزالى فى (تهافت الفلاسفة) على
الفارابى وابن سينا فى المشرق ، فيأتى الأندلسى المغربى ابن رشد ليرد بدوره على الغزالى
فى (تهافت التهافت) . ويبتكر أهل الأندلس الموشحات (١) ويتبع فيها المشاركة
وهكذا فى القديم والحديث ، لقاء متجدد ودائم وأكد ، إنه دليل الوحدة الروحية
والفكرية والنفسية والاجتماعية جميعاً

لنى الأمير شكيب أرسلان تقدير أكبر فى المغرب العربى ؛ فقد كانت علاقته بالشباب
المغربى فى سويسرا وفرنسا بعيدة المدى فى توجيه الجيل الذى حمل لواء الحركة السياسية
والوطنية .

وقد كان له دوره فى إنجاح حركة الإصلاح السياسى والثقافى ، حتى وصفه فيليكس
فارس بأنه كان روح جميع الحركات التحريرية بالبلاد العربية ، ويدين له الليبيون بما بذل
من مجهودات مع أنور باشا القائد التركى لمقاومة الاستعمار الإيطالى . وقد اتصل شكيب
فى تونس بصالح الشريف وعلى باش حانبه والبشير صفر وكلهم من قادة الرأى فى تونس
وكذلك فى المغرب كان على صلة وثيقة بأحمد بلافريج وعبد الله كنون وعبد الحالىق
الطريس .

وقد أشارت إلى هذا صحف المغرب بعد وفاته ، وقالت جريدة الحرية (١) التونسية
« لسنا ننسى مواقفه المؤثرة لقائدة المغرب العربى ، وسنشيد بها ما حيننا حتى تعلم الأجيال
الطالعة مقام الرجال الذين ندين لهم بالنجاح والتخلص من براثن العبودية . »

(١) مجلة النكر « تونس - جوان - يونية ١٩٥٦ »

(١) العدد ٢٧ - فبراير ١٩٤٩

من أعلام الوطنية

عبد العزيز الثعالبي

الحديث عن الثعالبي له مجالات ثلاثة (١) :

• المصاحح المفكر خليفة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده .

• الوطني الرائد في مجال العمل الوطني والسياسي .

• سفير المغرب العربي في الشرق العربي .

والمجال الأخير هو ما نعتى به في هذه الدراسة ؛ فلقد عاش الثعالبي خمسة عشر عاماً في المشرق العربي مجاهداً في سبيل المغرب والعرب والإسلام ، بالإضافة إلى رحلاته العديدة قبل ذلك ، وخلال ذلك في العالم كله ، أوروبا وآسيا . وهي رحلات تدل على الإيمان الصادق وقوة العزم بالنسبة لرجل ضخيم الجسم ، كان قد جاوز الخمسين عندما رحل إلى الهند ، فضلاً عن موارد الإتقان لمجاهد يتزل أفخم فندق ، ويبدو في مكانة المجاهد العزوف الذي يقف في صف الملوك والأمراء غير أن هذه الرحلات قد أمدت « الثعالبي » بفيض من الخبرة والتجربة والعلم بأحوال العالم الإسلامي ، ودراسة لأفكاره واقتصادياته ، وتطور مفاهيمه الاجتماعية والسياسية والروحية .

بدأ رحلته الأولى إلى المشرق عام ١٨٩٢ م ؛ فزار طرابلس ومصر والآستانة ، وعاد منها « غريب الشكل والترعة والمنطق والقلم » على حد تعبير الفاضل بن عاشور يتكلم بأفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، ويعجب بالكواكبي وحسن حسني الطويراني وعلي يوسف ، ويدعو إلى التطور والحرية وفهم أسرار الدين وأسرار الوجود ، ويغرب بمقالات الحكماء والطبيين ، وما كاد يرجع من مصر حتى أحاطت به هالة من أهل العلم والأدب ، أصبحت ألزم له من ظله ، فكان يتنقل بهم من مجامع العاصمة نادياً سياراً ، مأخوذين بملاوة تعبيره ، وفصاحة منطقته وقوة عارضته ، ومقدرته على تحليل الموضوعات استرسالاً بلا ملل ولا فتور ..

كان ذلك في أوائل القرن العشرين (١٩٠٢) . ثم كانت رحلته الثانية عام (١٩١٩) .

(١) بعد المؤلف دراسة مطولة عن الثعالبي

إلى بلاد المشرق . أما رحلته الثالثة فكانت ١٩٢٠ إلى إيطاليا وفرنسا وسويسرا وبلجيكا . ولم يقر بعد ذلك إلا سنوات ثلاثاً ليبدأ رحلة العمر في (أوت - أغسطس ١٩٢٣) إلى المشرق فلا يعود إلى تونس إلا في فاتح (أكتوبر ١٩٣٧) ليقضى سنوات من المرض والكمد حتى توفي عام ١٩٤٤ .

أما رحلته هذه فقد استغرقت أربعة عشر عاماً أمضى منها سنوات إقامة في القاهرة والقدس وبغداد ، وقام برحلات طويلة إلى أقصى المشرق ؛ إلى الهند وأندونيسيا وحدود الصين ، وإلى الجزيرة العربية وتركيا وإيران وأفغانستان ، وإلى كل مكان يجد فيه مسلماً أو متكلماً بالعربية . وهو في خلال جولته يحمل رسالة كبرى قوامها :

- اليقظة والتجمع والالتقاء الروحي والفكري للعالم الإسلامي .
- إبلاغ كلمة المغرب إلى المشرق في مجال الحرية والكفاح والتخلص من الاستعمار .
- دراسة أحوال العالم الإسلامي ماضيه وحاضره وثقافته واقتصادياته .
- ويكشف الثعالي منهجه افكري في كلماته :

« لنا في ماضينا عبرة فلا نأسف عليه بقدر ما يجب أن نستفيد من الأغلاط التي ارتكبناها فيه ، ومهما غالتنا الغوائل ونابتنا النوائب فإننا لم نزل أمة قوية عزيزة الجانب ، لها تأثيرها الفعال في سير السياسة العالمية ، وغايتنا أن نعيش أحراراً في بلادنا .

على الشرقيين إذا أرادوا أن يسعدوا أن يعتمدوا قبل كل شيء على إصلاح النفوس ، ومتى أصلحوها وثقفوها أصلحوا الشرق ، وهي لا يصلحها غير العلم النافع والتربية الصحيحة .

لست أقول بالظفرة ولا أطلب المحال ، ولا أريد الناس على عمل لا يقدرُونَ عليه ، وإنما أدعوهم إلى العمل الممكن الميسور ، أدعوهم إلى التفكير في الأمور ، والإتيان في العمل ، والتوسع في الاستنتاج .

أدعوهم إلى التحول والانتقال من الأعمال الفردية إلى الجهود الاجتماعية وإحداث للنظم لها والمؤسسات ؛ إذ ليس في مستطاع فرد مهما أوتي من القوة والبأس والذكاء أن يتقن ويستثمر عملاً ما لم يقترن سعيه بجهود الآخرين ؛ فإن تكافح الأقوياء في هذا العصر ، لم يقم على الأفراد ؛ بل على جهود الجماعات ، والسبب في هزائمنا المتوالية نحن معاصر الشرقيين هو اعتمادنا على مكافحة الفرد ، وذلك ما جعلنا ننهزم في الصدمة الأولى في معترك الحياة أمام الأجانب ، فهم يكافحوننا بالنظم والشركات والأحزاب المتناصرة ،

وقوة الأمم تخرج من بين صلب وتراثب هذه الوحدات ، لا من بين الحب الأفلاطوني والخيال الموهوم .

فإن الشرق لم يزل مشرق العظام والكَمالات والثورة ؛ ففيه نزل الوحي الإلهي على الصفوة من خلقه ، وفيه انبعثت أفنان المدينات ، ولولاه ما أدرك الغرب الفضيلة ، ولا عرف الأديان ، ولا الفلسفة ، ولا بلغ مبلغه من المدنية والعمران ، ألم تكن مصادر المدنية الغربية شرعية ، ومن عمل الشرق ؟

ونحن إن نسينا فلن ينسى الغربيون أن المسيحية هداية شرعية محضة ، وهي والإسلامية واليهودية نبعة واحدة يفيض بها الروح الأمين على السامعين من قلب البلاد العربية .

مهما تصورنا عظمة الشرق ، وبالغنا في وصف جماله وجلاله ، فإننا لا نستطيع المكابرة في الحق ، وإنكار تفوق الغرب في عمله وفي نظمه وفي قوته ؛ فقد استيقظ الغرب في الساعة الأخيرة التي غفا فيها عنه الشرق فبزه وما عزه .

إذا أردنا أن نعيد الشرق إلى مترلته الأولى من التقدم وجب علينا أن نقبس من الغرب كل جديد يجمل به ، وننبذ كل قديم رث بال عفاه الدهر وقتلته العصور ؛ فإن الحياة كون خاضع لناموس التغير والتجدد ، ولا يخلق بهما أبداً الرفو والترقيع ، وكفانا أن نحفظ من ماضينا بالدين والأخلاق ، وما عداهما في البوار وإلى الدمار .

وقد عاش الثعالبي حياة خصبة كلها كفاح وجهاد ونضال منذ ولد عام ١٨٧٤ وتطلع إلى العمل الوطني بعد تخرجه في الزيتونة سنة ١٨٩٥ في مجال العمل الوطني والإصلاح الديني والصحافة والخطابة والتعليم والتأليف .

فقد عمل مع علي باش حانبه في المجال الوطني ، وبرز بعد الحرب العالمية الأولى وألف (روح القرآن الحرة) ومعجزة محمد بالفرنسية .

وأصدر جريدة سبيل الرشاد ، وحرر جريدة التونسي .

وأصدر كتابه (تونس الشهيدة) بالفرنسية ١٩٢٠ بدون إمضاء ، وناب عن التونسيين بعد الحرب الأولى في الدفاع عن مطالبهم في باريس في الوقت الذي ذهب فيه سعد زغلول عن مصر وقيصل بن الحسين عن العرب ودخل السجن مرات ومرات ، في تونس وفي فرنسا .

وكانت شعلة النور والنار في حياته عند ما رأى جيوش الاحتلال تقتحم بلده عام ١٨٨١ ، وتضرب عمه بالسياط وكان جده عبد الرحمن الثعالبي قد اشترك في قتال الفرنسيين

عند احتلالهم الجزائر ، وقام بدور ضخم في المقاومة . فهو جزائري الأصل تونسي المولد . وقد ظل مقامه (مسجد سيدي عبد الرحمن ، مركزاً ثورياً في حرب التحرير الجزائرية .

وقد كانت الفكرة التي يحملها في أول الأمر وطنية خالصة ، فلما عاد من مصر كانت نظريته قد تبلورت في مزاج من الإصلاح الديني والاجتماعي والعمل السياسي ، على النحو الذي دعا إليه جمال الدين ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي . فهو واحد من ذلك الرعيل الذي كونه المدرسة الحمالية .

ومن أجل هذه المعاني القائمة على الإيمان بالمغرب العربي الإسلامي ، وامتزاج الفكر العربي الإسلامي ، وقيام الشخصية العربية الإسلامية في نفسه كأساس للاقتباس من الحضارة الأوربية والثقافة الغربية لتي المحنة التي عاشها من قبله جمال الدين .

مَقُومَاتُ الثِّقَافَةِ وَالْفِكْرِ

أدب المرأة المغربية — التاريخ المغربي

— أدب الكفاح المغربي شعر الوطنية والكفاح —

التعليم — الثقافة — الصحافة

مدخل

إذا كان المغرب قد واجه أبرز قضايا شخصيته الأساسية : المغربية العربية الإسلامية بشجاعة وقوة ، وسجل فيها انتصارات أكدت هذه الشخصية وعمقت جذورها . فإن الفكر المغربي قد واجه معركة كبرى في مجال الاحتفاظ بأصوله وقيمه في مجالات التعليم والثقافة والصحافة والأدب والتاريخ واللغة العربية .

كان الاستعمار حريصاً على أن يحطم المقومات الأساسية لهذه المجالات ، أو يحولها حتى يقضى على قوة الأمة المغربية العربية الإسلامية حتى يستطيع أن يسيطر عليها فكرياً ؛ ذلك أن هذه المقومات كانت تمثل العوامل الحية للأمة وكيانها ، فإذا ما أمكن تهديمها وتميعها فقد استطاع الاستعمار أن يقيم نفوذه ويؤكد سلطانه ويحول المغرب إلى أقاليم جنوبية من إيطاليا وفرنسا وأسبانيا .

وقد قاد هذه الحملة دعاة أقزام يخاصمون اللغة العربية والإسلام في عنف ، ويحددون فضل العرب على الحضارة الإنسانية ، وفي مقدمة هؤلاء الدعاة الكردينال لافيجرى والمرشال ليوتى .

ففي التعليم كان الهدف خلق موظفين تابعين ، وفي الثقافة استهدف الاستعمار خلق جيل من المؤمنين بالفكر الغربي والثقافة الفرنسية ، وفي مجال الصحافة كان الهدف مسيطرة الاستعمار والدفاع عنه . وفي التاريخ حاول الاستعمار التشكيك في البطولات العربية الإسلامية وتصوير الأمة بصورة مهلهلة مفككة . وفي اللغة العربية كان الهدف القضاء عليها وتغليب اللهجات الإقليمية والحروف اللاتينية واللغات اللاتينية عليها ، ومن ثم فقد بدأ صراع عنيف امتد وتعمق في سبيل الهدم من جانب الاستعمار . ولكن الذي حدث أن الفكر المغربي العربي الإسلامي استطاع مواجهة هذه المؤامرات بقوة وبرز في دور التحدي ورد الفعل على نحو باهر . واستطاع أن يقاوم النفوذ الغربي في مجال الثقافة والتعليم والصحافة والأدب والتاريخ ، وأن يؤكد الشخصية المغربية العربية الإسلامية . وأن يكشف عن دورها في كل مجال ، وأن يحقق انتصارات لا حدها . كان لأقطاب الزيتونة والقرويين فيها أكبر الفضل .

ومضت معركة التغريب تحقق الهزائم وتتهار أمامها قلاع الفرنسة والتجنيس والإذابة والإدماج والتفرقة بين العرب والبربر واحدة إثر أخرى . بينما تتكشف القوة الحقيقية للأمة على نحو لا مسيل إلى إنكار أثره وقوته .

واستطاع الفكر المغربي العربي الإسلامي أن يحقق انتصاراً في خلال مرحلة الاحتلال في هذه المجالات لا حد له . فقد كان مرناً واسع الأفق حين لم يغلق أبوابه على خير ما في الفكر الغربي . بل تقبله وانتفع به وجدد به مناهجه وشحذ قواه ، ثم استطاع في نفس الوقت أن يحافظ على كيانه وملامح شخصيته وقيمة ومقوماته وتراثه ، على النحو الذي بدا به ذلك الكيان جديداً حياً يتنفض شباباً ، ولا غرو فقد كان الفكر العربي الإسلامي الذي امتد في المغرب وأسس قوائم ثقافته معيناً ثرياً لا حد لغنائه وتراثه في مجال الثقافة والتاريخ واللغة العربية والعلوم . وكان فضله على نهضة أوروبا وحضارتها كبيراً . وكان المغرب هو الطريق الذي نفذ منه هذا الفكر إلى أوروبا فأوقد فيها النار والنور ، ومنحها هذه اليقظة عن طريق جامعات القرويين وقرطبة وأشبيلية وغيرها . ومن طريق الأندلس شقت الثقافة الإسلامية طريقها إلى أوروبا وخلقت عهد النهضة .

لذلك لم يكن عجباً أن يحارب الفكر الغربي في معركة التغريب هذه القيم ولا يعترف بها بل يحاول أن يشكك فيها وأن يثير بين أهلها الشبهات وأسباب التوهين من شأنها . هنالك كشف الفكر العربي عن حقيقة جوهره واستطاع أن يرد هذه الحملة غير المنصفة بقوة وأن يثبت وجوده وكيانه .

أولا - التعليم

واجه التعليم في المغرب العربي معركة ضخمة بعيدة المدى ؛ فقد حرص الاستعمار (أولاً) : على القضاء عليه و (ثانياً) على تحويله إلى تخريج أدوات استعمارية تعمل في الدواوين والوظائف و (ثالثاً) على تخريج مثقفين عملاء يتشققون الثقافة الفرنسية ويؤمنون بها ويزدرون الثقافة العربية

ومن قبل الاحتلال اللاتيني للمغرب العربي كله ، كانت الثقافة العربية سائدة وعلى نحو واسع وعميق ، وكانت منارات القرويين والزيتونة هما مصدر الإشعاع ، بالإضافة إلى زيارة المشرق التي كانت بمثابة الدراسات العليا لأهل المغرب ؛ فقد كان دائماً قادة الفكر وأعلام اللغة والإسلام يردون المشرق ويتصلون بالأزهر ومكة ..

ثم نشأ تعليم مزدوج يجمع بين اللغة العربية واللغة الفرنسية يتمثل هذا في مدارس الصادقية (تونس) ومثيلاتها في المغرب (مراكش) . أما إقليم الجزائر فقد حظى بنظام أشد صرامة إذ ألغيت منه المدارس العربية إلغاء كاملاً ، وحلت محلها المدارس الفرنسية الخالصة .

هذا بالإضافة إلى الغزو التعليمي بمدارس الإرساليات التبشيرية المختلفة ، ثم كانت البعثات مجالاً لخلق جيل من أعوان الثقافة الفرنسية ، وفي تونس كان وزير المعارف فرنسياً له التصرف المطلق في التعليم العام . ، ومديرو المدارس كلهم فرنسيون ، وقد عملت حكومة الاحتلال على تضيق دائرة التعليم ، وظل جامع الزيتونة مدى طويلاً تابعاً لوزير المعارف الفرنسي .

أما برامج التعليم فإنها تعنى - قبل كل شيء - باللغة الفرنسية وتاريخ فرنسا وجغرافيتها وتراجم رجالها . أما ما يدرس لهم من التاريخ العربي فلا يعدو أن يكون صورة مزورة تهدف إلى تحقير الماضي والخط من قيمة أبطال العرب والإسلام .

ويرى ساطع الحمري (١) أن التعليم في المغرب العربي كانت توجهه سياسة

(١) ساطع الحمري : حوليات الثقافة العربية ج ٢

التنصير والفرنسة ، وإقامة الديانة المسيحية محل الديانة الإسلامية ، وإحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية .

وقد وضعت لذلك خطة لنشر اللغة الفرنسية بالتدريج ، وتعميم الآراء والأفكار الفرنسية ، وإهمال العربية إهمالاً كاملاً ، ثم مكافحتها مكافحة فعالة ، وإنضاب الموارد المالية للمدارس الأهلية عن طريق القضاء على الأوقاف ، والإكثار من إنشاء المدارس الفرنسية في المناطق المسكونة بالقبائل البربرية ، يدرس فيها بالبربرية والفرنسية ، كما حظر على الفقهاء الانتقال إلى هذه المناطق وتعليم القرآن فيها ، وذلك قطعاً لصلة البربر باللغة العربية .

وفي تونس كانت اللغة الفرنسية لغة أساسية بجوار اللغة العربية ، وفي مراکش كانت اللغة الفرنسية هي لغة التعليم في جميع المدارس .

وكان أساس برامج التعليم إضعاف الروح المغربية العربية الإسلامية ، وتقديم ثقافة لا تمت بصلة إليها ، وإحلال الفلسفة واللغة والتاريخ والجغرافيا الفرنسية ، بغية القضاء على الشخصية المغربية ومقوماتها .

وفي الجزائر كانت الخطة أشد عنفاً ؛ فقد ألغيت العربية إلغاءً . وجرى التعميم كله بالفرنسية وصدر قانون شوتان عام ١٩٣٨ الذي يعتبر اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر . ورفضت السلطات إعطاء الجزائري تصريحاً لفتح مدرسة ، وإذا صرح بفتح (كتاب) كان ذلك بشروط قاسية منها أن يحفظ القرآن دون تفسيره ..

يقول أوجين كومب : « مما لا شك فيه أن التعليم في الجزائر خلال عام ١٨٣٠ (أي عام الاحتلال) كان أكثر انتشاراً وأحسن حالاً مما هو عليه الآن ؛ فقد كان هناك أكثر من ألي مدرسة للتعليم بدرجاته المختلفة ، فضلاً عن مئات المساجد . وقد أغلق الاستعمار الفرنسي هذه المدارس العربية بالقوة .

ويقول (بونار) : أحدث وجود الفرنسيين اضطراباً بالغاً بين هؤلاء المفكرين والأدباء ، واضطر معظم العلماء والفقهاء إلى ترك وظائفهم كما تشتت شمل التلاميذ .

وقد سيطرت فرنسا على عقارات الدولة الجزائرية والأوقاف الإسلامية . وفي ٢٤ ديسمبر عام ١٩٠٤ أصدرت فرنسا قانوناً ينص على عدم السماح لأي معلم مسلم أن يتولى إدارة مكتب لتعليم اللغة العربية بدون تصريح يمنحه إياه عامل العمالة أو قائد الفيلق العسكري .

والتصريح (الرخصة) لا تعطى إلا بضمانات هي :

- اقتصار التعليم على حفظ القرآن فقط .
- عدم التعرض بأي وجه كان إلى تفسير القرآن خاصة آيات الجهاد والتحرر ، وعدم الرضوخ للظلم والاستبداد .
- استبعاد دراسة تاريخ الجزائر والتاريخ الإسلامي العربي ، وجغرافية القطر الجزائري والبلاد العربية .
- استبعاد الأدب العربي بجميع فنونه .

وقد اتخذت فرنسا هذه التحفظات ، لأنها ترى في الثقافة العربية الإسلامية خطراً يهدد وجودها في الجزائر ، ورغبة في القضاء على هذه الثقافة .

وقد صور المرحوم محمد فريد خلال زيارته للجزائر في أوائل القرن حركة (١) التعليم في الجزائر في عبارة بليغة قال : « هجرت ربوع العلم ، وخربت دور الكتب ، وصارت الديار مرتعاً للجهل والجهلاء ، وكادت تدرس معالم اللغة العربية الفصحى ، وتطرق إلى اللغة العامية الكلمات الأجنبية ، بل أصبحت اللغة الفرنسية هي لغة التخاطب في انعواصم مثل وهران والجزائر وقسنطينة وعنابة وغيرها .

وقال محمد فريد : « إن حالة التعليم في القطر الجزائري سيئة جداً ، ولو استمر الحال على هذا المنوال لحلت اللغة الفرنسية محل العربية في جميع المعاملات ، بل ربما تدرس العربية بالمرّة مع مضي الزمن ، فلا الحكومة تسعى في حفظها ولا تدع الأهالي يؤلفون الجمعيات لفتح المدارس .. »

وفي ليبيا (طرابلس وبرقة) قضى الاستعمار على كل الروايات التي كانت بمثابة معاهد لتعليم اللغة العربية والقرآن ، وإنشاء مدارس لا يدخلها إلا المستوطنون والإيطاليون .

وفي عديد من تقارير الاستعمار كانت الروح اللاتينية واضحة في مواجهة المغرب مجال التعليم ، معلنة أن الغرض من التعليم الرسمي تثبيت أقدام الاستعمار بخلق عدة عوامل :

- تحويل المتعلمين إلى أدوات استعمارية .
- الإعجاب والرضا بالمستعمر ، والنظر إليه نظرة الإجلال .

(١) اللواء : ١٢ أكتوبر ١٩٠١

• القضاء على مقومات الأمة المغربية العربية الإسلامية .

• صهر الجزائريين في البوتقة الفرنسية وتبديل أحوالهم الشخصية .

ويقول مسيو بونار ١٩٠٨ « إنه لمن الأهمية بمكان أن نبث في أذهان الأهالي فكرة رفيعة ونقية عن وطننا ، وذلك بتلقين التلاميذ دروساً عن عظمة فرنسا وجيشها وثروتها ... »

غير أن المغرب العربي بما عرف عنه من صلابة واعتداد بمغربيته وعروبته وإسلامه قاوم هذا التيار مقاومة كاملة .

ومن قلب الجزائر التي هي أخطر مناطق التغريب والفرنسة الفكرية ، والتي واجهت أسوأ صور التعليم الفرنسي الخالص مع القضاء على اللغة العربية ، ظهر أقوى عمل في تاريخ المغرب العربي كله لإحياء اللغة العربية والإسلام في مخطط جمعية العلماء الذي حمل لواءه عبد الحميد بن باديس ، وعاونته فيه وأكملته : البشير الإبراهيمي والتبسي والعقي ، وقد أتممنا المخطط إنشاء ثلاثمائة مدرسة على الرغم من كل القوانين والمخالفات وأعمال الاضطهاد .

وأثمرت هذه الحركة ثمرة ضخمة قصت على مخطط النفوذ الفرنسي ، وحفظت اللغة العربية التي وصفها دعاة جمعية العلماء بأنها « قطعة من وجود العرب ومرآة لعصورهم الطافحة بالمجد والعلم والبطولة ، والتي كانت في وقت ما لسان معارف البشر ، وترجمان حضارتهم ، وناقلة فلسفات الشرق وفنونه إلى الغرب ، ومستودع آداب المشرق وملئتي تياراته الفكرية ، دخلت به إلى الهند والصين ، وقطعت به البحار والقلوات ، والأمة الجزائرية من أوفى الفروع لهذه اللغة وأكثرها برأياً وتمجيداً واعتزازاً » .

وقد قام التعليم الجزائري - كما صور ذلك البشير الإبراهيمي (١) - على الأصول العربية مع الاقتباس من الأساليب الأوروبية والأمريكية والاستفادة من تقدم التربية الحديثة وعلم النفس ، هذا الاقتباس الذي لا يمس جوهر الأسس التي يقوم عليها نظامنا التربوي ، هذه الأسس شيء لا يمكن أن نستورده من الخارج دون أن نعرض الملامح الرئيسية من شخصيتنا لخطر الفناء ، على الرغم من تقديرنا للمزايا العظيمة التي ترتبت على صبح نظامنا التربوي بصيغة ديمقراطية ، وجعل التربية غاية في نفسها كما توصى به

(١) جريدة البصائر - مجلد ١٩٤٩

النظريات الحديثة ، فإن الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية السائدة في الجزائر ستصبح جهودنا معها في الإصلاح عملاً من غير طائل .

فالشعب الجزائري لم تتح له فرص كبيرة في مجال التعليم ، وظروفه التاريخية القلقة لم تسمح له أن ينكب على البحث العلمي ، لأنه كان يفقد أهم عوامل الإنتاج العقلي وهو الأمن والاستقرار ، وقد كان في العهود المعروفة لدينا من تاريخه في الغالب بين إحدى حالتين : إما أن يقاوم غزواً أو يستعد لمقاومة غزو .

وكانت تربية الطبيعة له على شطف العيش والتأقلم في الجبال والوادي خير عون له على أن يقدم الشواهد الكثيرة على شجاعته في المعارك ، سواء منها ما خاضها مع فرنسا ضد حروب الإمبراطورية الثانية حتى الحرب الأخيرة ، وثبت أنه محارب من الطراز الأول .

وعندما انتهت المعارك الطاحنة التي نشبت بين سكان هذه البلاد والعرب ، استطاع البربر أن يفهموا طبيعة الرسالة التي حملها المسلمون إليهم عبر الصحارى ، ويدركوا الفرق بينها وبين الأغراض الاستعمارية التي كانت تدفع الغزاة إلى محاولة فتح بلادهم في الماضي ، فكان امتزاج البربر بالعرب وتقبل رسالتهم .

إن نظام التربية عندنا لا يمكن أن يأتي ثمرته المطلوبة إلا إذا جعل من أهدافه الرئيسية نشر اللغة الصحيحة ومحو العجمة التي طرأت على اللسان العربي ، وتقوية الروح العربية والإسلامية .

وبالرغم من كل قيود النفوذ الفرنسي وقراراته باعتبار اللغة العربية أجنبية في الجزائر وقيود فتح المكاتب العربية استطاعت جمعية العلماء عام ١٩٥٢ أن تعقد أول امتحان لنيل الشهادة الابتدائية العربية وتفتح معهد ابن باديس .

وبعد الاستقلال بدأت في تونس والمغرب حركة التعريب ، ثم امتدت إلى الجزائر بعد استقلالها .

وهي تهدف في الأغلب إلى تعريب التعليم ، واستعمال اللغة العربية بحيث تكون لغة التدريس لجميع المواد ، وإحلال مدرسين عرب محل المدرسين الفرنسيين ، والتخلص مما أطلق عليه « لائكية التعليم » أي التعليم المدني .

ولا يزال الموقف في المغرب العربي الكبير يواجه مشكلتين هامتين :

• معارضة المكونين تكويناً فرنسياً لحركة التعريب ، ويوجد منهم عدد كبير يبلغ عشرة آلاف أو يزيدون .

• ازدواج لغة التدريس وما تؤدي من معاناة ، حيث إن ثلث المواد تلقن بالعربية وثلثين بالفرنسية ، وقد أشارت التقارير إلى ما في هذا الازدواج من إرهاب لعقول الأطفال والشباب .

والمعتقد أن هاتين المشكلتين في طريق الحل ، وأن الخطوات المتوالية كلها تتجه إلى تغليب اللغة العربية .

أما بالنسبة للتعليم الزيتوني فقد تطور في أكتوبر عام ١٩٥٨ على أساس ما تقرر من أهمية تحويل ١١ ألف طالب في التعليم الثانوي الزيتوني إلى التعليم الجامعي وهذه عبارة مجلة الشباب التونسية (مارس ١٩٥٩) في هذا الصدد تحت عنوان « التعليم الزيتوني في مفترق الطريق » على هذا النحو :

« لقد مضى عهد الاستعمار ، وحاجة الأمة إلى محاربين عن ضريق القومية والديانة قد فرغت بخروجه . إذن فما هو الداعي في بقاء ما كان على ما كان من حشد نصف الشباب التونسي لدراسة نوع من الثقافة هو الدين واللغة ، وزميله في كل من روسيا وأمريكا وغيرها يدرس الذرة والكهرباء ، إن الساعة أزفت للتخصص في العلوم ، والتفنن في أسرارها ، ومشاركة الأجنبي الغازي في نيل سلاحه الذي يحصدنا بشفرته ، ويخلع علينا ثوباً من الذلة والهوان .. »

ولا شك في أن هذا التحول يعد نقطة هامة ذات دلالة كبيرة على تطور الثقافة المغربية العربية الإسلامية ..

ومما يذكر أن مشكلات المدرسين من ناحية والاصطلاحات العلمية العربية من ناحية أخرى والانحصار في لغة واحدة هي الفرنسية ، من ناحية ثالثة قد خطت خطواتها إلى الحل في المغرب والجزائر .

جامع الزيتونة وجامع القرويين

جامع الزيتونة في «تونس» والقرويين «المغرب» هما منار
النهضة والثقافة والوعي والحركة الوطنية في المغرب
العربي كله

وقد وصف أحد مارشالات فرنسا جامع القرويين
بقوله «أيها البيت المظلم»

تخرج في الجامعتين كل الاعلام الذين قادوا حركات
الإصلاح والثورة ، وهما منتدى كل حركات اليقظة حيث كانت
تعقد حلقات العلم ، ولطالما نكل الاستعمار برجال القرويين
وطوقهم بالدبابات والجيوش ، ورماهم من تحت أبواب
المسجد الضخم برصاص الرشاشات والبنادق .

وفي صحن القرويين تعلم البابا «سلفستر الثاني»
الذي كان أول من حمل لواء ترجمة التراث العربي الاسلامي
فبدأ بذلك نهضة الغرب ، وقد تأثر بمبادئ الفقه والتشريع
الاسلامي ، فحمل الى ايطاليا فكرة تطوير القانون الروماني
وكذلك «بات الانجليزى» الذي نقل من خزائنها عديدا
من المخطوطات الرياضية ، ونقل «ديراف شتسبر» كتاب
التلخيص لابن البناء ، وكذلك جيرارداف كريمونا وميخائيل
سكوت «كتاب الهيئة ومؤلفات ابن رشد» وليونارد دفيوناتشى
«علم الجبر والمقابلة» .

كانت الزيتونة والقرويين من أبرز مراكز الثقافة في المغرب العربي ، الزيتونة
في (تونس) والقرويين في فاس (المغرب) . ولا شك في أن الصفوة الكبرى من اعلام
الفكر والحركات الوطنية وحملة الأقلام وكتاب الصحف والدعاة والباحثين قد تعلموا
في أحد هذين المعهدين ، فمتعلمة طرابلس وبرقة كانوا يقصدون الزيتونة ، وكذلك
كان متعلمة الجزائر ، هذا بالإضافة إلى من كان يقصد منهم إلى الشرق وإلى الأزهر
بالذات أو المجاورة في مكة .

وجامع القرويين في فاس أقدم الجامعات الإسلامية في المغرب بل في العالم الإسلامي كله ، فقد تأسس ٢٤٥ هـ ٨٥٩ ميلادية قبل الأزهري بمائة وأربعة عشر عاما ، (تأسس الأزهري عام ٣٥٩ هـ) وقد تولى هذان الجامعان دراسة علوم الإسلام واللغة العربية وما يتصل بها من تفسير وحديث وفقه وعقائد ونحو وصرف ومعان على النحو المعروف في الأزهري الشريف .

وقد جدد جامع القرويين سنتي ٣٢٢ هـ (٩٣٤ م) ، ٥٣١ هـ (١١٣٧ م) وظل منذ إنشائه « دار علم وفقه » لم تنقطع الدراسة فيه ، ولم يفقد مكانته حتى بعد أن أصبحت مراكش عاصمة المغرب الأقصى ، ويمكن تقدير مدى أثر هذه الجامعة الإسلامية إذا عرفنا أن جامعة بولونيا بإيطاليا أسست ١١١٩ ، وأن جامعة أكسفورد أسست ١٢٢٩ ، وجامعة السربون بفرنسا بعد ذلك . فهو بذلك أقدم كلية في العالم كله .

وقد قدم للعالم الإسلامي عديداً من أعلام الثقافة والفكر في اللغة والعلوم والفقه والأدب والرياضيات والطب منهم أبو عبد الله بن غازي (فقيه) وأبو عمر السلاجلي (متكلم) وأبو رشيد السبتي (محدث) والجاحظ أبو العلاء العراقي (الفلكي) المتوفى ٧٢٣ وابن زاكور (الشاعر) وابن البناء المراكشي (الرياضيات) والطبيب أبو القاسم الوزير ، ومحمد بن سليمان الوزاني مخترع كرة الدوائر الفلكية المتوفى ١٠٩٥ وعبد الله اليفرقي الجبوني المتوفى عام ٨٥٦ .

ومما يتميز به أن الطلبة من جميع أنحاء أوروبا وردوه وتعلموا به ، وأنه ضم أعلاماً من فرنسا وإيطاليا والأندلس ، ومن أبرزهم البابا سلفستر الثاني أول من أدخل إلى أوروبا الأعداد العربية التي لا تزال مستعملة في المغرب إلى الآن وتعرف بحروف الغبار كما (١) استقبلت جامعة القرويين طلاباً من مصر وطرابلس وتونس والجزائر ، ودرست فيها مختلف العلوم ، ويرجع المؤرخون سر حفظ القرويين من الضياع في الطب والفلك والتشريع حتى الموسيقى ، وبقائها عدة قرون تؤدي رسالتها التي لم تتخلف عنها ولم تتوقف قط ، كما حدث للأزهري مثلاً - يرجعونه إلى عدم احتلال العثمانيين للمغرب ، فالمغرب هو القطر العربي الوحيد الذي لم تتمكن تركيا من احتلاله .

(١) عبد الله كنون - ماضي القرويين وحاضرها « الرسالة » ٤ يولية سنة

وقد تجددت جامعة « القرويين » عام ١٢٣٢ هـ عام ١٨١٦ م وذلك بتأسيس مجلس للنظر في شئونها ووضع برنامج للدراسة فيها ، ويسبق هذا التاريخ نهضة الأزهر الزيتونة .

غير أن مشاركة بعض الشخصيات الغريبة على حد تعبير السيد عبد الله كتون (١) في وضع هذا التنظيم كان عاملاً من عوامل استرابة الناس به ، حتى من كان يجب الإصلاح ويميل إلى التجديد ، وهكذا بقي على ما كان عليه ، وحدث أن السلطة كانت تستخدم بعض الشخصيات البارزة من العلماء في مختلف المصالح ، والبعض الآخر كان يتثر عقده بالمرت ، فلم يشعر الناس إلا وجامع القرويين يكاد يكون فيه اليوم والغراب لخلوه من أهل الكفاية والخير ، غير أنه لم يلبث أن أعيد تنظيمه وتجديده عام ١٢٥٠ هـ - ١٨٤٠ م

أما الزيتونة فقد قدمت إلى العالم الإسلامي عشرات من أعلام الفكر في مقدمتهم مؤسس علم الاجتماع « عبد الرحمن بن خلدون (٢) » ، وعبد الحميد بن باديس ، والطاهر بن عاشور ، وسالم أبو حاجب ، ومحمد السنوسي ، ومحمد بيرم ، وعبد العزيز الشعالبي .

كما حملت أواء الدعوة الإصلاحية التي دعا إليها خير الدين ، وشاركت في جمعية العروة الوثقى التي أسسها جمال الدين الأفغاني .

وعندما بدأ محمد عبده في إصلاح مناهج الأزهر أخذت الزيتونة بنفس المنهج .

وقد وصف الفاضل بن عاشور نهضة الزيتونة في الثلاثينات : « سرت في جامع الزيتونة حركة عظيمة بتأثير النهضة الجديدة ، فشاع في الطلبة والأساتذة الانتقاد على خلو مناهج التعليم الزيتوني من تلك العلوم ، والتشجيع بالقصور البين في معارف طلبته ومداركهم ، وامتلات أعمدة الصحف بهذه الدعوة (٣) » .

وكان من نتيجة ذلك أن بدأت حركة إصلاح التعليم الزيتوني (١٣١٥ - (مايو) عام ١٨٩٨) وتعددت خطوات الإصلاح ، وتوالى مرة بعد أخرى .

(١) نفس المراجع .

(٢) انظر الملحق بدراسة ابن خلدون .

(٣) ص ٥٥ الحركة الادبية والفكرية في تونس ، للفاضل بن عاشور .

وقد واجه المعهدان أزمة ضخمة عندما إبدأ العصر الحديث وبدأ النفوذ الأجنبي يزحف على العالم الإسلامي وعلى المغرب العربي بعد احتلال الجزائر عام ١٨٣٠ .

فمن المعهدين خرجت كل قوى العمل في ميدان المقاومة الفكرية ، وقد كانت الزيتونة - على حد تعبير أحد الكتاب الفرنسيين (جريدة السعادة ٨ يوليو ١٩٤٦) - تمثل لديهم في كل وقت من حياتهم القطب الروحي للمسلمين ، إلا أن شعاعه مضى يتجاوز حدود إفريقيا وينير أرجاء الجزائر وطرابلس الغرب ، حيث إن هذين القطرين يوفدان كل سنة أفواجا من الطلبة...

ولقد ظل جامع الزيتونة خلال حياته الطويلة مرآة لانعكاس الحالة السياسية والاجتماعية في البلاد .

ولقد كان النفوذ الأجنبي حفيّا بأن يهاجم هاتين الجامعتين الإسلاميتين ويقاوم منهجهما محاولاً تغييره ، باعتبارهما مصدر المقاومة الفعلية لنفوذه ، وكذلك فعل بالأزهر . غير أن المصلحين كانوا أيضاً حريصين على تعديل أنظمة هذه الجامعات الإسلامية حتى لا تواجه النقد ، وحتى تستطيع أن تسير التطور وتجرى مع التيار .

وفي مراجعة لتاريخ القرويين يتبين أن الاستعمار عندما فرض الحماية على المغرب كان حفيّا بأن يواجه هذا المرفأ العلمي الخطير ، ويحد من طاقته ، وذلك بإلغاء العلوم الهامة ، والاكتفاء بالقشور . فتحوّلت كلية القرويين إلى شبه مدرسة للإعراب والنحو لا تستغرق في العام أكثر من شهرين ، ولم تفلح اليقظة المغربية في مقاومة هذا الجمود ، وتطبيق الإصلاحات التي كانت تجد معارضة شديدة .

ومما أثر في هذا الصدد قول المارشال الفرنسي ليوطي (شبيه كرومر في مصر) لأحد أعوانه : « إذا تم لفرنسا القضاء على القرويين فقد ضمنت لنفسها الخلود في المغرب » ذلك أن طلبة القرويين وخريجيه كانوا هم عنصر المقاومة الهام في مواجهة الاستعمار ومخاصمة أهدافه ومعارضة أساليبه التغريبية للفكر العربي الإسلامي .

وقد أشار إلى هذا المعنى (عبد الحادي التازي) في التعريف بجامعة القرويين بعنوان « أحد عشر قرناً في جامعة القرويين » حين قال : لقد تعرض رجال القرويين منذ أواخر القرن الثامن عشر على الخصوص لحملة هوجاء وجهها ضدهم بعض كتاب الإفرنج ممن وردوا على المغرب في « بعثات خاصة » ، لقد نعتوهم بأنهم « يعادون كل تطور » ، وطعنوا في معارفهم وكفاياتهم ، ولعل من يعرف « مركز القرويين »

أيامئذ ، والخطوة التي تنعم بها سواء من لندن رجال السلطة أو الشعب يدرك سر التوجه إلى « هؤلاء » على الخصوص وسر « الرثاء » على مقبرة الفكر بفاس !

ولقد بسطت الحماية نفوذها على المغرب (١٩١٢ م) وكان عليها أن تطمئن إلى ما يجري داخل القرويين التي تهيمن على « المدنية المحرمة » كما دعاها الجنرال مواني ، لاسيما وقد أعرب المولى يوسف - قدس الله روحه - عن رغبته في أن يتطور التعليم إلى حال أفضل . إن الحماية لا بد أن يكون لها وجود في القرويين أيضاً ، وهكذا لأول مرة في التاريخ تفصل الإدارة عن نظر القاضي ، ويتكون مجلس بحضور الميسو مرسيه والقبطان ميلي (١٧ مايو ١٩١٤ - ٢١ جمادى الثانية ١٣٣٢) ينص على أن أطوار التعليم بالقرويين ثلاثة : (الابتدائي والثانوي والنهائي) وهذا يشتمل على قسمين للتخصص الديني والآدبي .

وأشار عبد الهادي التازي أن تقدم القرويين كان بالفعل أمراً متعذراً بل وغير مرغوب فيه ، فإن صرخة الاحتجاج ضد السياسة البربرية قد نفذت من زوايا هذه الجامعة ، وبذلك تعرض « علماء الشباب » للحرمان من اعتلاء الكراسي العلمية ١٩٣٢ . كما أن حركة المطالبة بالاستقلال ١٩٤٤ كان الدور الأكبر فيها للقرويين ، فبرز بالبرز المتسبين إليه في غياهب السجون .

وكان مشروع الجنرال جوان ١٩٥١ لإصلاح القرويين للانتقام من رجال هذا المعهد لمناهضتهم للاستعمار .

ولم يستطع جامع « القرويين » أن يشق طريقة إلى الإصلاح والنهوض إلا عام ١٩٥٧ ، ولكن ذلك لا يمنع أن يمتزج تاريخه ، خلال اليقظة الحديثة ، بتاريخ البطولة والكفاح والنضال من أجل الحرية ، كما امتزج تاريخ الأزهر في مصر ومن أبرز خريجي القرويين علال الفاسي ، وعبد الله كنون ، ومحمد الفاسي ، وعبد الهادي التازي .

وفي مجال الزيتونة جرت إصلاحات كثيرة من أجل دفع هذه الجامعة الإسلامية إلى الأمام ، وأنشئت المدرسة الصادقية عام ١٢٩١ هـ - ١٨٧٤ م لتواجه نفس الحاجة التي قصد بها إلى إنشاء دار العلوم في مصر ، وكان العاملون في تلك المدرسة والمتعلمون فيها من الزيتونة أصلاً ، مع إضافة العلوم الحديثة واللغات الأجنبية .

كما جرى تعديل التعليم الزيتوني وإعادة تخطيط مناهجه في ظل النهضة التي حمل

لواءها خير الدين التونسي قبل الاحتلال الفرنسي لتونس عام ١٨٨١ وتجددت محاولات الإصلاح .

وكانت الزيتونة - كالأزهر والقرويين - مصدر الحركات الوطنية كلها ، ولها الدور الأوفى في عمليات المقاومة ، وأبرزها حركة التجنيس التي حاولها الاستعمار الفرنسي ، فقد كان للزيتونة ورجالها دور كبير في مقاومتها .

وفي خلال مشرق النهضة ، كان أعلام الفكر في دراسات الأدب وكتابات الصحافة من الزيتونة .

وكان للزيتونة أثرها في الفكر العربي في الجزائر ، وكل أعلام الجزائر تعلموا بها . وفي الشرق جاء سفير للوطنية والعلم من تونس بهر الناس خلال خمسة عشر عاماً طوف فيها بالعالم الإسلامي كله ، وأقام بالعراق فترة ، وكان مركزه الأول القاهرة هو « عبد العزيز الثعالبي » أبرز خريجي الزيتونة .

وقد واجه الإصلاح الزيتوني هجوماً من بعض الزيتونيين أنفسهم على أثر الخطوات التي اتخذت عام ١٩٥٤ بظهور مشروع التعليم الزيتوني ووسائل إصلاحه .

فقد كتب عبد الله شريط أحد خريجي الزيتونة الذي يرى أن كل الإصلاح الذي جرت (١) المحاولات من أجل تنفيذه إنما كان منصباً على تنظيم أوقات التدريس وإدخال نظام الكتبة والمقيمين وتسجيل أسماء الطلاب ، أما المواد الدراسية والكتب المقررة وأسلوب التدريس ومبادئه فلم يتغير إلا قليلاً ، وإن التعليم الزيتوني في جوهره ومواده لا يختلف كثيراً عما كان قبلاً . وقال : « إننا لا نتعلم في الزيتونة إلا الخلاف والمعارك بين الشراح والمحشين (أصحاب الحواشي) من أجل حرف جر أو شرح الفروق الهائلة بين الماء الطاهر والماء الطهور » .

وهو من المؤمنين بأن علوم الزيتونة الرئيسية قادرة - لا على تهيئة جيل ينسجم مع الحياة ولا يتناقض معها فحسب - بل على أن تنشئ كذلك مجتمعاً ثقافياً يصلح أخطاء هذه الحياة ويقضي على نقائصها . والعائق في نظره هو طريقة التدريس .

ويمكن القول بأن جامعي الزيتونة والقرويين كانا من العوامل الهامة في مجال الثقافة والفكر واليقظة الوطنية في المغرب كله ، ففيهما تخرج أعلام ليبيا والجزائر بالإضافة

(١) عبد الله شريط مجلة الندوة التونسية ١٩٥٢ .

إلى أعلام تونس والمغرب ، ومنهم خرجت ألوية المقاومة لكل أعمال فرنسا ومحاولاتها
في التجنيس والظهير البربرى والإدماج والإبادة ..

وكان لهما دورهما الواضح في الحفاظ على اللغة العربية في تونس والمغرب ،
واعمل خلو الجزائر من جامع قديم قوى الجذور عامل هام حال دون مقاومة عوامل
السيطرة الثقافية والفكرية فيها .

من أعلام النهضة التربوية

إبراهيم بيوض

من زعماء النهضة التربوية والإصلاحية في جنوب الجزائر في منطقة ميزاب . سبقه على الطريق في هذه المنطقة عبد العزيز التينى . والحاج محمد بن يوسف أطفيش ، وإبراهيم الأبريكى . والحاج عمر بن يحيى وهو من خلفاء الرحيل الأول من المصلحين والسلفيين ، ومفاهيمه تقوم على أساس العودة بالإسلام إلى منابعه الأولى ونشر اللغة العربية وحمايتها ، وإلهامات في تفسير القرآن الكريم ينحو فيها نحو الشيخ محمد عبده ، حيث يعرض المجتمع على القرآن . وهو خطيب بارع يتحدث ساعات طويلة .

وقد قام بدوره السياسى إلى جانب دوره التربوى فى حماية الجنوب من الانفصال ، وقاوم مؤامرة الاستعمار الفرنسى فى فصل الصحراء .

وأبرز أعماله إنشاء معهد الحياة عام ١٩٢٥ م الذى مازال قائماً والذى خرج عدداً كبيراً من العلماء والأساتذة . وقد لعب خريجو معهد الحياة أكبر الأدوار فى الثورة الجزائرية .

ول هذه النهضة صحافة كان الشيخ أبو اليقظان إبراهيم رائدها حيث أصدر صحف : الميزاب ، ووادي ميزاب ، والمغرب ، والنور ، والأمة ، والبستان ، والنبراس ، والفرقان .

وقد اشترك الشيخان بيوض وأبو اليقظان فى جمعية العلماء ، وكانت حركة النهضة فى الجنوب استكمالاً لها ، وامتداداً فى مقاومة الحملة على اللغة العربية والإسلام ومناهضة مؤامرات التغريب والفرنسة والإذابة والإدماج .

وكان الشيخ بيوض من دعاة المزج بين العروبة والإسلام ، وارتباط المغرب بالشرق ، وإعزاز الإسلام واللغة العربية والجزائر .

وقد كان لهذه النهضة أثرها فى الحفاظ على اللغة العربية فى الجنوب حيث ظلت أكثر انتشاراً ، وبفضل هذه الجهود عجز الاستعمار الفرنسى أن يثبت الفرنسية ، وبفضلها أيضاً استبقى أهل الجنوب المساجد والأوقاف .

وقد اعتبرت هذه الحركة المسجد ملوثة ومعهداً ودار قضاء ، وما يزال الميزابيون من أبرز الجزائريين والمغاربة في شئون التجارة من حدود تونس إلى حدود المغرب الأقصى ، يتكلمون اللغة العربية بفصاحة وطلاقة .

ومن أبرز كتابهم وعلماهم : الشيخ عدون ، وعبد الرحمن بن عمر ، وسليمان بن الحاج داود ، والشاعر مفدى زكريا ، ومحمد علي دبوز مؤلف موسوعة تاريخ المغرب الكبير .

ثانياً - الثقافة

١- مقاومة الفرنسية الفكرية

قاوم المغرب العربي مؤامرات التغريب التي وجهت إليه . ما استعلن منها وما اختفى ، قاوم التجنيس ، والظهير البربري ، والإدماج ، والإذابة ، والتمسيح ، ووضع نصب عينيه هدفين كبيرين ، دافع عنهما ، هما ؛ اللغة العربية والإسلام ، ولكن فرنسا بالأخص (واللاتينية بصفة عامة) التي ظلت تحكم المغرب العربي وتسيطر عليه بنفوذها من قبل احتلال الجزائر ١٨٣٠ إلى استقلال تونس والمغرب والجزائر ١٩٦٠ ، كانت تفرض طوال هذا الوقت حكامها وقادتها ومفكرها ونزعتها في الحكم والإدارة ، وأسلوبها في التعليم والتربية ولغتها الفرنسية ومناهجها الفكرية في الصحافة والأدب . وعلى الحملة فإن فرنسا استطاعت من وراء كل مقاومة مغربية أن تترك طابع « الفرنسية » في الثقافة والفكر .

ففي حربها للغة العربية أُناحت الفرصة للغة الفرنسية أن تتسع وتستطيل ، حتى إن مجاهداً كالثعالبي لا يجد ابنه يكتب إليه وهو مغرب عن وطنه إلا باللغة الفرنسية ، وحتى لا يجد كتاب الجزائر أمثال : محمد ديب وكاتب ياسين . ومولود معمري وآسيا جبار ومالك حداد وغيرهم سبيلاً للتعبير عن رأيهم إلا بالفرنسية . وكذلك فعل فيلسوف الجزائر « مالك بن نبي » في أغلب مؤلفاته ، قبل أن يكتب بالعربية .

ووجد الفكر الفرنسي واللغة الفرنسية دعاء لهما ومؤيدين . حتى إن كاتباً كبيراً يصدر مجلة أدبية مرموقة في أحد أقطار المغرب العربي يدعو إلى أن تكون اللغة الفرنسية هي اللغة الأولى في بلده . لغة الثقافة والكتابة ، وقبل اللغة العربية !!

ولقد حشد الفرنسيون لخلق هذا الطابع الفرنسي في الفكر العربي جهداً ضخماً قوامه : مؤلفون ومؤرخون وباحثون ، زيفوا تاريخ المغرب ، واستأثروا بالكتابة عنه حتى لم يكن يجد الباحث العربي غير المراجع الفرنسية حين يريد أن يكتب عن

المغرب ، وقد حدث هذا فعلاً للدكتور صلاح العقاد ، وسجله في كتابه « تاريخ المغرب العربي » . وحتى يذكر مسيو برنار (١) (١٩٠٨) في تقرير له بالحرف الواحد : « إنه لمن الأهمية بمكان أن نثبت في أذهان الأهالي فكرة رفيعة وثقافة عن وطننا (أي فرنسا) وذلك بتلقين تلاميذنا دروساً عن عظمة فرنسا وجيشها وثروتها وتناسب وأعمارهم . وفي مجال التاريخ العصري ستحدث عن عمليات الترييف التي فرضتها فرنسا ، وكما وجدت هذه المؤامرة من أيديها وحمل لواءها من زعماء ومفكرين بارزين في المغرب العربي ، فقد وجدت دعاء صادق الإيمان بالعروبة والإسلام والمغرب قاوموها وكشفوا خدعتها .

ويقول عبد الجبار الجومرد (الكاتب العراقي) إن للفرنسيين أسلوباً خاصاً في تسجيل تاريخهم الاستعماري يفرغونه في قالب إنساني ، وينسجون عليه من أخيلتهم غطاء جميلاً من المثالية السامية ، ومن حب لتمدين الشعوب وتحريرها ، حاسبين أن ذلك ينطلي على الناس ، وهم يعلمون أولاً بأنهم لا يزالون يحملون حتى الآن عقلية استعمارية أقل ما يقال عنها : أنها قديمة لم تتطور مع الحوادث وكثير من هؤلاء الكتاب المغاربة أمثال : علال الفاسي ، وعبد الله كنون ، ومحمد علي دبور ، وأبو القاسم كرو وعبد الكريم غلاب ممن واجهوا مؤامرة « الفرنسية » الفكرية وكشفوا الآراء المسمومة ، وكشفوا عن الكتاب الفرنسيين الذين يحملون هذه الآراء ، وكيف أنهم في الأغلب من التابعين لأجهزة الاستعمار ، ومن العاملين في وزارة المستعمرات .

ولقد كان من دعوى « الفرنسية » الفكرية الادعاء بأن الفرنسي رسول إنساني ليكون أستاذاً يثقف الناس ، وأن هذه الرسالة لا يمكن تحقيقها إلا بنشر لغته وحضارته وثقافته وتاريخه بين سكان البلاد التي استعمرها مع القضاء على لغتهم وثقافتهم .

هذا بالإضافة إلى نظراته الدائمة بعين الازدراء إلى القيم والتراث والشمال العربية الإسلامية المغربية .

ويتم توجيه هذا التيار عن طريق الصحافة والمدرسة ، فالمدارس الفرنسية في المغرب كانت تحاول الإيماء لخروجيها بهذا المعنى ، التمجيد لفرنسا وتاريخها وثقافتها ، والازدراء للعربية والإسلام والمغرب .

يقول سكوتورى - وهو يبحث أثر الثقافة الفرنسية في أفريقيا - وقد وصل الاستعمار بهذه الطريقة إلى التأثير على المثقفين الأفريقيين الذين يذهب بعضهم إلى حد الاعتقاد بأن الوسيلة الوحيدة للحصول على العلوم الحديثة يتمثل في التنكر للقيم الخلقية والفكرية ، ومن هنا ظهرت كتابات بعض الكتاب العرب المغاربة في بعض الصحف الفرنسية كمجلة (فرانس أبسِر فاتور) ترمى اللغة العربية بالعقم وتعتبرها لغة ميتة ، ويفضل أن تبقى اللغة الفرنسية متشيرة ، وفي مجال (١) القومية حاولت الفرنسية الفكرية أن تتهم المغاربة بأنهم ليسوا أمة كاملة ، وإنما هم خليط من الشعوب ، وأن للاستعمار فضل تهذيبهم وتوحيدهم .

ويقول عبد اللطيف خالص : إن للغزو الفكرى الاستعماري أثراً على كثير من شبابنا الذى أصبح بعضه يؤمن بأن المغرب لم يتوفر في حياته على قيم شخصية ومثل ذاتية وعقلية ، وأن كل ما يكون شخصيتنا هو ما أتى به الإسلام إلينا ، وما حمله العرب ورجال الأندلس لما بلجئوا إلى أوربا .

وذهب الغلو ببعض المثقفين المقلدين للغرب إلى المطالبة بمحو عقليتنا ونيل الشخصية التى تتحلّى بها ، وإنها في اعتقادهم شخصية أجنبية عنا ، وإنما أخذناها عن العرب وبعض المهاجرين الأندلسيين .

★ ★ ★

ولقد كانت الحركة الفكرية في المغرب كله تقوم على إيمان صادق بالمقومات العربية الإسلامية والوطنية الجريئة المقاومة لفرنسا وللغرب وللنفوذ الغربى المسيطر ، مع الارتباط بالمشرق العربى وبالعالم الإسلامى ، وبدعوة جمال الدين ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي . وفي ظلها ظهر الثعالبي وعلال الفاسي وابن باديس ومالك بن نبي .

غير أن التيار الغربى القائم على «الفرنسة» الفكرية قد زحف وسيطر وأخذ مكانه كتيار أشد قوة ومؤيد بالنفوذ الفرنسى . وهو تيار له طابع فرنسى في اللغة والثقافة يتجه إلى الغرب ويفضل الثقافة الفرنسية ، ويركز على الإقليمية الفينيقية .

وإلا هؤلاء إنهم مغاربة ، ولكنهم فرنسيو الفكر غريبو الثقافة ، وكان جهدهم محاولة تخفيف روح الحصومة للفرنسيين وثقافتهم ، وقبول ما تنازل عنه فرنسا ،

(١) عثمان سمدى « مجلة الآداب ١٩٥٣ م »

والمطالبة بالإصلاح ، مع الإيمان بأن احتلال فرنسا كان ضرورياً ولا غنى عنه ، لضعف البلاد عن حماية نفسها .

وقد أدار هذا التيار ظهوره للإسلام واللغة العربية والمشرق العربي ، وحاول المقارنة بين مرحلة تعرب المغرب وإسلامه إيوين الاستعمار اللاتيني الجرمانى ، والموازنة بين ارتباط المغرب العربى بفرنسا وأوروبا ، وارتباطه بالمشرق العربى والمسلمين . وتأکید القول بأن العقول فى المغرب لم تفتح إلا بفضل اللغة والثقافة الفرنسية ، لذلك فلا ضير على المغرب ألا يحمل حقداً لفرنسا وأن يصادقها ، وكان انجباس المغرب مع فرنسا قد أغلق الأبواب دون التطلع إلى الثقافات الأخرى .

حمل هذه الدعوة مثقفون ودعاة وزعماء وسياسيون ، لهم نفوذ ، وبذلك برز الوجه الغربى ، واختفى الوجه الإسلامى العربى إلى حين ...

ولكن كتاب المغرب ومفكره الأبرار ، عرفوا ما يهدف إليه هذا التيار على إطلاقه ، وهو إذابة الشخصية المغربية العربية الإسلامية فى الفرنسة الثقافية ...

وقالوا : إننا نريد أن نتعلم ثقافتنا لا ثقافة الآخرين ، وإننا لا نعتبر أنفسنا أحراراً إذا حررنا فكرياً من نفوذ اللغة والثقافة اللاتينية

ووقف عبد الله كنون يرد على دعوى النفوذ الفكرى الفرنسى الذى ينكر ماضى المغرب الثقافى بكتاب ضخم هو « النبوغ المغربى » الذى صادرت السلطات الفرنسية عام ١٩٣٨ ، واعتبرته مقاومة لدعوى الفرنسة الفكرية ، ودافعت عنه جريدة الوحدة (١) المغربية وكتب محمد المكي الناصرى يقول : « إنه كتاب أدب يعتر بالإسلام والعربية ، ولكن فرنسا - حبيبة الإسلام وصديقة العرب ومربية الشرق كما تقول ويقول دعائها المناهيس - ضاق صدرها وانكشف سرها واقتضح أمرها ، وأصبحت لاتطبق أن ترى للمغاربة وجوداً حتى فى صفحات التاريخ ، وفى زوايا الماضى البعيد ، وسياستها اليوم تعمل ما فى المستطاع ، لقطع صلة المغاربة بماضيهم نهائياً حتى لايعرف المغربى المستعبد البائس أن له أجداداً أعزاء ، علماء ، وحتى يؤمن إيماناً جازماً بضيعة وحقارته ، وثيق بأنه حكم عليه للمرة الأخيرة بالقناء والاندثار . وما دامت فرنسا ترمى إلى هذا الغرض فلن يسعها مطلقاً أن تسمح برواج كتاب « النبوغ المغربى » لأن معنى ذلك فى منطق

(١) ١٢ غشت « أغسطس ١٩٣٨

السياسة الفرنسية أن المغرب الأقصى سيواصل سيره الروحي والفكري ضمن دائرة العروبة والإسلام ، تلك العملية التي تركت الفرنسيين سكارى حيارى ، وهذا يعرقل عملية التجنس والإدماج والفرنس .

يافرنسا : منعت كتاباً وضيعت على المغاربة لذة مطالعته ، كما ضيعت على المؤلف ثمرة جهاده الفكري ، وألحقت به خسارة مادية ، ولكذك أقمت الحجة للعالم الإسلامي أجمع مرة أخرى على أنك أعلنت حرباً صليبية شعواء ضد العروبة والإسلام .

ومحرص علال الفاسي أن يكشف الحقائق في مجال الفرنسية الفكرية ويرد الفكر المغربي العربي الإسلامي إلى حقيقة مفاهيمه يقول : تكلّموا لغتكم ، فكروا بلغتكم ، لا لغتكم القومية فحسب ، ولكن لغة الإسلام ولغة القرآن ، لا تتخذوا للذين يدعونكم باسم التقدمية لاستعمال كلمات ليست في معجمكم ، تعلموا تعبيرات القرآن وتقاليد اللغة التي بها تدركون ، لا تجعلوا للكلمة العربية الإسلامية مدلولاً خارجاً عما تريدون أنتم ، وعما هو لها بالوضع ، لا تفهموا كلمة (الدين) المسلمة العربية على معنى كلمة (religion) الفرنسية المسيحية ، إن هناك تناقضاً في الدلالة ، ولا تفهموا كلمة (الزكاة) على أنها معنى كلمة (charité) فالثانية اختيارية والأولى تعني إشتراك الفقير في مال الغني بصفة إجبارية ، إن حرب الكلمات هي أول حرب النظريات ، إننا عرب مسلمون فيجب ألا نخرج في كتاباتنا وأعمالنا عن المعجم الذي يتفق مع ديننا وعقيدتنا .

وفي مجال الاقتباس من الفكر الفرنسي محل للبحث ، ففي تونس يرى محبوب ابن ميلاد : لست ممن يقولون بضرورة تقليد الغرب في كل ما يذهب إليه ، وكل ما يصطنعه من عادات وتقاليد وأزياء ، لإيماني بأن البعث الشرقي ليس يقع عن طريق التقليد وسفه التقليد .

ولئن دعا بعض الأدباء الإسلاميين من أدباء الجيلين الماضيين إلى مثل ذلك التقليد فلم يعلّمهم ، لانبهارهم بالحضارة الغربية ، ولعدم تفاؤهم إلى أغوارها وعدم يقظتهم لما ينخرق الهيكل الغربي من جرائم هدامة جعلته يشكو أزمة معنوية لا مثيل لها .

وليس معنى هذا أن نوصد أبواب نفوسنا دون تفكير الأعلام من المفكرين الغربيين ،

مهما تكن جنسيتهم ، مثلما أنهم لم يوصلوا أبواب نفوسهم في عصورهم الخوالي دون أروع تمار الفلسفة اليونانية والفارسية والهندية .

وتونس الجديدة أحرص ما تكون على أن تخلص لماضيها وما بقي راسباً في قرار نفسها من روائع رواسب الماضي ، ولكن مع الإخلاص لواقعها الحاضر ، والأخص خصائص العصر الحاضر ، أعني لحصرها الجوهرى على أن توفر لنفسها في العالم العصرى عوامل العزة والقوة ، وأسباب الحياة .

وقال : إنه ليس هناك منافاة أو تضاد بين قيم الغرب وقيم الشرق عندما نحسن تصفية حسابيهما ، وقال : إنه لا بد من الجمع بين القيم الشرقية والقيم الغربية وصهرها في بوتقة واحدة ، هي بوتقة العقلية التونسية الجديدة .. »

ورأى محبوب (١) بن ميلاد يمثل مدرسة قائمة فعلاً في المغرب العربى كله ، هذه المدرسة التي لا ترى بأساً من مزج الثقافتين دون أن تحسب حساباً للشخصية المغربية العربية الإسلامية كأساس قائم فعلاً ، وله ملامحه وطابعه وقيمه وتاريخه .

فلذا جرى البحث عن العلاقة بين الثقافة التونسية (المغربية) والثقافة الفرنسية قال محمود المسعدى (٢) :

هذا الارتباط بين الثقافة بتونس وبين الثقافة الفرنسية ، هو أشبه شيء بالصلة بين الغل والمغلول به بوجه من الوجوه ، وبين الظمآن والماء الذى نشربه ، ما أظن أن غلا يصح أن يعد عنصراً من عناصر ثقافة المغلول به .

وقد حاولت فرنسا في مجال فرنسة الفكر العربى الإسلامى المغربى محاولة أخرى حين حشرت عشرات الأبحاث عن الفكر الفرنسى في مصر والمشرق ، وما أسمته الروح الفرنسية وتأثيرها في الشرق العربى الحديث ، وظهر ذلك في ترديد اسم الدكتور طه حسين وعلى عبد الرازق ومحمود عزمى وغيرهم من دعاة الثقافة الفرنسية والتغريب .

(١) انظر الملحق من شخصية محبوب بن ميلاد وآرائه

(٢) انظر الملحق من شخصية محمود المسعدى وآرائه .

ومن ذلك قول دعاة الفرنسة في المغرب : « أيها المساكين : إن نظركم متجه نحو الشرق بينما أنظار الشرق متجهة نحو باريس » ، وإن الشعوب الشرقية تحتذى مثال فرنسا . وإن ما أسموه العبقريّة الفرنسيّة تؤثر في الشرق تأثيراً قوياً يرجع مفعوله بعد ذلك إلى الجزائر ، فأدباء المسلمين بأفريقيا الشماليّة لم يعرفوا روسو أو هوجو إلا بواسطة الصحف المصريّة والترجمات الشاميّة والمصريّة ، وإن هناك تماثلاً بين باسكال والغزالي وابن خلدون . وإن حملة بوناپرت على مصر أخرجت العالم الإسلامي من حياة القرون الوسطى وأدخلته في نطاق الحياة العصريّة « وليس هذا كله قولاً صحيحاً وهو قابل للنقض . وإن رأت فرنسا أن هذا كله إذا قاله مغاربة كان أشد وقعاً في النفس المغربيّة .

وقد واجه الفكر المغربي العربي الإسلامي كل هذه القضايا ، وكشف عن زيف هدفها ، وحذر من ألا يقف الأمر عند الكلام بلغة المستعمر ، بل أن يصل الأمر لأن يفكر المغاربة الذين يتكلمون الفرنسيّة بتفكير فرنسا ، ويستعملون منطقها وأسلوبها ، وذلك لأن الفكر واللغة شيء واحد ، كما يقول (موكس مولار) ، الذي يشبههما بقطعة النقد ، والذي يقول : إن ما نسميه بالفكر ليس إلا وجهاً من وجهي النقد ، والآخر هو الصوت المسموع ولطالما أعلن الفكر المغربي الإسلامي الفوارق الواضحة والحدود الأساسيّة :

« نحن - العرب المسلمين المغاربة - غير الأوروبيين والأمريكيين والنصارى واليهود ، إن مكاننا الذي نحن منه وإليه يفرض علينا اتجاهات وروابط لا يمكن أن تمحوها أفكار الشرق والغرب ، ولا أن تفصم عراها روابط الفكر المتحل والاستغراب المصطنع (١) » .

وفي مجال المقاومة الوطنيّة السياسيّة قاوم المغرب العربي أضخم مؤامرة ، هذه المؤامرة التي كانت إبادة وتمسيحاً وفرنسة وإدماجاً وتغريباً .

وفي طرابلس وبرقة اتبعت إيطاليا سياسة الإبادة . وفي تونس والجزائر ومراكش وليبيا اتخذت فرنسا وإيطاليا سياسة « الاستيطان » التي ترمي إلى غزو الأرض وإسكان

(١) ملال الفاسي . مجلة البيئة « العدد الأول »

العنصر الأوربي فيها ، وتهجير ألوف من الفرنسيين واليهود والأجانب إلى الأقطار الأربعة، وإحلالهم محل الوطنيين الذين يطردون من أراضيهم الساحلية إلى قلب الصحراء . وتهدف هذه السياسة إلى خلق قوى عديدة وجنسيات أخرى داخل الوطن المغربي والقضاء على القومية .

وقد بدأت معركة المقاومة في ثلاثة أعمال ضخمة هي :

التجنيس في تونس .

الظهير البربري في المغرب (مراکش)

الإدماج في الجزائر .

ولا شك أنها حققت نتائج واضحة في استقطاب هذا التيار وكشفت أمام العيون امرته ونبته إلى أخطاره .

حركة التغريب

واجه « المغرب العربي » معركة ضخمة من معارك التغريب ، كان أبرزها منصباً على القوميين الأساسيين للأمة المغربية العربية ، وهما : الإسلام واللغة العربية .

واجهت الأقطار الأربعة حركات التبشير حين سمحت لفرنسا بإنشاء مؤسسات ومستشفيات ومعاهد ودور ، وبرز اسم « الآباء البيض » في تونس التي ركز الاستعمار الفرنسي عليها بصفة خاصة بعد فشل مشروعيه في الفرنسية والتجنيس .

وكان آية ذلك عقد المؤتمر « الافخارستي » في تونس (مايو ١٩٣٠) في نفس الوقت الذي كان الظهير البربري يعلن في (مراكش) ، وكان ذلك احتفالاً بمرور ٥٠ عاماً على احتلال تونس ، ومائة عام على احتلال الجزائر .

عقد المؤتمر الذي يسميه كتاب المغرب « الصليبي » في قرطاجنة ، ودام ثلاثة أيام ، وضم ممثلين عن البابا والكنائس الكاثوليكية في فرنسا وإيطاليا وألمانيا وإسبانيا ، والكنائس الكاثوليكية في أفريقيا أيضاً ، وبلغ عدد المشتركين فيه ٥٠٠ قسيس ، وأعلن أسقف قرطاجنة أن المؤتمر حملة صليبية تاسعة على تونس ، وأنه استمرار للعهد الذي قطعه لويس التاسع للعمل والجهاد من أجل إعادة أفريقيا إلى المسيحية ، وكان لويس قد قاد الحملة الصليبية الثامنة ٦٦٩ هـ ١٢٧٠ م ولقى حتفه فيها .

بدأ المؤتمر بجماعات كثيفة من الرهبان يتجولون في الشوارع ، تعقبهم صفوف متراصة من فرق كشافة « الصليب » ذكوراً وإناثاً ، وهي ترتدي ملابس جنود الحروب الصليبية وهم ينشدون الأناشيد الكنائسية ، ويرنمون بالدعاء لإدخال البلاد في حظيرة النصرانية .

وتحدث الرهبان الإيطاليون إلى المسلمين بأن المسلمين في المغرب يرجعون إلى أرومة يونانية ، وأن في سحنة وجوههم دليلاً قاطعاً ، وأن العرب لم يغيروا غير اللباس والمعتقد ، ودعواهم إلى إعتناق مجد روما من جديد ، وقد واجه التونسيون المؤتمر بشيء كبير من الازدراء والمقاومة ، والأضراب والمظاهرات الصاخبة والاحتجاجات العنيفة ، وفشل المؤتمر فشلاً ذريعاً .

وكان الكردينال لافيجرى قد وضع الخطط في (١) (مراكش) لتنصير العرب في المغرب قبل أن يحتل الفرنسيون جميع أراضيه، معلناً أن تمسك العرب الأفارقة بالإسلام، سوف يعوق الاحتلال الفرنسي، ويمنع استمرار السيطرة الفرنسية.

ولافيجرى مبشر فرنسي (١٨٢٥ - ١٨٩٢) كانت تماثيله تملأ ساحات المدن العربية في أقطار المغرب العربي، وخاصة الجزائر، وظل تماثله يتحدى بصليبه شعور الملايين من أبناء المغرب زمناً طويلاً وكان الكردينال لافيجرى (٢) يحارب الإسلام تحت ستار محاربة الاسترقاق، وقد اشتهرت خطبته التي ألقاها في يوليو ١٨٨٨ في كنيسة سان سوليس بباريس وأحدثت ضجة عظيمة، قام على أثرها أحمد شفيق باشا بتأليف كتاب (الرق في الإسلام) بالفرنسية وترجمه إلى العربية أحمد زكي باشا.

ولم يقف عمل لافيجرى عند مراكش بل امتد إلى تونس والجزائر، وأقامت له السلطة الفرنسية في تونس تماثلاً في ساحة إسلامية ويده الشعار الديني المسيحي «الصليب» وهو أطول من التمثال تحدياً.

وقد نصب هذا التمثال في ٢٨ نوفمبر ١٩٢٥، ولم يسكت أهالي تونس إزاء هذا العمل بل قاموا بمظاهرات ضخمة.. معلنين سحقهم واحتجاجهم.

وفي قرطاجنة أقامت فرنسا تماثلاً لسان لوى (القديس لوي) قائد الحملة الصليبية الثامنة إلى تونس...

ومنذ عقد المؤتمر «الأفخارستي» انطلق جيش من المبشرين في تونس والجزائر والمغرب، ومن بينهم ليوتي وشارل دوفوكو اللذان تتلمذا في جامعة القرويين وادعيا الإسلام، وتوسع المبشرون في مناطق جبال الأطلس وسط البربر.

وقد أكد عثمان الكعاك (تونس) في هذه المؤامرة (١) التنصيرية، أن الفرنسيين استعملوا جميع العلوم الإبادة لإبادة الجزائر وقال: «إن محنة الجزائر أشد المحن، الحرب لم تنقطع (١٨٣٠-١٩٥٦) إن الحرب لم تكن حرباً في الأجسام بل كانت حرباً في العقيدة قام بها «لافيجري» وشيعة الآباء البيض وغير البيض حرباً على الثقافة الإسلامية

(١) أبو القاسم كرو: كتاب «ماي شهر الدماء والدموع»

(٢) مجلة المنهاج مجلد ١٢٤٤ هـ

(١) مجلة الندوة مجلد ١٩٥٦ م

العربية ، قامت بها جامعة الجزائر وإدارة التعليم وصليبية (هانوتو) ضد اللغة العربية لفائدة اللهجات البربرية ، وحرباً في انتزاع الأرض ، وحرباً ضد المعالم الإسلامية ، فقد حولت مئات الجوامع إلى كنائس ، ومصليات يهود ، وحرباً حتى ضد أسماء المدن الجزائرية التي حولت إلى أسماء قواد وأدباء من الفرنسيين ، وحرباً ضد الجنسية الجزائرية ؛ فقد أصدرت فرنسا أمراً بأن جميع الجزائريين فرنسيون ، وحرباً ضد الجنس الجزائري بغية إبادته وتسليط فريق ضد فريق ، والادعاء بأنه لا يوجد جزائريون ولا أمة جزائرية ولا وطنية جزائرية ، وحرباً ضد تاريخ الجزائر ؛ فقد ادعت المدرسة التاريخية الجزائرية أنه لا يوجد تاريخ جزائري ولا حضارة جزائرية فضلاً عن شعب وأمة جزائرية ، وحرباً على التراب الإقليمي الجزائري ؛ فقد ادعت أن تراب الجزائر فرنسي بحث مثل تراب نوتردام ... » .

ويعرض عبد العزيز بن عبد الله (٢) (المغرب) هذه المرحلة فيقول (٣) : غير خفي أن البابا هو الذي كان يحرض الأسباب على غزو التراب المغربي في أواخر القرون الوسطى ، وقد نزل ١٦ راهباً إلى التراب الجزائري يوم (١٤ يونيو ١٨٣٠) مع الجيش الفرنسي ، وشاركوا في المجازر التي أدت إلى الاحتلال .

وقد حولوا جامع كشاوة أعظم مساجد الجزائر إلى كنيسة ، وأرادت الكنيسة في شخص ممثلها (الكردينال لافيغري) أن يمثل من الجزائر مهدياً لأمة مسيحية كبرى ، ومهداً لفرنسا جديدة ، انتظاراً لذلك اليوم الذي تتسع فيه رقعة الغزو وتمتد إلى تونس والمغرب والسنغال ، وينشر - حسب تعبير الكردينال نفسه - ضياء مدنية يكون الإنجيل مصدرها وقانونها ..

وصرح الملك شارل العاشر (٢ مارس ١٨٣٠) أن فرنسا تريد الوصول من وراء تمدين الأفارقة إلى تمسيحهم .

وكتب الأب بونس كتابه « كنيسة أفريقيا الجديدة : » أنه بعد ما اتصل الغزاة بالشعب الجزائري وشاهدوا نحمسه للإسلام ، أسلم الكثير منهم متأثرين بتلك الحرارة التي كانت تنبعث من قلوب المؤمنين .

(٢) انظر ملحق الدراسة من عبد العزيز بن عبد الله

(٣) جريدة البصائر

وقال الأب جيرار : عندما جبت الجزائر كنت آمل أن يعتنق المسلمون المسيحية ، ولكن بعد مرور خمسة عشر عاماً تبيّن أنّي واهم ، وشعر جميع الرهبان الذين توافدوا من فرنسا ، وكذلك المديون الذين استغربوا أن المسلمين لم يتمسحوا ... ».

وقد أجاب (ابن باديس) على منطوق هذه الحركة في عبارته الخالدة « إننا نرى الأمة الجزائرية موجودة ، هذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا ، ولا تريد أن تصبح هي فرنسا ، ومن المستحيل أن تصبح هي فرنسا ولو حبسوها .. »

وصور (علال الفاسي) هدف التغريب حين قال : « إن القوة الكبرى التي كانت أشد وطأة علينا من كل قوة ، وأخطر أثراً من كل سلاح ، هي معرفة الاستعمار بأحوالنا ، على إخراجنا من كوننا الخاص ، وإدماجنا في وجوده العام .. »

لوح لنا بالحرية عن طريق الإيمان به وبنظمه وأفكاره ، وخاطبنا بالمعسول من القول ، واحتكر وسائل الحياة فلم يسمح بالقليل منها إلا لمن اتبعه وتكلم لغته وانتحل فكرته ، فأصبحنا تفكر بأفكاره التي أملاها علينا في المدرسة والمعهد والجامعة والسينما وفي كل مكان ، . يجب في أن نصبح على صورته . »

وسقطت كل هذه المحاولات حين اعترف جون جنتر بعد أن طوف بالمغرب العربي كله ورأى آثار حملات التغريب ومداهما على الفكر المغربي العربي الإسلامي : « ظلوا من ذلك الحين – المحتلون – منهمكين في صبغه بالصبغة الأوربية ، ولكن الثقافة العربية كانت عميقة الجذور فلم يسهل استئصالها . »

جـ - الثقافة العربية الإسلامية

يمكن القول أن طابع الثقافة العربية في المغرب العربي يقوم على هذه الأسس :

- الطابع العربي العام .
- المستقبل المغربي الواحد .
- ثقافة عربية في لغتها وروحها ، وإسلامية في كنهها ، تقوم على علوم عصرية .
- اللغة الفرنسية هي اللغة الثانية .
- مشاركة الثقافات الأجنبية ، واقتباس ما يلائمها منها مع صبغه بصبغة عربية .
- وجه إلى أوروبا ووجه إلى المشرق العربي الإسلامي .

★ ★ ★

وتتميز الثقافة العربية في المغرب العربي بتقدير الماضي والتاريخ والتراث ، فهي لا تنسى دورها في تاريخ الحضارة والنهضة قبل الإسلام وبعده ، وأثرها في الأندلس وأثر ذلك كله في أوروبا ، ودور الزيتونة والقرويين ، ومن قبلها جامع القيروان وما خرجت من أعلام من أمثال : ابن خلدون ، وابن رشيق ، وابن شرف ، وسحنون ، وأسد بن القرات .

فالطابع الأساسي للثقافة المغربية « العربية الإسلامية » هو عظمة التاريخ ، ورسوخ الحضارة الإسلامية واللغة العربية رسوخاً كان له أكبر الأثر في مقاومة الزحف الفرنسي : (الحربي والسياسي والفكري) .

ويمثل هذا الإيمان بالتاريخ أمكن ضمان سلامة الشخصية العربية المغربية وقدرتها على الوقوف أمام الغزو الغربي أمداً طويلاً ، لا أقل من مائة وعشرين عاماً .

ومن خصائص الفكر العربي الإسلامي المغربي الشمول والحرية والقابلية للتجدد والالتقاء مع الثقافات المختلفة . دون الجحود أو التحجر ، وهذا ما يقضي على ادعاءات الثقافات الغربية عن التعارض بين الثقافة الإسلامية والحضارة .

ولذا لم تمتنع الثقافة العربية الإسلامية المغربية من أن تقبل مذاهب الفكر الغربي ، وتلقح به نفسها ، وتجدد به شخصيتها دون أن تنصهر أو تذوب أو تتحلل .

ولعل مرجع هذا إلى طبيعة الصحراء والصلابة المعروفة في الاحتفاظ بالمقومات ،
وتقبل الحديد تقبلاً عقلياً منطقياً ، وإلى نظرة الحرص واليقظة الدائمة نحو أهداف النفوذ
الأجنبي ، ورغبته في القضاء على معالم الإسلام والعروبة في الشخصية المغربية .

ومن هنا قبلت « التعصر » دون أن تفقد ذاتيتها ، ووسعت آفاقها الإنسانية دون
أن تتخلى عن نظرتها الأساسية وهدفها حيث لا تتخلى الثقافة العربية في المغرب عن
الإيمان بإحياء التراث الفكري والتاريخي المغربي ، وتراه دعامة أولى لإنشاء المستقبل .
وعندها أن الثقافة العربية الإسلامية الأساسية هي الذاكرة والأساس ، وقاعدة البناء .

وبصور هذا الارتباط التاريخي بماضى المغرب قبل الإسلام وبعده « عثمان الكعاك »
فيقول : « نحن بين جاذبية الحضارة التونسية المتولدة من خلاصة حضارات البحر الأبيض
البونيقية ، والمغربية ، واليونانية ، واللاتينية ، والبربرية ، وبين جاذبية الحضارة
الإسلامية التي ورثت خلاصة المعنويات والماديات الشرقية من صينية وهندية وفارسية
ويونانية وزادت عليها ، وتقدمت بها خطاً شاسعاً إلى الأمام ، وبين جاذبية الحضارة
الغربية بمظاهرها المادية » .

غير أن المغرب لا ينسى أن التقاءه بالإسلام كان هو الحدث الرئيسي في حياته كلها ،
يقول محجوب بن ميلاد : « .. ولكن الحدث التاريخي الذي طبع الشخصية التونسية
بطابع لا يبلى على ممر الدهور هو الفتح الإسلامي ، فأصبحت أمة من الأمم العربية لغة
وأدباً وفناً ، وإسلامية إحساساً ومعتقداً ومبادئ وقيماً . وبذلك لا تتجزأ تونس من
الإنسانية العربية الإسلامية .. »

ويرى محمد (١) زينير (المغرب) أن الثقافة القومية تحتوي على عنصرين : أحدهما
يربطنا بالماضي ، والآخر بالحاضر ، فعنصر الماضي يتمثل في التراث الثقافي الذي يكون
بالنسبة إلينا أحد ركائزنا التاريخية الإنسانية ، ولكنه عنصر تبقى له قيمة تاريخية وفكرية
مجردة ، ولا يلعب أي دور مباشر في حياتنا اليومية وفي مشاغل جيلنا .

أما العنصر الحاضر فهو الثقافة الحية ، الثقافة التي ينشئها الجيل ، وتتفاعل مع اهتماماته
وآماله ، وتوضح له حقائق العصر والمجتمع .

ويرى عبد الكريم غلاب (المغرب) أن المغرب حافظ على كونه أمة مسلمة ،
لأن حضارة الإسلام بما فيها العقيدة والخلق والفكر الاجتماعي سبغت تاريخاً وكونت

(١) انظر الملحق عن التعريف بالكاتب

وحدة، وفهم الإسلام في المغرب كان سليماً لم تغلب عليه خرافات المضللين والجاهلين
بأصول الإسلام .

وفي أقصى المغرب العربي تردد نفس المفاهيم ، مفاهيم الإيمان بماضي المغرب العلمي
الحافل الذي يستحق الدرس المتواصل ، ويرى عبد الرحمن الزياتي (مكناس) أن
التجديد لا يكون إلا بالمحافظة على القديم والاعتزاز به ، ومحاولة سد ما به من نقص
بإضافة كل رائع وطريف إليه ، وأن كل تجديد يأتي طفرة ولا يعتمد في تشييده على
أنقاض الماضي فإن مصيره إلى الإنهيار السريع ، وأتانا لو حاولنا الانسلاخ عن الماضي
لم نكن في دنيا العروبة شيئاً مذكوراً .

ويمكن القول إجمالاً بأن كل دعوة من الدعوات الفكرية التي انتقدت شعلتها في
المغرب العربي الكبير كانت مؤمنة بالماضي والتاريخ العربي الإسلامي المتمثل في اللغة
العربية والإسلام وأجناد الأمة العربية والحضارة الإسلامية .

فحركات السنوسية في برقة وطرابلس ، وحركة الإصلاح في تونس التي دعا إليها
خير الدين التونسي وقبادو ، وحركة السلفية في المغرب ، وحركة ابن باديس وجمعية
العلماء في الجزائر ، كلها كانت مؤمنة على هذا النحو . .

التحدى ورد الفعل

يقرر كتاب المغرب العربي وأعلام الفكر فيه أن المغرب تحمل الغزو الأوربي
(الفكري) واستطاع أن يخرج منه بذاتية سالمة . فإلى أي حد استطاع المغرب العربي
احتمال هذا الغزو الفكري ، وإلى أي حد بلغت هذه السلامة ؟

وهناك إجماع على أن المغرب العربي قد « تعصى » على الإذابة والانصهار في
بوتقة الثقافة الغربية ، واستطاع أن يتحمل الغزو الأوربي والسطو الاستعماري - على
حد تعبير محمود المسعدي - « وأن يخرج منه بذاتية سالمة من مسخ التقليد للأجنبي
والاصطباغ بمستعار الصبغة من ثقافته وتفكيره ، وسالمة في آن واحد من التجمد
والتحجر ، وعنده أن طور « التعصى » الضروري الذي مر به الشرق العربي كله بين
أواسط القرن التاسع عشر واليوم قد مر على تونس أعسر ما يكون ، وفي أشد الظروف ،
وبأعظم الأخطار .. فقد حافظت على ذاتيتها الثقافية العربية الإسلامية مع تقوية الجانب
الإنساني الصميم من تفكيرها ونظرتها إلى الوجود .

وأقصى ملامح الصورة تبدو في الجزائر إذ كانت الحرب في ميدان العقيدة والثقافة واللغة والجنسية ووجهت ضد تاريخ الجزائر ، والحضارة الجزائرية والأمة الجزائرية ، ولندع (عثمان الكعك) يرسم لنا هذه الصورة :

« كانت حرباً في العقيدة قام بها لافيجري والآباء البيض وغير البيض ، والسورات وغير السورات ، وحرباً على الثقافة الإسلامية العربية قامت بها جامعة الجزائر وإدارة التعليم ، وصليبية هانتوتو ضد اللغة العربية لفائدة اللهجة البربرية ، وحرباً في انتراع الأرض وحرباً ضد المعالم الإسلامية ؛ فقد حولت مئات الجوامع إلى كنائس ومصليات يهود ، وحرباً ضد أسماء المدن الجزائرية التي حولت إلى أسماء قواد وأدباء وعلماء من الفرنسيين ، مثل « باسكال » و « فولتير » و « مونتسكيو » و « هوجو » ، وحرباً ضد الجنسية الجزائرية بإبادة الشعب الجزائري ، وحرباً ضد تاريخ الجزائر ، فقد ادعت المدرسة التاريخية الجزائرية أنه لا يوجد تاريخ جزائري ، ولا حضارة جزائرية ، فضلاً عن شعب وأمة جزائرية ، ولا يوجد تراب جزائري .. »

وقد حمل هذه الأفكار بعض الدعاة من الجزائريين أنفسهم ، ورددوها في مؤلفات لهم ، وقد حاولت هذه الأفكار أن تقنع الناس بأنه لا توجد شخصية جزائرية ، وأنه لا مفر من قبول الالتحاق بفرنسا بدلاً من الاندماج ، وهو ما أطلق عليه (من المستعمرة إلى المقاطعة) .

وقد نشرت هذه الآراء في مؤلفات ورددتها أعلامهم في الصحف الفرنسية أمثال ، « لانتانت » .

وهذا نموذج من هذا الاتجاه :

« نحن أصدقاء ابن جلول السياسيين ، كان يمكننا أن نكون من القوميين ، ولقد تحدثت في هذه المسألة مع شخصيات عديدة ، ورأيت فيها معروف ، فالقومية هي تلك العاطفة التي تدفع القوم إلى العيش في حدودهم الإقليمية ، وهي العاطفة التي أوجدت مختلف الأمم ، ولو أنني اكتشفت الأمة الجزائرية لكنت من القوميين ، ولما خجلت من ذلك ، فالرجال الذين ماتوا من أجل مثلهم الوطنية مكرمون محترمون ، ولا تساوى حياتي أكثر من حياتهم ، ومع ذلك فلن أموت من أجل وطن جزائري ، لأن ذلك الوطن ليس له وجود ولم أكتشفه .

لقد ساءلت التاريخ وساءلت الأحياء والأموات وزرت المقابر فلم يحدثني أحد عنه ،
ولا يمكن البناء على الهواء ، وقد استبعدنا تماماً جميع هذه الأوهام ، لنربط نهائياً
مستقبلنا بما حققته فرنسا لهذا البلد .

وعلى كل فلا يوجد من يعتقد جدياً في هذه القومية الجزائرية ، وكل ما يراد من
وراء هذه العبارات ، هو تحريرنا السياسى والاقتصادى لأنه بدون تحرير السكان الأصليين
لن تكون هناك جزائر باقية على مر الزمن .

وقد عارضه الإمام عبد الحميد بن باديس في هذا الرأى ، وكتب في الشهاب
(ابريل ١٩٣٦) مؤكداً أن الشخصية الجزائرية موجودة .

ومما قاله : إنهم يقولون ، : حاولنا عبثاً البحث عن الشخصية الجزائرية في التاريخ
وفي الحاضر فلم نجدها ، فرنسا هى أنا . وأقول : إننا بحثنا عن الشخصية الجزائرية في
الماضى والحاضر فوجدناها أمة إسلامية جزائرية ، تكونت ووجدت كما تكونت ووجدت
جميع أمم الأرض .

ومن هنا بدأت مقاومة هذه الآراء على نحو واسع عميق عن طريق جمعية العلماء
ومدارسها الواسعة الانتشار في الجزائر .

وقد كانت هذه الدعوة عام ١٩٣٠ مرتبطة بحملة فرنسا على مقومات الثقافة والفكر
العربى الإسلامى في الجزائر ، باعتباره قد انتهى تماماً بعد مرور مائة عام على الاحتلال
والإدماج .

وليس حمله مثل هذه الآراء إلا نموذجاً لعدد من الشباب الجزائري أو العربى (بصفة
عامة) الذى تعلم في فرنسا ، ولم يدرس اللغة العربية ولا شيئاً من تراث بلاده أو حضارتها
أو تاريخها أو قيمها (وقد تحول بعضهم من النقيض إلى النقيض فيما بعد) وقد حاولت
فرنسا أن تعلم شباب المغرب الذين درسوا في باريس مثل هذه المعانى : الثقافة العربية
الإسلامية في طريق الغروب والزوال ، والثقافة الفرنسية في طريق الانتشار ، وانخدع
كثيرون . كان جانب الإغراء بعد الخداع ، في أنهم سيصبحون بالارتباط مع ثقافة فرنسا -
وقد انمحت شخصيتهم العربية الإسلامية - فرنسيين متساوين في الحقوق والواجبات
مع الفرنسيين الأصلاء .

وفعلاً انتخب عباس فرحات عضواً في البرلمان الفرنسى عن الجزائر ، وقام
بالدعاية في الجزائر لقانون عام ١٩٣٦ بتسهيل منح الجنسية الفرنسية للجزائريين ، ولكنه

لم يلبث أن اصطدم بالمعارضة العنيفة التي واجهت المتفرنسين من الدوائر الفرنسية ، فأحس أن الجزائري مهما تفرنس فهو محتقر في نظر الفرنسيين ، وآمن بأن الجزائري شيء والفرنسي شيء ، وأن أحدهما لن يمتزج بالآخر ، ومن هنا تحول عباس فرحات عن رأيه ، وأحس بأنه كان على غير وضوح في الرويا .. وتزعزعت تلك المفاهيم التي آمن بها ، وكشف له العمل في الميدان السياسي أنه عربي ، وأن لغته هي العربية ، وأن دينه هو الإسلام ، وأن وطنه هو الجزائر .

وهكذا قاومت الجزائر فكرة أن الجزائر جزء من فرنسا ، وأن الجزائريين مسلمون فرنسيون ، وبرزت « الشخصية الجزائرية » في كتابات ابن باديس والبشير الإبراهيمي والعقبي والمليلي ، وشعر سحنون ومحمد العيد آل خليفة .

وعندما أوقفوا تدريس اللغة العربية في المدارس ، فتحت جمعية العلماء المدارس الأهلية في المساجد . يقول عثمان سعدى : إن الفرنسيين جعلوا تعليم اللغة العربية جريمة يعاقب عليها القانون ، ولم يسمحوا إلا بتحفيظ القرآن وتلقيه ، إلا أن تحفيظ القرآن كان بمثابة مصباح يحد من كثافة الظلام الذي اجتاحت الجانب الثقافي العربي في الجزائر .

وفي الوقت الذي كانت الأحزاب السياسية ، « كالشعب » و « البيان » ، تدعو إلى الثقافة الفرنسية والحضارة الفرنسية ، وإلى نبذ التعصب ، كانت « جمعية العلماء » تقف حائلا دون أن يجرف التيار الفكري الفرنسي والعربي الجزائر ويسلخها من عروبته وإسلاميتها ، فقد أحيا - ابن باديس - وجماعته الجانب العربي في الشخصية الجزائرية ، وطهر الإسلام من الخرافات ، وانشأ المدارس الحرة والمساجد الحرة ، وكان معنى هدفه : أن امتناع الاستعمار عن تدريس اللغة العربية القومية في المدارس الرسمية لا يقف حائلا دون تعلمها . (١)

وأمكن الجزائر أن ترد على التحدي ، وأن تقاوم محاولة القضاء على « الذاتية الجزائرية » بفرض الجنسية الفرنسية على المواطن الجزائري أو القضاء على لغة الضاد . كانت دعوة ابن باديس أن (اللغة العربية - الإسلام - الجزائر) هي مقومات الشخصية الجزائرية . وقامت دعوته على أساس التربية ، وكشف عن أن الفكر الجزائري فكر عقدي يؤمن بالله وحده ، ولا يكاد يفصل بين مفهوم العروبة ومفهوم

(١) عثمان سعدى : الآداب ١٩٥٥ م

الإسلام ، ولعله - كما يشير جمال البغدادي (دعوة الحق يوليو ١٩٦١) - كان سباقاً إلى هذه الازدواجية العميقة ، ويعتبر تقدماً إذا ما قارناه بما يجري في الشرق على لسان كتابها هناك والذين يحاولون إبعاد « الدين » عن المفهوم القومي .

وبدأ الفكر الجزائري : فكراً مثالياً يؤمن بالأخلاق والسلوك من ناحية ، وفكراً ثورياً نضالياً يؤمن بالمقاومة والكفاح من ناحية أخرى .

وما يقال عن الجزائر في مقاومة دعوة التغريب يقال عن ليبيا وتونس والمغرب ، فقد كانت الجولة واحدة ، ومتشابهة في أسسها وإن برزت بصور مختلفة .

حاول « التغريب » أن يفهم كلاً من تونس والمغرب أنها ليست أمة ، وحاول الادعاء بأن كلا منهما خليط من الشعوب .

ولقي الإسلام من التهوين والتشنيع والتزوير والخلط والدراسات غير التزيهة ، الملفقة المجزئة لأسرار الإسلام ولما قصده . (١)

« حاول الاستعمار إخراجنا من كوننا الخاص ، وإدماجنا في وجوده العام . لوح لنا بالحرية في طريق الإيمان به . وبنظمه وأفكاره ، واحتكر وسائل الحياة . ولم يسمح بالقليل منها إلا لمن اتبعه ، وتكلم لغته ، وانتحل فكرته . (٢) »

إنكار فضل العرب والأندلس

وجه الكتاب والمفكرون المغاربة أهمية كبرى لحملات الاستعمار الفرنسي التي تجحد فضل العرب على الحضارة الإنسانية .

وقد رد الدكتور عزيز الحبابي في كتابه (من المغلق إلى المفتوح) على مزاعم بعض الغربيين من أن الحضارة العالمية تقتصر على القارة الأوروبية التي نشأ فيها العلم والفن والأسس النظامية : العلم والفن للإغريق ، والقوانين والنظام لارومان ، وزعيم هذه الحركة البغضية هو « ريتان » الذي زعم أن الشعوب السامية لا تعرف إلا بالصفات السلبية ، وليست لها ثقافة ولا فن ولا علوم ، وأنها لم تستطع أن تنشئ الفنون التي تحتاج إلى استعمال الخيال .

وقد فصل الحبابي الرد على هذه المزاعم واستشهد بأدلة من التاريخ ، وأوضح

(١) محمد العيسوي - مجلة دعوة الحق .

(٢) ملال الفاسي .

أن لكل أمة قسمها من الحضارة العالمية ، وأن المتخلفين يوجدون في كل الأمم بما فيها أوربا .

وأن للأمة السامية فنونها وآدابها التي تغذت بخيال غني ، واستشهد ببعض اختراعات العرب العلمية التي لها أهمية تاريخية كإكتشاف الدورة الدموية التي لا يرجع الفضل فيها إلى « هرقلي » ، بل إلى العربي « ابن قيس » .

وقد كتب الحبابي كتابه باللغة الفرنسية حتى يصل إلى دعاة التغريب الذين جحدوا فضل العرب والمسلمين وقال : إن روح الإسلام متلائم مع المذهب الإنساني ، لأن الإسلام يأمر بالعمل ، ويحب الرجل المحترف ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

وفي هذا المجال كتب إدريس الكثاني (المغربي) يرد على :

• تجاهل فضل الحضارة العربية على حضارة الغرب .

• الدور الذي قام به المغرب العربي في غرب أوربا .

• تجاهل أن اللغة العربية كانت هي اللغة العالمية خلال القرون الوسطى ، وأن الغرب حتى القرن الخامس عشر كان يشعر بتفوق العرب ولغتهم وقصوره عن مجاراتهم .

وأن دعاة النهضة الأوربية اضطروا إلى بذل جهد كبير لإزالة الشعور بالنقص من مواطنهم تجاه التفوق العربي .

وقال : « هانحن اليوم بعد أن دار الزمن دورته ، نجد أننا في بدء نهضتنا الجديدة نقف من الغرب نفس الموقف » نعاني كثيراً من مركب النقص تجاه التفوق الأوربي واللغات الغربية ، وننظر إلى طاقاتنا ولغتنا نظرة مفعمة بقلّة الاكتراث وعدم الثقة »

وردت الثقافة انعربية الإسلامية في المغرب على دعوى القرون الوسطى التي اتهمنا بها الغرب ، قال عبد الرحمن الزياتي : (٢) إن ما يسمونه بالقرون الوسطى ليس إلا عبارة عن الفترة التي ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية وأخصبت القرائح انعربية ، فحمل العرب وحدهم مشعل المعرفة الوهاجة لينتقدوا البشرية مما ارتكبت فيه من تأخر وانحطاط

(١) مجلة دعوة الحق : المغرب

(٢) مجلة الانيس « المغرب » يناير ١٩٥٢

د - كفاح اللغة العربية

واجهت اللغة العربية معركة ضخمة في المغرب العربي ؛ فقد كانت هدفاً كبيراً من أهداف الاستعمار الفرنسي وجميع حركات التغريب : (الفرنسية والتجنيس والإذابة والإدماج) .

وقد استطاع التفكير العربي الإسلامي في المغرب أن يقاوم وأن يتنصر ؛ ففي تونس والمغرب الأقصى ، لم يحرز الفرنسيون أي نتائج كبرى ، وفي الجزائر استطاعوا أن يصلوا إلى بعض النتائج في المدن وفي الشمال حتى الثلاثينات . أما بعد ذلك فقد انحدرت الكفة ، وغلبت اللغة العربية ، وبدأت تسيطر وتستعيد مكانها ، نتيجة لحركة جمعية العلماء .

ونظرة اليوم إلى المغرب العربي كله نجد أن اللغة العربية فيه تأخذ مكانها الحق ، ولعل حركة المقاومة لها بالغائها والقضاء عليها زاد المثقفين قوة في التمسك بها وتهذيبها ودفعها إلى الأمام ، والأسلوب العربي المغربي سواء في ليبيا أو تونس أو الجزائر أو المغرب لا يقل بأى حال عن مستوى الأسلوب العربي في المشرق .

ومن يطالع مجموعة مجلة « البصائر » الجزائرية التي صدرت بعد الحرب العالمية الثانية في قلب الجزائر يجد أسلوباً عربياً مرناً ، وأداءً سليماً رائعاً ، حيث يكتب عشرات من الشباب ، وينظمون الشعر العالى الجيد العبارة ، وترسم مجلة البصائر بعد عام ١٩٤٦ ثمرة الحركة الضخمة التي قادها ابن باديس وجمعية العلماء في عام ١٩٣١ لحماية اللغة العربية من الفناء .

ومنذ اليوم الأول لاستقلال كل قطر من هذه الأقطار بدأت حركة التعريب فيه تشق طريقها في قوة ، مستهدفة عودة اللغة العربية إلى مكانها الطبيعي في الدواوين والدفاتر الرسمية والبنوك ومختلف الأعمال ...

ولقد بدأت نهضة اللغة العربية منذ اليوم الأول لليقظة في الشمال الإفريقي ، ووجدت من عوامل التحدى ما دفعها إلى المقاومة والانتعاش ، وقد ظهر عشرات من الكتاب في ليبيا وتونس والجزائر ومراكش يؤلفون بها .

وكانت الصحافة منذ ظهورها في المغرب العربي عاملاً فعالاً من عوامل نمو اللغة العربية واتساعها وجريها مع شئون العصر ، وتخلصها من المحسنات اللفظية ، واقترابها من الأسلوب البسيط الهادف الذي يقصد المعنى ولا يعنى كثيراً بالمقدمات ولا بالمداخل البلاغية ..

وقد وجه الاستعمار الفرنسي حملته إلى اللغة العربية في المغرب العربي منذ مطالع الحماية والاحتلال ؛ ففي الجزائر منذ ١٨٣٠ لم تعد اللغة العربية لغة كتابة إلا إضماراً - على حد تعبير (جان كوهين) .. فلم يعد لها عملياً كتب أو جرائد تطبع بتلك اللغة . وبذلك تراجعت إلى قانون اللغة غير المكتوبة .

وفي ١٩٣٣ صدر قرار رسمي بمنع اللغة العربية من القطر الجزائري نص على أن اللغة العربية تعتبر لغة أجنبية . وفي عام ١٩٤٥ فرض على معلمي المكاتب العربية معرفة اللغة الفرنسية .

وقد صور عربي حالة اللغة العربية في المغرب في أوائل هذا القرن (المقتطف - فبراير ١٩٠٣) :

• ليس في مغربنا مطابع ولا جرائد ولا مدارس ولا صنائع ، وما تتحلونه من بعض العلوم فهو ملتقط من هنا وهناك .

• صناعة الإنشاء استمرت على نمط واحد يتداولها الكتاب جيلاً بعد جيل .

• المطابع العربية معدومة من البلاد ، وصناعة النسخ رائجة .

• الكتب الخطية هي المعول عليها ، حتى إنه يسهل على المطالعين قراءتها أكثر من قراءة الكتب المطبوعة .

• الذين تاجروا بالكتب من المشرق خسروا فيها لعدم إقبال الناس عليها ، ليس لغلاء أثمانها ، وإنما لعدم معرفة الأهلين قراءتها .

• ليس من اختلاف بين اللغتين (يقصد اللهجتين) الشامية والمغربية إلا أن حرف الفاء عند المغاربة ينقط من تحت ، وللقاف نقطة واحدة من فوق . أما شكل الحروف الخطية فيختلف ، والمغربي أشبه بالكوفي .

• إهمال اللغة العربية دعا لغات أخرى (كالبربرية والأفريقية) إلى مزاحمتها .

• حدث بعض التمازج في الكلام ، ووقع الاختلال في التراكيب ، فتغيرت المعاني عن حقيقة وضعها ، ودخل في لسان العامة الانتحال والنطق بالساكن والإشمام والحزم والترخيم .

• ألحقوا لفظة (شى) على آخر الأفعال ، وأدخلوا (كافا) على صيغة المضارع مثل (كنكتب) وهو دلالة على الاستمرار ، وأبدلوا (هاء) الغائب (واواً) مثل (كتابو) أى كتابة ، وذالهم دالاً ، وثاءهم تاء .

• لغة العامة تختلف باختلاف الأماكن ، ولكنها لا تخرج عن كونها عربية ، وجميع كلماتها عربية الأصل إلا الأعجمى منها .

هذه صورة اللغة العربية في أوائل القرن في المغرب العربي كله ، حيث كانت الجزائر وتونس ترزح تحت نير الاحتلال الفرنسي .

وبصور باعزیز بن عمر (الجزائر) (١) أثر الاستعمار في اللغة : « إن الاستعمار من القوانين التي جعلت اللغة العربية لغة أجنبية لا يسمح لها بالظهور إلا في المسجد والزاوية ، وأسس للغة في المدارس ما نفذ به سياسة اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية ، ونجحت هذه المدارس ، فتخرج فيها طوائف من أبنائنا وصح بحكم ما نالوه من هذه الثقافة التي قدمها إليهم الاستعمار أن يحملوا لقب النخبة الإسلامية ، وتنبأ لبعضهم الطريق إلى الظهور بجانب المستعمرين في الإدارات والمصالح ، ومن هنا أطلوا على اللغة العربية فلم يعثروا لها على وجود ، فحكموا عليها بالموت ، وأتهموا قراءها بالحمود ، واعتقال اللسان ، وضيق النظر ، ولم يغيروا نظرهم إلى لغتهم العربية إلا يوم صاححت هذه النهضة (يقصد حركة ابن باديس وجمعية العلماء) في الجزائر صيحتها الأولى .. » .

وفي تونس والمغرب وليبيا واجهت اللغة العربية نفس المواجهة : كل الشباب العربي الذي تعلم في فرنسا أو اتصل بالمستشرقين أو الحكام الفرنسيين نظروا إلى اللغة العربية بازدراء ، وحملوا عليها ، ودعوا إلى تفخيم اللغة الدارجة .

وتقدمهم في هذا الميدان المستشرق ماسينون عام ١٩٢٦ والمستشرق كولون عام ١٩٣٧ ، وكلاهما دعا إلى اللغة العامية المغربية باعتبارها اللغة الدارجة التي يفهمها الجميع ،

• اتخذ اللغة العامية لغة الثقافة .

(١) جريدة البصائر ٢٤ جوان ١٩٥٠ .

• كتابة اللغة العامية بالحروف اللاتينية .

• الاستغناء عن اللغة الدارجة واتخاذ اللغة الفرنسية لغة الثقافة .

وقد واجهت هذه الحملة رداً عنيفاً ، وتعرض لها الكتاب بالنقد والتفنيد ، ووصل الصدى إلى مصر والشرق العربي ، فهاجمت البلاغ في مصر ومجلة المجتمع العلمي العربي في دمشق هذه الدعوة . ومن أبرز كتاب (المغرب) الذين واجهوا هذه الحملة العلامة (عبد الله كنون) ؛ فقد كتب في جريدة « الأطلس » يرد على ادعاءات (كولون) قال : إن الشعب المغربي جد متشبث بعربيته ، ويقدمها في الطلب على كل لغة أخرى ، ويساعده على ذلك أساتذة المعاهد الدينية ، وعلى رأسها (القرويين) وأساتذة المدارس الأهلية وإن تكن قليلة .

إن عامية المغرب هي أقرب اللهجات إلى الفصحى لكثرة ما تشتمل عليه من التراكيب الصحيحة ، والكلمات الفصيحة ؛ فهي لا تزال ممتنفة بتصاريف الفعل على اختلافها ، ومراعية الفروق بين المذكر والمؤنث في غالب الاستعمالات .

فيما عدا (الخط) لا نرى أن هناك خلافاً بيننا وبين الشرق في هذه العربية أصلاً .

وفي تونس تعرض (محمد النخلي) (١) لهذه المعركة ، فرد على القائلين بأن اللغة العربية لغة ميتة فقال : « وحسبها أن تقام بها فروض الدين الإسلامي وتؤدي بها طقوسه وعباداته ، وقد جرى تشبيهها باللغة اللاتينية والعبرية وسائر اللغات الدارسة التي قامت الأمم المتمدينة بإحيائها في هذا العصر إبقاء على ذماء القديم ، وصيانة لآثار التاريخ » .

وقال محمد النخلي : إن هذه الدعوى قديمة ، وأشار إلى أنها ترددت من قبل في مصر ، وأن الكتاب العرب في مصر حملوا عليها حملة شعواء ، وقال : إن اللغة العربية غزيرة المادة واسعة الأطراف وأنها صالحة لكل زمان ومكان ، وتستطيع مواجهة الحضارة ، والاستجابة لمسمياتها وتطورها .

وقد هاجمت تونس (توصيات) المؤتمرات الفرنسية التي عقدت لدراسة شئون التعليم ، وقرر فيها « ألا تشغل اللغة العربية الفصحى مكاناً كبيراً في التعليم ، وألا يشرع في تعليمها إلا بعد دخول الطفل للمدرسة بستين أو ثلاثة لأن تعليمها لا يحصل معه

(١) كتاب حياة النلة العربية « ١٣٢٧ هـ »

متعة ، ولا يكون ناجعاً إذا كان الأطفال صغار السن ، وحملت الصحف والكتاب حملات كبيرة على هذه التوصية ، واضطر الفرنسيون إلى سحبها والإغضاء عنها .

وكتب نور الدين محمود (تونس) (١) بدافع عن اللغة العربية فقال : « نحن شعب عربي عريق له في العربية الفصحى قدم رسوخ ، حين أخرج أمثال ابن منظور صاحب « لسان العرب » ، وابن خلدون ، وابن عرفة ، وعبد العزيز الثعالبي ، والشاذلي خزنة دار ، إلى غيرهم ، زيادة على ذلك فلنا مقدرة على إخراج كافة الأحرف العربية من مخارجها ، الأمر الذي قل أن يتوفر في بقية الشعوب العربية ، ولنا أكبر جامعة لتدريس اللغة العربية بالعالم (الجامعة الزيتونة)

وهاجم فكرة الكتابة باللغة الدارجة ، وقال : إنها فكرة استعمارية شرع فيها بعض الآباء البيض منذ مالا يقل عن ثلاثين سنة خلت ، وما زلنا نذكر مواقف الأب فوكا والأب سلام ، ومن قبل ذلك مواقف العلامة م فرساي من هذه الفكرة معلومة ، .. على أن كل ذلك لا يهمننا ، ما دمنا نحن الحارصون (كذا) على نشر اللغة العربية بين قومنا . كما هاجمت « مجلة الفجر » في تونس ما أدخله أبناء الجيل الحاضر من الألفاظ الأجنبية التي شوهت محاسن اللغة العربية وقال : إن كثيراً من شباب العصر حين تعلم في المدارس الأجنبية صار يرمى هاته اللغة البديعة بالجمود ، ويقضى عليها بالمات . وحجتهم أن هناك مسميات كثيرة من مصطلحات العلوم والاختراعات لا يوجد لها أسماء باللغة العربية . وقال : إن اللغة العربية لا تضيق عن إعطاء أسماء لتلك المصطلحات عندما تتوجه إلى ذلك همة العلماء من أبنائها .

ويكتب غامر غديرة من باريس في مجلة الفكر (٢) متأثراً بما يحس به هناك من توجيه للشباب المغربي نحو كراهية لغتهم العربية فيقول : أنت تعلم أن اللغة العربية والآداب العربية في خطر ، لأن الأجانب برغم ما قام به المستشرقون من جليل الخدمة ، وبرغم دفاع الكثيرين منهم عنها ، يحتقرونها عن جهل وتعصب ، والآن قام من العرب ومن غير العرب من يريدون اليوم تشويهها بالعدول عن لغة القرآن والأسلوب العربي الإسلامي إلى عبارة جديدة مشوهة وأسلوب لا قرآني ، إن لم أقل « مسيحي » ، واللغة

(١) مجلة الاسبوع : ٢٤ - ٥ - ١٩٥٤

(٢) أبريل ١٩٥٦ مجلة الفكر

العربية هي التي تحمى (وحدها) كياناتنا الثقافية ، وتضمن للثقافة الإسلامية الكاملة الحياة والنمو ، فلئن أهملنا اللغة أضعنا الثقافة الإسلامية ، وأهلكنا الفكر الإسلامى ، والإسلام ليس ديناً فحسب ؛ بل هو مدنية كاملة وحضارة عظمى ، وهو دين وهو أدب وموسيقى ونقش وفن معمارى ، وهو دين وجهاز خلقى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهو دين وجهاز قانونى تام قد نظر فى الميراث ودقق فى مسائل الزواج تدقيقاً ، وهو فلسفة واسعة متشعبة منها نشأ الاعتزال ومنها خرجت الصوفية .. »

وقد ضعف موقف النفوذ الأجنبي من اللغة العربية إزاء هذا الإصرار الواضح والتمسك القوى بها ، وجرى البحث حول تطويرها مع الإيمان بها . ومنذ ١٩٢١ تناولت مجلة الفجر التونسية هذا الإصلاح : « إذا قيل : إن اللغة تضيق عن احتمال ما لا يعرفه أهلها الأصليون ، كان وزر ذلك علينا لا على اللغة ، لأنها كائن حي قابل للنمو والتطور مع الإنسان ؛ فقد احتملت المدنيات القديمة ، وكانت حلقة اتصال بيننا وبين المدنية العصرية .. » ولا يعلم من ذلك أننا نتسامح فى تضييع العربية أو نتساهل فى الخط من قيمتها ، فإنها لغة الدين والوطن التى يجب أن يكون تعليمها إجبارياً ، ليس هى فقط بل هى وآدابها إذا أردنا أن نحفظ بقوميتنا كشعب له تاريخ ، وأن نعيش فى مصاف الأمم الحية ..

وقال : إن اللغة العربية لا تضيق عن أسماء مصطلحات العلوم والاختراعات عندما تتوجه إلى ذلك همه العلماء من أبنائها .

وظلت اللغة العربية أنشودة رائعة على كل لسان ؛ فالشيخ محمد خير الدين (١) فى جريدة البصائر الجزائرية يشيد بها :

.. أما اللغة العربية لسان تسعة ملايين من المسلمين ولغة دينهم وقراءاتهم ، تلك اللغة الخالدة ذات الآداب والثقافة التى شعت بنورها على أوروبا ، فاقبست منها حضارتها الحاضرة وعلومها وفنونها ، فهى تعامل فى وطنها ، وعلى مرأى ومسمع من بنيتها كما تعامل اللغات الأجنبية ، فأنت لا تكاد ترى لها أثراً فى المؤسسات ، وأنه ليروعك ما أحيطت به المدارس العربية الحرة من قوانين وقراءات ترمى فى مجموعها إلى انقضاء على هذه اللغة .. » ودافع الكثيرون من المفكرين عن الدعوى التى جدت فى بعض أقطار المغرب والتى

(١) البصائر : ١٠ سبتمبر ١٩٥١

أذاعها الأساتذة الفرنسيون من أن اللغة العربية عاجزة عن أن تكون لغة التعليم في المدارس وأنها لا تملأ الفراغ الفكري الذي يشعر به الشباب في المغرب العربي ، كما تملؤه اللغة الفرنسية التي لا يستطيع الاستغناء عنها .

وتوالى الأبحاث في صحف المغرب ومجلاته ، وتناولت ذلك مجلة دعوة الحق (المغربية) في عشرات الأبحاث ، كما صدرت في تونس مجلة خاصة بشئون اللغات .

ويدعو محمد بلعزیز (مجلة التربية الوطنية « المغرب » يناير ١٩٦٠) إلى لغة قادرة على مسايرة التطور العلمي الذي قطعه العقل العربي في القرون الثلاثة الأخيرة .

وقال : إنه في مجال أبحاث توسيع اللغة ينبغي الرجوع أول الأمر إلى اللغة الرومانية واليونانية ، لأنهما من مآخذ اللغة في أطوارها الأولى ، ولأنهما أقرب إلى صيغة اللغة العربية ، وكذلك اللغة الإسبانية ، وإذا ما عدنا إلى هذه المصادر ولم نجد فيها بغيتنا ، حيثند نلتفت إلى اللغات الأخرى .

★ ★ ★

وعلى هذا التمسارت حركة « التعريب » في تونس والجزائر والمغرب التي تهدف أساساً إلى إحلال اللغة العربية في التعليم والتشريع والإدارة ، وتعني كلمة « التعريب » في المغرب العربي إقرار اللغة العربية وجعلها لغة التكلم والعمل .

وقد أشار تقرير الجامعة العربية (١٢ كانون أول ١٩٦٣) إلى الجهود المبذولة في هذا الشأن ، مستهلاً للبحث بقوله « لقد حاول الاحتلال الأجنبي دوماً طمس معالم اللغة العربية بكل الوسائل ، وفي سائر الميادين ، وخاصة في أقطار المغرب العربي حيث عمد إلى إحلال اللغة الأجنبية محل اللغة العربية لغة البلاد القومية ، ليضمن لنفسه البقاء » ولكن تفكير الشعب برغم الاحتلال الطويل ظل عربياً صافياً لم تمكر صفوه طريقة اللسان التي فرضت على الشعب خاصة في المجالا الرسمية ، وما أن تخلصت هذه الأقطار من الاحتلال .. حتى بدأت شعوبها الكفاح ، وكان طبيعياً أن تنال قضية اللغة العربية وإعادتها إلى مكانها الحق أهمية أساسية .

من أعلام الفكر والثقافة

١ - محمد الخضر حسين

« كان نظام التعليم في المعهد الزيتوني من أسباب تنافس أصحاب المذهبين : المالكي والحنفي في ميدان العلم ، وقد أخرج جامع الزيتونة فقهاء يعترفون بعلمهم ويؤيدون في المناصب ، أدركت من هؤلاء فقهاء وأساتذة بلغوا الغاية في سعة العلم وتحقيق البحث ، مثل عمر بن الشيخ ، وأحمد بن الخوجة ومحمد النجار ، ومن نظر في فتاوى هؤلاء الأساتذة أو رسائلهم التي حرروا بها بعض المسائل العويصة رأهم كيف يرجعون إلى الأصول والقواعد ومراعاة المصالح ، ولا يقنعون بنقل الأقوال دون أن يتناولوها بالنقد والمناقشة .

وبدلنا التاريخ القريب على أن بعض رجال الدولة التونسية عندما اتجهوا إلى إصلاح الحالة السياسية أو العلمية أو الاجتماعية ، وجدوا فقهاء يدركون مقتضيات العصر ، ويعرفون كيف تسعها أصول الشريعة بحق ، فكانوا يعقدون منهم بعض بلانهم ، ويستنيرون بأرائهم مثل أساتدنا : عمر بن الشيخ ، وسالم أبو حاجب ، ومصطفى رضوان وما زال الرسوخ في الفقه ، وربط الأحكام بأصولها ، من مواضع عناية الأساتذة في جامعة الزيتونة لهذا العهد ، يشهد بهذا ما نقرأه في محاضراتهم ومقالاتهم التي تنشر في الصحف التونسية والمصرية .

كانوا يدرسون الفقه بأنظار مستقلة ، وآراء تستضيء بالأدلة ويتفاضلون فيها على قدر تفاضلهم في العبقرية وسمو الهمة ... »

لاشك كان محمد الخضر حسين عالماً من أعلام الفكر المغربي الإسلامي ، مكافحاً وطنياً ، ومغترباً في سبيل الحفاظ على حرية الكلمة ، وأقام كابن خلدون بقية عمره في مصر ، ورفى فيها إلى أعلى المناصب ، وعمل في ميداني الإصلاح الإسلامي والقياسي اللغوي ، وعمل في التدريس والصحافة والكفاح الوطني ، ولقد أتيح له أن يقاوم حركات التغريب بدعوته إلى إنشاء جمعية الشبان وكانت مجلته وقلمه من ألسنة الدفاع عن المغرب وقضاياه ، ورسولاً قوياً يستصرخ المشاركة حين يكشف لهم عن مؤامرات الاستعمار

ويدعوهم إلى مقاومة التغريب والتجنيس والفرنسة ، فهو منذ أقام في مصر بعد الحرب العالمية الأولى يحمل هذه الرسالة ، ويعمل في كل هذه الميادين : الإسلام واللغة والكفاح السياسي .

وكان محمد الخضر حسين مستثيراً متفتح الذهن يدعو إلى الإصلاح على أساس قاعدة علمية واضحة ، فهو يؤمن بفكر لا يتعصب لقديم ولا يفتن بجديد ، يعتمد الرأي حيث يثبت الدليل ، ويتقبل الحكم متى لاحت بجانبه حكمة ، ويثق بالرواية ، بعد أن يسلمها النقد إلى صدق الغاية ...

ومن رأيه أن على العلماء قول كلمة الحق لأهل الحل والعقد دائماً ، وعدم التوقف عنها .

« لا ينبغي لأهل العلم أن يغفلوا عن سير أرباب المناصب والولايات ، فمن واجبه أن يكونوا على بينة من أمرهم ، حتى إذا أبصروا عوجاً نصحوا لهم بأن يستقيموا ، أو رأوا حقاً مهملاً لفتوا إليه أنظارهم ، وأعانوا على إقامته .

ومن أدب العلماء أن ينصحوا للأمة فيما يقولون أو يفعلون ، ويحتملوا ما ينالهم في سبيل النصيحة من مكروه ، وكم من عالم قام في وجه الباطل فأوذى فتجلد للأذى . »

وقد كانت حياة الخضر حسين رمزاً على هذا المعنى ، معنى طلب الحرية والهجرة من بيئة الظلم ، فقد فر من تونس ومن الشام ومن تركيا ، وكان فراره ليحتفظ لنفسه بحقه في الكلمة ، يقول : « نشأت في بلدة من بلاد الجريد بالقطر التونسي يقال لها نقطة » وكان للأدب المنظوم والمنثور في هذه البلدة نفحات تهب من مجالس علمائها . كان حولى من أقاربي وغيرهم من يقول الشعر ، فتذوقت الأدب من أولى نشأتي . وحاولت وأنا في سن الثانية عشرة نظم الشعر . وفي هذا العهد انتقلت أسرتي إلى مدينة تونس ، والتحقت بطلاب العلم بجامعة الزيتونة . وكان ذلك عام ١٨٩٩ ، أحب أستاذة الشيخ سالم أبو حاجب الذي كان يحثه على البحث . ويلاقى السؤال المهم بابتهاج ، ويدعو للطلاب بالفتح يقول : « كان يقول الشعر مع كونه يغوص على المسائل العلمية بفكر ناقد » وكان الشيخ أبو سالم قد رفض وسام السلطان ووسام الباي ، فأحب منه الشيخ الخضر هذا الاعتداد بالنفس ، « بعد أن نلت درجة العالمية أنشأت مجلة علمية أدبية ،

وهي أول مجلة أنشئت بالمغرب ، فأنكر على بعض الشيوخ ، وظن أنها تفتح باب الاجتهاد ، وشجعت على إنشاء شيخنا أبو حاجب ، كما شجعت عليها الوزير محمد أبو عنور .

كانت خطته الإصلاح الاجتماعي والديني ، والعمل لإعادة مجد الإسلام ، ولكنه لم يلبث أن اختلف مع السلطات بشأن العمل في القضاء ، بعد أن وليه في بترت ١٩٠٥ ، إذ فضل العودة إلى التدريس في الزيتونة ، فلما خاطبته المحكمة الفرنسية ١٣٢٥ هـ بالعمل في المحكمة عضواً ليحضر حكمها بين الوطني والفرنسي ، امتنع ولم يقبل أن يصدر الحكم الجائر ...

واستقر رأيه إثر ذلك على الهجرة إلى الشرق ، فاستوطن دمشق عام ١٩١٢ ، وكانت تحت سلطان العثمانيين ، فنصب للتدريس في المدرسة السلطانية في كرسى الشيخ محمد عبده .

ثم اعتقله جمال باشا حاكم الشام ، ورحل إلى الآستانة فأسند إليه التحرير بالقسم العربي بوزارة الحربية ، وحين احتل الحلفاء الآستانة رحل مع زعماء الحركة الإسلامية عبد العزيز شاويش وعبد الحميد سعيد والدكتور أحمد فؤاد .

وعاد إلى دمشق ١٩١٨ في عهد الحكومة العربية لفیصل ، وعُهد إليه بالتدريس في المدرسة السلطانية ، ولكن فرنسا لم تلبث أن بسطت سلطانها على سوريا ، فترك دمشق إلى القاهرة ١٩١٩ ، وفي مصر عرف أحمد تيمور باشا الذي كان خير رفقائه ، وكان له فضل واضح في إنشاء جمعية الشبان المسلمين مع السيد محب الدين الخطيب صاحب الفتح . كما أنشأ من بعد جمعية الهداية الإسلامية ومجلة الهداية الإسلامية ، وتولى ثمة مجلة لواء الإسلام (مجلة الأزهر) ، واتصل بالأزهر وقال إجازته ، وعمل في كلياته ، واختير عضواً في جماعة كبار العلماء ، فشيخاً للأزهر عام ١٩٥٢ ، وعضواً في مجمع اللغة العربية .

ولطالما ذكر المغرب ، فلم ينس قط ، وما من مناسبة إلا جرت في نفسه المقارنة ، وتطاع إلى مجد المغرب وحرية ، يقول عام ١٩٤٩ :

دمعة كالثلج برداً مجهولاً	في المآقي فرط بشر وارتياح
إذ شهدنا عرض جيش من بني	مصر في أسنى عتاد وسلاح
وتلتها دمعة صبور لي	حرها أنفاس مكسور الجناح

إذ ذكرت المغرب الفارق في بلح سود من العسف الصراح
نهضت مصر إلى المجد وما نهضت إلا بعزم وكفاح
أتري المغرب يوماً ناهضاً للعلا بن سيف ورماح
وقد كانت مجلة الهداية : مجلة مغربية واضحة الدلالة ، في كتابتها وأبحاثها ، ودفاعها
عن مختلف المواقف الوطنية والإسلامية والعربية ، ورأس جبهة شمال أفريقية ، التي
ضمت الأحرار الذين سعوا نحو مصر من أجزاء المغرب العربي ، .

وكان الشيخ الخضر كاتباً وشاعراً له شعر كثير جيد ، وقد وصفه الفاضل بن عاشور (١)
فقال : كان كاتباً بليغاً ذا طبع خاص وأسلوب قوى الروح الأدبية ، فصيح العبارة بليغ
التركيب ، ينزع إلى طرائق كتاب الترسيل الأولين ، رحل عام ١٩١٢ إلى مصر وسوريا
وتركيا ، فكتب رحلة بديعة نشرت في مجلة الزهرة ، طافحة بانتقاداته وأفكاره .
وأشار إلى مجلة السعادة العظمى (التي أصدرها في تونس ١٩٠٤) فقال : إنها
كانت مركزاً للحركة الفكرية وقوة توجيهية متصلة بجميع أهل الثقافة العربية يجتمع تحتها
شقان متباعدان ... ولم تدم إلا عاماً ناهضاً .

وللخضر حسين : مؤلفات متعددة أهمها :

محمد رسول الله ، رسائل الإصلاح ، آداب الحرب في الإسلام ، القياس في اللغة
العربية ، هذا بالإضافة إلى عشرات الفصول والمقالات في صحف مصر والمغرب والشام ...

٢ - الفاضل بن عاشور

« بأسف اتونسيون جميعاً ، كما بأسف من ورائهم العرب كافة ، والعالم الإسلامي
كله ، على أن التاريخ التونسي بأعجاده وحوافزه وعبره ومباهجه ليس له مرجع واف
مفصل مدروس النظريات محكم الأوصاف ، قوى الإسناد ، بليغ البيان .
إن الذي يستعرض ما تتركه له المكاتب في الدنيا من التواريخ الموسوعة المستبحرة التي
وقت ما ضي كل أمة حقه من البسط والتحليل ليقف حائراً مدهوشاً أمام تلك الدواوين
الزاخرة بعشرات المجلدات الضخمة ، مثل ما كتب أحمد جودت لتركيا ، وما كتب

(١) الحركة الفكرية والأدبية في تونس

ماكولى لبريطانيا ، وما كتب ميشلى ولا فيس لفرنسا ، وما كتب أورسى وفيرارى لإيطاليا . ويستيقظ الناظر من دهشته مذعوراً لتلك الثغرة المهولة فى التراث التونسى ، حتى تتحرك فى نفسه روح الإباء والأئمة ، فيندفع بذكره مختالاً إلى تاريخ ابن خلدون .

ومن ديوان ابن خلدون نفسه ترتفع صيحة ثلاثين قرناً ، قد أحسن ابن خلدون تسجيلها وتصويرها حقاً ، ولكن أتى على صورها من الكلف والسفع ، وركب تساجيلها من المحو والصدأ ما حال بين أكثر أبناء العصر الحاضر وبين مطالعتها ، فأين هو القلم لحدير بأن يتقمص روح ابن خلدون تقمصاً جديداً يعيد به عرض ما كان أبرزه من الكنوز على صورة تأنس بها الأذواق الشابة ، وتدرکها العقول المعاصرة .

لا جرم أن المقرع فى ذلك لا يكون إلا إلى مصادر تحرير التاريخ التى بنيت المناهج الحديثة على استيفائها من المواد والآلات ، مما شملت عليه خزائن المحاكم من السجلات والدفاتر والرسوم والأحكام والفتاوى ، وما اشتملت عليه خزائن الأوقاف من الوقفيات والمحاسبات والمعارضات ، وما اندرج فى أطباق الأرض وتلاشى على وجهها من المعالم والمشاهد والألواح والسلاح والمتاع ... إلى ما يتجه دراسة التقاليد الديوانية والطرائق الوثيقية ، والبصر بمجاميع الأحكام والنقود والطغارى والخطوط والجلود .

فالتأليف المختلفة فى التاريخ والتراجم ما هى إلا حلق مترابطة وأبنية متراسة ، لا يستطيع مؤلف التاريخ أن يخطو خطوة إلا من بين مشاكلها ومنحنياتها .

ثم إن فى خزائن الكتب مادة أخرى لم يكتمل نضجها العلمى ، وهى على رطوبتها وفجاعتها تعتبر ، لصنع التاريخ ، من ذوات الأهمية الأولى وأعنى بها الآثار الكتابية التى ترجع إلى الوثائق أكثر مما ترجع إلى الكتب .

وقد اهتم المؤرخون المصريون بصنف من هذه الوثائق متميز بخصائصه عن الأصناف المعهودة فى القديم ، وهو صنف المذكرات التى لم يعرف اسمه إلا فى القرن الحاضر .

وقد استعمله كتاب العصر تبعاً لاستعماله فى اصطلاحات الآداب الغربية من باب التعريب بالتصرف فى نفس المادة ، فإن الاسم الذى يطلق عند الغربيين على هذا النوع من التحارير هو اسم الذاكرة التى هى إحدى القوى العقلية للإنسان ، وتطور استعماله من طريق الإصلاحات القضائية حتى صار بالغلبة علم جنس على شرح الوقائع التى يتقدم بها الخصم بين يدي قضاته ...

من أعلام الثقافة الإسلامية العربية وأبرز ثمار الزيتونة . كاتب وخطيب عرف بالبراعة في محاولات العلم ومساهمات الأدب ومجادلات السياسة . تعلم الفرنسية على معلمين ، تعلم في المعهد الزيتوني ، والجامعة الزيتونة ، وانتسب إلى كلية الآداب بجامعة الجزائر عام ١٩٣١ ، واشتغل بالتدريس ١٩٣٢ ثم بالقضاء ، وكان قد اتصل بالصحافة الوطنية منذ ١٩٢٨ ، له عديد من الرحلات ذات الأثر في تكوينه الفكري زار فرنسا ومصر والحجاز والجزائر والشام وليبيا والمغرب الأقصى ، وطاف أوروبا ، فزار النمسا واليونان ويوغسلافيا وبلغاريا وتركيا ، واشترك في مؤتمر المستشرقين باستانبول ١٩٥١ ونظم أناشيد للشبان إبان الأزمة القومية ١٩٣٩ ، محافظة على روح التوجيه الوطني ، وتحدياً لمحاولة حكومة فيشي الفرنسية فرض أناشيد أجنبية على طلبة المدارس .

قرأ في مطالع شبابه للغلاييني وعجي الدين الحياط وعبد القادر المغربي ، وآثر ديوان الحماسة ، ومقدمة ابن خلدون ، ورحلة ابن بطوطة والأغاني ، وأبرز مؤلفاته « الحركة الفكرية في تونس » الذي أرخ به لنهضة الفكر والأدب في تونس منذ عام ١٨٨١ إلى وقتنا الحاضر .

عذب الأسلوب ، بارع الأداء ، استطاع أن يمزج ثقافته الإسلامية الأصيلة بالثقافات الغربية ، فأفاد منها خيرة الفلسفات والأبحاث الغربية ومناهج البحث .

« كان (١) خروجي من الصبا إلى الشباب مقترناً بانبعاث الحركة الوطنية ، ونشاط الصحافة والحركات الاجتماعية والأدبية ، فكنت أتبع تلك الحركات باهتمام وأتعرف تفاصيلها ورجالها ، ومع ذلك لم أتصل مباشرة بأي حركة منها ، إذ كان نطاق تقلي بين الجامع والبيت ، فلم أبدأ اتصالاتي المباشرة بالصحف والجمعيات إلا عام ١٩٢٨ ، ومن يومئذ انغمست في العمل بالجمعية الخيرية وقدماء الصادقية . وكان المرحوم عبد الحميد الكعك هو الذي ربطني بالخلدونية .

أهم ما كان يؤثر في الحركة الاجتماعية بتونس في عهد شبابي هو نهضة الأمم الإسلامية نهضة شعبية بعد سقوط الخلافة العثمانية لتحقيق آمال الخلاص اعتماداً على الكفاح الشعبي ، وكان للحركة الاشتراكية في فرنسا وعموم البلاد الأوربية صلة بالنهضة الاجتماعية في تونس .

رحلت أول مرة إلى فرنسا ١٩٢٦ . وكان لتلك الرحلة أثر قوي بتوجيهها إلى تطلب نواحي العظمة والسيادة لوطننا على نحو ما بهرنى في فرنسا .

٣ - زين العابدين السنوسي

نشأ في بيئة الأدب والسلفية والعروة الوثقى والصحافة ، فقد كان والده الشيخ محمد السنوسي من الرعيل الأول الذي سافر إلى المشرق ١٨٨٢ واتصل بجمعية «العروة الوثقى» التي أنشأها جمال الدين في كلكتة وصار من أعضائها (فلما رجع إلى تونس ظل عاملاً على مبادئها) . والشيخ محمد السنوسي هو أول من حرر الصحف في تونس بل المغرب كله ، الرائد التونسي ١٨٦٤ أول جريدة ظهرت في المغرب العربي ، وصفها زين العابدين السنوسي بأنها كانت لتوجيه الأمة نحو النهضة الحديثة والتطور السياسي . وقد فارق محمد السنوسي جريدة «الرائد» في اليوم الثالث للاحتلال ، وهي أيضاً ثانية الجرائد العربية الإسلامية في العالم .

في هذا الجو نشأ « زين العابدين السنوسي » أحد رواد النهضة الفكرية والأدبية والصحفية في تونس ، قرأت له كثيراً في صحف المغرب ، ومقدمات الكتب التي نشرها في مطبعته العربية الكبرى التي قدمت للفكر المغربي العربي ذخائر الأدب والفكر . ولفت نظري بيانه الرائع وأداؤه الحصب

وهو من تلاميذ الثعالبي ، وزملاء أحمد توفيق المدني ومحيي الدين القليبي والطاهر الحداد . ومن ثمرات الزيتونة ونوابغها من الخطباء والكتاب الذين جاهدوا بعد الحرب العالمية الأولى .

وأنا أنقل عبارة الفاضل بن عاشور عنه « إن شاباً طموحاً على الهمة الأدبية من أسرة مجلة البدر ، وأركان جمعية الجامعة الزيتونية ظهر ، هو زين العابدين السنوسي ابن الشيخ محمد السنوسي ، فكون له مطبعة باسم مطبعة العرب على ضعف ماله من الوسائل المادية ، وتحيل على المنع القانوني بإصدار نشرة شهرية على طراز مجلة البدر في صورة كتاب ذي أجزاء سماها « العرب » فمنعت الحكومة رواجها من العدد الرابع ، فاستمر يتحمل لكل عدد اسماً يدل على ثباته في إصدار مجلة العرب التي لم يرخص لها »

كذلك فعل السنوسي في سنوات ما بعد الحرب حتى ١٩٢٦ ، عندما أصدر مجلة « العالم » في يناير ١٩٣٠ ؛ « فالعالم الأدبي » التي كانت رائد النهضة الفكرية ، وسجل التطور الأدبي ، اعتنت بنشر الأخبار عن الاكتشافات العلمية والأثرية والتطورات

الأدبية في الشرق والغرب ، وعرفت بأحدث الكتب وأشهر الكتاب في مختلف اللغات وتوفرت عنايتها بالدراسات الاستعراضية لتيارات الآداب الغربية والدراسات التحليلية ، في الأدب العربي والمقالات عن المناهج الأدبية عامة ، وكان أهم أعمالها التنويه بالتطور الأدبي بتونس بنشر أشعار المجددين والاعتناء بدراساتهم ، ونشر القصص والروايات وتوجيه تطورها بنقل القصص الرائعة عن كبار الكتاب باللغات الأجنبية ، والربط بين الأدب والفكر والفن .

وقد كان زين العابدين السنوسي من طلائع المؤرخين للنهضة الأدبية في تونس ، فهو مؤلف الأدب التونسي في القرن الرابع عشر في جزئين (مطبعة العرب ١٣٤٦ هـ ١٩٢٧ م) جمع فيه منتخبات شعرية عن ٢٦ شاعراً تونسياً من المعاصرين ، وقدم عن كل منهم ترجمة لحياته وذوقه ومنهجه الأدبي .

وأمامي نموذجان لكتابات (١) أحدهما في مجال الأدب

« تطور الأدب فأصبح فناً قائماً بنفسه ، وله تاريخ لا يقل مجادة واعتباراً عن تاريخ تطورات المجتمع البشري . وعلى ذلك قام كتاب العربية بنفضون عن آداب لغة القرآن الخالدة غبار القرون ، ويجددون تربيها وتقسيمها ، بما يسهل معه تتبع التطور والرقى الذهني .

ولقد صدر حتى اليوم كثير من التأليف عن آداب الأقطار العربية تاريخياً وعصرياً ، أحمد ضيف ، وطه حسين ، إن جميع هؤلاء لم يكتبوا عن الشمال الإفريقي شيئاً ، والظاهر أن هذا التغافل أثر من آثار التشتت السياحي الذي أوجدته الطوارئ الاستعمارية في القرن الأخير ، وقد بلغ التشتت والتناكر بأبناء العربية أن أصبحت الصحافة المصرية لا تكاد تهتم بنا اهتمامها بمملكة الحبشة ، ولا تتطلع لأخبارنا تطلعها لحفلات السباق والزحافة . وليست الأغلاط قاصرة على الصحافة والنشريات الدورية ، بل تناول حتى الكتب الدراسية والموسوعات العلمية ، فمدينة (بنزرت) ذكرت في الموسوعة المصرية (النخبة الأزهرية) باسم (بنزرة) وذلك نتيجة اعتمادهم على المؤلفات الأجنبية .

هذا وإن تاريخ تونس ومركزها بالنسبة لبقية الشمال الإفريقي يجعلها شاعرة أبدأ بمسئولية ربط نهضة هاتيك الأصقاع الفنية ببقية الأرومة العربية ، حتى لا تنقطع

الروابط التي ربطها أبناء يعرب بدمائهم ، ويذهب آخر أمل في البناء على أنقاض ماضينا الزاهر .

وفي اعتقادنا أن تعميم الإحساس بالتماس التاريخي والوحدة اللغوية هو أضمن طريق يسار به إلى التكافل المنشود ريثما يتيح الزمان لهذا الشرق نقض الكابوس عنه ، وإعلان رغبته الصريحة في الوحدة والسلام ، اللذين لا تشوبهما تهمة جبن ولا مداجاة ، لأنهما يعبران عن نفس مؤمنة قوية ، تعرف مركزها من العالم ، وحقها في الحياة ..»

(٢) أما النموذج الثاني فهو في مجال البحث التاريخي :

« تطورت حركات الشعوب ، وأصبح العقل والمصلحة سائدين على مظاهرها ، إلا أنهما لم يكونا مفقودين في التطورات التاريخية ، بل غطى عليهما زلنى المؤلفين القابضين على أزمة الشعوب واعتزاز الناقلين بالشخصيات البارزة ، والتي لا يزيدها القدم وتراكم طبقات التاريخ إلا إجلالاً وضخامة .

أضف إلى ذلك أن الكتابة النقدية ليست من رائجات العصور السالفة ؛ فقد كان المؤرخ إنما يزيد اعتباره بقدر اطلاعه على شواذ الأخبار ، بقطع النظر عن مطابقتها للواقع والمعقول .

إلا أن هذا القدر لم يبق اليوم ، بل إن عقلية الأمم لم تعد تشرئب إلى معرفة الأسباب النفسية للانقلابات التاريخية ، بل أصبحت تهتم بمعرفة الطبقات الأُممية في كل دور ومبلغ تماسها .

ونساءل عن طريقة الإدارة والحكم ومبلغ سيطرة الدولة ، وتأثيره على عقلية الفرد ومالته ، إذ أن المجتمع نسيج متداخل وجسم واحد متواصل الأعضاء .

كما أنها أصبحت تستقص كتب التاريخ التي لا ترى فيها الوثائق الكافية والمرافق الكاملة للاستيعاب بالنظر البسيط .

إن تجديد التاريخ وسبكه على العقلية العصرية ليس من الأعمال الهيئة البسيطة ، بل لا يمكن أن ينسبك قبل بضع عشرات من سنين بمضيتها المجددون في الملاحظة والنقد والتفسير .

فلإن تاريخ عرب أفريقيا ، وبالأخص تاريخ الأمة الجزائرية لا يزال بكرأ من هذه الناحية ، بل إنه مسبوك على عكس ما يجب أن يطلبه ابن البلاد من أمته ، فلإن كثيرين من علماء الأمة المحتلة عملوا على تشويهه ، وتجسيم التواحي السود منه ، وإظهاره

كتلة مربعة من السواد الفاجع المحزن ، لتفجير الناشئة من ماضى آبائها ، حتى يزوروا عنه ، ويهاض من كبرياتهم أمام المختلين الذين قضوا مائة سنة أو أكثر في تزويق تاريخهم وتنميقه ، ليس بالمعقولات فقط ، بل حتى بالخرافات والأساطير ، وقد برعوا في تناسي مالا يعجبهم من ماضى آبائهم ، ثم الإطالة والتبسط في الجزئيات الصغيرة ، وحتى حكايات الأفراد إذا أعوزهم الدليل على عظمه آبائهم المعروفين .

كم سنة إذن يجب على الجزائر أن تقطعها للتخلص من تلك الغيلان الى ملثوا بها تاريخها ، حتى يتسنى لها أن تصور من ماضيها حقيقة المعجبة المهيبة ...»

وهذان النموذجان بصوران عقلية « زين العابدين السنوسي » في مجال الأدب والتاريخ ، وبدلان على منهج عربى إسلامى عميق الدلائل ..

(توفى عام ١٩٦٥)

٤ - البشير الإبراهيمي

« .. اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة ، بل هي في دارها وبين حمائها وأنصارها ، وهي ممتدة الجذور مع الماضى ، مشتدة الأواصر مع الحاضر ، طويلة الأفنان في المستقبل ، ممتدة مع الماضى لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين ، ترحل برحيلهم وتقيم بإقامتهم ، فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الأفريقي إقامة الأبد ، وضرب بجرانه فيه ، أقامت معه العربية لا تريم ولا تبرح ، ما دام الإسلام مقيماً لا يترحزح ، ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس ، فأصبحت لغة دين ودنيا معاً ، وزاحمت البربرية على ألسنة البربر فغلبت وبزت ، وسلطت سحرها على النفوس البربرية فأحالتها عربية ، كل ذلك باختيار لا أثر فيه للجبر ، واقتناع لا بد فيه للقهر ، وكذب وفجر كل من يسمى الفتح الإسلامى «استعمارية» .

ومن قال : إن البربر دخلوا في الإسلام طوعاً فقد لزمه القول بأنهم قبلوا العربية عفواً ، لأنهما شيان متلازمان حقيقة وواقعاً ، لا يمكن الفصل بينهما ، ومحاول الفصل بينهما كمحاول الفصل بين الفرقدين .

ومن شهد أن البربرية ما زالت قائمة الذات في بعض الجهات ، فقد شهد للعربية بحسن الحوار ، وشهد للإسلام بالعدل والإحسان ، إذ لو كان الإسلام دين جبر وتسلط لها البربرية في بعض قرن فلان تسامح في قرن .

ما هذه النعمة الناشزة التي تصك الأسماع حيناً بعد حين ؟ والتي لا تظهر إلا في نوبات من جنون الاستعمار ؟ ما هذه النعمة السمجة التي ارتفعت قبل سنين في راديو الجزائر بإذاعة الأغاني القبلية ؟ وإذاعة الأخبار باللسان القبلي ؟ ثم ارتفعت بلزوم مترجم للقبلية في مقابلة مترجم للعربية ؟

أكل هذا إنصاف للقبلية وإكرام لأهلها ، كلا ، إنه تدجيل سياسي على طائفة من هذه الأمة . إن هاتين التعمتين مغزاهما واحد ، هو إسكات نعمة أخرى تنطق بالحق ، وتقول : إن هذا الوطن عربي فيجب أن تكون لغته العربية رسمية .
أما الحقيقة فهي أن الوطن عربي .

وأن القبائل مسلمون عرب ، كتبهم القرآن يقرءونه بالعربية ، ولا يرضون بدينهم ولا بلغته بديلاً .. (١) ،

★ ★ ★

يمثل البشير الإبراهيمي أرق أساليب اللغة العربية في المغرب العربي ، وهو زعيم في مجال الإصلاح والسلفية والتعليم والصحافة ، عمل مع عبد الحميد بن باديس ثم خلفه في مجال جمعية العلماء ، بدأ كفاحه في الجزائر عام ١٩٣٠ ، وتعرض للسجن والنفي ، وترك الجزائر في يناير ١٩٥٢ حيث طاف بالشرق العربي داعياً لحرية الجزائر .
وكانت جمعية العلماء إذ ذاك قد أنشأت ٤٠٠ مدرسة عربية فيها ٧٠٠ معلم ، و٩٦ ألف طالب وطالبة يتعلمون اللغة العربية .

وهو من مواليد سطيف عام ١٨٨٩ ، تلقى تعليمه على يد علماء الدين ، وجاور في المدينة المنورة حيث أخذ يدرس العلم والنحو والبلاغة ، وتطلع إلى العمل من أجل العودة بالدين إلى بساطته الأولى في ظل الموجة الضخمة التي حملها جمال الدين الأفغاني إلى المشرق ، وحملها محمد عبده إلى المغرب منذ عام ١٨٩٢ ، وفي الشام ١٩١٦ عمل أستاذاً للأدب العربي بالمدرسة السلطانية حتى عام ١٩٢٠ .

وقد عمل البشير في مجال الخطابة والتدريس والصحافة مع ابن باديس ، ثم تولى العمل بعده ١٩٤٠ ، فلما انتهت الحرب عاود إصدار « البصائر » التي عطلت من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٤ .

(١) البصائر - ١٩٦٨ العدد (٤١)

ومنذ بدأ يصدر جريدة البصائر في مرحلتها الثانية عام ١٩٤٧ دخل في مرحلة أخرى من الكفاح من أجل :

(١) مقاومة خصومة فرنسا للغة العربية والإسلام في الجزائر ، وقد وسعت آفاق عملها إلى مجال :-

(١) تحرير أجزاء المغرب العربي وتوحيدها

(ب) قضية فلسطين

(ج) الوحدة

وقد كتب البشير عشرات المقالات في مختلف الذكريات التاريخية للجزائر (٨ ماي) وقضايا ليبيا ، وعروبة الشمال الإفريقي ، وأبدى اهتماماً ضخماً بقضية فلسطين ، حيث كتب عشرات المقالات صور فيها المغرب والجزائر إزاء فاجعة فلسطين ، وكشف عن مشاعر الجزائر والمغرب إزاء المشرق والإسلام ومصر وأثر الأزهر في النهضة الإسلامية .

وكان مجال التعليم العربي وموقف الحكومة الفرنسية الجزائرية منه موضع دراسات طويلة وأبحاث مستفيضة ، وكذلك أمر فصل الدين عن الدولة كما تحدث طويلاً عن أعمال جمعية العلماء ، وتناول بالحديث عشرات من الأعلام في مقدمتهم عبد الحميد ابن باديس ، والزاھري ، والبيطار ، ومبارك الميلي ، والطاهر بن عاشور ، ومحمد بن يوسف ، والمودودي ، والفضيل الورتلاني .

وقد جعل شعار البصائر : (العروبة والإسلام) وقال : إنا نحارب نزعتين : نزعة الإلحاد والشعوية .

وقد اضطرت الظروف الكاتب إلى أن يكتب رمزاً لا يفهمه الرقباء الفرنسيون ، فكتب خواطر كثيرة أسماها « سجع الكهان » .

وأتبع أخيراً لافتتاحيات البصائر أن تصدر في مجلد أنيق باسم « عيون البصائر » تضم كتاباته في ٢٣٢ عدداً (١٩٤٧-١٩٥٣) ، طبعته دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٦٣ .

(١) توفي سنة ١٩٦٠

٥ - محبوب بن ميلاد

من مفكرى تونس الأعلام ، تخصصه في الفلسفة الإسلامية ، أبرز مؤلفاته كتاب

(تحريك السواكن) الذي صدر باسم الفكر الإسلامى بين الأمس واليوم عام ١٩٥٥ .
ومن أبرز كتاباته بحثه (تونس بين الشرق والغرب) نشره في مجلة الفكر سنة ١٩٥٥
يرى فيه أن تونس هي أداة الوصل بين الأقطار الشرقية وغربى البحر المتوسط والمغرب
العربى ولذلك كانت معبراً طبيعياً كثيراً ما عبره الغزاة الزاحفون شرقاً وغرباً .
وعنده أنه يمكن أن يؤلف كتاب رائع عن الحقيقة التونسية وعن كنوزها الدفينة ،
ويرى أن الحادث التاريخى الحاسم الذى طبع الشخصية التونسية بطابع لا يلبى على مر
الدهور هو الفتح الإسلامى ، ومن ثم أصبحت تونس أمة من الأمم العربية (لغة وأدباً
وفناً وإحساساً ومعتقداً ومبادئ وقيماً)

ويقول : إن تونس جزء لا يتجزأ من الإنسانية العربية الإسلامية ، ويرى أن
الهيكل الإسلامى تراكت عليه أكاداس مكدسة من الأوهام خلال عصور طويلة ،
فالتصقت بعناصره الجوهرية فأضحى البعض يظنها من الهيكل وليست منه .
وإن الأدباء الذين تنبهوا لذلك هم الذين احتكوا بالغرب والغربيين واطلعوا
على طرق تفكيرهم ومنهاج أبحاثهم ومذاهب فلسفاتهم .

وهو - على حد تعبيره - ليس من الذين يقولون بضرورة تقنيد الغرب في كل
ما يذهب إليه ، وكل ما يصنعه من عادات وتقاليد وأزياء ، وعنده أن البعث الشرقى
ليس يقع عن طريق التفكير ، وإنما يقع عن طريق يقاع الاجتهاد ورشد الابتكار
واقترار الخلق .

ويردد محبوب ميلاد هذه الدعوة في كتابه « تحريك السواكن » ويدعو إلى
تحرير العقول الإسلامية من جميع ما ورثناه من أوهام قاتلة تقضى علينا بأن نفتح منا
القلوب والعقول والهمم لكل ما فيه الحق وما فيه الخير ، وتطهر عقلياتنا من شوائب
عصور التقليد والانحطاط .

٦ - محمود المسعدى

من خريجي الصادقية ، والفرير الفرنسية ، اشتغل بالتعليم حتى ولى منصب ورير
المعارف . كتب في مختلف صحف تونس والمغرب ، وله قصة ذات صدى بعيد هي
هي قصة « السد » وغيرها من مؤلفاته : (المسافر) ، (حديث أبو هريرة) ، (مولد
النسيان) .

وعنده أن المذاهب الأدبية ليست إلا فروعاً لشجرة واحدة ، أو جداول لنهر واحد ، والشجر أو النهر هو « الإنسانية » أعنى مصير الإنسان وشأنه في الوجود .
وقد كشف في حديث له بمجلة الفكر (سبتمبر ١٩٥٧) عن آرائه في الثقافة التونسية كجزء من الثقافة المغربية والعربية والإسلامية .

يقول : إن تونس لا تزال منذ القرون تجهد أن يكون وفاؤها لستها الثقافية وقاء دينامياً حياً ، لسنة دينامية متجددة حية ، وأن يكون الذي ترثه عن الماضي في غير تنكر له أو إنكار نقطة انطلاق نحو جديد يكتشف يجهد جديد ويضاف إلى صالح الموروث وباقيه . وبهذا يفهم الشرق أن الثقافة التونسية والفكر التونسي استطاعا أن يتحملا نحو القرن من الغزو الأوربي والسطو الاستعماري ، وأن يخرجوا من ذلك بذاتية سالمة من مسخ التقليد الأجنبي ، والاصطباغ بمستعار الصبغة من ثقافته وتفكيره ، وسالمة في آن واحد من التجمد والتحجر في قديم الذاتية الموروثة اللذين كانت تدفع إليهما غريزة المحافظة على الوجود تجاه الاستعمار وأخطاره وهجوماته .

وعنده أن كل كلمة تقال بالشرق تسمع بالمغرب العربي ، وكل حديث يدوى صوته في المغرب ، وعلى العكس لا يكاد يصل إلى المشرق من المغرب صوت .

★ ★ ★

٧ - محمد المكي الناصري

يرز اسم هذا الكاتب الشاعر في خلال الدراسات المغربية ، وهو مؤلف كتاب « فرنسا وسياستها البربرية في المغرب الأقصى » وصاحب جريدة « الوحدة المغربية »

ولد عام ١٣٢٤ هـ ، تعلم في معاهد المغرب ، ثم سافر إلى مصر عام ١٣٤٦ هـ ودرس في الأزهر وله شعر يحبي فيه المجدد الديني أبا شعيب الدكالي :

فلتحى فينسا يا شعيب مجدداً	دين الإله وفيه جاهد واجهد
واغلظ على أهل البدائع جملة	واصبر على إيذائهم وتجلد
أست للإصلاح أساً ثابتاً	وفتحت منهم كل باب موصل
أظهرت للناس الحقيقة جهرة	لم تخش في دعواك قول مفند

وله كتاب « إظهار الحقيقة »

أما مجلته « الوحدة المغربية » التي صدرت عام ١٩٣٧ فقد كان هدفها : المغرب وطن واحد لا يتجزأ ، وهو من أوائل الكتاب الذين واجهوا سياسة فرنسا ، وقد أحدث كتابه « فرنسا وسياستها البربرية » ضجة كبرى في دوائر الاستعمار ،

وقد استهله بقوله : نشأت السياسة البربرية منذ اعتداء فرنسا على الجزائر (١٨٣٠) وهي ترمى إلى مقاومة الإسلام بصفة كونه قانوناً ، ومقاومته بصفة كونه عقيدة ، ومقاومته بصفة كونه حارساً للثقافة المغربية ، ومقاومته بصفة كونه دستوراً أساسياً للأمة المغربية ، كيف عقليتها تكييفاً خاصاً ، ونظم مجتمعتها تنظيمًا يحميها من القناء والاندماج ، قرر مستعمروها أن هذه البلاد لا يمكن الاطمئنان عليها إلا بعد إبادة الإسلام فيها بدعوى أن الإسلام دين يثبت في معتقبيه عاطفة المقاومة للأجانب ، ويحول دون اندماجهم في الملل الأخرى ، ... الخ

★ ★ ★

٨ - محمد النيفر

من كتاب تونس ، صاحب كتاب (عنوان الأريب عما نشأ في المملكة التونسية ن أديب) عرفه محمد بن الخوجة في مقدمة كتابه بأن جده الأعلى من الأندلس ، ولد سنة ١٢٧٦ هـ ودخل الزيتونة ١٢٩٠ . فأحرز شهادة التطويق فالتدريس من الرتبة الأولى ، ثم انتخبته الدولة للعضوية بلجنة إصلاح فهارس الكتب بجامعة الزيتونة وقد أقبل على صناعة التأليف منذ عهد الشباب ، وعرف بفصاحة الكتابة ، ومن مؤلفاته :

واسطة التاج (في عيون الحكم والوصايا) - اللآلئ النضيدة بتاج الياقوتة الفريدة .
تقويم المنطق الحضري بكشف اللسان المضري - جلاء العين بأخبار الوزير خير الدين .
ومن شعره قوله :

يا جامع الزيتونة السامي الذرا كم بث فيك جواهر الإسلام
كم قد أنار رحاب بيتك مرشدا لبيان ما يخفى على الأفهام

قال محمد بن الخوجة في التعريف به : وإنه لحسن ظنه بي أطلعني على أغلب مادونه ، لاسيما في الأدب والتاريخ ، فكانت تقمى تشرح لقراءة ما يحرره قلمه الفصيح من الأدبيات والحوادث والأخبار التونسية التي كان يتحرى في نقلها ،

ولا يأخذها من غير مصادرها الصحيحة ، وهذا شأن المؤرخين الثقات . وقال ابن
الخزرجة إن كتابه عنوان الأديب نصفه نظم ونصفه نثر ، وقد تضمن ما جادت به
قريحة الأدباء من هناء وورثاء الخ ...

كما وصفه بأنه لاقب الفكر ، صادق اللهجة ، فصيح اللسان ، بليغ البيان
ثابت الحنان ، ذو وقار وسكينة وتواضع على رفعة مكانته ..

٩ - الحسن السائح

هذا كاتب مغربي محقق ، قرأت له عشرات من الأبحاث ، وهو واحد ممن
كنت أتمنى أن أترجم لهم وأكتب عنهم بتوسع ، لولا ضيق نطاق البحث ، وقد
لفت نظري في خلال قراءة الطويلة في صحف المغرب وأبحاثه ، وبالتعمق ، وانتفعت
به في كثير من جوانب البحث .

وهو يرى أن الأدب المغربي له طابعه الخاص بالرغم من صلته بالأدب العربية
الأخرى وعنده أن الحركة الأدبية في المغرب العربي كانت أقوى من أية بلاد أفريقية
أخرى لأنه كان - أي المغرب - مركزاً لالتقاط الأشعة المتوهجة المنبعثة عن الشرق
والغرب ، كما كان مركز لإرسال إلى أفريقيا الجنوبية والأندلس العربية ، ويرى أن
سر تبلور الثقافة العربية في المغرب يرجع إلى وحدة الجنس والدم بين سكان المغرب ،
وشدة تمسك المغاربة بعروبتهم ، نتيجة البعد الجغرافي عن البلد .

ومن أهم أبحاثه في مجلة دعوة الحق فصل عن أصول الثقافة المغربية ، وابن بطوطة
ومن رأيه أن اللغة البربرية من العائلة اللغوية السامية كأختها العربية ، وهي من اللغات
السامية القديمة ، وتشابه مع العربية في كثير من المفردات ، وأصل الاشتقاق ،
ومخارج الحروف .

١٠ - عبد السلام الهراس

عرفت هذا الكاتب من كتاباته في مجلة « دعوة الحق » ، وأشهد أني أعجبت به
أشد الإعجاب ، وراعى الجانب الذي تخصص فيه وهو علاقة الإسلام بالحضارة ،
ميمماً نفس الخط الذي شقه في الفكر العربي الحديث أستاذه « مالك بن نبي » ، وهو
يكشف دائماً عن ذلك أخطأ الدور التغريبي الذي يهدد الثقافة المغربية حين يسيطر على

الوطن العربي بعد التحرر العسكرى أو السياسى : محاولة أن يخلق أجيالاً من المنسحبين من ماضيهم وتراثهم وقيمهم وشخصيتهم الأصلية .

يقول : « لا يهم الاستعمار أن تظل الأمة عاجزة عن التشبه ببلاده ، بل بالعكس يهمه أكثر أن تظل الأمة الواقعة تحت سيطرة كهان ثقافته ، حائرة تدور فى الفراغ قلقاً الخطأ سطحية التصاميم ، لأن فى ذلك فرصة له فى الاستمرار والقيادة ، ولهذا يلاحظ أن الأمم التى ماتزال تتعثر فى سيرها هى تلك التى ما تزال قيادتها تتبنى وتؤمن بتلك الثقافة المسمومة التى تشل الإرادة ، وتقيد الفكر وتجعل بعض قادة هذا النوع يهتمون أمتهم بالبلادة . ولهذا كان من شرط نجاح القيادة أن يتعمق فهم النفسية للأمة فهماً مستقلاً من كل تأثير أجنبى أو توجيه استعمارى ... »

وهو يحاول أن يكشف عن حقيقة هامة ، هى أن معركتنا مع الاستعمار لم تنته بالاستقلال ؛ ذلك لأن الاستعمار إنما يحارب الآن فى مجال الفكر والقيم والثقافة ، هادفاً إلى القضاء على الأجيال القادمة يقول : « أننا دافعنا دفاع الأبطال عن كياننا السياسى ، فلما كف الله أيدي الأعداء توهمنا أن المعركة انتهت ، وهى فى الواقع لا تزداد إلا حدة واشتداداً ، ونتيجة لذلك تركنا حصوننا التى كنا نعتمد عليها فى المعركة تتساقط فى أيدي الأعداء ؛ أى تركنا أجيالاً من شبابنا يضيعون فى غبار المعركة ..

وهو ينبه دائماً إلى الشخصيات الإسلامية التى تعمل تحت واجهة الاستعمار الخفى باعتبارها واجهة أخطر على المسلمين من واجهة الاستعمار الصريح ، ونتيجة لذلك تسرى أفكار غريبة عن الإسلام تزداد فى أجواء العالم الإسلامى ويكاد يصبح بعضها قاعدة عامة ، وهو يدعو إلى تصفية التراث الإسلامى من الدخيل والسموم المبتوثة فيه ويرى أن ذلك أجل عمل يجب أن يقوم به علماءنا .

١١ - محمد الحليوى

ولد محمد الحليوى سنة ١٩٠٧ من أسرة قروانية .

وهو من ألمع أدباء تونس ، عالج الشعر والنقد والترجمة وكتابة المقالة ، من أساتذته محمد البشير النيفر ، وهو صديق « أبو القاسم الشاذلى » ، يقول : « أن لقاء الشاذلى من أكبر ما أثر فى حياتى ، ولم أعد بعد ذلك أحس بالحاجة ، إلى لقاء شخص آخر ، كان كلانا يهيم بابن الرومى والمعري ، ويقدم العقاد والمازنى ، مال الشاذلى إلى أدباء المهجر ، وبقيت

أنا متشبتاً بالعقاد ، وهو من الذين اتصلوا بالأدب الشرقية ، وقرأ ما قرأ الجيل الذي نشأ فيه للزهاوى والرصافي والكاظمي وجبران وتعيمة والريحاني وأبي ماضي والمنفلوطي والرافعي وشوقي وحافظ .

وفي أدب الغرب قرأ الأدب الفرنسي ، وقرأ أغلب ما كتبه النقاد الفرنسيون عن زعماء الأدب الكلاسيكي والرومانتيكي يقول : وجدت حقاً ما يهزني من سعة أفق وعمق فكرة وشمول نظرة مما زهدني قليلاً في أساتذتي الشرقيين .

وكما أحب من كتاب فرنسا : أناطول فرانس ، انتصر للعقاد على الرافعي ، وكتب مقالا عنوانه « سفود من رصاص » نشره في جريدة الزمان ، وقال : إن العقاد اقتبس كثيراً من مقال في رده على الرافعي .

ومن رايه ان الفضل في النهضة عائد إلى الصحافة ، فقد كانت الساعد القوي للامة العربية في نشر المبادئ الحرة ، وأن الشعب التونسي نسج على منوال الشعب المصري ، وأن الصحافة مدرسة لها الفضل في تخريج جيل الربع الأول من القرن العشرين .

وقد تغلب عليه ميله إلى النقد ، ومضى يكتب في صحف تونس منذ ربع قرن ، كما كتب في أبولو والرسالة ، ومن مؤلفاته « نافذة على الغرب » و « دراسات عربية » ، « وفي الأدب التونسي » و « أحاديث للشباب » و « أحاديث للمعلمين » . وبعد كتاب « القيروان في التاريخ والأدب » ؟ .

ومن أبرز مؤلفاته : اتجاهات الأدب التونسي المعاصر ، وكنت أتمنى الانتفاع به .

— محمد الصباغ

ولعل محمد الصباغ من الأسماء الأولى التي قرأت لها في المغرب ، شاعر ناثر ، يكتب الشعر الحر والشعر المنثور ، ويتأثر بمدرسة المهجر وجبران ، ولكنه يتميز بطابعه الخاص ، نشر إنتاجه مترجماً إلى الأسبانية في جل المجلات الأدبية الأسبانية ودول أمريكا اللاتينية ، كما نشر في مختلف المجلات المغربية والشرقية ، أهم كتبه أنا والقمر ، شجرة النار ، والليث الجريح ، شلال الأسود . وآخر مؤلفاته عنقود ندى .

— الدكتور تقي الدين الهلالي

قرأنا له كثيراً في صحف الهند ومجلة الفتح خلال إقامته في المشرق حيث أمضى خمساً

وثلاثين سنة ، عاد إلى المغرب عام ١٩٥٧ وكان قد غادر المغرب إلى مصر سنة ١٩٢٢ في رحلة لطلب العلم ، وتوثقت صلته بالشيخ رشيد رضا واتصل بالأزهر وانتسب إلى مدرسة الإصلاح التي كانت تجرى على طريق السلفية وإنكار التقليد ، ثم دفعه طموحه للسفر إلى الهند ، حيث أراد أن يلتقي أعلام رجال الحديث .

وسافر الطالب الفقير حيث أمضى عاماً وبضعة أشهر في مجال الدراسات الإسلامية بالهند ، ثم بلغ البصرة حيث عمل مع الشيخ الشنقيطي في مدرسته بالبصرة ، ثم قصد إلى مكة مدرساً بالمسجد النبوي ، وعاد منه إلى الهند ، بدعوة من ندوة العلماء للتدريس في كليتها .

وقصد إلى سويسرا ١٩٣٦ ، وفي جامعة بون عمل مدرساً للغة العربية وتعلم اللغة الألمانية حتى ترجم من العربية إليها كتاب « البلدان » للفييه البغدادي وكتباً أخرى ، وأصبح مرجعاً للغة العربية في جامعة برلين حيث تقدم لنيل إجازة الدكتوراه برسالة عن ترجمة كتاب « الجماهير في الجواهر » لأبي الريحان البيروني .

ثم أتيح له أن يعود إلى تطوان فالعراق فعمل بدار المعلمين بها .

— محمد زنيبر

قرأت لهذا الباحث عدة مقالات وأبحاث عميقة المبنى أهمها بحثه نحو تجديد محتوى ثقافتنا القومية .

وقد تعرض في هذا البحث لمميزات الثقافة المغربية وقال : إنها تتمثل في عنصرين : أن الثقافة المغربية يطلب منها الاتجاه العملي أكثر من غيره ، وأنها ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالدين ، ولم تستطع أن تخرج عن الدائرة الدينية .

ويرى زنيبر أن المغرب كان مكلفاً دائماً برسالة تاريخية تتجاوز حدوده الجغرافية ، فقد كان مسئولاً عن الدفاع عن الإسلام وتمكينه في المنطقة التي يوجد فيها سواء من ناحية الشمال تجاه أسبانيا وأوروبا ، أم في ناحية الجنوب تجاه الصحراء وأفريقيا السوداء ، وكان عليه بالخصوص أن يدافع عن الدولة العربية في أسبانيا ، وأن المغرب كان دولة حرب وجهاد وأن مهمة الأدب والفن والثقافة ملقاة على عاتق الأندلس .

وهو من المؤمنين بالوحدة العربية ، ويرى أن التضامن بين الأقطار العربية دائم

ومستمر في كل أحداثه ، وأن عوامل الالتقاء موجودة ، يقول : « لسنا بإزاء شعوب مختلفة ، في أرومتها وعقليتها وثقافتها ولغتها بل إنه في الحقيقة شعب واحد من المغرب إلى المشرق ، يتكلم لغة واحدة ، وله عادات وتقاليد متشابهة ، يتكون من سلالتين أساسيتين : عربية وبربرية ، والتونسي يتنقل إلى المغرب فلا يشعر أنه غير وطنه ولا يجد نفسه غريباً ، وهناك مشخصات كثيرة متشابهة منها الموارد والثروة » .

ثالثا - الصحافة المغربية

١ - مهمة الصحافة المغربية

كانت الصحافة المغربية في الأقطار الأربعة عملاً هاماً وكبيراً وبعيد الأهمية في معركة المقاومة ضد الاحتلال والاستعمار والحماية والتفوذ الأجنبي في مختلف ميادينه . حتى يمكن القول بأنها هي التي حملت لواء الكفاح كله في كل مجالاته دون استثناء وأنها عملت في هذه الميادين :

- ميدان الثقافة : بدأت كل أعمال الثقافة عن طريق الصحافة ، حيث كان الكتاب العربي في المغرب - وإلى عهد قريب - ضعيفاً متعثراً ، لا يجد وسائل الطبع ، فإذا طبع تعذر نشره على نطاق واسع .
- ميدان الأدب : لم يكن للشعر والأدب مجال إلا الصحف ، وأغلب إنتاج أدباء المغرب وأعلامه نشر في الصحف ولا يزال في بطونها ، وعندما أراد العلامة عبد الله كنون كتابة أول دراسة للأدب المغربي نفّض ألفاً وخمسمائة قصاصة من صحيفة ومجلة .
- الحركات الإصلاحية والسلفية وجدت مجال الدعوة لها في الصحافة .
- الحركات الوطنية والكتابات السياسية وصلت إلى الشعب عن طريق الصحف وحدها .
- مقاومة الفرنسية الفكرية وكشف آراء الغربيين المغلوطة والرد عليها .
- أكبر حدثين في تاريخ المغرب هما : حركة التجنيس في تونس ، والظهير البربري في مراكش ، كانت الصحافة هي السلاح القوي الذي تصدى لمقاومتها .
- كل كتابات الحرية ، والوحدة المغربية والوحدة العربية وجدت طريقها عن طريق الصحف .
- البحث في مجال التاريخ والأدب ، وإحياء الذكريات القديمة ، الوقائع والأحداث ، وتاريخ الأعلام والأبطال ، تم كله عن طريق الصحافة المغربية .

• حماية اللغة العربية والدعوة لها وتطويرها وتنمية أسلوبها .

كانت الصحافة هي العامل الأول في تحقيقه .

• دعم الروابط بين أجزاء المغرب ، والصيحة من أجل كل حدث في القطر الآخر .

• دعم الروابط بين المغرب والمشرق ، وبين أجزاء الأمة العربية ، وبين المسلمين في جميع أنحاء العالم .

ولقد واجهت الصحافة في المغرب العربي مقاومة عنيفة من المستعمر ، لذلك قلما عاشت صحيفة أو مجلة وطنية طويلاً ، بعضها عاش شهوراً وبعضها عاش عاماً أو بعض عام ، ولقد جدد أصحاب هذه الصحف رسالتهم بصحف جديدة ، ولكنها كانت تلي نفس المصير ، كانت قوانين الصحافة عنيفة ومتعسفة ، ولذلك حرصت هذه الصحف على أن تتناول الأمور في حكمة ورفق ، ولم تكن تستطيع أن تهاجم الاستعمار بل يتداوره ، وإذا ذكرته أطلقت عليه كلمة ما : الأقوياء ، الأعداء ...

وإذا لم يمكن القول بأنها هاجمته في عنف وصرامة ، فلا أقل من القول بأنها دافعه بشدة ، وظلت تدفعه دون أن تتوقف ، في إصرار ، لم تهزمها الضربات ولا الثابتات ، وتوقفت وصدورت وسجن أصحابها وكتابتها ، وشردوا . ولكنها مع ذلك ظلت ثابتة تصدر عن خط واحد لا تتزعزع . كان هذا الخط هو حماية الشخصية العربية الإسلامية المغربية بكل ما يستطيع . حماية اللغة ، الإسلام ، التاريخ ، القيم ، المقومات .

فلم يكتب كاتب غربي كلمة إلا فُتدت ورد عليها ، لم يصدر قانون جائر إلا عورض ، لم يجر أمر دون أن تحفل به الصحافة .

ولم تنس الصحافة المغربية مهمتها الأساسية : حماية المقدسات والدفاع عنها . ومقاومة التغريب وتطوير الفكر والأدب واللغة على النحو الذي يمكن لها النمو والحياة والقوة .

لم تكن جامدة ولا رجعية ، كانت متحررة في كلمتها ، جريئة صريحة ، تدعو إلى الأخذ من حضارة الغرب دون أن تفقد قواعدها ، تنقل صوراً مختلفة من الفكر الغربي .

ولكنها لا تنسى عظمة أمجادها الأصلية ، وهي مع هذا تواجه ضيق مواردها ، ولا تجد معونات لها ، وتلقى ألواناً من المتاعب في مراجعة الدوائر المسئولة من ناحية ، وفي أعمال التوزيع من ناحية . ولقد حاول الاستعمار أن ينشئ صحافة ، وأن يجعلها ميداناً لدعوته التغريبية ، ولكن الصحافة الوطنية كانت أشد قوة وصدقاً ، لا تترك كلمة دون أن تكشف زيفها وتصحح هدفها .

ويمكن القول بأن الصحافة المغربية قد عملت في هذه الميادين :

- الرأي السياسي .
- الإحياء الأدبي والتاريخي .
- الاهتمام بأدب مصر والمشرق وأعلامها .
- نظرات إلى فرنسا والأدب الفرنسي .
- نظرات إلى العالم الغربي
- الاهتمام بأجزاء المغرب وأقطاره .
- تركيز الاهتمام إلى الجزائر وفلسطين .
- مجال نشر الشعر ، والدعوة إلى تطوير اللغة والتعليم وتحرير المرأة .

وفي مراجعة واسعة لصحف المغرب العربي نجد أن قضية الصحافة كانت من هم الموضوعات التي عالجتها صحف المغرب ؛ فقد واجهت الصحافة خلال فترة الاحتلال مقاومة وضغطاً شديدين ، كان الاستعمار يعرف مدى قوة « الكلمة » ، فكان يسمح بها من أجل تخفيف التوتر ، وإطلاق البخار ، ولكنه لا يدعها تصل إلى مداها من القوة ، وفي فترات قليلة كانت الصحافة تحس بأنها تستطيع أن تقول كلمة الحق ؛ ولكن ذلك لا يستمر طويلاً .

وقد كانت الحركة الوطنية قد عملت على إنشاء صحافة تعبر عن رأيها ، وتدافع عن حقوق الوطن ، غير أن ذلك لم يتيسر على الوجه الأكمل حيث ظلت الرقابة مصلته ، كانت الصحف خلالها تخرج بيضاء الأنهر ، وأصحابها وكتابها يقدمون للمحاكمة ، وتفرض عليهم الغرامات ويسجنون .

وقد واجهت تونس ثمانى سنوات كاملة لا تصدر بها صحف وطنية

(١٩١٢ - ١٩٢٠) تقول مجلة الفجر (أوت - أغسطس ١٩٢٠) : (مكثنا نحو ثمانى سنوات لا نذكرها اليوم إلا بالسوء واللعة ، وبالعالم نيف وأربعون ألف صحيفة ، لنا منها واحدة ، ولما تحصلنا على حق ظهور صحافتنا على مسرح الوجود رأينا أننا نحصلنا على شيء عظيم طالما تألمنا لفراقه ، وتطلعنا لإشراقه ، يجب علينا أن نخدمه بإقبالنا وأموالنا . لأن الصحف أفضل الوسائل المساعدة على حفظ اللغة ونشرها ، وخير ذريعة لتوثيق عرى الألفة بين الناطقين بالضاد ، والمترجم الصادق عن إحساس الأمة ورغائبها ، ولا نعد أنفسنا استمكننا تلك الوسيلة العظيمة حتى نستوفى لها هذين الشرطين : (١) حرينها أمام الإدارة العامة إلا فيما يؤاخذها عليه قانونها (العادل) (٢) وجود عدد منها بقدر حاجة البلاد يصدر يومياً على نمط الأهرام ووادي النيل والأخبار بمصر) .

★ ★ ★

وتعاود مجلة الفجر موضوع الصحافة (فيفري - فبراير ١٩٢١) فتنتظر إلى مصر وتقول : لولا الأمة المصرية لما تأيد المؤيد ولا سطع للمنتار نور ، ولا خفق للوطنية لواء . ولا أضاء لها مصباح (١) .

لقد أقام المصريون هيكل نهضتهم العلمية وتربيتهم القومية على أساس الصحافة الوطنية والمجلات . فكانوا في أول إنشائهم الصحف مقلدين لأوربا ، مقتصرين في الأكثر على نشر أخبارها وما حدث فيها من الاختراعات والاكتشافات . واستعانوا بمن نرح إليهم من جيرانهم السوريين على إحداث حركة فكرية عامة ، كانوا في أثنائها يخرجون التحارير بكيفية كشفت عن حذق في المحاكاة والمسيرة .. »

. وهنا مجال العبرة للتونسي ليتأمل يامعان كيف أمكن لصاحب « المؤيد » أن يبرز لميدان الصحافة وهو أعزل من كل سلاح .

وقد أصاب تونس ما أصاب غيرها ، وجرى عليها ما جرى ، حتى آل أمرها إلى الوقوع في أحضان فرنسا (خادمة العلم وناشرة المدنية) ولما أرادت النهوض وجدت أمامها عراقيل من السياسة وقيام نصراء القديم يناهضون دعاة الإصلاح ، فكان موقف المصلح بتونس من أخرج المواقف . . . »

(١) تقصد صحف : المؤيد والمنار واللواء ومصباح الشرق

وما تزال قضية الصحافة هي الشغل الشاغل للصحفيين ، حتى إن نور الدين محمود وهو (٢) من أبرز الصحفيين التونسيين - يقول في مجلة الأسبوع (٢١ جوان ١٩٥٤) : إن مهمة الصحافة الرئيسية تنحصر في توجيه الشعب التوجيه الحسن ، وإرشاده إلى مواقع الخطر ليتجنبها ، وتنبيه الحكومة لكل خطأ حتى تصونه ، غير أنها لا تقوم بمهمتها على أحسن وجه إلا في جو الحرية الكاملة ، والضمانات الكافية للقائمين عليها ، إن هناك أحوالاً وظروفاً تفرض على الصحافة الاحترار والتحرر ، على أن هاته الأحوال لا يجوز أن تكون الصحافة من أجلها في خطر ، فضلاً عن أن تكون دائماً تحت هذا الخطر ..

فإذا كتب الصحفي شيئاً ، وكان رائده المصلحة العامة يقوده حسن النية فلا ضير عليه ، وإن لم يرق ذلك للسلطة الحاكمة . ولطالما كتبت في الوضعية الشاذة التي تكتنف الصحافة العربية بهاته البلاد لا من حيث قانون الصحافة العربية ، ولا من حيث تسليط الأحكام الإدارية ، بل من حيث تعطيل الصحف بقرار وزاري .

فمنذ خمسة عشر عاماً والصحافة العربية بتونس تحت سيف هذا الأمر ، فضلاً عما هي فيه وضعية قانونية شاذة ... ،



وفي الجزائر كانت جريدة البصائر (بعد الحرب الكبرى الثانية) عملاً ضخماً بعيد المدى في الحفاظ على اللغة العربية ونشرها ، وخلق جيل من الكتاب الجزائريين يكتبون باللغة العربية على نحو لا يقل عن زملائهم في المشرق العربي وفي تونس ومراكش ..

وفي (٢٦ سبتمبر ١٩٤٩) وفي أول العام الثالث لإصدارها الثاني يصور الشيخ البشير الإبراهيمي رئيس التحرير كيف جاهدت البصائر : « قطعت عامين في جهاد للظلم مستمر ، وجلاد مع المبطلين مستمر ، بعد ما قطعت أحوال صباها على التمرس على الإقدام والارتياض على الاقتحام ، واجهت أحداثاً مثيرة ، في ميادين كثيرة ، فجال منها القلم جولات موفقة ، إن أخطأه النجاح لم يخطئه الإخلاص ، عالجت قضية الأحزاب ، وهي الفتنة التي مزقت الشمل ، وصدعت الوحدة ، وأفسدت ما صلح من ضمائر الأمة التي نفخ فيها الإسلام من روحه ، فحاربت الحق بالباطل ، ووقفت عرضة

(٢) له ملحق دراسة من ترجمة حياته .

للتعليم العربي الديني الذي هو الزاد الروحي لهذه الأمة ، فينت « البصائر » النهج القويم ، وفي قضية فلسطين ، ولفلسطين على كل مسلم حق ، وفي عتق كل عربي عهد ، قامت البصائر ببعض الواجب على مسلمي الجزائر ، وكتبت المقالات ، ونعت على العرب وملوكهم تواكلهم وتخاذلهم واغترارهم ، أمراء العرب الذين لم يأكلوا تراث العرب ، ولكن أضاعوه ، ولم يحفظوا مجد الإسلام بل باعوه ..

وظلت « البصائر » تقاوم ، وهي اللسان العربي الوحيد في الجزائر ، تحمل رسالة الحق ، وتلقى مزيداً من العنت والضيق المادي والمقاومة من المستعمر .

ويصور (البشير الإبراهيمي) هذا في أوائل العام الرابع (٨ يناير ١٩٥١) « لم تصب « البصائر » في جميع عهودها بأزمة مالية كالتى وقعت فيها في هذه السنة ، ولم تعان من الضيق المادي مثلما عانت في هذه السنة ، فكان ذلك بعض الأسباب في تأخر سستها إلى اليوم ، والسبب أن ليس للبصائر مال احتياطي ترجع إليه في الأزمات ، ولا مورد آخر كأجور الإعلانات ؛ إنما تعتمد البصائر على شيء واحد ، وهو قيمة الاشتراك وثمان البيع ، فإذا قصر هذا المورد في جهود مديرها الخاصة ما يضمن انتظام صدورها واستمراره .

وقد تعففت عن المطاعم المشبهة ، والموارد المكدره ، ولو أغضت قليلاً وترخصت لكانت أغنى جريدة في هذا الشمال ؛ فقد عرضت عليها مئات الآلاف ثمناً للإعلان عن شيء تسعه الإباحة ، ويضيق به المبدأ ، فأثرت المحافظة على المبدأ ، وعرض عليها مليونان في السنة ثمناً للإعلان عن سلعة تتجاوز بها جوانب منها المريب ، فأعرضت عنها ترفعاً ، وعرض عليها نصف مليون ثمناً لفتوى فرأت أن هذا الحال هو جزء من آلاف الأجزاء مما يؤخذ من الأمة الجزائرية بهذه الفتوى ، فأعرضت عنها ، وإن صغار النفوس من الفقهاء ليسيعون مثل هذه الفتوى ببضعة آلاف من الفرنكات .

وكانت « البصائر » في سستها الماضيتين تخرج كفافاً لا عليها ولا لها ، أو تخرج بقليل من الدين يسدد من دخل السنة الجديدة ، فلما ضربت الأزمة العالمية بأرواقها ظهر أثرها على البصائر في نصف السنة الماضية تتجلى الأسباب في النقص الملموس في البيع ، وفي ارتفاع أجور الطبع وسعر الورق .

وهكذا كانت الصحافة العربية في الجزائر تقاوم ، وفي جنوب الجزائر صدرت صحافة عربية لها دورها أيضاً في إيقاظ الوعي ، وحملت راية النهضة الإصلاحية والعلمية ، يقول الشيخ أبو اليقظان :

« اجتازت النور مرحلة السنة الأولى وهي محفوفة بالأخطار ، محاطة بالمعاطب والأهوال من شدة الأزمة المالية الآخذة بالحناق ، ومن تسمم الجو السياسي ، وضيق مجال الكاتب فيه ، وانقطاع منابع الثروة الشرقية الأدبية عنه ، وخطورة مركز الصحافة العربية ، وإعراض جل الأمة عن الصحافة ، وصدورها عن كل ما يتصرف فيها ، اجتازت هذه الأزمات كلها وهي ثابتة الجأش ، راسخة القدم ، مستقيمة المنهج ، متحدة الخطى ، جاعلة الصديق شعارها ، والحكمة والاعتدال مسلكها ، والنهوض بالأمة إلى الحياة الحققة رائدها . قاومت سموم التفرقة ، وجرائم الإباحة والشيوعية الهدامة ، ولكنها مرت عن لغو أخصامها من الكرام ... (١) »

والشيخ الأطفيش العالم الجزائري الذي أقام بالقاهرة منذ سنوات يصور في مجلته « المنهاج » كيف أن الصحافة في الجزائر : مغولة الأيدي ، مصفدة الأرجل ، قلما بدرت منها صراحة في شيء إلا ونالها الإرهاق والوعيد والتنكيل ، وهي في غضون حياتها هدف لسهام الإدارات .

« .. لم يكن للصحافة الحرة الصادقة نصيب من الحظ الحسن بشمال أفريقيا تحت لواء فرنسا .. هدف لا لإيقافها فقط ؛ بل لاضطهاد أصحابها ، واتخاذ كل وسيلة لإرهاقهم إن كانوا من الذين يريدون الخير لأمتهم .

فالجريدة إن لم تسبح بحمد الحكومة وتصور الخيال حقيقة وتعرض عما يرتكبه الظلمة من حيف وإرهاق للمسلمين بصنوف العذاب فإنها تقتل وهي في مهدى (٢) » .

وقد كان للصحافة العربية في المغرب دورها الكبير في إحياء اللغة وإعطائها المرونة والحيوية ، والتخلص من المحسنات البديعية . وعلى الرغم من الاضطهاد والمقاومة للصحافة المغربية فإن المغاربة لم يتوقفوا عن إصدار الصحف باللغة العربية ، بل إنهم في سبيل إبلاغ آرائهم الوطنية أصدروا الصحف باللغة الفرنسية ، وبها ألفوا الكتب أيضاً ، وصدرت في باريس عاصمة فرنسا جريدة « مغرب ١٩٣٣ » كما صدرت مجلة شباب الإسلام ، في الجزائر ١٩٤٩ أصدرها الأستاذ كيوان .

★ ★ ★

(١) ٢٧ سبتمبر ١٩٢٢ - جريدة النور

(٢) جمادى الأولى ١٢٤٤ - ١٩٢٥ - المنهاج (توفي الشيخ الأطفيش في نهاية عام ١٩٦٥)

ب الصحافة المغربية في الحركة الوطنية

« عاشت الصحافة الوطنية المغربية على المقاومة ، كانت الرقابة مسلطة عليها أغلب الوقت ، ومن عام ١٩٢٧ الى عام ١٩٥١ عاشت الصحافة في المغرب وفي الجزائر تحت قيود قاسية ، وعلى الرغم من احكام المصادرة والسجن والافلاق ، واصلت الصحف الصدور وقدمت الفسحايا ، وحفظت شرف الكلمة ، كانت تخرج احيانا بيضاء الانهر ، وسقط كتابها تحت المحاكمات ، ولكنها استطاعت ان ترد على كل ادعاء ، وترد كل عدوان »

لاشك أن الصحافة المغربية قامت بدور ضخم في معركة الحرية والمقاومة والتجمع للوحدة المغربية ، والوحدة العربية ، والأخوة الإسلامية .

يتمثل هذا في :

- ١ - افتتاحيات الصحف اليومية الكبرى في كل هذه الأقطار . .
- ٢ - مقالات في صحف تونس عن الجزائر وليبيا والمغرب ، وفي صحف الجزائر عن تونس والمغرب وليبيا ، وفي صحف المغرب عن الجزائر وتونس وليبيا .
- ٣ - صحف بالفرنسية في الوطن أو خارجه للكشف عن وجهة النظر الوطنية .
- ٤ - مقالات في الصحف العربية في المشرق من عشرات من كتاب المغرب بأقطاره الأربعة المقيمين أو المهاجرين ، وأغلب هذه المقالات مذيّل بتوقيعات رمزية خوف البطش .
- ٥ - صحف تصدر في المشرق تحمل لواء القضايا التحريرية ، في مصر مثلاً « المنهاج » لإبراهيم أطفيش ، « والهدى الإسلامي » للخضر حسين .

وكانت هناك المناسبات الكبرى للأحداث ، لا تمر دون أن تتلقاها الصحافة المغربية بالتذكير :

الظهير البربري (مراكش - ١٦ مايو ١٩٣٠) ، (الاحتلال الفرنسي لتونس - ٨ مايو ١٩٤٥) ، (معركة سطيف في الجزائر) .

محاولة التجنيس (تونس) ، المؤتمر « الأفخارستي » التبشيري .
وفي معركة سطيف التي قتل فيها ٣٥ ألف جزائري نجد هذه النماذج :

١ - « فاجعة ماي (مايو) ١٩٥٤ في الجزائر » .

« خرجوا يوم الاحتفال بالهدنة بطوفون بالشوارع ، ويحملون علم الجزائر الذي يمثل راية الأمير عبد القادر .

« هاجموا وأسقطوا العلم ونشبت معارك ، وقاتل الأولون بالعصى والحجارة ، مائة قتيل فرنسي ، وعشرات آلاف من القتلى الجزائريين ، سجن مالا يقل عن ٢٠٠ ألف سجين .

« مؤامرة مدبرة سلاح فيها الفرنسيون لقتل الشعب الجزائري » .

٢ - يوم ٨ مايو ١٩٤٥ . في الجزائر خرجت جموع الفتيان والفتيات متظاهرين في المدن والقرى ينشدون أغاني الحرية ، لم تمض ساعات قلائل ، حتى تبدلت الحال من مظاهرات سلمية إلى معارك دامية دارت رحاها في نواح كثيرة من القطر الجزائري ، راح ضحيتها أكثر من ٣٥ ألف قتيل .

٣ - ذكرى ٨ ماي (٨ مايو) .

« يا يوم لك في نفوسنا السمة التي لا تمحى ، والذكرى التي لا تنسى » .

إن إحدى وأربعين قرية دكت ، بالطائرات والوحدات البحرية ، لم يبق فيها ديار وحيوان وأن معدل سكان القرية الواحدة ألف نسمة ..

وفي « مأساة الجلاز » تعددت كتابات الذكرى (والجلاز مقبرة تقع بالجنوب الشرقي من العاصمة تونس بعدها السكان حرماً ، وهي من أملاك الأوقاف لا تباع ولا تشرى لهذا اعتبر السكان تحويلها إلى أملاك الحكومة المقتضية عملاً غير مشروع) .

وفي ٧ نوفمبر ١٩١١ تجمهر الفرنسيون بضواحي مقبرة الجلاز وبرغم تدخلات

شيخ المدينة لم يتفرقوا ، قامت معركة دامية بين الأهالي والفرنسيين ، وحكم بالإعدام على ١٢ شخصاً .

وفي ذكرى (١٦ ماي - مايو) بمناسبة صدور الظهير البربري في مراكش تظهر الصحف مجللة بالسواد ، يحيط بها من كل ناحية ، ويكتب هكذا :

« ذكرى ظهور السياسة البربرية الفاشمة في بلادنا ، أيدتها مساعي الكهنة الكاثوليكية . واستغلوا ممثلي عهد الحروب الصليبية .

وفي ١٢ ماي ١٩٥٤ صدرت جريدة الصباح في تونس (بعنوان) كبير :

« اليوم ذكرى انتصاب الحماية الفرنسية على البلاد التونسية ١٨٨١ »

وكان للصحافة مواقف حاسمة في عشرات من معارك المقاومة والتحرير ، على الرغم من كل القيود التي فرضت عليها ، حتى يمكن أن يقال : إن الصحافة هي الشطر الأكبر من الحركة الوطنية في العالم العربي كله ، وفي المغرب وفي أكبر قضايا المغرب العربي كانت الصحافة ذات دور فعال ، وحقت النصر للقوى الشعبية والهزيمة للاحتلال ، ولا ينسى في هذا دور الصحافة التونسية من معركة التجنيس ١٩٢٤ ، وعشرات المقالات التي كتبها صحف « الوزير » « ومرشد الأمة » « والنديم » « والفجر » (جمعها الفلاح الجيلاني في كتاب : الشعب التونسي والتجنيس) .

والمعروف أن كل صحيفة كانت تمثل حزباً أو هيئة ، وقلما كانت الصحف غير متمية ، ولم يكن ذلك ميسوراً ، لأن الصحافة المجاهدة لا تكسب ، وليست أعمالاً تجارية تدر الربح ؛ ولذا لم يكن بد من وجود قوى وراءها .

وهذه الأحزاب كانت في الأغلب مناهضة للاستعمار وموالية للسلطان أو الباي أو الداي . ثم ظهرت صحف معتدلة تحاول أن تقابل المحتل في منتصف الطريق ، وتأخذ منه ما يعطيه ، كما أن الاستعمار نفسه أنشأ صحفاً تتحدث باسمه .

مثلاً في عام ١٩٠٢ كان في تونس صحيفتان عرييتان : « الرائد التونسي » و « الحاضرة » ، بينما كان هناك ١٥ صحيفة فرنسية وصحيفة إنجليزية وصحيفة إيطالية .

وفي الجزائر أصدر الفرنسيون (المرشد الجزائري) عام ١٨٣٢ ، وتوالى في الصدور صحف فرنسية غير رسمية ، تسبح بحمد فرنسا ، كما أصدرت فرنسا في الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية صحفاً عربية : كالحقائق ، وبلادى .

أما في المغرب فقد أصدر الاحتلال الفرنسي صحيفة عمرت طويلاً ، وعاشت سنوات احتلاله تحت أسماء مختلفة ، وهي جريدة السعادة (أكملت ٤٤ سنة في ٢٦ نوفمبر ١٩٤٦) وقد عنيت هذه الصحيفة في تاريخها الطويل بأن تنقل وجهة نظر فرنسا ، وأن تحيي مشروعاتها وأفكارها ، وأن تدافع عن عملها في مجال الربط بين فرنسا والمغرب . وقد وجهت اهتمامها للثقافة الفرنسية وعملائها في العالم العربي تنقل آثارهم من الصحف المصرية وغيرها .

تقول تحت عنوان « مستقبل الثقافة الفرنسية » :

« وها هم أصدقاؤها (أصدقاء فرنسا) الذين عرفوها حارسة الحضارة وحاملة مشعل الفكر ، وباذرة بذور العلم والمعرفة ، وأعجبوا بها ناثرة ومحركة للشعوب ، يرقبون بعثها متلهفين ، ولا يكتفون ابتهاجهم بكل خطوة تخطوها . ولا ننسى أن اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية انتشرت في وقت ما انتشاراً تعذر الحد منه ، وقد تنبه الإنجليز منذ عشرين سنة إلى أهمية الدور الذي تمثله الثقافة واللغة في التقريب بين الأمم ، فشطوا للعمل ، وأنشأوا في معظم بلدان الشرق الأوسط معاهد بريطانية ، واستخدموا في اجتذاب طلاب المعرفة شتى طرق الترغيب والتشويق .. »

ومن بين عناوينها الكبرى

كيف أنقذت الحماية الفرنسية من المسبغة والمجاعات ، الشمال الأفريقي .

وهي تفخر بأن « أعظم كاتب في الأقطار الإسلامية في الوقت الحاضر (طه حسين) له أسلوب متساق ، على غرار مارسيل بروست الفرنسي ، وأصبح يتمتع في الشرق بمثل ما كان يتمتع به رينان في الغرب .

وفي مقال « الثقافة الفرنسية وأثرها في الأدب العربي الحديث (لعميل عربي متفرنس) يقول : إن فرنسا الأدبية حية في كل مكان يستبق فيه روح إنساني ، كما نشرت وأبرزت محاضرات لطه حسين ألقاها في باريس ومصر يشيد فيها بفرنسا .

ومحمود عزمي تولى صحافة المغرب الاهتمام بزيارته (١٩٤٦) تقول : إنه حل بعاصمة المغرب (الرباط) ليشارك حقيقة ما كان يقرؤه في الكتب من أن المارشال (ليوطي) بذل جهوداً كبرى في تنسيق عاصمة المغرب وجعلها مدينة عصرية جميلة ، ومقالات هامة عن المغرب حين يحتفل بذكرى مرور ثلاثة عشر عاماً على وفاة المارشال ليوطي (٢٤ يوليو ١٩٤٧) حبيب المغرب والمغاربة .

كما تعنى بجهود المطبعة الوطنية في باريس في طبع الكتب العربية ، ... الخ ولهذا الصحيفة شبيه في الجزائر وليبيا وتونس ..

ولم يكن لهذا كله في نفوس المغاربة إلا الأثر العكسي ، ورد الفعل في التمسك بالقيم والتاريخ والأجناد العربية الإسلامية .

وفي (الجزائر) حيث كان التضييق الاستعماري على أشده . صدرت صحف عربية ساعدت على انتشار العربية مساعدة عظيمة ، وجعلت اللغة الفصحى تتوغل وتنتشر في مختلف الأوساط ، وترقى اللغة الدارجة التي هي لغة عربية محرفة بعض التحريف ، وفي مقدمة هذا صحف جمعية العلماء التي حررها عبد الحميد ابن باديس :

المتقد ، والشهاب ، والبصائر ، والإصلاح

وقد كتب فيها : البشير الإبراهيمي ، والطيب العقبي ، وأحمد توفيق المدني ، والعربي التبسي ، وهم أعلام النهضة إذ ذاك ، وفي جنوب الجزائر أصدر الشيخ أبو اليقظان إبراهيم (١) صحف وادي ميزاب وميزاب ..

وقد حملت لواء الدعوة إلى الإصلاح والنهضة باللغة العربية .

وكان لهذه الصحف دورها في رفع مستوى اللغة وتقريبها من لغة المشرق . ودفع عادية العامية والحروف اللاتينية والفرنسية وغيرها . يقول إحسان حتى : من يطالع جرائد تونس والجزائر والمغرب لا يكاد يرى فرقا بينها وبين جرائد مصر وسوريا ، ويرجع ذلك إلى طليعة الشبان الذين درسوا في البلاد العربية ، وقد حافظ الشمال الإفريقي على اللغة العربية ، سليمة غير مشوهة ، وهو البلد العربي الوحيد الذي يلفظ العربية لفظا صحيحا ويحافظ على مخارج حروفها .

ويقول زين العابدين السنوسي . إن جريدة الرائد التونسي التي أصدرها والده في تونس هي أول جريدة ظهرت في المغرب العربي كانت تسعى لتوجيه الأمة نحو النهضة الحديثة والتطور السياسي .

وقد عنت صحافة المغرب بالدفاع عن قضايا :

(١) في جنوب الجزائر برزت نهضة اصلاحية وثقافية : اقرأ فصل ابراهيم بيوض .

اللغة العربية ، التعليم العربى ، الإسلام ، الوحدة المغربية ، الحرية والاستقلال ... وكانت المقالات السياسية والوطنية هى الأغلب الأعم ، حتى يقول روم لاندو : إن المقالات اليومية والنضال الوطنى استهلك الكتاب فى هذه الفترة قبل ١٩٥٥ ، ولما كان النقد الصريح لعدوهم يطوح بهم فى السجون فقد لجئوا إلى الهجاء والنقد المبطن ، أخفوا ما فيه من لذعات وراء ابتكارات أسلوبية ، وحدثنا الشيخ البشير الإبراهيمى عن (سجع الكهان) الذى كانت تنشره « البصائر » وهو فن الأدب الرمزى ، يقول فيه الكاتب ما يريد دون أن يقع تحت طائلة عقوبات قوانين الصحافة .

ولم تخل الكتابة برغم هذا من صيحات جريئة ، وكتابات تهز وتثير الاستعمار الفرنسى ، حتى إن « السيد بن رجال » التونسى وهو صاحب قلم فرنسى كتب مقالاً فى المجلة الآسيوية عام ١٩٠٥ عن مستقبل الإسلام فى أفريقيا الشمالية فقال : « إن الإسلام سينبعث من تحت أفواه مدافع المسيحية » .. واهتز الفرنسيون لذلك بعدما وجدوه منشوراً بلغتهم ..

ومن أبرز الصحف العربية الفرنسية : المستقبل التونسى . وسيل الرشاد . التى كان يحررها الثعالبى باللغة العربية ويكتب مقالاتها النارية ثم تترجم إلى الفرنسية ولا ننسى جريدة « الإسلامى الأسد » التى كان يحررها سليمان باشا بعد أن ترك طرابلس مهاجراً (أبريل ١٩٠٨) ، وكانت تصل مرأى إلى طرابلس وبرقة وتونس والمغرب كله . تحمل صيحاته النارية .

وفى عشرات من صحف مصر كتب الحبيب بورقيبة . وعلال الفاسى ، والفضيل الورتلانى وعبد العزيز الثعالبى .

وأمامى كلمة لصديقنا الأستاذ محمد الحاج ناصر الجزائرى رئيس تحرير مجلة المعرفة الجزائرية اليوم فى (مقتطف نوفمبر ١٩٤٧) عن الثقافة العربية فى الجزائر ، يستصرخ العرب لمحاولة فرنسا تخليص الجزائريين من عروبتهنم والانتقطاع عن وطنهم ، والاندماج الروحى فى العائلة الفرنسية الكبرى ، ضماناً للاندماج السياسى ، وإبادة القومية الجزائرية من أسسها الأولى ، بمحاربة الثقافة العربية فى الجزائر .

والحق أن الكتاب فى المغرب العربى قاوموا بعنف ، واستشهدوا فى سبيل كلمة الحق وسجنوا وشردوا .

وكانوا يعلمون أن القانون الفرنسي المطبق في بلادهم يتفرد من بين قوانين العالم بحق مواخضة الكاتب على (نيته) التي يفرضها الحاكم عليه وعلى ما يعتبره الحاكم أنه سينشأ من أثر من كتابته ولو لم ينشأ بالفعل . ومع ذلك لم يتوقفوا عن المقاومة ، ولم يمنعهم هذا من العمل بقوة .

من أعلام الصحافة المغربية

١ - عبد الكريم غلاب

« موقعنا الجغرافي يجعلنا أقرب نقطة في أفريقيا إلى أوروبا وأمريكا ، وقريبين إلى قلب أفريقيا . فباب المغرب مفتوح على تيارات حضارية مختلفة وهي تيارات قوية سالبة وموجبة ودافقة وقابلة ، ونحن بموقعنا الجغرافي نحرس المدخل الغربي لحوض البحر الأبيض المتوسط الجنوبي . وعلى ضفاف هذا الحوض انبعثت حضارات وانتشرت حضارات : حضارة مصر واليونان والفنيقيين والرومان والعرب . وحضارة الأمم اللاتينية بعد ذلك ، وازدهرت على ضفاف هذا الحوض الحضارة الحديثة .

أخذ العرب عن اليونان والرومان علومهم وحضارتهم واختراعاتهم وما أخذوه عن الفرس إلى شواطئ الحوض الشمالية ، هذا الحوض الذي نحرس مدخله الغربي . وإذا كنا قد ناهضنا كل اتصال يكتسى صبغة استعمارية فإن نفوسنا كانت دائماً متفتحة لكل عمل حضارى . فتقبلنا ونقلنا وساهمنا في نشر الحضارة بمعناها الأوسع . ودافعنا عنها ، وحمينا حضارتنا بعد ذلك من كل عادية ، ومن كل اتجاه نحو التحطم ..

وكان موقعنا الحضارى أيضا يؤثر في انتقال الحضارة العربية بدينها ولغتها وأدبها وما اكتسبته من حضارات الأمم التي فتحناها . فقد كان المغرب متهمى الشوط لانسياح العرب نحو الغرب برأ ، ولكن همة البربر والعرب جعلت من المغرب محطة استقبال وإرسال . وجعلت منه مركزاً لنقل الحضارة العربية نحو الأندلس ، وحماية هذه الحضارة من فكرة الاسترجاع الصليبية ، التي ظلت تراود الإسبانيين زهاء ثمانية قرون . حتى حققتها إيزابيلا الملكة التي دخلت ملكوت المسيحيين بما قامت به من حملة منكرة متلفة على حضارة العرب ودينهم وعلومهم وآدابهم وفنونهم ، بل على الإنسان العربي المسلم ، وعلى الفكر العربي المسلم . ودور المغرب في تحمل حماية الفردوس المفقود أربعة قرون أو تزيد سجله التاريخ .

ثم قامت محطة الاستقبال هذه بإرسال شعاع الحضارة العربية الإسلامية نحو الصحراء

وما وراء الصحراء من بلاد السودان ، وتوغل المغرب في قلب إفريقيا ناشراً العلم والمعرفة والحضارة والدين ، وكان له دور مهم ولم تعقه متاهات الصحراء والأدغال والغابات عن أن يؤدي رسالته الحضارية .

تقبلنا من حضارة الرومان كل ما لا يدخل في باب الاستعمار ، وتقبلنا علوم اليونان عن طريق العرب ، وتقبلنا حضارة العرب ودينهم ولغتهم وأدبهم . وأسهمنا في كل وسائل الحضارة هذه بما توحىه عبقرية المغرب ، ثم رحلنا بحضارتنا هذه مجتازين مضيق الخوض إلى الأندلس وجنوب فرنسا ، وحمينا هذه الحضارة ما يقرب من ثمانية قرون ، مؤثرين ومتأثرين ، ودعّمنا أسس هذه الحضارة في المغرب العربي في الجزائر وتونس ، وحتى ليبيا نفسها ، وانتقلنا بحضارتنا وديننا ولغتنا إلى الجنوب ؛ إلى السنغال والسودان ، وإذا كانت هذه الهجرات الحضارية فقد اكتست في بعض الأحيان صبغة فتح ، ولا أقول استعمار ، وتمت في بعض الأحيان عن طريق حرب أو توسع حكم ، فلنما ذلك اتباعاً لسنة لم يعرف العالم غيرها حتى اليوم ، وما ندافع عن الملوك الذين كان الفتح في نيتهم كوسيلة لتدعيم أسس حضارة معينة ، بقدر ما ندافع عن الشعب الذي نشر الحضارة مفيداً ومستفيداً ..

ومن ثم كان المغرب يحافظ على أنه أمة مسلمة لأن حضارة الإسلام بما فيها العقيدة والخلق والفكر الاجتماعي سبّرت تاريخه ، وكونت وحدته منذ أزيد من ثلاثة عشر قرناً ، وفهم الإسلام في المغرب كان فهماً سليماً لم تغلب عليه خرافات المضللين والجاهلين بأصول الإسلام ، ولذلك لا خوف على المغرب من أن تمسه تيارات إلحادية أو لا إسلامية .

وكان المغرب يحافظ على عروبه . لأن العروبة هي التي طبعت بطابعها منذ دخل العرب هذه البلاد معلمين ومتقنين ومكافحين مع البربر في سبيل العقيدة وتركيز الحضارة العربية .. »

هكذا يكتب عبد الكريم غلاب أكبر صحفي المغرب ، ورئيس تحرير جريدة « العلم » ، أقدم الصحف الوطنية في (الرباط) ، ومنشئ عشرات من الدراسات والأبحاث في مجلات : « رسالة المغرب » ، والبنية ، وأفاق ، وعديد من المؤلفات .

وهذا الطابع المغربي العربي الإسلامي في تفكير عبد الكريم غلاب رمز على

المدرسة الوسطى التي بدأت حياتها في مجال السلفية والدعوة الوطنية والحركة الاستقلالية وحولتها إلى عقيدة ومذهب وبرنامج .

يقول : توزعني العمل السياسي والصحفي والثقافي ، وما أنا بمستطيع الخلوص لأحدها . وفي كل منها جاذبية فكرية وعاطفية وعقلية . ولذلك لم أستطع أن أنصرف عنها جميعاً إلى العمل الدبلوماسي الذي اختارني يوماً ما حينما كنت وزيراً مفوضاً في وزارة الشؤون الخارجية . فقدمت استقالي منجذباً بجاذبية الفكر والقلب والعاطفة . ثم عرض على منصب سفير عدة مرات فرفضت مؤثراً ما أنا فيه .

وقد عرفت السجن كما عرفه معظم الذين انغمروا في حياة الانكفاح ، وربما عرفته مرة أخرى ، فما يزال بي شوق إلى عالم ما خلف البوابات السبع .

هكذا كان يكتب عبد الكريم غلاب قبل الاستقلال ، وهو يواصل الآن رسالته ، فقد تخرج في كلية الآداب في القاهرة ١٩٤٥ وعمل في التدريس ثم في الصحافة محرراً في جريدة « العالم » اليومية ، رئيساً لتحريرها ومديراً لها . كما حرر مجلة رسالة المغرب . ونشر عديداً من المقالات الأدبية والسياسية في الصحف المصرية (الأهرام الرسالة - الثقافة) وعدداً من القصص والأبحاث الأدبية والثقافية في معظم المجلات التي صدرت بالمغرب منذ ١٩٣٦ .

أبرز مؤلفاته « نبضات فكر » ١٩٦١ يضم مجموعة خواطر يومية تتسم بالعمق والبساطة والتفتح :

« كنت وما زال أعتبر التفكير للإنسانية بمثابة انقلب للإنسان ، والقلب ينبض فتدب الحياة في عروق الإنسان ، وتتفعل الأعصاب ، وتتجسم الإرادة ، وينطلق التفكير هادياً مهتدياً ، ويعيش الإنسان فاعلاً . منفعلاً ، تمده بالحياة نبضات قلب انزوى في تواضع عند ركن منزل من جسم طافح بالحياة .. »

وعنده أن القلم ليس ريشة وإنما هو فكر : يغذى القلوب ، ويلهب العواطف ، وينمي الإحساس ، ويهذب التذات وانه من وحى السماء « هذا هو القلم ، آليت أن أضعه في طوق موضع القلب ، فهو له جار حينما أحمله »

ولقد حمل عبد الكريم غلاب - كما حمل كتاب المغرب - مسئولية كبرى بعد الاستقلال ، هي مسئولية بناء الوطن وبناء الفكر ، ولذلك تعددت

دراساتهم التي ضمنها كاتبنا مؤلفاته في الإصلاح الفردي ، هذا هو الدستور ،
الاستقلالية .

ومن مؤلفاته التي أعدها للنشر : « سبعة أبواب » وهي ذكريات حياته خلف
قضبان السجن ، فيها تحليل صادق للحياة خلف الأبواب السبعة ، وتحليل نماذج بشرية
متناقضة يضمها عالم السجن .

وله قصتان كبيرتان : مات قرير العين : ودفنا الماضي .
وللأستاذ غلاب فضل في تكوين مادة هذا الكتاب فقد كان معيناً لصاحبه في كل
مادة احتاج فيها الى عون .

٢ - عبد الحميد بن جلون

« أصبح جديراً بنا بعد هذه المرحلة الخطيرة التي قطعناها في طريق الاستقلال
كما نفهمه نحن - وكما نفهمه نحن وحدنا - أن نجدد أنفسنا وتفكيرنا وأساليبنا على
نحو يتلاءم مع فداحة الأمانة التي لا مناص من أن تلقى على كواهلنا حتى نستطيع أن
نبدأ المرحلة الدقيقة المقصودة من كفاحنا المرير خلال ربع قرن مضى ، مرحلة إعادة
بناء بلادنا بوحي من مصالحنا الحقيقية قبل كل مصلحة أخرى ، بعد أن قضت هذه
البلاد فترة طويلة وهي تبني بوحي من مصلحة أجنبية كانت تتناقض في كثير من
الأحيان مع مصالحنا الجوهرية وإنه ليجدر بنا ونحن أمام مفترق الطرق أن نتبين المعالم
الشاقة التي اجتازناها .

وإذا كان هناك أحد في هذه الأمة يظن أن المرحلة التي حلت أو سوف تحل حتماً
مرحلة جنى الثمار والخروج من حياة الكفاح ضد الاستعمار إلى رغد الاستقلال فهو
واهم . إن تحطيم عهد مضى على فداحته عمل شاق ومرير ، ولكن بناء عهد جديد عمل
أشق وأكبر . وشتان بين الأدوات التي توضع في أيدي المكافحين لتقويض صروح
الظلم والاستعباد ، وبين الأدوات التي توضع في أيدي المصلحين لبناء أمة جديدة
تعوالت إلى أنقاض

لا يكفي مطلقاً أن نحصل على استقلالنا لأجل أن نتصور أن كل شيء قد انتهى ،
فقد تعلمنا كيف نسرّد هذا الاستقلال . وبقي شيء ضخم آن لنا أن نتعلمه ، وهو

كيف نمارس استقلالنا ، ولا يكفي أن نسترد حقوقنا ثم نلقى بها في سلة المهملات ، إن هذا العدد الكبير من الشهداء الذين فتحوا صدورهم لخصائص الاستعمار الغادرة لم يضحوا بحياتهم لأجل أن نستمر نحن نعيش نفس الحياة التي كنا نحياها في عهد الحماية الذاهب ، لقد سقطوا لأجل أن ترتفع نحن ، وسالت دماؤهم في سبيل أن نحيا حياة جديدة كريمة لا تمت بصلة إلى حياتنا الماضية هذه ، الحافلة بالوان الذل والهوان ، إن الاستقلال ليس غاية ، ولكنه وسيلة لتحقيق حياة كريمة عادلة متكافئة تسمو بسمونا السياسي والثقافي والاجتماعي .

إذن فتحقيق الاستقلال شيء وممارسة الاستقلال شيء آخر ، إن الاستقلال يرفع عنا ظلم الأجنبي ، أما ممارسة الاستقلال فترفع عنا ظلمنا لأنفسنا .. »

ليس عبد المجيد بن جلون كاتباً سياسياً وصحفيّاً رأس تحرير « العلم » زمناً فحسب ، ولكنه كاتب وقصاص وشاعر : كتب طويلاً في صحف القاهرة ومجلاّتها ، وله في مجلة الثقافة المصرية عام ١٩٤٥ عديد من الدراسات والقصص . فقد كان أحد الأقلام المكافحة عن الوطن من خارجه ، وعبد المجيد بن جلون وعبد الكريم غلاب . إنما تعلما في المشرق . وهذا هو سر روحهما المغربية العربية الإسلامية الواضحة . وله مؤلفات : « هذه مراکش » . « مارس استقلالك » . « وادي الدماء » .

وأبرز مؤلفاته التي اشتهر بها قصة حياته « في انطفولة » وكان قد نشرها منجمة في مجلة رسالة المغرب ١٩٤٩ قبل طبعها في سفر واحد : وهي صورة حياته في إنجلترا والمغرب ومصر .

وله شعر كثير منشور في الصحف ، وديوان أنيق « براعم » وهو من شعراء المغرب المجيدين ، ولد في الدار البيضاء ١٩١٩ ، وقضى طفولته في إنجلترا حيث كان والده ممثلاً لبلاده بها ، ثم عاد إلى المغرب ، ورحل إلى مصر ، وأحرز ليسانس الآداب من جامعة القاهرة سنة ١٩٤٣ ، ودبلوم الصحافة ١٩٤٥ وشارك في تأسيس مكتب المغرب العربي بالقاهرة ١٩٤٧ ، فكان سكرتيره حتى عام ١٩٥٦ . وهي عنده أنخصب فترات حياته من حيث الإنتاج ، وقد عاد إلى وطنه ١٩٥٦ بعد استقلال المغرب ، وتولى رئاسة تحرير « العلم » لسان حال حزب الاستقلال ، ثم تركها إلى وزارة الخارجية ١٩٥٨ وزيراً مفوضاً لبلاده ، فمسيراً في دولة الباكستان .

وهو حنى باللغة العربية : يقول : علينا أن نستحضر المعانى التى فريد التعبير عنها باللغة الفرنسية ، ثم نصبها بنفس الأسلوب فى اللغة العربية صلباً .

٣- أبو اليقظان إبراهيم : صحافة جنوب الجزائر

يمثل أبو اليقظان إبراهيم النهضة الصحفية فى جنوب الجزائر (القرارة) ونحن نترجم له عن ترجمته لنفسه . ، وهذه الترجمة تتيح رسم صورة للعصر وأسلوب الكتابة وطابع الفكر جميعاً .

ولد فى يوم الاثنين ٢٩ من صفر سنة ١٣٠٦ موافقة ٥ من نوفمبر سنة ١٨٨٨ م ومات أبوه وهو ابن عام وثلاثة أشهر وكان مولده فى بلد القرارة من قرى ميزاب ، وهى واحة منعزلة جديدة أنشئت فى عام ١١٤٠ تبعد عن غارداية بـ ١٠٢ كم شرقاً . وبعد أن تعلم القراءة والكتابة على بعض معلمى الصبيان فى الحضرة وهى الكتاب فى عرفنا ، وبعد أن حفظ القرآن الكريم عرضه عن ظهر قلب عام ١٣٢٣ هـ وعمره إذ ذاك ١٧ ربيعاً .

إثر عرضه القرآن ودخوله دار التلاميذ ، وهى مرتبة لا تخول عندنا إلا لمن حفظ القرآن كله . وعرضه على إمام المسجد . إثر هذا أخذ فى تعلم الفنون من نحو وصرف وفقه وتوحيد وأخلاق عن نور القلب : الشيخ عمر بن يحيى فى القرارة إلى عام ١٣٢٥ هـ ، وفى العام نفسه فى شهر شوال انتقل بإذن شيخه إلى « بنى يزقن » ، لاستزادة تعلمه من قطب الأئمة الشيخ الحاج محمد بن يوسف أطفيش ، وهو فى مدينة العلم والمعرفة (١) إلى حوالى ١٣٣٠ هـ ، وفى أثناء ذلك فى عام ١٣٢٨ هـ قصد بيت الله الحرام ومر بالقاهرة فى أواخر شعبان من العام نفسه وليث فى مكة المكرمة مجاوراً إلى ما بعد موسم الحج ، وكان فى حسابه أن يعرج على مصر ليلتحق بالأزهر الشريف ، ولكن ظروف الزمن وقلة ذات اليد عاقته عن ذلك ، فرجع إلى الشيخ أطفيش . ثم بارح يزقن نهائياً فى عام ١٣٣٠ هـ ، ورجع للقرارة .

(١) ولد الشيخ أطفيش عام ١٢٢٦ - وتوفى عام ١٢٢٢ هـ ببلدة يزقن ، بعد أن ملا سمع الدنيا وبصرها بذكره ، وترك مئات من التلاميذ ومئات من المؤلفات : كتب ورسائل . وعند الاستاذ أبى اسحاق إبراهيم أطفيش الخبير اليقين ، وهو عمه وشيخه معا .

وبعد أن رجع للقرارة تآقت نفسه للانتقال إلى تونس لمداواة بصره أولاً ،
ولاستزادة تعلمه هناك في سائر الفنون ثانياً . فذهب إلى تونس في سنة ١٩١٢ م ،
وما كاد يستقر فيها حتى أقفلت فرنسا مدرسة « أتبسه » القرآنية العربية - وهي
أول مدرسة عصرية أنشئت في الجزائر بهمة الزعيم الجزائري السيد عباس بن حمّانه
وجماعته فحار بعض آباء التلاميذ - وقد لمعت في عقولهم مخايل النجابة - إلى أين
يتوجهون بهم ؟ وصحت عزيمتهم على أن يتوجهوا بهم إلى تونس الخضراء . وبعد أن
أرسلوا رائدهم الشيخ سعيد عمر النفوسى الكاتب المعروف جاءوا بطائفة من نجباؤهم
لإيوائهم ، ففتحوا لهم مأوى بأويهم وجمع شملهم وهي دار ابن خلدون . ثم ضمّوهم
جميعاً إلى المدرسة القرآنية الأهلية التي كان يديرها الأستاذ محمد صفر .

ثم انتقلوا بهم إلى مدرسة السلام التي أسسها الأستاذ محمد الشاذلي المراتي في
سنة ١٩١٤ م . وقد اقتضى نظر الأولياء أن يحملوا أبا اليقظان مسئولية الإشراف
على سير البعثة ، فتحمل أمانتها وقد شهد أول حفلة لتدشين المدرسة في نفس السنة ،
وألقى فيها أول خطاب من خطبه مرفقاً بقصيدة . وبعد أن سار التعليم فيها منهجاً قوياً
رجع بهم في سنة ١٩١٥ م لأسباب قاهرة - والحرب العالمية الأولى على أشدها - إلى
بلدهم القرارة .

وبرغبة من بعض المواطنين فتح بهم وبغيرهم في نفس السنة ١٩١٥ م مدرسة
قرآنية على المنهج الجديد ، سار بهم سيراً حسناً حسب قدرته ومبلغه من العلم إلى
آخر سنة ١٩١٦ م ، وهناك دعت دواع - والحرب العالمية على أشدها - إذ ذاك ،
وبرغبة ملحة من طائفة من التلاميذ الكبار ، اضطر لإقفال مدرسته بالقرارة ، ورجع
إلى تونس فاصطحب معه تلك الطائفة من التلاميذ ، وبذلك نقل أمله وأمل القرارة
معاً في مقابل مطامع أوسع تضطرم في نفسه ، وقد حز هذا العمل في نفسه وفي نفوس
الناس زمناً ، وعسى أن تكرر هوا شيئاً وهو خير لكم .

بعد أن تم الاتفاق بينه وبين طائفة من التلاميذ القداماء هرعوا إلى تونس في أواخر
١٩١٦ م ، وفي أول يناير ١٩١٧ م أصبحوا في تونس فالتأمت بهم وبغيرهم ممن
تلاحقوا بعدهم بعثة تقدمت على المدارس وجامع الزيتونة في النهار ، وفي الليل
يجتمعون إلى مأواهم الكائن بنهج المدرسة السلیمانية ، فدامت البعثة في سيرها على
هذا المتوال إلى سنة ١٩٢٦ م .

وما كادت تستقر قدمه فيها في ١٩١٧ م حتى اخذت حركه الدستور تدب بتونس فاشترك فيها بزعامه الأستاذ الزعيم عبد العزيز الثعالبي الجزائري ، وبمشاركة الشيخ صالح بن يحيى ، والشيخ أبى إسحاق إبراهيم أطفيش ، .. الخ ، وسار معهم فى هذا الرعب إلى سنة ١٩٢٠ م ، فكان من أمرها ما كان ، حتى أبعد الأستاذ أبو إسحاق (١) إبراهيم أطفيش إلى القاهرة فى ١٩٢٣ م .

ومن الحدير بالذكر أن معارضة حادة قامت فى وجهنا ترمى إلى هدم "بعثة بتونس من أساسها ، وقد فتحنا ضدها حرباً شمواء . فكتبنا لحمايتها الفصول الطوال فى جرائد تونسية معتبرة ، وأنقنا رسائل . ولكن لم تزد بذلك إلا عناداً وضراوة ففكرنا لأجل انقضاء عليها حماية لبعثة أن نتخذ الجزائر قاعدة عملنا . فانتقل أبو اليقظان من تونس إلى الجزائر فى غضون سنة ١٩٢٦ م لإنشاء صحافة عربية وطنية لهذا الغرض . فأنشأنا جريدة (وادى ميزاب) برز أول عدد منها فى أول أكتوبر ١٩٢٦ م بين حواجز شائكة ومصاعب كثيرة جمّة . فالاستعمار على أشده ، والطباعة الحقة الوطنية مفقودة . والمدير يجهل اللسان الفرنسى الذى لا حركة ولا سكون فى الجزائر إلا به . فذلل جميع هذه المصاعب ، وكان طبع الجرائد بتونس وتحريرها وإدارتها فى الجزائر . وقد أدى لنا الأستاذ الثمينة محمد صالح . وهو مقيم بتونس إذ ذاك . مساعدة مشمرة جزيئة . جزاه الله عنا خيراً . وذلك بإشرافه على طبع الجريدة ضيلة عمرها من (عدد ١ - إلى ١١٩) إلى أن تعطلت وكان يستعين ببعض أبنائه الشباب . الذين يخدمون تهمنا الفرنسى ، على أعماله . وبهذه التدابير سرنا بالجريدة إلى ١١٩ عدداً . ثم بعد جهود جبارة أسسنا (المطبعة العربية) فى سنة ١٩٣١ م فى الجزائر ، والأزمة العالمية على أشدها . واقتحمنا مخمرات . واحترنا عقبات . وكان التعطيل بحر ثداً تبعاً بموجب اثنان المصلى كالتسيف على رقاب الصحافة العربية فى الجزائر . يجعل اللغة العربية لغة أجنبية فى بلادنا . وفى فى حكم اثنان كالألمانية والإيطالية ... الخ . فصادر كل نشرة منها بدون محاكمة . فكانت جرائدنا تتساقط - كأوراق الخريف . كما نرون فى جدول داخل هذا .

أما مشايخه فإنه مدين فى عقيدته وأخلاقه وسلوكه الدينى إلى نور انقلب الشيخ الحاج عمر بن يحيى فى القرارة . وإلى قطب الأئمة الشيخ أطفيش فى يرقن . وفى تفكيره انسابى إلى الزعيم الجزائرى الأستاذ عبد العزيز الثعالبي . وفى تثقيف قلمه

(١) توفى ١٩٦٥ بالقاهرة .

بالكتابة إلى صحف القاهرة ، ولا سيما اللواء المصرى الذى كان يديره الأستاذ أحمد وفيق ، ومجلة الفتى التى كان يديرها الأستاذ محب الدين الخطيب .

ولا أنسى فضل الأساتذة الأجلاء فى جامع الزيتونة (أمثال الشيخ طاهر بن عاشور المفتى المالكي فى التفسير والبلاغة ، والشيخ محمد النخلى فى التفسير ، والشيخ محمد ابن يوسف المفتى الحنفى فى التفسير والبلاغة ، والشيخ عبد العزيز حفيظ المفتى المالكي فى الأصول والنحو ، والشيخ أبو الحسن النجار فى النحو والأصول ، والشيخ الصادق النيقر المفتى المالكي فى النحو والسيرة ، كما لا أنسى فضل الأساتذة المدربين بالحدوثية فى حسن تنظيم وتوجيه الفنون الحديثة ، خصوصاً الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى التاريخ ، والأستاذ محمد الأصرم فى الجغرافية ، والأستاذ محمد العبيدى فى الرياضيات ، والأستاذ محمد منشور فى الإنشاء ، والأستاذ محمد العربى انكبادى فى فقه اللغة .

مؤلفاته لما تخطى عن ميدان الصحافة نهائياً منذ سنة ١٩٣٨ م للأسباب التى قدمناها إلى التأليف كما قال هر عن نفسه :

لويت عنان عزمى إلى التأليف فى هذه الفترة فألفت كتباً ورسائل عدة منها ما أنجز طبعه ، ومنها ما يزال مخطوطاً ، وفيما يلى بيان ذلك :

١ - سلم الاستقامة : (فى ٣ أجزاء) للأقسام الابتدائية فى فقه العبادات بأسلوب النحو الواضح . وهو الآن تحت يد الأستاذ الحلبي للطبع - وفى (٤) أجزاء فى فقه المعاملات للأقسام الثانوية ، (١) للقسم الإعدادى .

٢ - سليمان باشا البارونى فى أطوار حياته : (فى جزأين) ، ضمته مجموعة من مراسلاته خلال أطوار حياته ، وهو مطبوع فى المطبعة العربية بالجزائر .

٣ - ديوان أبى اليقظان : فى جزء أول - يحتوى على ما قاله من شعر منذ صباه إلى حوالى ١٩٥٠ وقد قدمه بمقدمة فى فن الأدب العربى على غرار كتاب العمدة لابن رشيق القيروانى ، وطبع كذلك فى المطبعة العربية فى سنة ١٩٥٠ ، ويضاف إلى هذا الجزء الأول المطبوع بالجزائر ، ما قاله من شعر بعد طبعه ، ويؤلف نحو ضعفه فيما أظن ، ولا يزال هذا كذلك مخطوطاً .

٤ - خلاصة تاريخ الأباضية .

٥ - أهدافى العليا بالعمل فى هذه الحياة : وهى فى موضوع فريد من نوعه بالنسبة

لهذا الرمان وأبنائه لكنها من صميم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٦ - تاريخ صحف الجزائر العربية في الشمال والجنوب : ضمنها كل ما مر في جهادنا الصحافي بالجزائر ، وهي كذلك مخطوطة .

٧ - بيان حقيقة في الدفاع عن التجنيد الإجباري في ميزاب : وهي باسم الزعيم الشهير السيد عمر بن عيسى بن إبراهيم ، وقد طبعت بالمطبعة العربية بالجزائر .

٨ - بيانات واضحة عن أباضية وادي ميزاب : مخطوطة .

٩ - ملحق لسير البدر الشماخي الذي توفي في عام ٩٢٨ هـ ، توقف بوقوفه . بيانات عن رجال الأباضية ، وفي هذه الفترة تألفت أقطاب ونجوم في سماء العلم من رجال العلم والتشريع والفنون ، فعزمت على سد هذا الفراغ الواسع من رجال ٩٥٠ هـ إلى رجال ١٣٥٠ هـ - وأنا الآن في صدد إتمام هذا الملحق .

١٠ - إرشاد الحائرين : وهي رسالة في الرد على معارضيتها في إنشاء بعثه بتونس وقد طبعت فيها .

حرر في ١٩ رمضان ١٣٨٣

أبر اليقظان

جرائدنا الموعودة

اسم الجريدة	تاريخ الصدور	تاريخ التعطيل	مجموع الأعداد
وادي ميزاب	١ أكتوبر ١٩٢٦	١٨ جانفي ١٩٢٩	١١٩ (١)
ميزاب			١
المغرب	٢٩ ماي ١٩٣٠	٩ مارس ١٩٣١	٣٨ (٢)
النور	١٥ سبتمبر ١٩٣١	٣ ماي ١٩٣٣	٧٨
البيضان	٢٧ افريل ١٩٣٣	١٣ جويلية ١٩٣٣	١٠ (٣)
النبراس	٢١ جويلية ١٩٣٣	٢٣ أوت ١٩٣٣	٦
الأمّة	٨ سبتمبر ١٩٣٣	٦ أجوان ١٩٣٨	١٧٠
الفرقان	٥ جويلية ١٩٣٨	٣ أوت ١٩٣٨	٦ (٤)

٤ - الهادي العبيدي

من أبرز الصحفيين في تونس ، يرأس الآن تحرير جريدة الصباح لسنوات طويلة يقول في حديث له مع مجلة الندوة : إنه قرأ في مطالع حياته جريدة الوزير للشيخ الطيب ابن عيسى و (النديم) لحسين الجزيري ، علمه أستاذه محمد الجعايبي صاحب جريدة (الصواب) الكتابة الصحفية ، وتطورت مقالاته حتى كتب في موضوع (تعليم المرأة) فثار في وجهه ضجة عارمة في الصحف .

وقد مارس الصحافة في جميع فنونها ، مصححاً ومحرراً وناقداً وسكرتيراً ورئيساً للتحرير ، وعاش الحركة الوطنية والثقافية في تونس .

وهكذا بدأ الصحافة من القاع وتطور معها ثم أشرف على الإذاعة فترة .

وله هوايته المحببة في الكتابة للمسرح ، وله ديوان شعر . وتأثر بالمنفلوطي وأدباء المنهج .

وكان الهادي العبيدي قد تعلم في الزيتونة وفارقها ١٩٢٧ ، واشترك في الحركة النقابية . وكانت له رحلات اشترك فيها في حلقات التمثيل إلى مصر ولبنان وقد مثل في روايات محمد تيمور . وعمل مع فرقة رمسيس وجورج أبيض .

٥ - نور الدين محمود

من أبرز الصحفيين التونسيين ، أصدر مجلتي « الثريا » و « الأسبوع » ، وولى منصب الكاتب العام للإذاعة التونسية .

وقد كانت مجلة الثريا (١٩٤٣) والأسبوع (١٩٥٤) من أبرز المجلات التي حملت لواء الفكر والأدب والتاريخ في فترة امتدت سنوات الحرب وقد انتفعنا بها كثيراً في دراستنا .

وحدد نور الدين محمود هدفها في أن تحمل مشعل النهضة الأدبية في الشمال الإفريقي ، وخاصة في فترة الحرب التي غلت نشاط الأدباء ومنعتهم ، ميداناً صالحاً يبرزون فيه ما تجود به قرائحهم ، فضلاً عن أثرها في تعريف المشرق بأدب المغرب .

وأعلن نور الدين حرصه على أن يجعل من مجلتي الأسبوع والثريا عاملاً هاماً في ربط الصلات بين البلاد العربية « وأبناء عمومتنا العرب » .

وجعل نور الدين محمود عنوانه الدائم في افتتاحياته (لكل مقام مقال) ، وعنده أن مهمة الصحافة الرئيسية تنحصر في توجيه الشعب وإرشاده إلى مواقع الخطر لتجنبها ، وتنبيه الحكومة لكل خطأ حتى تصونه .

وقد تناول موضوع اللغة فقال : نحن كشعب عربي عريق له في العربية الفصحى قدم راسخة ، وقد كان لتونس الفضل في إخراج ابن منظور صاحب « لسان العرب » ، وابن خلدون ، وابن عرفة ، والثعالبي ، وقال : إن هذا هو الذي « يجعلنا نولي اهتماماً كبيراً في إخراج كافة الأحرف العربية من مخارجها ؛ الأمر الذي قل أن يتوفر في بقية الشعوب ، ولنا أكبر جامعة لتدريس العربية بالعالم .

وقد ركز نور الدين محمود دور مجلة الثريا في تعريف الأدب التونسي إلى المشرق ، وقال إن هدفها أن تحمل مشعل النهضة الأدبية في الشمال الإفريقي وقال : إنه عمل على ربط الصلات مع البلاد العربية وأن الدول العربية احتفلت بها في مصر والعراق والشام :

رابعاً - أدب الكفاح المغربي

أ - الأدب المغربي أدب مقاومة

أبرز معالم الأدب المغربي المعاصر :

- المقاومة لكل محاولات القضاء على الشخصية المغربية والكيان المغربي واثراث المغربي .
- التأثر بمناهج الأدب الفرنسي وأساليبه
- ظهور التوعية القومية المحلية . واستيحاء التاريخ القديم .
- التأثر بالأدب العربي في مصر وأدب المهجر ، وبصحافة المشرق وأعلامه .
- إحياء تاريخ أعلام المغرب . وثى مقدمتهم ابن خلدون والشابي وفرحات حشاش .
- الاتجاه إلى نشر التراث القديم والترجمة من الآداب الفرنسية .
- الدعوة لتحرير المرأة وظهور كاتبات مغربيات .
- ظهور أدب فني يعنى بالمجتمع ويدرس خصائص الأمة المغربية .

وتمثلت فنون الأدب المغربي المعاصر في ثلاثة قطاعات :

- القصيدة شعرية .
- الكتابة الصحفية .
- المؤلفات المطبوعة .

وقد تطور الأسلوب الإنشائي التقليدي في المغرب في أوائل هذا القرن إلى الترسل ، وتخفف كثيراً من انسجع . متأثراً بأسلوب ابن خلدون في المقدمة ، وبدأ التأليف حول التراجم والإحياء التاريخي ، وأعانت على ذلك الصحافة التي ظهرت مبكرة في تونس ، حيث صدرت « الرائد التونسي » ، ١٨٦٠ وكان للصحافة أثرها في تطوير الأسلوب .

غير أن مضمون الكتابة لم يلبث أن تطور في ظل النهضة التي قام بها خير الدين التونسي، فلما وقع الاحتلال ١٨٨٢ تحولت الكتابة إلى ميدان المقاومة والكفاح السياسي .

وقد رسم محمد بن الحوجة (تونس) صورة للأدب المغربي في هذه المرحلة (حوالي ١٩٠٥) حيث يرى :

أن الإنشاء العصري صار أميل للترسل منه إلى السجع ، وهذا الأسلوب المنتشر الآن بكثرة بين أغلب كتاب العربية وهو الأسلوب الذي انتهجه « ولي الدين بن خلدون » في المقدمة وغيرها من مصنفاته الجلييلة ، والفضل في إحياء هذه الطريقة بين حملة الأقلام في الأعصر الأخيرة، يرجع بأكواه لشيخ الجماعة أحمد فارس (الشدياق) صاحب جريدة الجوائب التي أسسها خلال ١٢٧٧ هـ ؛ فقد كانت هذه الجريدة منارةً لهداية الكاتبين بين العالمين .

ولدينا كتاب للعلامة المرحوم الشيخ محمد عبده ممتلئ الديار المصرية في تقرير الأجزاء الأولى من (الرزامة التونسية) عال فيها : إنها دائرة معارف تونسية ناطقة تمكن بلادنا في الحضارة والعلم والأدب .

كتب التونسيون كثيراً في فنون الأدب ، ولا سيما ما كان متعلقاً بالإنشاء وتشعر ، فإن تأليفهم وإن كانت واسعة المدى فقد ذهبت بشدة الترك سدى . بحيث إنه لم يظهر مما دونوه في ذلك إلى عالم الطبع سوى التزر اليسير :

النهضة الأدبية التي ظهرت في تونس ، أثارت انتباه أبناء الجيل الحاضر ، وبعثت فيهم روحاً جديدة دفعتهم نحو الأدب وفنونه جرياً على نواميس الخليقة ، وكانت النتيجة ظهور طبقة من الكتاب والشعراء بلغت درجة النبوغ أو كادت ، هذه النهضة ابتدأت حركتها في أوائل القرن الرابع عشر ...

كان الأديب المغربي لا يعرف إلا موضوعات (المديح والمجسو والثناء والغزل والألغاز) التي ورثها عن العصور المتأخرة، فلا يكاد يتجاوز هذا غالباً إلا إذا كان ذلك غرضاً غير مقصود .

منذ عهد قريب وصل إلى المغرب الأقصى صدى تلك النهضة الفكرية التي انبعثت في الشرق العربي وأحدثت انقلاباً في الأفكار والأساليب ، فعاد أدباؤنا الذين لم تتأصل فيهم جذور تلك الوراثة المذكورة آنفاً ، ولم تتعود أفكارهم على الجمود على تلك التقاليد،

والاقتصار على تلك الأساليب ، إلى أن يشحنوا قرائحهم من جديد ، ويوجهوها إلى ما فيه نفع الأمة .

نشأت بعد ذلك طائفة من النشء الحى ، فالتهمت جوانح ذلك النشء واتقدت أفكارهم واهترت عواطفهم ، فإذا فى المغرب الأقصى شعر جديد طلى ، فيه من جمال الأسلوب وسهولة الألفاظ وصفاء الديباجة الشيء الكثير .

والأدب المغربى (فى الثلاثينيات) يمثله رجال هذه الصفات الثلاث :

• أدباء كبار يكتبون أدب الماضى .

• طبقة المخضرمين الذين جمعوا بين الحسين ، وضربوا بالسهمين .

• الطبقة التى تربت وثقفت فى عصر المطابقة لروح العصر .

وصور السيد عبد الله كتون (١) (المغرب) تطور مفهوم الأدب فقال : إنه إنما حصل بتأثير النهضة الأدبية التى قامت فى الشرق العربى فى بداية هذا القرن ، إذ أنه قبل أن يتصل أبناء المغرب بالثقافة العربية ويطلعوا عن طريق المدرسة الفرنسية على المذاهب الحديثة ، كانت الطليعة الأولى من أدباء المغرب تتصل عن طريق الصحافة الحديثة والمطبوعات الصادرة فى البلاد العربية ، وخاصة منها مصر بالإنتاج العربى الحديث لأعلام النهضة فى العالم العربى ، وتتأثر به وتحاول النسيج على منواله .

ويرى الأستاذ كتون أن الأدب العربى فى العالم العربى كله وحدة لا تتجزأ : « فى جميع بلاده بالمغرب والشرق وفى الأندلس . هو أدب واحد تشارك فى إنتاجه بلاد متصل بعضها ببعض . ثم هى متشابهة فى التكوين والخلق والمزاج ، واللغة التى تعبر بها عن أفكارها وخواطرها وحاجاتها واحدة » .

أما فى الجزائر فيرسم لنا « أبو القاسم سعد الله » صورة عصر اليقظة : « منذ استيقظت الجزائر على النداءات الوطنية والإصلاحية أوائل القرن الحالى وهى تحاول التخلص من هذه الرواسب ، والقضاء على مخلفات الماضى ، ومحاولة إعادة البناء النفسى للمجتمع ، كان الفضل الأول للمدرسة والصحيفة والمحاضرة والخطبة .

(١) من كتاب « الأدب العربى فى المغرب الحديث » ١٩٢٩ .

لست أنسب الفضل في خلق هذا العنصر الجديد من رسائل اليقظة الجزائرية إلى شخصية بذاتها، أو حزب باسمه ، أو هيئة كبيرة ،

لابد من الإشارة إلى المجهود الكبير الذي بذله رسول اليقظة العربية في الجزائر المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس ؛ فقد عمل هذا المصلح طاقته في سبيل أن يحتفظ الجزائريون برباطهم المقدس الذي يجمعهم على كلمة واحدة : ديناً ولغة وماضياً ومصبوراً .

ومن الجمعيات الوطنية الكثيرة التي ظهرت في الجزائر جمعية العلماء بدأها ١٩٢٦ وأعلنها ١٩٣١ ، وكان لظهورها صدى هائل في الجزائر آنذاك ، لأنها كانت تحمل شعاراً أزعج سلطة الاحتلال من ناحية ، وأثار مخاوف الرجعيين والجامدين من أبناء الجيل الماضي من ناحية أخرى ، هذا الشعار هو العروبة والإسلام أو الدفاع عن القومية العربية والدين الإسلامي في سماحته الأولى ، وقد لاقت مضايقات ومعاناة شديدة ، ولكن سرعان ما توطدت فكرتها وكثر أتباعها ... »

هذه ملامح صورة اليقظة الأدبية كما صورها أدباء من أقطارها تونس والجزائر ومراكش . أما طرابلس الغرب فقد كانت في شغل عظيم بالمقاومة وإن ظهرت فيها الصحافة مبكرة عام ١٨٦٦ إلا أنها سرعان ما احتجبت وصدرت على إثرها صحيفة إيطالية الجديدة .

ويمكن القول بأن اليقظة الأدبية بدأت في تونس ١٨٦٠ بصدر « الرائد التونسي » ثم في المغرب والجزائر في أوائل هذا القرن . .

وتتمثل الحركة الأدبية في عدد من المؤلفات التي ظهرت في أوائل هذا القرن :

- الوسيط في تراجم أدباء شنتييط (أحمد بن الأمين الشنتييطي) عام ١٩١١ .
- الأدب التونسي في القرن الرابع عشر (زين العابدين السنوسي) عام ١٩٢٧ .
- شعراء الجزائر في العصر الحاضر (محمد الهادي الزاهري) ١٩٢٦ .
- الأدب العربي في المغرب الأقصى (محمد القباج) ١٩٢٩ .
- عنوان الأريب عما نشأ في المملكة التونسية من أديب (محمد النيفر) ١٩٣٢ .
- بلاغة العرب في الجزائر (عثمان الكماك) ١٩٢٥ .

ولا جرم كان ظهور هذه المؤلفات في هذه المرحلة بالذات من تاريخ المغرب العربي ذا دلالات بعيدة المدى ، فهي محاولة للرد على ادعاءات الاستعمار من أن المغرب ليس له أدب واضح الملامح .

فزين العابدين السنوسي (١٩٢٣) ينحى باللائمة على أدباء المشرق الذين كتبوا عن أدب المشرق وحده وتجاهلوا أدب المغرب . لقد صدر حتى اليوم كثير من التأليف عن آداب الأقطار العربية تاريخياً وعصرياً ، أحمد ضيف وطه حسين . . . إن جميع هؤلاء لم يكتبوا عن الشمال الإفريقي شيئاً ، والظاهر أن هذا التغافل أثر من آثار التشتت السياسي الذي أوجدته الطوارئ الاستعمارية في القرن الأخير ، وقد بلغ التشتت والتناكر بأبناء العربية أن أصبحت الصحافة المصرية لا تكاد تهتم بنا اهتمامها بمملكة الحبشة ولا تتطلع لأخبارنا تطلعها لحفلات السباق والزحقة ، وليست الأغلاط قاصرة على الصحافة والنشرات الدورية ، بل تناول حتى الكتب المدرسية والموسوعات العلمية ، « مدينة بترت » ذكرت في الموسوعة الجغرافية المصرية (النخبة الأزهرية . باسم بزرقة ، وذلك نتيجة اعتمادهم على المؤلفات الأجنبية » .

ثم يتناول زين العابدين السنوسي في يقظة وصراحة قضية الترابط بين المشرق والمغرب « إن تاريخ تونس ومركزها بالنسبة لبقية الشمال الإفريقي يجعلانها شاعرة أبدأ بمسئولية ربط هذه النهضة بهاتيك الأصقاع الغنية المستفيقة ببقية الأرومة العربية حتى لا تنقطع الروابط التي ربطها أبناء يعرب بدمائهم ، ويذهب آخر أمل في البناء على أنقاض ماضينا الزاهر ..

ويركز عثمان الكعاك (تونس) على أدب الجزائر في كتابه « بلاغة العرب في الجزائر » ، مستهدفاً بذلك مقاومة فكرة مضللة : « مقصدي أن أبين للعالم الناهض العربي ، مقام الأدب الجزائري في مستوى عموم الآداب العربية . الذي حط من همة الأمة الجزائرية تصورها أنها لا تملك لنفسها تاريخاً ماجداً تفاخر به بين الأمم والشعوب ، وليس لها أدب يصور روحها في مختلف العصور ، ويصف تاريخها الفكري وتطور عقليتها ، هذا الاعتقاد الواهم يجعل الأمة تعيش من غير أمل وبدون شعور بكرامة ولا عزة ولا إحساس بذاتية مستقلة ، ... أي أمل لأمة غير إشعارها بكرامتها وناموسها وعظمة تاريخها ،

وكيف لا تنشط العقلية الجزائرية الخاملة ، إذا علمت أن وراءها تاريخاً يضاهي تاريخ أعظم الأمم ، وأن لها أدباً من أجمل ما جادت به قريحة بني يعرب بن قحطان .. »

وقد أشار عثمان الكعاك إلى ذلك في (مجلة الندوة - ١٩٥٦) فقال : « إنه منذ ربع قرن ، وضعت رسالة في تاريخ الأدب الجزائري ، الهدف منها إيقاظ الهمم ، وتحريك السواكن إلى العناية بأدب الأمة الجزائرية ، وكان قد اعترى هذا الأدب الكساد ونسج عليه الإهمال نسيجاً من عنكبوت النسيان ، وقضت حوادث الدهر بضياح الكثير من معاليه ، وضياح القدر الجهم من آثاره حتى ظن الكثيرون أن الجزائر خلو من الأدب عزلاء من سلاح العقل » .

* * *

ولا شك أن الجزائر التي وجه إليها الاستعمار الفرنسي ، ضربات قاسية للقضاء على اللغة العربية بها كانت في حاجة إلى دقات الأجراس ، وفي هذا يقول عثمان الكعاك :
« يظن الكثير من الشرقيين أن الجزائر قد استشهدت عروبتهما حتى سماها القوم (بالأندلس الجديدة) وعندنا أنها كامنة لا مقبورة ، ويكفي لعظيم من العظماء أن يذكى جنوتها حتى تتأجج نارها ويسطع نورها .

ولعل سوء الدعاية الذي أحدثه بعض القوم من زعم وفاة الجزائر قد أثر على الأدبيات . ولو اشتغل القوم بإحياء أدبها وإبراز تاريخها لكان ذلك أحسن ، ومن الغلط أيضاً أن يعتقد الإنسان أن الإنحاء باللائمة على أبناء الجزائر من شأنه أن يمرح عواطفهم .
والحقيقة جارحة كما قيل ، وإنا لنؤثر أن نقول الحق وإن كان مرأ ثقيلاً ، الحق هو أن الجزائريين قد قتلوا لغتهم بأيديهم ، وما كان الاحتلال إلا جواً مساعداً على ذلك ، لأنهم لو أرادوا أن يحيوها ما كان أحد ليصدهم عن ذلك .

ولو نبغ كاتب واحد بالجزائر لضمن بذلك حياتها الأدبية ، وقد لاحظنا أن علماء العربية بها لهم صبغة المستشرقين أكثر مما لهم صبغة العرب الذين يحرمون لغتهم ، حتى إنهم إذا بحثوا في التاريخ أو الأدب يعمدون إلى الفرنسية يؤلفون بها ، وليس ذلك إلا تقصيراً وقتلاً لأدب قومهم .

وقد عاونت السياسة على ذلك فأقامت للبربرية الصروح ، وألفت لها كتب النحو والتدريس ومعاجم اللغة . حتى لقد ذهب الشطط ببعضهم إلى تأليف كتاب في تاريخ آداب اللغة البرية فأصبحت الوحدة اللغوية على الأقل صعبة .

على كل أمة إسلامية أن تتخذ من آدابها قاعدة تشيد عليها آدابها في المستقبل ، لا بد للجزائر أن تفتح عقبة جمودها ، وأن تعتبر ما مربها - مما يقرب من قرن - عصراً تضيفه إلى عصر انحطاطها ليس غير ، وتبنى على أساس آدابها القديمة مسرحاً قوياً بديعاً لأدبها الجديد .. »

* * *

وفي مجال الدفاع عن (المغرب) عن طريق الأدب ظهر كتاب (النبوغ المغربي) لعبد الله كنون سنة ١٩٤٢ ؛ فقد استهدف المؤلف غرضين أحدهما كشف صفحة ماجدة من صفحات الأمة المغربية في مجال العلم والشعر والفقه ، طالما أنكرها الاستعمار ، وادعى أنها لم تكن ، وثانيهما أنه جاء تكميلاً للدراسات التي صدرت في المشرق عن الأدب العربي ولم تناول المغرب بكلمة واحدة ، وفي مقدمتها (الأدب العربي لأحمد حسن الزيات) . وقد كان للكتاب صدى بعيد في مختلف دوائر الأدب ، وقال عنه شكيب أرسلان : من لم يقرأه فليس على طائل في تاريخ المغرب العلمي والأدبي والسياسي ، واعتبره (بروكلمان) من ملحقات كتابه عن تاريخ الأدب العربي ، وعنى به المستشرقون المنصفون .. »

وإذا كانت الجزائر قد واجهت عدواناً فكرياً قضى بتأخر نهضتها في مجال الإنشاء والكتابة والصحافة شوطاً ، فإن البقظة قد هبت فعلاً منذ أول القرن في تلك الصورة الفكرية التي صورها أبو القاسم سعد الله ، والتي قام بها شيوخ الجزائر في أوائل القرن يدعون إلى المحافظة على التراث القديم « لا باعتباره نماذج خالدة ، بل باعتباره تراثاً قومياً ، وعلى رأس هذه الحركة : أبو القاسم الحفناوي وعبد القادر المجاوي والمولود ابن الموهوب ومحمد بن أبي شعب ومحمود لحول ، وذلك في الندوات الثعالبية ، ونادي صالح باي ، ومدرسة الجزائر .

وفي المرحلة التالية : ظهرت مدرسة عبد الحميد بن باديس ، الذي كشف ، لتلاميذه طرائق في الأدب وأسلوبه ، من اللفظة الجزئية حتى البناء الكامل « وكان للشيخ طريقة خاصة في تناول الحياة تشهد له بالحدق والبراعة إذ كان يدعو تلاميذه إلى القديم والجديد معاً ، القديم في محاسنه وورزاته ، والجديد في طلاقته وتطوره . »

ثم كان للبشير الإبراهيمي دوره في تطوير الأدب العربي المغربي الجزائري « فقد كانت ثقافته الأدبية أوضح من زميله الشيخ ابن باديس . »

وقد اعتمد على الدرس المشافه الموجه ، وكان القلم واللسان أغلب على البشير الإبراهيمي . وقد أعطته هذه الميزة مجالا خاصاً للنقد والتوجيه ، فاتخذ من الصحافة ولا سيما جريدة البصائر ميداناً لقيادة الجيل الجديد في الأدب ، سواء بما كان ينشره من نماذج تثير الإعجاب ، وتدعو إلى الاحتذاء ، أو فيما كانت تنشره الجريدة من شروط للأدباء والكتاب الذين يرغبون في المساهمة في التحرير .

وقد دعا البشير الإبراهيمي إلى أن يظل الأدب عربياً في أصوله وقواعده لا شرقياً ولا غربياً . « يجب أن يظل أدبنا عربياً يستمد شخصيته وأهدافه من حاجاتنا الواقعية لا المفتعلة ولا المزيفة » وعنده أن وحدة الأمة العربية تتمثل في وحدة هذا الأدب بصورة عملية ، وقضية القومية العربية « ليست ميدان سلاح أو حرب ، وإنما هي ميدان عقل وفكر . »

وجملة القول أن الأدب العربي في المغرب كان حقيقياً بأن يدافع عن الشخصية العربية الإسلامية المغربية ، وأن يؤكد وحدة المغرب ، ويكذب ما قالته فرنسا من فصل الجزائر عن المغرب ، ويدافع عن التراب المغربي وأبجاء الأمة المغربية ولغتها العربية ودينها الإسلام.

ب - الأدب العربي المغربي فرنسي اللغة

كان من نتائج خطة الاستعمار الفرنسي في القضاء على اللغة العربية في الجزائر خلال فترة الاحتلال الطويل أن نشأ جيل من الكتاب لا يعرف اللغة العربية ولا يتاح له التعبير عن مشاعره إلا باللغة الفرنسية . ولم يمنع ذلك أن يكون هذا الأدب وطنياً وقومياً ومعبراً عن مشاعر المغرب العربي وفكره ، وموقفه من الحرية .

اهتم الأدب الجزائري «الفرنسي اللغة» بتصوير ظلم الفرنسيين وإرهابهم للوطنين ، وإنكار امتداد الجزائر لفرنسا ، وأنها جزء منها ، وتصوير الفقر والبؤس والألم الذي عاش فيه الجزائريون في ظل الاستعمار .

ظهر هذا الأدب بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وأبرز كتابه : محمد ديب ، ومولود معمري ، ومولود فرعون ، وكاتب ياسين ، ومالك حداد ، وأسيا جبار .

وقد تأثر أغلب هؤلاء الكتاب بأحداث الاستعمار ، ومنهم كاتب ياسين الذي عاصر معركة سطيف المفزعة (آيار ١٩٤٥) وكان أحد شهودها .

وقد صور أغلب هؤلاء الكتاب مشاعرهم إزاء تعبيرهم عن أنفسهم بغير اللغة العربية . يقول مالك حداد : أنا أرطن ولا أتكلم ، إن في لغتي لكنته ، إنني معقود اللسان ، أنا لا أغني ، لا أغني ، فلو كنت أستطيع الغناء لقلت شعراً عربياً .

* * *

وقد جرت مناقشات كثيرة حول اضطراب الأدباء الجزائريين إلى الكتابة باللغة الفرنسية ، ودافع إبراهيم غافر عن الأدب العربي فرنسي اللغة فقال : إن المهم أن يؤدي الكاتب شهادته ، وأن يكتب باللغة التي سمحت له الظروف بأن يتعلمها ، وأن يعبر عن الواقع الحى في بلاده ، ويلتقط الصور الناطقة في أصول بيئته ومجتمعه ، وأن تبقى شهادة الكاتب وثيقة ثمينة يخلفها لمن بعده حتى يستمر الأديب في تأدية واجبه المقدس ، وأنه ليس من العار أن يكتب الكاتب باللغة الفرنسية أو غيرها ، ما دام يحسنها ويسخرها طيبة أمانة .

ومن أبرز نماذج الأدب الجزائري فرنسي اللغة قصة كاتب ياسين « نجمة » ، وتجرى حوادث هذه القصة بجبل الناصور ، وهو جبل حصين في أقصى الجانب الشرقى من عمالة قسنطينة المتاحة لتونس ، سكانه قبيلة عربية عريقة في النسب تسمى (كبلوت) . وكان كبلوت من اللاجئين الأندلسيين العرب الذين اضطهدهم الأسبان فأخرجوهم من ديارهم ، وكانت قبيلة (كبلوت) قد نشرت الحضارة الأندلسية الإسلامية حولها ، وجعلت من جبل الناصور معقلاً للعلم والأدب ، إلى أن أتى الفرنسيون فاحتلوها عام ١٨٧٠ بعد مقاومة عنيفة استشهد فيها سبعة من مشايخ جبل الناصور . وأحد هؤلاء هو جد الكاتب الجزائري .

وهنا تبدأ المأساة ، التي تصور كيف صار الكاتب صعلوكاً وكيف أصبح يجيد الفرنسية ، فغداً بعيداً عن العربية وعن أهله العرب يتيه في شوارع باريس .

وقد صور كاتب ياسين قسنطينة في موقعها الرهيب الحصين على شواطئ وادى الرمل .

وصورت القصة المرأة ومستواها الثقافى ، والعمال الجزائريين وهم يرزحون تحت أثقال شحنات الاستعمارين فوق أرصفة الموانئ ، وتحدث عن حياة الفلاحين البائسة ، والجزائريين المهاجرين إلى فرنسا لكسب القوت اليومى . والطلبة الجزائريين في فرنسا ، وتأثير فرنسا في تكوينهم العقلى .

وبالحملة فإن قصة (نجمة) لكاتب ياسين هي قصة الشباب الجزائري الذي يعيش في بلاده عيشة المشردين إزاء المستعمر وأذنا به ، فكل أبطال القصة مشردون ومطاردون في بلادهم

وقد تحدث « مولود معمري » عن تجربته الخاصة حيث كان يدرس التاريخ ويطالع سيرة قصير والإسكندر وأخبار لويس الرابع عشر ، وكيف لقن الأدب الفرنسي وتمتع بشعر راسين وقصائد بودلير ...

غير أن هذا الفكر كله لم يصل إلى أعماق نفسه ، فقد كان يحس أنه غريب عنه « تلك الأحداث التي كنت أعجب بعظمتها ، وذلك الجمال الشعري ، كل ذلك كان من استنباط وابتكار أشخاص غريب ، ومجتمع إنساني غير مجتمعي ، وبيئة بشرية لا يحيا فيها أحد من أبناء قومي » .

ومن هنا بدأ يفكر في إنشاء أدب عربي مغربي باللغة الفرنسية ، يقول : كنت أتألم لكوني أحيا في بيئة لا صوت لها يعبر عما يختلج في نفسها من أفكار وعواطف خاصة بها دون سواها .

غير أنه واجه مشكلة التعبير عن مشاعره باللغة الفرنسية ، يقول : تلقيت دروساً باللغة الفرنسية ، وأنا أتوق إلى إتقانها واكتساب ملكتها ، حتى أتمكن من التصرف فيها بدقة وأناقة ، وكان لابد من عقبات ومصاعب لعدم وجود انسجام بين هذه اللغة وطريقتي الخاصة في التفكير والتعبير ، وكان لابد لي إذن أن أقسو على إحداهما لأجعلها طيبة للأخرى .

* * *

« ومعمري » هنا يعبر عن مشكلة هامة جرى حولها نقاش كبير ، وهي « الانفصال بين اللغة المعبرة والواقع » وأن اللغة الفرنسية لم تكن تعطي الكتاب الجزائريين العامل الذي يمكنهم من تسجيل الأحداث ، والتغلغل إلى أعماق مشاعرهم النفسية .

ويعرض لهذا المعنى جمال البغدادي القادري فيقول « يلاحظ كل من قرأ للكتاب الجزائريين ذوى التعبير الفرنسي أن هناك غرابة وسوء جوار بين الأسلوب وبين حوادث القصة أو عاطفة القصيدة لأن هذه العواطف وهذه الأخيلة خلقت لكي يعبر عنها باللغة العربية ، وإبرازها بمنطق فرنسي يجعل اللفظ متضارباً مع صميم القصة ، خاصة إذا كانت مرتبطة بالمجتمع العربي الجزائري .

أجل أن الأدب الجزائري الصميم لا يؤدي إلا بالعربية ، وإذا أدى بغير العربية وقع الأديب في ازدواجية شخصية وفقدت القصة أو القصيدة حياتها .

ومن هنا جاء قول « سامي الدروبي » الكاتب السوري مترجم قصة محمد ديب « الدار الكبيرة » إلى اللغة العربية وهو : أنني لا أرد إلى الأثر شيئاً مما كان يمكن أن يكون له من صدى ، لو كتب بالعربية ، وإنما هو يفقد مزيته من ذلك الرواء ، فالأثر قد ضاع منه شيئاً مرتين : مرة حين يكتب بالفرنسية ، ومرة حين ترجم عن الفرنسية .

وجملة القول أن الأدب العربي الفرنسي اللغة الذي كتبه الأدباء الجزائريون ، أدب وطني صادق ، تغلب عليه التزعة الإنسانية ، مصوراً كفاح الإنسان المستعمر ، وأن عجز عن الأداء الكامل للمشاعر العربية الإنسانية ، وذلك لانفصال بين اللغة المعبرة والواقع ، وانفصال الكتاب عن الثقافة العربية الأصلية .

من أعلام الأدب

١- محمد أبو شنب

علامة محقق باحث ، قصر مجال عمله على الدراسات الأدبية والتاريخية واللغوية . وتحقيق الكتب والمؤلفات والمخطوطات القديمة . انقطع للعلم في جامعة الجزائر حتى أحرز الدكتوراة ، سار في أبحاثه على طريقة علماء المشرقيات ، فهو عالم ببحثة أكثر منه أديباً ، لذلك لم يتسم أسلوبه بطابع البشاشة والإشراق ، وكانوا يسألونه في ذلك فيقول : خذ العلم وماذا يعنيك ، أكان بأسلوب طلي أم كان بأسلوب غير طلي ، وحسبك أنك فهمت عني ما أريد ، ولا تغرنكم زخارف الألفاظ وتزويقاتها ، وهل اللغة وأساليبها إلا أداة للفهم والتفهم .

وأرجع مؤرخه « محمد السعيد الزاهري (١) » السبب في ضعف أسلوب الشيخ إلى أن معارفه فرنسية أكثر منها عربية ، فكان يلتقي محاضراته كلها باللغة الفرنسية ، ويقول الذين قرءوه في الفرنسية : إن أسلوبه فيها حسن متين ، وهو عالم باللغة العربية ، غزير العلم ، حافظ ثقة ، كان معجماً لغوياً يمشي على الأرض كما وصفه الشيخ عمر راسم الجزائري ، وكان يحفظ اللغة المعروفة في المعاجم ، ويحفظ كثيراً من اللغة التي لم تدون بعد ، معنياً يجمع هذه الكلمات الكثيرة والتراكيب التي تجري على ألسنة الأدباء في القديم والحديث ولم تدون في المعاجم ، يبحث عنها بحثاً مستوعباً ويردها إلى أصول عربية رداً صحيحاً .

ويقول « الزاهري » إن الحكومة الجزائرية هي التي أخذت بيد الشيخ وأعانه على إظهار موهبته ونبوغه ، ولولا الحكومة لحق الشيخ تواضعاً وخمولاً ، ولكنه خدم العلم أكثر مما خدم نفسه ، وخدم الجامعة الفرنسية بالجزائر خدمات جلي ، وهو الذي جعل للكتب العربية في مكتبة الجامعة قيمة واعتباراً .

وقد ألف الدكتور « الشيخ » أبو شنب (٢) عديداً من الكتب ، وحرر جملة من المباحث في اللغة والأدب والتاريخ ، وكان متقناً للغات الفرنسية والإيطالية والفارسية والتركية والعبرية .

(١) المقتطف : نوفمبر ١٩٢٩ .

(٢) أو محمد بن شنب كما اشتهر في مؤلفاته وتحقيقاته الأولى .

ومن مؤلفاته (رموز الاختصار العربية) أصدره عام ١٩٢٢ ، وتقدرته مجلة المجمع العلمي العربي ، ضمنه نحو مائة كلمة من الكلمات المستعملة في كتب مؤلفي العرب ، ما بين نحو وفقه وحديث وفلسفة ، وذكر أمام كل كلمة طريقة اختصارها أى الحروف التي تختزل منها لتدل عليها ، وقال في مقدمة الرسالة : إنه وقف في أثناء مطالعته على كثير من هذه الاختصارات العربية فرأى من المفيد أن ينشرها ، وهو لا يعلم إن كان أحد سبقه إلى جمعها على هذه الصورة ، ومن منهجه أنه يترجم كل كلمة إلى اللغة الفرنسية مع زيادة شرح وتفصيل في بعض الكلمات : ومن هذه النماذج الكلمات التالية مع رموزها :

رحمه الله (رح) رضى الله عنه (رضه) المصنف (المص) التسلسل (التس) أصلاً (أص) المشهور (المش) انتهى (هـ) .

ومن آرائه في اللغة : تجنب اللفظ الدخيل ، والاجتهاد في اجتنابه ولو بالاستعاضة عنه بغريب اللغة المهمل الذي بطل استعماله .

وله باللغة العربية : « تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب » - الجزائر (١٩٠٦) .

وله باللغة الفرنسية : مجموع أمثال العوام بأرض الجزائر والمغرب (٣ أجزاء طبع - ١٩٠٥ ، ١٩٠٧) .

كما نشر مؤلفات ومخطوطات قديمة أهمها :

- البستان في علماء تلمسان (ابن مريم - الجزائر ١٩٠٨) .
- الممتع في شرح المقنع لأبي سعيد السوسى - الجزائر (١٩٠٨)
- تجبير الموشين في التعبير بالسین والشين للفيروز ابادى - الجزائر (١٩٠٩)
- فهرست كتب الجامع الأزهر - الجزائر (١٩٠٩)
- عنوان الدراية في علماء بجاية - الجزائر (١٩١٠)
- تدميث التذكير في التأنيث والتذكير - للجعبري من علماء بغداد في القرن الثامن - استراسبورغ (١٩١١)
- تكملة ابن الأبار - الجزائر (١٩٢١)
- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية - الجزائر (١٩٢١)
- فهرس مطبوعات قاس - الجزائر (١٩٢٢)

- أبو دلامة - حياته وشعره بالفرنسية - الجزائر (١٩٢٢)
 - ديوان علقمة الفحل مع تقارير - الجزائر (١٩٢٥)
 - ديوان عروة بن الورد - الجزائر (١٩٢٦)
 - الجمل للزجاجي - الجزائر (١٩٢٧)
- وكانت آخر محاضراته في مؤتمر المشرقين بأكسفورد عن « ابن خاتمة » أحد شعراء الأندلس في القرن الثامن الهجري .

وقد كتب محمد أبو شنب ترجمته للمجمع العلمي العربي في دمشق فذكر أنه ولد في ٢٦ من أكتوبر ١٨٦٩ بقرية (المدية) في جنوب الجزائر، وقرأ شيئاً قليلاً جداً عن القرآن ، ثم قرأ اللغة والعلوم الفرنسية ، درس بدار المعلمين الفرنسية بأبي زريعة ، وأحرز إجازة تعليم اللغة والعلوم الفرنسية في المدارس الوطنية . وبعد عشر سنين في التعليم أجاز بإجازة مدرسة الآداب العليا ، فتولى الدراسة بمدرسة قسنطينة مايو ١٨٩٨ ، فمدرسة الجزائر (أبريل ١٩٠١) .

وفي سنة ١٩٢٢ أجاز بإجازة دكتور في القسم الأدبي من كلية الآداب بالجزائر بعد أن قدم لها تأليفاً في حياة وأبي دلامة : شاعر بني العباس ، وتأليفاً آخر في الألفاظ التركية والفارسية الباقية في لغة الوطن الجزائري ، ثم انتقل (يناير ١٩٢٤) مدرساً بكلية الآداب بالجزائر .

وقد توفي سنة ١٣٤٧ هـ ورثاه الأساتذة الفرنسيون مقدرين فضله ، فقال العلامة ماسيه (أحد أعضاء مجمع الجزائر) كنا نرجع إليه ، ونستضيء بضياءه ، وكنا نناديه (شيخنا) ، فإنه كان يجمع إلى صفات العلم والعالم الحقيقي صفات الصلاح والطيبة ، وكذلك وصفه محمد السعيد الزاهري بأنه مسلم جزائري وجزائري مسلم في كل شيء ؛ في عقله وأدبه وفي أخلاقه وعاداته ، وفي لباسه وهندامه ، وعلى رأسه عمامة جزائرية (طوربانطي) ، وعلى كتفيه برنوس جزائري ، وهو من أكثر الناس تواضعاً وتزهداً ، وإذا حادثته في مسألة من مسائل العلم حدثك فيها بما يعلم حديثاً متواضعاً .

وقد ظل اسمه على الرغم من إحرازه الدكتوراه « الشيخ أبو شنب » على عادة أهل الجزائر الذين إذا ذكروا عالماً أو أديباً بالتكريم ولو كان فرنسياً - قالوا الشيخ فيكتور

هيجو ، والشيخ لامرتين ، بل إن صحفياً جزائرياً زار مصر ، ودخل جريدة السياسة وقال
أبن الشيخ هيكل (١) .

وقد اشترك الشيخ أبو شنب في جميع الامتحانات العالية في شمال إفريقيا ، وكان
من الضروري أن يرأس لجنة من لجائها تتألف من كبار العلماء والأدباء الفرنسيين .
ويذكر الزاهري أنه اشتهر بالثقة العلمية لا يمارس ولا يدارى . ولا يجامل ولا يحابي
وقد أسقط فتاة في الامتحان برغم دموعها ، وقال وددت لو أنها نجحت ، ولكني أسقطتها
أمانة للعلم : ما قيمة العالم إذا لم يكن ثقة ولا أميناً ؟

ويروي محمد سعيد الزاهري ذكرياته عندما التقى به في لجنة الامتحان في تونس ١٩٢٢
في الكلية الزيتونية مع العلماء الفرنسيين . فوجده عالماً جزائرياً غير متجنس بالجنسية
الفرنسية ، ورئيساً مشرفاً على لجنة علمية فرنسية يرأس جلساتها بملابسه الجزائرية ،
وبزيه الجزائري ، فلما حضرت صلاة العصر أوقف الجلسة للاستراحة وقام فصلي .
وكان إذ يلقاه من بعد يتحدث معه عن الكتب القديمة ؛ قال له مرة وهو في طريقه
إلى تلمسان : إذا عثرت على كتاب قديم في تلمسان وهي دار علم وفيها بقايا من آثار
السلف الصالح فأرجو أن تكتب إلي به .

ولا يزال اسم الشيخ أبو شنب حياً بفضل ما قدم للتراث العربي من أبحاث
وتحقيقات .

٢ - عبد الله كنون

لا شك كان إحياء الفكر العربي الإسلامي وبعثه عاملاً ضخماً من عوامل اليقظة ،
وسلاحاً بعيد المدى في مقاومة حركة التغريب ومؤامرة تمسيح المغرب وفرنسته وتجنيسه .
وفي الوقت الذي شغل فيه المفكرون والكتاب في المغرب العربي بالكتابة السياسية
والعمل الصحفي اليومي الذي يأكل الجهد ويتبدد مع الأيام والأحداث ، انصرف بعض
الباحثين إلى مجال العمل الفكري الخالص يتعشون تاريخ المغرب وآثاره الفكرية وسير
أعلامه ، ويكشفون عن الصفحات المشرقة من كفاحه ونضاله وأثره في الحضارة ودوره
في النهضة .

(١) الزاهري - المقتطف - نوفمبر ١٩٢٩ .

وفي هذا المجال ظهر كثيرون : منهم عبد الله كنون ، ومحمد القاسمي ، وعبد العزيز ابن عبد الله ، ومحمد بن تاويت الطنجي . وقد أنشأ « عبد الله كنون » عمليتين كبيرتين في هذا المجال ؛ عملاً آتمة ، وهو موسوعة « النبوغ المغربي في الأدب العربي » ، والعمل الذي يواصله وهو « ذكريات مشاهير المغرب » .

وقد كان لظهور كتاب « النبوغ المغربي » في ظل الاحتلال الفرنسي للمغرب دوى وصدى ، إذ وجد مقاومة ومصادرة ، وصدر القرار العسكري بمنع رواج الكتاب ومعاينة من تضبط عنده نسخة منه ، وكتبت صحيفة « السعادة » : لسان الحماية : صدر أمر يقضى بمنع الكتاب المعلن « بالنبوغ المغربي » في الأدب العربي الصادر باللغة العربية في « تطوان » من الدخول إلى المنطقة الفرنسية في المغرب الأقصى وبيعه وعرضه توزيعه .

وثارت الصحف ضد هذا التدخل في شئون الفكر . وكتبت جرائد الحرية والوحدة المغربية مقالات نارية ، ومع ذلك فإن الكتاب لم يتوقف ، وترجم إلى الإسبانية ، وقوبل بالتقدير ، ومنحت وزارة المعارف الإسبانية مؤلفه دكتوراه شرف للآداب من جامعة مدريد .

ولم يكن كتاب « النبوغ » تحدياً للاستعمار وحده ، ولكنه كان رداً على روح الإقليمية في الأدب ؛ فقد أصدر أحمد حسن الزيات كتابه (تاريخ الأدب العربي) وتجاهل تماماً المغرب وأدبه وأدباءه ، فكان ذلك عملاً مكملًا للنقص الذي وقع فيه صاحب الرسالة في ظل الإقليمية البغيضة التي كانت تقصر مجال الأدب العربي على مصر والشام والعراق (١) ، وتغضى عن الجناح الأيسر من العروبة .

وقد أشار إلى ذلك المؤلف قائلاً : « رأيت إهمال هذا الجزء من بلاد العروبة في كتب الأدب وكتب التاريخ » .

واستهدف المؤلف من عمله « بيان اللبنة التي وضعها المغرب في صرح الأدب العربي الذي تعاونت على بنائه أقطار العروبة كلها ، وذكر الأدباء المغاربة الذين لم يقصروا عن إخوانهم من المشاركة ومن مغاربة بقية أقطار المغرب العربي » في العمل على ازدهار الأدبيات العربية على العموم .

(١) كذلك فعل انيس المقدسي وأحمد ضيف وطه حسين وغيرهم .

« فلما بحثت ونقبت وجدت كنوزاً عظيمة من أدب لا يقصر في مادته عن أدب
أى قطر ، وشخصيات علمية وأدبية لها في مجال الإنتاج والتفكير مقام رفيع ، ولكن
الإهمال قد عنى على ذلك كله ..

فسمرت عن ساعد جدى وأنا يافع ، فتبعت جميع ما وصلت إليه يدي من آثار
أدبية مغربية ، وأخبار عن أدباء المغرب وعلمائه ... مما وقعت عليه في الكتب والأوراق
والمحافظ ، أو تلقفته من أفواه المشايخ والأدباء ... »

وقد أصبح هذا الكتاب منذ صدوره نقطة بدء في دراسات الأدب العربى في « المغرب »
إذ اختص « بأدب بلاد المغرب الأقصى وتاريخه » وقد ذكره بروكلمان في ملحقات كتابه
العظيم عن تاريخ الأدب ، وعنى به المستشرقون أمثال جيوفانى بيانكى . وقال عنه شكيب
أرسلان : « من لم يقرأه فليس على طائل في تاريخ المغرب العلمى والأدبى والسياسى » .

أما عمله الثانى الكبير فهو (ذكريات مشاهير رجال المغرب) وقد صدر منه الآن
أكثر من أربعين دراسة ، وهى حلقات صغيرة مستقلة ، تناولت عديداً من الأعلام
أمثال : - الشريف الإدريسي ، وابن بطوطة ، وعبد العزيز الفشتالى ، ومحمد السنوسى ،
وميمون الخطابى ، وابن زاكور ، وعشرات غيرهم .

وقد كان هؤلاء الأعلام من الباحثين المؤثرين فى الفكر العربى الإسلامى المغربى ،
ومن الشخصيات ذات الأثر المحسوس فى الصراع الحيوى ، والتى ظلت أسماؤها مدفونة
فى الأضابير حتى أعاد الكشف عنها .

وقد أشار المترجم له إلى الترابط بين عملية النبوغ المغربى وذكريات مشاهير المغرب
فقال : إنه بعد إصدار النبوغ بقيت فى النفس حاجات متعلقة بتراجم الأشخاص المذكورين
فيه ، خصوصاً المشهورين منهم ، والذين يوحى تتبع تراجمهم بمعان من السمو النفسى
والفخر الأدبى .. وسيصل هذا العمل إلى خمسمائة ترجمة .

ولم يقف عمل العلامة (كنون) عند هذا الحد ، بل إنه أسهم منذ مطالع الثلاثينات
فى صنع النهضة الفكرية والأدبية ، فكتب فى أغلب صحف المشرق ، وفى « الرسالة »
بالذات ، وله مجموعات من الآثار والأبحاث فى مجال النقد والترجمة والخواطر ضمنها
مؤلفاته : خل وبقل ، والتعاشيب ، وواحة الفكر .

وهو إلى هذا شاعر له عشرات القصائد في مختلف الفنون والمناسبات ، وعضو في
المجمع العلمي العربي في دمشق ، ومجمع اللغة العربية في القاهرة ، فضلاً عن أعماله الثقافية
في المغرب ، حيث يدير دار العلوم ، ويشرف على عديد من المعاهد الثقافية .

ولد بفاس (٣٠ شعبان ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م) وعند فرض الحماية الفرنسية على
المغرب (١٩١٢) خرج به والده مهاجراً ، وقد جعل قبلته المشرق ، ولكنه ما كاد
يصل إلى طنجة حتى تعذر عليه السفر لاندلاع الحرب الأولى وانقطاع المواصلات .
فاستقر بطنجة ، وفيها تتقن بالثقافة العربية الخالصة وألم باللغة الفرنسية ومختلف فنون
الفكر كالمنطق والفقه والفلسفة .

واتجه إلى الكتابة ، واتصل بالصحافة منذ مطالع شبابه

وأحب الشعر منذ صباه فنظمه في الرابعة عشرة : وهو يتزع في شعره نحو الحرية
والإشادة بها ، وله في فنون المديح والغزل والتشبيب والفخر والحماسة شعر كثير .

وتمثل بواكير شعره معاني العزة والإباء :

أحيد بنفسى أن تهان كرامتى	وأربأ أن أسعى لما يوجب العذرا
وفي طلبى للمجد ذقت مني	ولا زلت أستحلى لإدراكه المرا
ثباتى وحزمنى واشتهارى بمبدئى	ثلاثتها تكفى لأن أقهر الدهرا
يقول حسودى إننى متدنى	وكيف ونفسى قد تجاوزت الشعرى
لئن غره منى مداراة جاهل	فإن السياسى من يدارى الورى طرا
ولى بين أضلاعى وبين جوانحى	فؤاد يبرى فى حادثات الدنا صخرا

وقد شارك عبد الله كنون فى العمل السياسى الكبير الذى قام به المغرب من أجل
الحرية وكان له دور بارز ؛ فقد ترك طنجة ولجأ إلى تطوان احتجاجاً على ما قام به
الفرنسيون من خطف الملك محمد الخامس ، وذلك حتى لا يشارك فى البيعة للذى أقاموه
مكانه « ابن عرقة » .

واشترك في تطوان في الوزارة التي حملت لواء الكفاح والثورة ، فكان وزيراً للعدل ١٩٥٤ ، ولكنه لم يلبث بعد عودة الملك أن استقال وعاد إلى طنجة ، حيث ولى منصب حاكمها فترة من الزمن .

ومما يذكر له من إنكار الذات أنه على الرغم من عشرات الدراسات عن أعلام المغرب فإنه لم يكتب حتى الآن دراسة عن جده « محمد كنون » العالم السلفي الذي يجمع أهل المغرب على أنه مجدد القرن الثالث عشر .

ويمتاز العلامة عبد الله كنون (وكنون بتشديد النون اسم بربري معناه القمر) بسمت العلماء وطابع المصلحين ، وأنت حين تلقاه تحس كأنما قد انفتل من الصلاة سماحة واشراقاً . على حد تعبير « محمد الصباغ » . وقد جمع كما صوره (تقي الدين لعللي) بين خصال الشيوخ من سعة العلم والأدب وكمال العقل والمروءة وبعد النظر ومداد الرأي والحلم والوقار . إلى خلال الشباب من النشاط والحزم وفكاهة الحديث وحسن المحاضرة وطرافة النكتة ، مع صحة العقيدة والكرم والشهامة والوطنية الموزونة بميزان الشرع المحمدي ، المكتسبة من القرآن وسيرة الرسول ، وهو أبيض صبيح الوجه ، نحيف الجسم ، لا يلتزم زياً بعينه ، فصيح اللسان ، له شعر يصل فيه إلى حد الإبداع ، وله نثر منسجم مرصع بجواهر النكت ولطائف الملح ... » .

ولكنون عشرات البحوث الموزعة في صحف المغرب ، وله مقالات سياسية في جريدة الأنوار بإمضاء (أبو الوفاء) ، ومراجعاته في كتابات الأندلس ، وتاريخه من أهم ما كتب ، وكان قد تولى إدارة المعهد الخليقي للباحثين الذي أسس في تطوان ١٣٥٦ هـ والذي أطلق عليه معهد مولاي الحسن من بعد ، وأحدث به نهضة كبرى ، وأنشأ مسابقات لتأليف الكتب والبحوث في الموضوعات التاريخية الهامة ، وحقق به عملاً كبيراً للنهضة الفكرية .

كما صحح أخطاء المستشرقين . وله في ذلك مقال مطول بمجلد ١٩٣٧ من مجلة « الهداية الإسلامية » التي كان يصدرها المرحوم الشيخ محمد الحضر حسين في القاهرة رداً على كتاب « الأقاويل القرآنية في الكتب المسيحية » . وله بحث هام في أخطاء « المنجد » ولعبد الله كنون أحدث كتاب في تاريخ الأدب العربي في المغرب ، وأبحاث متعددة في مؤتمرات البحوث الإسلامية والمجمع اللغوي لم تجمع بعد .

« .. إن الجناح الغربي من العروبة يحافظ على تراث قيم من مخلفات الحضارة العربية الصميم ، وهذه الظاهرة قد تنبه لها فضلاء المشاركة الذين زاروا بلادنا وشهدوا بها في محاضراتهم ودروسهم وأحاديثهم .

والسبب في ذلك أن الحضارة العربية لم تجد نفسها بالمغرب أمام حضارات قديمة يمكنها أن تؤثر فيها ، ثم إنه لم يطرأ عليها ما يغيرها من مثل ما وقع بالشرق ، فلا هي اصطدمت بالمدنيات الفارسية والرومية والهندية ، ولا هي تعرضت لفتوح المغول والتر ، ولا دخلت حتى تحت النفوذ التركي ، والكل يعلم أن الخلافة العثمانية قد امتد نفوذها على كل البلاد العربية من الخليج الفارسي إلى جدة ،

ولم تستطع التسرب إلى المغرب حيث صمدتها دولة الشرفاء السعديين ثم العلويين من بعدهم ، وهكذا بقيت كثير من الأوضاع العربية سليمة في شتى المناحي الفكرية واللغوية والموسيقية والحضارية على وجه العموم . من هندسة معمارية وزخارف ومطبخ وملبس وغير ذلك من مظاهر الحياة .

ثم إن تراث حضارة العرب في الأندلس بقي كذلك محافظاً عليه في بلادنا مما كتب له الخلود . إذ امتزج مع الحياة واكتسب كذلك عمراً جديداً . أما ما بقي منه بإسبانيا فإنه لا يتسم بتلك السمة ، وهو كالأطلال البالية وسط المدن الحديثة ، أو كالغريب عن وسطه وأهله وأحبابه .

وتتضمن مجموع هذه المميزات على الحضارة العربية بالمغرب الأقصى طابعاً خاصاً يساعد على إحياء ماضينا المجيد ، وأن فيما حافظت لنا عليه كذلك جامعة القرويين التي مر على تأسيسها في هذه السنة ١٩٥٩ مائة وألف سنة سواء في خزانها أو في صدور علمائها ، ما يعتبر أيضاً ذخيرة يستعان بها على تحقيق الغايات السامية .. »

هكذا يعرض محمد الفاسي « منهجه في مفاهيم الأدب والفكر إزاء محصول ضخمة من الإنتاج في هذا المجال توفر عليه سنوات طويلة .

فهو المعنى بالجوانب الغامضة والناقصة والضعيفة في تاريخ الأدب بالمغرب الأقصى ،

يكشف عنها ويحققها ويضيف إليها ؛ ففى عديد من هذه الدراسات عن العصر الموحدي الأول والثاني والثالث ، ومن خلال ما نشره فى مجلة رسالة المغرب والبيئة ودعوة الحق ، وكل مجلات المغرب بلا استثناء ، كشف عن حياة شخصيات لامعة ضاع تاريخها فى غمار الأحداث أمثال : ابن دحية الكلبي ، والشاعر ابن عبد ربّه ، والفلكي الكبير أبو الحسن المراكشي ، وعبد الواحد المراكشي .

وقد صور هدفه من هذا العمل حيث يقول « إن أكبر ظاهرة تتجلى فى هذه الأبحاث لمن يتبعها بتدقيق ، هى أن المغرب الأقصى ساهم بأكثر قسط فى بناء صرح المدنية العربية ، وأنه أنجب فى ميادين العلم والفكر رجالاً كان لهم التبريز فى ناحية اختصاصهم كابن الباسمين مثلاً ، وقد كان من أكابر علماء الجبر ، وكالشريف الإدريسي العالم الجغرافى الشهير ، وعبد الواحد المراكشي المؤرخ العبقري وغيرهم .. ولكن برغم ما بلغه هؤلاء العظماء من التفوق فإن أبناء وطنهم أضاعوهم ، وطووا ذكرهم ، وأتلفوا آثارهم ، بل منهم من لم يخلف لنا المؤرخون حتى أسماءهم ، ولولا أن بعض آثارهم قد غابت الدهر ، وحفظ عليها فى خزائن أوروبا والمشرق لظلوا نسياً منسياً . »

وأحياناً تتاح له الفرصة للكشف عن علم من هؤلاء الأعلام ، ثم يجد بعد سنوات أن هناك من المعلومات ما يدعو إلى اجراء تحقيق جديد فلا يلبث أن يحقق سيرته من جديد ، من ذلك أنه كان قد فرض فروضاً لعبد الواحد المراكشي ، واستنتج استنتاجات ثم عاد بعد تسع سنوات ليضيف اليه معلومات جديدة بناء على ما وصل إلى علمه من مزيد من المعلومات .. وقد يجد أحياناً من الصعوبات ما يحول دون استيفاء ما يريد . فعبد الواحد المراكشي لا يعرف إلا عن طريق ما كتب عن نفسه فى مؤلفه ، ولا يوجد عنه شيء فى كتاب ، ولم يذكره مؤرخ مغربي واحد ، ولولا أن عناية خاصة حافظت لنا على نسخة فريدة من (معجبه) بإحدى خزائن أوروبا لما كنا نعرف عنه أدنى شيء ، وكأنه أحس بأن معاصريه سيهملونه فأثبت فى غضون مؤلفه كل ما أمكنه عن حياته ودراسته وتنقلاته ، ومن ذلك نستمث مواد ترجمته .. »

ومجال آخر أولاه محمد القاسى إهتماماً كبيراً ؛ ذلك هو مجال الأعلام الجغرافية ، فقد عنى بالأعلام الأندلسية (١) والأعلام المغربية (٢) وعلل إهتمامه بأن الأعلام الجغرافية الأندلسية قد أصابها كثير من الاضطراب والخطأ ، لكثرة ما يرد من أغلاط حولها فى

(١) مجلة البيئة - يولية ١٩٦٢ .

(٢) مجلة البيئة - مايو ١٩٦٢ .

كتابات المحدثين عن الحضارة العربية في الأندلس ، لأنهم ينقلون « العلم » كما يرد اليوم في اللغة الإسبانية والبرتغالية ، وأحياناً ينقلونه كما ينطق به في اللغات الأوربية الأخرى ، فلا يستطيع المثقف العربي أن يربط الحاضر بماضي الجزيرة المحيطة .

ومن ذلك كازابلانكا (الدار البيضاء) ومزغان (الجديدة) وموغاز (الصويرة) ، من أجل ذلك عمد إلى رد الأسماء الحالية إلى أصولها التي كانت مستعملة أيام العرب ، وأورد عشرات الكلمات ، وهذا هو الميدان الذي سبقه إليه أحمد زكي باشا ومحمد مسعود وشكيب أرسلان .

وبالنسبة للأعلام المغربية في مجال الجغرافيا تبين له أن معظم هذه الأسماء تنطق بمختلف اللهجات البربرية ، وقد أضيف إليها كثير جعلها مغربة لا يعرف لها معنى ، وربما لا يعرف لها أصل . ومن ذلك كلمات : زعلاغ ، وتغات ، وأكدير ، وتطوان ، وتيزي ، وتلغمت ، وزيمما ، وعين تواجطات ، وافران ، واتما ، وغيرها من مئات بل الآف الأعلام التي لها اسم عربي ، فإننا عند ما نقول (الجديدة) تتطور معنى وربما تاريخاً ، حيث إنها جُددت بعد ما استرجعت من يد البرتغاليين ، وكذلك حين نقول الرباط أو (رباط الفتح) نستطيع استحضار صفحة مجيدة . من تاريخ بلادنا .



وأولى اهتمامه للرحالة المغاربة وآثارهم ، وعنده أن الرحالة المغاربة قد تفوقوا في فن الرحلة ، وخلفوا فيه مؤلفات بديعة طبع بعضها وأكثرها لا يزال مخطوطاً ، ومنها ما تعتبر ضائعة ولم تعرف إلا بالنقل عنها في كتب التاريخ والأدب والتراجم .

ويرجع ذلك لعوامل مختلفة أهمها بعد الديار المغربية عن المشرق والحجاز . مهد الحضارة العربية ومهبط الوحي ..

وعنده أن من أسباب هذا التفوق ولوع المغاربة بصفة عامة بالسياحة ، وارتدادهم لأقاصي البلاد ...

ومن هنا أولى هذا الجانب اهتماماً ودراسة .

واهتم أيضاً بما يطلق عليه « الإفادات والإنشاءات » وهو فن قديم عرف في الأدب العربي المغربي ، يضم خلاصات للقصاصات واثكلمات الحكيم ونقل الأديب ، فقد أولى اهتماماً بهذه البطاقات التي يطلق عليها في المغرب (الكناشات) وهي عنده من أهم

الوثائق لدراسة الحياة الأدبية ، وهي دفاتر يسجل فيها رجال العلم والأدب في العصر الحديث غرائب النوادر والأخبار التي يقعون عليها أثناء مطالعتهم .

وقد عرض لعديد من هذه الكناشات أبو إسحق إبراهيم بن موسى الشاطبي في كتابه « الإفادات والإنشاءات » ، ومن ثم صار لهذه العبارة رواج في الأوساط العلمية . وفي العصر الحديث أولت مجلة « الرسالة » المصرية اهتمامها بهذا الفن فيما نشره محمد اسعاف النشاشيبي ، وما نشره حسن حسني عبد الوهاب في مجلة الجامعة التونسية .

يقول لأستاذ القاسي : وقد كنت منذ أول التحصيل أعني بجمع هذه القوائد والنوادر ، فحفزني عمل هذين العالمين الجليلين إلى نشر تلك الإفادات والإنشاءات في ملحق مجلة الثقافة المغربية ١٩٣٨ ، ومجلة المغرب ، ثم والاه (نوفمبر ١٩٦٢) في مجلة البيئة .

ولم يدع القاسي جانباً من جوانب التاريخ المغربي في مجال أعلامه وآثارهم دون أن يحققه ، وأولى اهتمامه لقصة الفتية المغرورين ، واكتشاف أمريكا ، وفي لقاء طويل معه تحدث معي عن هذه الفنون التي أولاهما اهتمامه .. وهي التاريخ الأدبي والتاريخ العام والتاريخ الشعبي واللغة والأمثال ، وعنده أن أهم هذه البحوث هو « الرحلة في الأدب العربي » ، فقد استطاع أن يجمع خمسمائة رحلة باللغة العربية بين مطبوع ومخطوط رحل في سبيلها إلى خزائن ألمانيا وهولندا وبلجيكا وإسبانيا وفرنسا وتونس وإنجلترا . يقول رأيت أدب المغرب في أكثر الرحالة المغاربة .

ومن أعماله الكبيرة « معلمة الأعلام » التي جمع فيها تراجم لكل نابه في المغرب والأندلس وهي في تقديره يمكن أن تصدر في أربعين مجلداً ، ولعله قد آتم حرف الألف منها .. كما جمع ٨ آلاف من الأمثال العامية ، وخمسة آلاف قصيدة من الشعر الملعون .

وقد شارك محمد القاسي منذ صباه في الحركة الوطنية السياسية ، وكان من أبرز أعضاء اتحاد طلبة شمال إفريقيا في باريس ، هذا الاتحاد الذي حمل لواء الدعوة إلى الحرية ، وأصدر عديداً من المجلات والصحف والبحوث ، وفي سبيل ذلك لقي كثيراً من المتاعب والاضطهاد ، وألقي به في السجن عام ١٩٤٤ . ونفى من فاس إلى الرباط ، وفي عام ١٩٥٢ سجن ونفى في صحراء (آل نيف) . وفي ١٩٥٣ سجن مرة أخرى ، وعندما تحقق الاستقلال ولي وزارة التربية والتعليم في أول حكومة وطنية ، ثم أصبح رئيساً للجامعة المغربية وعميداً لها ، ومضى في هذا العمل الثقافي الكبير فشارك في

النهضة الفكرية والمؤتمرات والمجامع اللغوية ، والصحف والمجلات ، ونشر عشرات الأبحاث في مختلف صحف العالم العربي .

وقد ولد محمد القاسم عام ١٨٩٥ في مدينة فاس ، ودرس في جامعة القرويين ثم في فرنسا ، حيث أحرز عدداً من الدبلومات ، وأتيح له أن يزور عواصم أوربا المختلفة خلال عامين كاملين ، فلما عاد عمل في التدريس في مختلف المعاهد الثانوية والعالية ، وجمع بين العمل الثقافي والوطني في حزب الاستقلال ، في تاريخ طويل كله كفاح وجهاد ، وأبرز معالم فكرة المزج بين الثقافتين الإسلامية والغربية ، وله إلمام واسع بعدد من اللغات ، من أهمها الفرنسية والإسبانية .

وقد أولى اهتماماً كبيراً بدراسات اللغة العربية ، وعنده أنه من الضروري الاهتمام بتعريب كلمات الحضارة الحديثة التي ما زلنا نعبر عنها باللفظ الأجنبي أو بكلمات محرقة عن أصول عربية ، ويرى أنه لا بد لنا من توحيد المصطلحات في العالم العربي حتى تندمج في لغة التخاطب ، إذ لا يكفي أن تكون لنا كلمة عربية لتعبر عن معنى من المعاني أو شيء من الأشياء ، ولكن لنتم وحدتنا يجب أن تكون لنا كلمة واحدة للتعبير عن الشيء الواحد .. .

من دراسات محمد القاسم عن أعلام المغرب

القاضي عياض : ابن جبروس ، الشريف الإدريسي
البيـدق ، ابن حـسام اللـخـمـي ، ابن عـمران الوردـمـيشـي
ابن عبد الكريم التميمي ، ابن الياسمين ، أبو جعفر بن عمر
عبد الحليل العضوي ، أبو العباس الجرادى ، عبد الواحد المراكشى
ابن جنازة الخطابي ، ابن دحية الثعلبي -- الشاعر بن عبدون
أبو الحسن الشاربي ، أبو الحسن المراكشى .

— مجلة الثقافة المغربية ١٩٤١ — ١٩٤٢

— رسالة المغرب م ١٩٤٣ و ١٩٤٧ و ١٩٤٨ و ١٩٥٢ :

٤- محمد عزيز الحبابي

برز اسم الدكتور محمد عزيز الحبابي بوصفه أحد أصحاب المذاهب الفلسفية الواضحة في المغرب العربي : ذلك هو مذهب (الشخصانية) الذي يقول بأن التكوين الفردي هو أساس التقدم ، وفي كتابه « من المغلق الى المفتوح » يكشف الدكتور الحبابي موقفه من الحضارة الغربية ، ويرسم الطريق إلى تكوين شخصية مغربية عربية إسلامية لها طابعها المميز عن طابع الغرب ، مع إيمانه بأن الحضارة ليست ملكاً للغرب ، وإنما هي تراث اشتركت فيه الأمم والثقافات فهي ليست وفقاً على أمة دون أمة ولا جنس دون آخر ، وعنده أن التقدم الاقتصادي أو العلمي ليس هو مقياس بلوغ الحضارة غايتها ، وإنما تكون القيم الإنسانية هذا الأساس فلا يصبح الإنسان مسخراً للآلة ، ولا يكون العلم والصناعة هي الغاية ، وإنما يكون وسيلة للتكوين والخلق والإبداع .

يقول في كتابه « من المغلق إلى المفتوح » :

إن لكل أمة ثقافتها القومية ، هذه الثقافة تشمل علوم هذه الأمة وآدابها القومية وأساليبها الأخلاقية ، والثقافة القومية تهدف دائماً إلى السمو في مستواها المحلي إلى مستوى الحضارة العالمية ، والحضارة تراث مشترك بين البشر ، أسهمت في خلقه أمم كثيرة ذات ثقافات مختلفة ، فلم تكن إذن هذه الحضارة وفقاً على جنس من البشر . ولا على قارة من القارات ، ولا نوعاً من الحياة المادية التي تخول لسكان بلد ما حياة مادية تظهر فيها السعادة .

وليس التقدم في الإنتاج الاقتصادي أو الميدان العلمي هو المقياس الصحيح لبلوغ هذه الحضارة غايتها ؛ وإنما مقياس التقدم هو الإيمان بالقيم الإنسانية ، ومن هنا جاء خطأ تسخير الإنسان لخدمة الإنتاج والصناعة ، والصحيح هو تسخير العلم والصناعة والإنتاج لخدمة الإنسان الذي هو غاية لا وسيلة .

والحضارة الغربية قد أخفقت إخفاقاً تاماً لأنها لا تعتبر هذه المقاييس الإنسانية وإنما عتبرت العلم والصناعة غاية لذاتها .

وعنده أنه من الضروري إيجاد التوازن بين حاجات الإنسان المادية والروحية ، ولا يتم هذا التوازن إلا بحصول الفرد على ثقافته القومية ، والعمل الحق ، وإن كان من الضروري أن يتحرر الإنسان من سيطرة العمل نفسه ؛ ذلك أن خضوع العمل للآلات والإنتاج يتناقى ومبادئ القيم الإنسانية ، ذلك أنه لا يكون العمل للبحث عن العيش فقط ، وإنما يكون وسيلة للتكوين والإبداع والخلق ،

وقد رد على مزاعم الغربيين من أن الحضارة العالمية تقتصر على القارة الأوروبية التي نشأ فيها العلم والفن (للإغريق) والقوانين والنظم (للرومان) ، وقال : إن زعيم هذه الحركة التعصبية هو « رينان » الذي زعم أن الشعوب السامية لا تعرف إلا بالصفات السلبية ، وليس لها ثقافة ولا فن ولا علوم ، وقد أوضح الدكتور الحبابي أن لكل أمة قسمها من الحضارة العالمية ، وأن المتخلفين يوجدون في كل أمة بما فيها أوروبا ، حيث لا يزال بعض الأشخاص يؤمنون بالسحر والحرافات التي ينكرها الذوق السليم . وأن للأمة السامية آدابها وفنونها التي تغذت بخيال غني .

وفي كتابه « إفلاس الحضارة » يؤكد هذه المعاني ويجليها على نحو آخر مؤكداً مذهبه الشخصاني فيقول « إن الحضارة قد حادت عن السبيل القويم ولم تستجب لمطمحننا في الكمال وتمام الصلح بين الأنا وذاته ، ومساعدتها على التفتح التام ، وعنده أن نظم الحكم والمذاهب الفلسفية والأخلاقية نتجت عن انعدام التوازن بين نزوعنا وآمالنا ورغباتنا من جهة ، وبين أعمالنا والنتائج التي حصلنا عليها ومشاريع المستقبل من جهة أخرى ، لذلك أصبحنا نعيش في قلق عميق من خلال تناقض وضعنا » .

وهو يعلن دائماً وأيه الرامي إلى إنسانية الحضارة بحيث لا ينمو جانبها المادى ، مع توقف جانبها الروحى والفكرى ونجمده فيقول : « إن دعاة المذهب الإنسانى في كل العصور وبخاصة في عصرنا يرغبون في أن تتطور الإنسانية في ثلاثة أبعاد مرة واحدة ، وهى الأبعاد المادية والثقافية والأخلاقية ، وأن الرغبة في إقامة علاقة وطيدة بين معارفنا وواجباتنا لم تخرج إلى حيز التنفيذ ، وعنده أن الثقافة الجيدة هي التي تدفع كلاً منا إلى السهر على الأخلاق وتقدم الجميع »

ويدعو الدكتور الحبابي إلى مقاومة القيم البراقة الكاذبة ، والإقليمية الضيقة ، ويرى أن القوميات يجب أن تعمل في خدمة المثل العليا متمثلةً بهذه الحكمة « من لا يفهم

على ما للغير وبالغير ، لا يفهم ذاته ، ذلك أننا نتكون مع الآخرين وبالتكامل معهم .

ومعنى هذا إيمانه بضرورة الارتباط بالثقافة والحضارة الغربية ، فإنه يؤمن باستقلال الشخصية والمحافظة على الكيان الأساسى ، ويحتاط لذلك حين يقول « إذا كانت البيئة واجبة لصيانة الجسم ، فإنها ليست أقل حتمية منها فى ميدان الثقافة والمعنويات » ولذلك يجب تحرير مفاهيمنا ، وإن أول ما يفرض واجب تحرير المفاهيم فى مجال البحث والثقافة هو أن نشخص أدواءنا بلا مجاملة ولا نرجسية ولا محاباة على قاعدة « قل الحق ولو على نفسك » ولابد من النقد الذاتى حتى يقوم استقلالنا العتلى على أسس واضحة مركزة .

ويبدو الدكتور الحبابى من خلال كتاباته وافتتاحيات مجلة (آفاق) وهو يمزج بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية ، فهو ليس من المندفعين فى الدعوة إلى اقتباس كل الجديد ، يقول « ليس ضرورياً أن يكون حتماً الصلاح فيما هو جديد ، ولا شك أن الجديد جديد بما فيه من عناصر الماضى ، لأن الماضى لحمة ودم كل تجديد ، فالرجعية ليست مرادفة للقدم ، كما أن الطارىء ليس لزماً تطوراً وسيراً إلى الأمام ؛ فإن للماضى آفاقه وأعماقه وللجديد آفاته ومحامده » .

وعنده أنه يجب الاحتفاظ بكل ما هو أهل للصيانة ، مع التضحية بكل ما يجعل الخطأ تتعثر ، وبكل ما يعاكس التاريخ الحضارى الزاحف .

ومن رأيه أن الأدباء لن يكونوا إلا ملتزمين ، وأنه لم يبق هناك مجال فى حقل الفكر الحصيب للقول بنظرية الفن لأجل الفن ، وعنده أن الالتزام فى الثقافة هو أن يتبنى الكاتب أو الفنان أو المفكر قضايا الإنسان المصيرية ، ويتحمل مسئولية الدفاع عن كرامة الإنسان وحرية .

ويؤمن الدكتور الحبابى بالانفتاح على الثقافات العالمية بقطع النظر عن الانتماء السياسى أو العقائدى ، وكنا نحب أن يورد دائماً تحفظاً على هذا الانفتاح برمى الى المحافظة على شخصيتنا الأساسية وقيمنا الأصلية .

وعنده أن الماضى القومى والعام الإنسانى يعكس كلاهما ضيائه على الآخر ، وأن الذى لا يأخذ لن يستطيع أن يعطى ، « فالثقافات يلحم بعضها البعض ويلقحه ، ولولا هذا التكامل السرمدى لذبلت المعرفة وتجمد الفكر البشرى »

ويؤمن الدكتور الحبابي باللغة العربية ، وإن كان لا يكتب إلا بالفرنسية في الأغلب وكتابه « من المغلق إلى المفتوح » كتبه بالفرنسية ، وكذلك كتابه « إفلاس الحضارة » الذي نقلت منه مجلة « دعوة الحق » فصلاً ترجمه محمد براده ، وبالرغم من هذا فإن إيمانه باللغة العربية بالغ القوة يقول : « وعندما ترغب أمة على ترك لغتها القومية إلى لغة أجنبية فإن هذا يعني أن جداراً يقام بينها وبين ماضيها ليفصلها عن جذورها الفكرية والثقافية والروحية ، ويعني أن تصدعاً هائلاً أخذ يزلزل كياناتها وبناءها الاجتماعي كأمة موحدة ، ويعني أنها تواجه عملية تحويل خطيرة تهدف إلى مسخ وتشويه ماتملكه من مقومات وتراث وقيم وتقاليده وأخلاق »

وبعد فالدكتور الحبابي فيلسوف الشخصية ، وعميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط ، وإلى هذا هو شاعر له ديوان رقيق من الشعر المنشور أطلق عليه اسم « يؤس وضياء » نال به جائزة وزارة التهذيب الوطني بالمغرب عام ١٩٥٩ .

ومن مؤلفاته الفلسفية « من الكائن إلى الشخص » و « أحرية أو تحرر » وكتابه « مفكرو الإسلام » هو أول كتبه أصدره عام ١٩٤٧ وهذه الكتب بالعربية ، وله مؤلفاته الأخرى بالفرنسية ، وفي مقدمها كتابه عن الشخصية ، و « من المغلق إلى المفتوح » و « إفلاس الحضارة » .

وتعطي مؤلفات الدكتور الحبابي وكتاباته شخصية الباحث العربي الواضح الإيمان بفكرته ، الذي قرأ كل ماجاء في مادته وموضوعه ، وألم إلاماً كاملاً بكل مايتصل به مما كتب الفلاسفة والباحثون ، ثم تبدو قدرته وشخصيته في مقارنة هذه الآراء ومراجعتها ونقدها واستخلاص مذهب واضحاً غير منقول ولا مترجم ، يصدر فيه عن إيمانه بأمة ووطنه ، ويبدو فيه مرتبطاً بالطابع القومي والعربي ، وفي نفس الوقت على مستوى الفكر الإنساني .

ويبدو عمل الدكتور الحبابي واضحاً وإيجابياً في مجال بناء فلسفة عربية إسلامية مغربية جديدة .

٥ - أبو القاسم كرو

« كان الاستعمار الفرنسي في أثناء احتلاله البغيض الطويل لوطننا يهدف في ميدان الثقافة والفكر إلى غايتين خطيرتين بين غاياته الخطيرة المتعددة هما :

نشر الجهل الكامل بكل ما يتعلق بتاريخنا وماضيها وكل ما يتصل بتراثنا الممتاز ورجالنا الخالدين بين المتعلمين في مدارسهم حتى يشب أبناءنا وهم لا يعلمون عن تاريخ شعبهم وأجدادهم وتراثهم أي شيء ، بل يعتقدون أن شعبهم ليس له تاريخ ولا ماض ولا تراث أو رجال يعتز بهم ، بل هو شعب تافه ضائع عبر العصور ، تاريخه ظلام وماضيه عقيم .

تعليم أبنائنا كل صغيرة وكبيرة عن تاريخ فرنسا وأجداد فرنسا ، وجغرافية فرنسا ، وأبطال وعظماء فرنسا حتى يشبوا وهم يعتقدون أن فرنسا هي موطن الحضارة ومنبع المعرفة ، ومصنع العباقرة الخالدين من علماء وأدباء وفلاسفة وفنانين ونبغاء في شتى الميادين .

وغاية الاستعمار من هذين الهدفين واضحة كل الوضوح ، وهي أن يثير في نفوس أجيالنا الاشتراكيين من الانتساب إلى أمتهم ، واحتقار ماضيها الفارغ وتاريخها السقيم ، وجعلهم ينظرون إلى فرنسا في حالة من الإجلال والتقدير دونها جلال الآلة وتقديس الأنبياء .

والأمة التي يستطيع الأجنبي أن يغير مقاييسها ويبدل ولاءها ويضيف شخصيتها ويمسح عقلها إنما هي أمة تافهة حقاً ، ضائعة فعلاً ، مصيرها الفناء ونهايتها الزوال .

والاستعمار بعد ذلك يرمى إلى وأد الشعور بالكرامة والإحساس بالذات التاريخية التي تملأ النفس اعتزازاً والقلب إيماناً والفكر بصيرة ووعياً بكيان الأمة وحققها التاريخي - فضلاً عن الواقعي والطبيعي - في أن تعيش أمة مستقلة بحياتها ونظامها وشؤونها مثلما هي مستقلة بذاتها وتاريخها وأجدادها .

ولهذه الأسباب مجتمعة كانوا يعلمون أولادنا في مدارسهم عظمة ديكارت و نابليون

وجول فيرى ، ويهملون ثماماً عظيمة ابن خلدون ، وأسد بن الفرات ، وخير الدين التونسي . بل إن ضميرهم قد بلغت به الغواية والإثم حداً سمح لهم بأن يعظموا « جول فيرى » الذي فرض على تونس الاحتلال والأغلال ، وما يتبعهما من عبودية ومهانة ؛ أن يعظموه بكل مظاهر التعظيم والإكبار ، فأقاموا له تمثالاً في أعظم شارع بعاصمتنا ، وأطلقوا اسمه على نفس الشارع ، بل بلغت بهم الحماسة وجرأة التحدى أن سموا مدينة كاملة باسمه « فيرى فيل » بينما لانجد أى ذكر لرجل آخر عاصره وقاوم سياسة بلاده التي كانت تكيد لنا وتبهيء الظروف لاستعمارها وابتلاع وطننا ، ذلك هو « خير الدين » الذي كان يبذل كل جهد ، ويعمل بكل وسيلة لإيقاف الخطر المترصد .

ويصل الاستعمار إلى نهاية الضلال والأنانية العمياء ، حين يمحو كل أثر لخير الدين في هذا الوطن ، وخاصة في المدرسة الصادقية ، ذلك المعهد الذي أسسه خير الدين ليكون نواة المعرفة الحديثة ، ومعنع الرجال الجسورين الذين سيغيرون وجه التاريخ ، ويتحملون الأعباء التي عجز خير الدين عن حملها ، ويحفظون لتونس كيائها وشخصيتها .

تمثل في كلمات « أبي القاسم كرو » معالم فكره ، وصورة أهدافه ، في عمله الكبير الذي قام به منذ عام ١٩٥١ ، عندما أصدر كتابه « ماى شهر الدماء والدموع في المغرب العربي » .

وقد جعل من دراسات الأعلام مجاله الأوفى ، وله في هذا أربع دراسات هامة عن : خير الدين التونسي ، ابن خلدون والعرب ، الشابي (كتب عنه ثلاثة مؤلفات (١)) وطاهر الحداد ، ومن أعماله سلسلة (كتاب البعث) التي أصدرها وأولاها جهده سنوات متوالية استوعبت دراسات باقلام أغلب كتاب تونس : عثمان الكعاك ، محجوب ابن ميلاد ، محمد الخليوي ، محمد مزالي ، محمد العروسي المطوي ، الطاهر الحميري ، مصطفى رجب ، عبد الكريم بن ثابت .

كما نشر لكتاب الجزائر والمغرب من أمثال : أحمد رضا حوحو ، وعبد المجيد ابن جلون ، ومحمد الصباغ ، مبارك الميلي .

واستوعبت السلسلة دراسات للمرأة العربية : ناجية ثامر ، وتزييه الديلمي ، أما أبو القاسم نفسه فقد قدم بها عديداً من الدراسات المتنوعة ، وشارك بها في أحداث العالم العربي

(١) الشابي حياته وشعره (١٩٥٢) كفاح وحب (١٩٥٢) كفاح الشابي (١٩٥٤) .

وقضاياه وأمامي كتابه (صوت الجزائر) الذي آزر به ثورة الجزائر في إبانها بعمل فكري نافع . وفي كتابه « مايو أوماي شهر الدماء والدموع » صور رائعة عن كفاح المغرب العربي ، واحتلال الجزائر وتونس وقصة الظهير البربري (المغرب) والمؤتمر الأفخارستي (تونس) وحادث سطيف (٨ ماي) في الجزائر . وقد استعنا بهذه الأبحاث في دراساتنا عن المغرب العربي ولا شك أن كرو كان « أول من اهتم بالشاعر التونسي المغربي النابغ « الشابي » ، و كتابه عنه أول ما كتب في الأدب العربي المعاصر ، وهو الذي فتح الباب لعشرات الدراسات والبحوث .

كما أولى ابن خلدون اهتماماً كبيراً ، وناقش كل ما وجه إليه من اتهامات ، وما كتب عنه طه حسين وأحمد أمين وسلامة موسى ومحمد عبد الله عنان ..

يقول « في اعتقادي أن بعض المستشرقين بدأ آثمة ، في إفساد تاريخنا وتشويه حقائقه وأمجاده ، وهو ما يمكن تماماً اعتباره امتداداً للشعوية الفارسية القديمة ، حيث أصبح لأوروبا ، وللمغرب بوجه خاص ، هدف معلوم ومقصود لتشويه تاريخنا ، وإعطاء حوادثه وحقائقه تفسيرات خاصة ، تهدف إلى التقليل من شأن العرب ، إلى إحداث الفتنة والبغضاء بين أفراد الشعب الواحد ، بدعوى اختلاف العرق أو السلالة أو اللغة والتاريخ » .

وأبو القاسم محمد كرو من أبرز كتاب المغرب العربي ، وقد أعد نفسه لكشف الصفحات المجيدة في تاريخ تونس والمغرب أعطى أسلوبه هذا الطابع المشرق تعدد مناحي ثقافته الزيتونية القاهرية العراقية ، فقد أتبع له أن يتلقى دروسه الأولى في الزيتونة موثلاً الضياء في الشمال الإفريقي ، ثم هاجر ١٩٤٨ إلى الشرق العربي عن طريق ليبيا ، حيث التحق بالجامعة المصرية ، ثم كان في أول بعثة تونسية للعراق أرسلها مكتب المغرب العربي بالقاهرة ، فالتحق بالكلية العسكرية ، والتحق بالمعلمين العالية وتخرج فيها ١٩٥٢ .

فلما عاد إلى « قفصه » مسقط رأسه أسس جمعية شباب ابن منظور ، ومنذ ذلك الوقت بدأ نشاطه وعمله في مجال التأليف والنشر ، فكتب للإذاعات العربية والصحف العربية وألقى عديداً من المحاضرات ، وأتبع له أن يزور الشام وأن يقيم بالعراق أربعة أعوام ، وليبيا عامين ، حيث اشتغل بالتدريس في مدرسة طرابلس الغرب الثانوية ،

فتولى التدريس في الزيتونة ، وقد أصدر أخيراً مجلة (الثقافة) فجاءت عملاً
نافعاً أنيقاً .

له كتابات منتورة في معظم صحف المشرق والمغرب ، وله اهتمامات كبيرة
بالأدب العراقي ، وبالشعراء العراقيين على وجه الخصوص .

ولم يدع كرو مجالاً دون أن يثبت قدمه فيه ، وفي مجال القصة له « كفاح وحب » ،
تأثر فيها بأسلوب المهجريين ، مع الاحتفاظ بطابعه ككاتب مغربي عربي .

٦ - علي مصطفى المصراقي

« طرابلس الغرب : اسم حلو عذب . سمعته لأول مرة من أمي وأبي وهما يتحسان
على مسمى تاريخ هذا البلد . وقصص البطولة فيه . وأدوار الجهاد الوطني لأبنائه ،
وكانا مشردين مهاجرين فرا من اضطهاد الاستعمار الظالم مع آلاف المهاجرين ،
وقوافل القادمين على الإبل والأقدام ، قاطعين الصحراء اللافحة ، تاركين وطناً
مغصوباً ، قادمين أرض مصر الحبيبة ، قبلة الأحرار .

ونشأت في مصر مثلهفاً على رؤية هذا البلد العربي ، ولم تتح لي زيارته إلى عام ١٩٤٨ ،
حيث قدمت هيئة لتستفتي أهله عما يريدون في المستقبل ، حيثئذ أسرعت إلى طرابلس
لأول مرة خطيباً وداعياً إلى الحرية ، وطفقت ليبيا بلداً بلداً ، وقرية قرية ، أخطب
من الأعماق ، الحب وأحمس وأنادي بالاستقلال والحرية متبرعاً ، تاركاً دراسي
وأهلي في مصر . »

ومن هنا بدأ الكاتب الليبي رسالته : هذه الأمة التي جاهدت منذ ١٩١١ من
اللحظة التي وصلت فيها أساطيل المستعمر الإيطالي إلى شواطئ برقة ، وظلت تكافح
حتى تحررت ١٩٥٢ ، كان لا بد أن يكتب تاريخها هذا الطويل ، خلال أربعين عاماً
بمعاركه وأبطاله وشهادته ، بشعره وقصصه وأساطيره ، ولا بد من كاتب يتجرد
لهذا العمل ، ويحمل على كفيه مسئولية الريادة في كل هذه المجالات ، وقد اختار
علي مصطفى المصراقي هذا السبيل فبدأ يعمل في كل مجال من مجالات الفكر ، يريد

أن يرسم ملامح الفكر العربي في ليبيا من جوانبه المختلفة ، وهو حتى بأن يقدم عصابات مختلفة تصور المعالم المتنوعة للحصاد الفكري ، والملاحم السريعة للصحافة والأسطورة وقصة التاريخ وسيرة البطل والأمثال العامة والشعراء الذين لم يجمعوا دواوينهم ، وانكتاب الأبطال والأعلام ، وقد أستطاع أن يقدم فعلاً في هذا المجال آثاراً نافعة .

ومن أبرز آثاره : « غومة فارس الصحراء »

وهو صفحة من تاريخ ليبيا من عام ١٧٩٥ إلى ١٨٥٦ من خلال حياة هذا الفارس الذي حمل لواء الثورة على الحكم العثماني خمسة وعشرين عاماً . ودعا إلى مقاومة مظالم الولاة العثمانية ، وتحرير المواطن العربي الليبي من استبداد الأتراك .

وقد كشف في هذا الكتاب عن جانب من تاريخ ليبيا في معركة الحرية ، وكيف قام فرسان ليبيا لصعد كل غاز أجنبي ورد كل اعتداء ، وكيف تصدى هؤلاء الفرسان المغاوير - على حد تعبير المصراقي - لقراصنة البحر ولصوص الشواطئ وردت بطولاتهم الإسبان والمالطيين والنورمانديين والفرنسيين والطلليان . ومن هؤلاء « غومة المحمودي » بالذات يرسم من خلاله صورة من صور الكفاح البطولي في ليبيا ، لأن الدارسين أهملوه ، والخصوم شوهوا حركته . وتكاد رمال النسيان أن تجرفه . وقال : إنه بينما أهملته الدراسات والبحوث التاريخية فقد تلقفه الأدب الشعبي ، وسارت معاركه مادة دسمة للأسمار والأقاصيص . وقال المصراقي : كنا نسمع من جداتنا وأمهاتنا ألواناً من الأقاصيص المثيرة والأسمار الحلوة حول (غومه) وفروسية أصحابه . غير أن الكاتب رأى - حينما أراد أن يكتب سيرته - أن يعتمد على التاريخ والحقيقة ، ولذلك لجأ إلى الوثائق المعتمدة والمصادر الوثيقة ، للكشف عن الحقيقة ، ولم يعتمد على ما يدور في الأفواه ، ولم يعتبر عمله الأدبي دراسة للأدب الشعبي ، وإنما اعتبرها دراسة تاريخية محققة ، وعنده أن الدراسات الشعبية قد تكون عوناً وسنداً للدارس في رحاب التاريخ ، ولكنه لا يقبلها إلا بقدر ، ذلك لأن الفارس « غومه المحمودي » كان إلى ما قبل دراسته هذه مجهولاً لدى القارئ العربي .

وموجز حياة « غومه » كما أورده المصراقي في كتابه الذي دعمه بالوثائق المخطوطة ، هو حامل لواء المقاومة العربية في وجه استبداد الولاة الأتراك الذين حكموا ليبيا ، وقد لقيت حركته تجاوباً في مضارب العرب ومناخ عشائريهم ، فقد حمل مطالبهم

في تخفيف الضرائب الباهظة التي كانت تمتص ثروة البلاد وتلهب ظهر الشعب ، وفي تحرير المواطن العربي ، واصطدم (غومة) بالولاة الباشوات . وقد حرص أن يجعل معركته معهم وحدهم ، دون أن يعلن الخصومة على السلطان لهيبته وقديسيته — إذ ذاك — لدى الناس ، فكان حين يهاجم الولاة ويسميهـم بالظلمة ، يعلن إخلاصه وولاءه للسلطان ، ولكنه لا يتوقف عن شن الغارة عليهم ويقود الهجوم إثر الهجوم في مطلع القرن التاسع عشر .

ولقد واجهت سلطات الأتراك حركة (غومة) بمتهى العنف والشدة ، وأهمته بالعصيان والتمرد والتشنى والطمع في النهب والسلب ، وحشدت كل قواتها لتضييق الخناق عليه والضرب على أيدي مؤيديه ، واستعملت في ذلك أعنف الوسائل ، من سجن ونفى وتشريد وإعدام ومصادرة للأموال ، كما عملت على إغراء كثير منهم بالمطامع ، وبثت الفرقة بين أنصاره .

وغومه — كما رسم صورته المؤلف — فارس جرىء ولد على ظهور الخيل ، وقد لقيت حركته تأييد القبائل ، فاستمر في حركة منظمة ربع قرن كامل ، واستطاع هذا الرجل البدوي أن يثبت في ميدان المقاومة كل هذا الوقت بعد أن اقتنع العلماء والمثقفون بصدق حركته ، فلم يقم أحد منهم بالدعوة ضده ، ويرى المؤلف أن ذلك يعطى حركة « غومة » كل التقدير في هذه الفترة المبكرة من أوائل القرن التاسع عشر ، من أجل المطالبة بحق المواطن العربي إزاء سلطات الأتراك المسيطرة على الحكم .

ولم تكن حركة (غومة) هي الحركة الأولى من أجل حق المواطن العربي ، ولكنها كانت الحركة الكبرى التي استمرت أطول فترة ، والتي كانت أكثر تنظيماً ، والتي حققت نتائج هامة أبرزها خلف الوعي بين القبائل في شطوط الصحراء ، وتحويل الإغارات من أجل السيطرة القبلية المحضة إلى شأن أكثر أهمية وهو المطالبة بالحقوق ، فضلاً عن أنها جمعت القبائل ووحدت صفهم على هدف وطني واحد ، وآية ذلك أن جميع هذه القبائل قد أعانت (غومة) في كفاحه الخطير وأمدته بالمال والرجال ، ويرى المؤلف أنه يكفى (غومة) أنه خلق هذه الروح في جوف الصحراء .

ولقد حرص (المصراى) على أن يستخلص صورة صادقة لشخصية (غومة) من خلال الأساطير والأقاصيص والأشعار المتناثرة عنه في البادية إلى أطراف تونس والجزائر ، وكانت محاولته شاقة حقاً في أن يضع خيطاً دقيقاً فاصلاً بين الأسطورة

والحقيقة على أساس بحث علمي قوامه الترجمة الذاتية لا القصة .

واستعرض المؤلف هدف (غومة) وتساءل : هل كان في الوصول إلى لقب أو مشيخة أو برنس (شعار للرأس يهدى للأبطال) وقال : إنه كان قبل حركته شيخاً لقبائله وأنه حاز برنساً أكثر من مرة وأعطى لقب (باش تويجي) وأنه لم يهدف من حركته إلى مجد شخصي ، وإنما كان يتطلع إلى ما أورده كثيراً في رسائله « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت » .

وأشار إلى أنه في حركته كان حريصاً معترفاً بلغة بلاده ، فكان لا يكتب للسلطان إلا بها معتبراً إياها مقوماً من مقومات عروبه .

كما أشار إلى أن الأتراك أصموا آذانهم عن دعوته ولم يستمعوا إليه ، ولكنهم اضطروا بعد موته إلى الاستجابة لما دعا إليه فغيروا كثيراً من أنظمتهم وخففوا مظالمهم . وقال : « إن (غومة) أوجد روح الاعتزاز بالوطن ، وبذر بذرة القومية فولدت في النفوس طيب الثقة بالعروبة ، كما أورد نماذج مختلفة من رسائله وأشعاره ونوادره وأمثاله .

وعلى الحملة فإن كتاب (غومة) هو واحد من الأعمال الأدبية التي قدمها الكاتب العربي الليبي (علي مصطفى المصراي) في جملة من دراساته التي يقدم بها عصارات كثيرة من الثقافة والتاريخ لحياة ليبيا الأدبية ، وهو كاتب منوع الإنتاج يحاول قدر جهده أن يكشف عن جوانب التاريخ الأدبي في مؤلفاته المتعددة : أعلام من طرابلس . لمحات أدبية من ليبيا ، صحافة ليبيا في نصف قرن . دراسات في الأدب الشعبي . مدرسة الجغبوب وأثرها الفكري والاجتماعي . أبو قشة الصحنى الليبي . إبراهيم الأسطى . همر شاعر ليبيا . أسد بن القرات فاتح صقلية . أحمد الشارف وديوانه ، الشراع الممزق (مجموعة قصص) .

وقد صور المصراي هدفه من عمله الأدبي في مقدمة كتابه (أعلام من طرابلس) (١) فقال : إن أكثر ما أهتم في تاريخ هذا البلد الجانب الثقافي والفكري ، جانب تراجم الأعلام والعلماء والأدباء ، فقد كتب في التاريخ السياسي والتاريخ القومي كثير وكثير . وقال : إن تراجم الأعلام باب لم يطرق ، وجانب لم يلمس ، مع أنه ناحية هامة ، فتراجم

(١) صدر عام ١٩٥٥ .

الأعلام مرآة تنعكس عليها صور من الحياة الفكرية ويلبس فيها مدى التطور الأدبي ،
الذى هو مقياس الحضارة والرقى . وأشار إلى أن « ما أصيبت به البلاد من هزات عنيفة
وكوارث مؤلمة ونكبات مروعة ، وما أصابها من استعمار بغىض أسود زهاء ثلاثين
عاماً كاد يقضى على كل ماله صلة بالعربية والفكر الإسلامى .. من أجل هذا ذهبت أكثر
الآثار القديمة والمؤلفات التى كتبها أعلام الفكر والأدب والفقه ، وامتدت يد السرقة
والنهب والجهل إلى تلك الآثار فكاد أن يصبح هذا الجانب قاعاً ياباً أجرداً .

وقال : إن هذا هو ما دفعنى إلى مواصلة الجهد ، والبحث عن الشوارد والأوابد
والمخطوطات والرقاع والأوراق المبعثرة المهمة ، وقد جعل ميدان عمله « من القرن
الرابع الهجرى حتى العصر الحالى » ، ومجاله الجغرافى : طرابلس ، برقة ، فزان .

وقال : إنه حاول أن يجعل من هذه التراجم الأدبية لبنة فى التاريخ الثقافى والتطور
الفكرى ..

وفى (أعلام من طرابلس) وهو باكورة عمله : كشف النقاب عن كثير من النماذج
« التى كاد يكتنفها الغموض ويحيط بها الإبهام » أمثال : أحمد البهلول ، مصطفى
الكاتب ، محمد الحروبى ، أحمد بن شتوان ، سليمان البارونى ، إبراهيم باكير ،
إسماعيل كمالى ، مصطفى بن ذكرى ،

ويتحدث دائماً عن بطولات شهداء الجبل الأخضر ، ووادى الكهوف ، وميناء
طبرق ودرنة ، وأجدابية ، ومصراته ، وهى بطولات ذهب فيها نصف الشعب .

وهو فى « إلقاء الأضواء على التراث المنطوى المتروى وعرضه ونفضه وتقديمه »
يرى أن هذا العمل ضرورى حتى لا يقول لنا كتاب الغرب والمستشرقون . خذوا تراثكم
من بين أيدينا ، ونحن – شباب انعرب – أولى بالبحث والتنقيب عن كنوز بلادنا وإتقاذ
التراث الأدبى من الضياع ، فالأدب هو وقود الوطنية والمشاعر . ولا حرية لشعب
لا يتمتع بمذاق أدبه .. »

٧ - الشناقطة

قدمت شنقيط « للحركة الفكرية المغربية جهداً واضحاً ، وتردد اسمها طويلاً ، ولمع أعلامها في كل مجال ، وفي مصر بالذات كان للشناقطة دور هام ، وذكر واضح .

وشنقيط مدينة من مدن (أدرار) واقعة على جبل غربي الصحراء الكبرى وشرق السنغال بين السودان والمغرب .

وأمامي منهم عدد كبير وأبرزهم : محمد محمود بن أحمد بن محمد التركي الشنقيطي المتوفى ١٩٠٤ ، وصديق الشيخ محمد عبده ، ونزيل مصر ، وأستاذ السيد محمد توفيق البكري .

وقد عرف بالعلم الواسع والفضل في مجال اللغة والشريعة والأنساب ، اتصل بعلماء الأزهر ، سليم البشري ، أبي الفضل الجيزاوي ومحمد نجيت ، وجرت بينه وبينهم مساجلات .

وكان قد اتصل بالقرويين ، وعرف الثقافة الفرنسية وحرر في جريدة « السعادة » . ومن تصانيفه « الحماسة السنية الكاملة المزينة » ، في الرحلة العلمية الشنقيطية ، « وتصحيح كتاب الأغاني » ، « وحاشية على شرح لامية العرب » .

وصفه عبد الرحمن البرقوقي (١) بأنه كان نادرة في الحفظ والاستظهار ، وآية في اللغة والنثر والحديث وعلم الأنساب ، وأنه كان لا يخشى في الحق لومة لائم ، وقال : إنه قرأ عليه بإيعاز من الشيخ محمد عبده المعلقات السبع ، وكتاب الكامل للمبرد ، ووقف على الكثير من نواته وغرائب أطواره .

وقد اتصل في القاهرة حين قدومه إليها بالسيد توفيق البكري تقيب الأشراف . الذي استأجر له ولأهله داراً وثبت له مرتباً شهرياً لقاء دروسه ومجالسه العلمية التي كان يعقدها معه .

ثم قصد إلى مكة فالمدينة ، ووقع بينه وبين علمائها خلاقات في وجهات النظر ، فاتجه إلى القسطنطينية والتقى بالسلطان عبد الحميد الذي كلفه بمراجعة الكتب العربية الموجودة في إسبانيا ، وأرسله في قطار خاص ، وأعطاه مؤذناً وطباخاً وبعث معه أحد أدباء تونس . وعرف بحسن البادرة والفكاهة وطراقة النكتة . ومن معاركه الأدبية في مصر أنه خالف الأدباء جميعاً في قولهم : إن اللفظ (عمر) ممنوع من الصرف ، كما انتقد أراجيز

(١) مجلة مصر الحديثة المصورة ٩-١-١٩٣٠ .

العرب التي أصدرها توفيق البكري ، ورسالة التوحيد للشيخ محمد عبده .
وقد أعلن الشيخ عبده هذا الانتقاد في دروسه بالرواق العباسي مع الثناء على المستقد .

ومن أعلام الفكر والأدب من أبناء شنقيط : محمد بن أمين الشنقيطي القاطن ببلدة
(الزبير) من أعمال البصرة وقد نعاه الدكتور تقي الدين الهلالي (المغربي الأصل) من
مدينة لكتو بالهند في مجلة الفتح (١٩٣٠)

وكان قد رحل إلى الشرق وهو شاب ، ووصل مكة حيث التقى فيها بالمصلح المغربي
أبرز دعاة السلفية : الشيخ شعيب الدكالي ، وقد لازمه ستين ، وهو الذي انتدبه إلى
الزبير فأقام بها ، وكان سراجاً منيراً في الخليج الفارسي وبلاد العراق ونجد . وفي زمن
الحرب الطرابلسية (١٩١١) شد الرحال إلى طرابلس للجهاد ، وسافر إلى بلاد نجد
يستوطنها حتى لا يكون تحت تأثير الأوربيين . ثم توجه إلى الكويت ، ونفى منها
لاتهامه بعداوة الإنجليز ، فتوجه ، إلى الزبير ثانية ، وأسس مدرسة النجاة هناك ،
وهاجمه العلماء وأتهموه بأنه يسمم أفكار شبان العراق ، وكانت حاجتهم هي تدرسه
لكتاب « العقيدة الواسطية » لشيخ الإسلام ابن تيمية وقد وصف محمد تقي الهلالي
بجالسه فقال : إنها كانت تحريضاً على جهاد الاستعمار .

وكان يقول لتلاميذه ورواد ندوته : لا يروعنكم لفظ الجهاد ؛ فإن هؤلاء الأوربيين
الفاتحين المتعصبين المبيدين للأحرار . ما زالوا يخوفون عبيدهم من ذكر كلمة الجهاد ،
ويعدون ذكره من أعظم الذنوب ، وهو آية الحمجية والتعصب الديني المفقوت .
وأشار تقي الدين إلى أن العلماء في وهران بالجزائر يمنعون من تفسير أي آية أو حديث
يدل على الجهاد ، ويحال بينهم وبين تدريس شيء من أبواب الجهاد في كتب الفقه .

ومن كتاب شنقيط : أحمد بن الأمين الذي أصدر في مصر سنة ١٩١١ كتابه (الوسيط
في تراجم أدباء شنقيط) (مطبعة الحلبي) وقال في مقدمته : « مضيت أجمع ما تسنى
لي من الشعراء الأموات سواء كان عالماً أو غيره ، ولا يتوهم متوهم أنني أحطت بجميع
أشعارهم ، بل يوجد منهم من لم أورد العُشر من شعره ، بل ولا عشر عشر شعره ،
ولم أورد من أخبارهم إلا ما علمت ، أما من ذكرت اسمه من غير أن أترجمه ، ولا ذكرت

اسم أبيه ، بل ربما ذكرت لقبه دون ذكر اسمه ، فإنما ذلك لعدم معرفتي به ، ولم أتعرض
للشعراء الأحياء مع كثرتهم ، لقلة من رويت له منهم .
وقد ضم كتابه ٥٤٢ صفحة ، ٨٦ دراسة ، وتكلم عن شتقيط وتخطيها .

★ ★ ★

وقد أورد عمر رضا كحالة في موسوعته « معجم المؤلفين » ثلاثة عشر علماً من
أعلامهم بين محدث وأديب وشاعر وراوي و فقيه ، منهم ابن العلوي الأديب (توفي
١٨٥١) وأبو محمد العقبة الأصولي (توفي ١٨٢) وغالي الشنقيطي الأديب (المتوفى
١٨٢٧) ، والحبكي (توفي ١٩٣٥) ، ابن سنة الفلاني (المتوفى ١٧٧٢) وأبو عبد الله
(المتوفى ١٩٠٢) ومحمد حبيب الله (المحدث) (المتوفى ١٩٤٤) .

خامسا : شعر الوطنية والكفاح

كان الشعر العربي في المغرب سلاحاً بتاراً في مجال المقاومة للاستعمار والدعوة إلى الحرية والوحدة والتجمع ، وكان خدمته لهذه الأهداف لا تقل عن خدمة الصحافة ، فهو في مجالى (١) الإلقاء والاجتماع . (٢) النشر بالصحف ، بعيد المدى قوى الأثر ، يهز المشاعر ويفتح القلوب ويثير النفوس ، وبرز في ليبيا وتونس والمغرب والجزائر عشرات من الشعراء النوابغ الذين نظموا في عشرات من الموضوعات .

وقد ظهرت مجموعات من دراسات لشعراء في المغرب العربي واكبوا اليقظة والنهضة ، وقاوموا الفاصب وفتحوا الطريق أمام الحركات الوطنية والثقافية والاجتماعية .

١- شعراء الجزائر في العصر الحاضر بقلم (محمد الهادي الزاهري) ١٩٢٩ : وقد ضم دراسات لعديد من الشعراء : محمد العيد حم علي ، محمد اللقاني بن السائح ، محمد السعيد الزاهري ، الجنيد أحمد المكي ، أبو اليقظان إبراهيم ، الطيب العقبي ، مفدى زكريا سليمان ، أحمد كاتب بن الغزالي ، رمضان حمود بن سليمان ، عبد الهادي السنوسي الزاهري .

٢ - شعراء المغرب الأقصى محمد المقرئ ، محمد المختار السوسي ، محمد المكي الناصري ، (المغرب) ؛ ضمت : عبد الأحد الكتاني ، الحسي الدودي ، محمد علال الفاسي ، عبد الله كتنون ، أحمد البلغيثي ، محمد غريط .

٣ - شعراء تونس : تناولها بالدراسة زين العابدين السنوسي والفاضل ابن عاشور .

٤ - درس على مصطفى المصراقي عديداً من شعراء طرابلس وبرقة في مؤلفاته المختلفة منهم :

أحمد الشارف ، وسليمان الباروني ، وإبراهيم الأسطى عمر ، وأصدر الصادق عفيفي دراسة (الشعر والشعراء في ليبيا) ضمت أكثر من ٤٢ شاعراً من برقة وطرابلس في العصر الحديث في مقدمتهم :

إبراهيم أسطى عمر ، وأحمد رفيق المهدوى ، ومحمد الطيب الأشهب ، وأحمد الشارف ، وسليمان البارونى ، وغيرهم .

وقدم الدكتور طه الحاجرى دراسة عن الحياة الأدبية فى ليبيا عن (الشعر) تحدث فيها عن المهدوى ، والشارف ، وإبراهيم أسطى عمر وغيرهم .

وصدرت دراسات خاصة لشاعر الجزائر : محمد العبد آل خليفة بقلم (أبو القاسم سعد الله) ودراسات ثلاث مستقلة لشعراء ليبيا : أحمد رفيق (لمحمد الصادق عفيفى) وأحمد الشارف وإبراهيم أسطى عمر (لعللى مصطفى المصراتى) .

وحفلت الصحف المغربية بمئات من القصائد لشعراء كثر لم تصدر لهم دواوين

١ - فى المغرب :

عبد الله كتنون ، علال القاسى ، محمد إبراهيم (شاعر الحمراء) ، عبد الكريم بن ثابت ، عبد المجيد بن جلون ، مختار السوسى ، أبو بكر اللمتونى ، عبد القادر المقدم .

٢ - وفى الجزائر :

أحمد سحنون ، جلول البدوى ، عبد الكريم العقون ، الربيع أبو شامة ، محمد المهدى العلوى ، الهادى السنوسى .

٣ - وفى تونس :

الشاذلى خزنة دار (أمير الشعراء) . الهادى العبيدى ، محمد الحليوى ، أبو القاسم الشاذلى ، محمد اعروسى المطوى ، محمد الحضر حسين . كرباكة ، منور صمادح .

والشعر المغربى فى مجموعه شعر كفاح وشعر عاطفة . وهو فى حاجة إلى دراسات واسعة يقوم بها المتخصصون ، وفى نطاق بحثنا نجد فى الشعر المغربى المعاصر أصالة وحياة ، وتطلعا إلى القيم والأعجاد .

وقد تأثر التطور الذى واجهه الشعر فى المغرب بظهور مدرستى الديوان وأبولو فى مصر ومدرسة المهجر فى العالم الجديد .

وأبلغ اهتمامات الشعر المغربى هى :

فلسطين ، الجزائر ، الاستقلال ، وحدة المغرب ، الوحدة العربية ، كما تناول

استقلال أندونيسيا (علال القاسي) . وللنشيد مكانه المرموق في شعر الجزائر : نشيد
الجزائر لعبد الحميد بن باديس ، ونشيد الكشف العربي (المغرب) لعبد الله كتنون ،
ويندر أن نجد شاعراً في المغرب لم يتناول فلسطين ، أو في المغرب وتونس وليبيا لم يتناول
الجزائر .

وبذلك تحرر الشعر من قيوده القديمة في الأداء ، وقيوده في المضمون ؛ فأصبح على
حد تعبير (محمد العروسي المطوي) (١) يعيش مشكلات عصره ويحيا حياة إنسان ،
أما في القديم فقد كان الشاعر أبعد ما يكون عن زمانه وأهله ، كان الشعر بلاطياً قصورياً ،
وانكماشاً على النفس ، أما شاعر اليوم فقد أصبح يستمد إلهامه ووحيه من محيط الإنسانية
الواسع وآفاقها الممتدة .

وفي شعره يبدو هذا الاتجاه واضحاً :

قد سئنا رقة للكأس في أنات عـود
وانحننا باحتراق الصب عن لفح الصـودود
وانغمسنا في صروف الوهم في دنيا السمود
هل يرى التغريد في الصهباء أو مبسم غيـد
إنما التغريد للآمال ، للسعي الحميـد
للمنى يبعثها الناشئ كالصبح الوليـد
من جلال البعث والأحياء للمجد التليـد
من كفاح الحر للطغيان للظلم العنيـد

والتقى المشرق بالمغرب في مجال الشعر . فعلى الحلبي (العراق) ينظم ديواناً كاملاً
في الجزائر وفي فرحات حشاد يقول :

زمرى ويك يا بطاح الأضحى نغم اللحن من أغاني الجراح
وازفرى اللاهيات يازمزمات الدم والنار في السفوح السفاح
رغبي للفخار ، للغة السماء ، للزهو للعلل ، للطمـاح

(١) مجلة الفكر - أكتوبر ١٩٥٦ .

كما جرى بين كرباكة (تونس) والرصافي (العراق) محاورة فقد خرج الرصافي هائماً على وجهه في القياقي والصحاري ضائعاً بوطنه ، واهتز كرباكة للخبر فنظم شعراً :

فما فرارك والعراق كما ترى	زين البلاد وأهله زين السورى
إن العظيم إذا عني لهمامة	في نفسه لبس الجلادة مشعرا
لن تعمل الصدمات في مجهوده	سعيًا لغايته ولن يتقهقرا
أين الزمان به تزعزع تقرة	من شاعر عرش الهرقل وقيصرا
وتجوب عرض الأرض حكمة قائل	وتخوضها رغم المخاطر أبحرا
وتهر صيحته المهية أمة	وتقود قولاته الجريئة عسكرا
الأمر معقود بسبق لسانه	والدهر محكوم بما قد دبيرا
إني أقاسمك الحياة مريرة	وتضيق بي هذى المدائن والقري
هم يساورني النهار ومطلب	إن جن لي ليلي تماثل في الكرى
لا هم (١) دارك بالعناية أمة	بات الزمان لسعيها متنكرا

وقد توفي كرباكة بعد ذلك بخمسة عشر يوماً وفي نفس الشهر توفي معروف الرصافي ويقول محمد الحليوي (تونس) : إن الرصافي هو الذي هدهدت طفولتنا أشعاره ، وغذت قصائده شبابنا المتطلع إلى النفحات الشعرية .

وفي شعر الوطنية يقول (علال القاسي) :

المغرب الأقصى لنا	وطن مجلل بالثنا
فيه نعمنا أزمننا	يا حبذا ذاك السوطن
عشنا بطيب هوائه	وبأرضه ومبائنه

وفي شعر العروبة يقول أيضاً :

شعب العروبة واحد رغم انقسام مفتعل
لو شققوا قلبي وقلبك كان متحدا الظلل
سـيـان من بالمغرب الأقصى ومن فيكم نزل

(١) نداء لاسم الجلالة وأصلها : اللهم .

سنيـدها عريـسة غـراء فارعة القـلل
إنـا فدء للعـروبة لا نبـالى من خـتل

ويقول :

اخبروا القوم واعلموهم بأننا
ولمحمد داود (المغرب) شعر في الوطنية :
قل لمن يجهل أنا أمـة
لا ترم تبصر فينا خامـلا
أمة المغرب هي للعـلا
يابنى المغرب هيا اقتحمـوا
ويقول : (الهادي المدني) تونس :

عهدي بقومي كالصوارم تنضي
عهدي وليس يقل شيء عزمهم
عهدي بهم كصوارم الأطواد
أو يظفروا بمرامهم ومراد

★ ★ ★

كما تأثر شعراء المغرب بأحداث الأجزاء المغربية الأخرى .

يقول عبد الله كتون (المغرب) في حادث سطيف (بالجزائر) :
أرى هادي الطريق يجر عدا
أرى حامى الحمى قد عاث فيه
وأحسبه يرانا من وحوش
وكم أهدى إلينا من مخاز
بنى قومي أفيقوا من سبات
وهذا خصمكم يرمى لأمر
عليكم باتحاد في كفـاح
فكيف بلوغ من يهديه قصدا
فمن ذا يقتضيه بعد عهدا
يباكرها مناوشة وطردا
تهد دعائم الأخلاق هدا
فإن الحادثات تجد جدا
فلا يأخذكم فردا قفـردا
بمن لكم بقوته نحدي

ويقول أحمد سحنون (الجزائر) في المغرب العربي :

للمغرب العربي صولة ضار
بالحب سوف يعيد سالف مجده
كذب الذين نعوه بل هو لم يزل
قد هب كالتيار حطم سـده
ووثوب مقدم على الأخطار
وبالاتحاد يفوز بالأوطار
غاب الأسود وموطن الثوار
من ذا يعارض غصبة التيار

ويتجه أحمد سحنون (الجزائر) إلى فلسطين :

أموطىء أقدام النبيين والرسـل وموطن نسل الوحي بورك من نسل
فذاك الغدى لا تقبلى قسمة العدى وللموت سبرى لا تبتى على ذل
ولا تحفلى بالناس إن جار حكمهم عليك فإن الله يحكم بالعدل
ونخلفك جيش، من بنى العرب رابض ليبعد عن أرض الهدى عابدى العجل
وفي مجال الأناشيد ينظم (عبد الله كتون (١)) نشيد الكشاف المغربى :

أنا كشاف شريف أنا عنـوان الشهامة
دمت الخلق نظيف جاهـد فى الاستقامة
مغربى ليس تخفى سمى أتنانى فى اقتحام الخطر
أنا كشاف شريف

عربى الـدم والنفس الى نزعـت بى لتحدى العصر
بـن جنـبى فؤاد خافـق ملؤه حب وعطف وحنان
وطنى فاقبله أنى مسـائق لك فى طياته عهد الأمان
أنا كشاف شريف

كل يوم لست أبى فيه عزاً وفخاراً يا بلادى مستجد
فأنا لست لذلك الحب رمزا لا ، ولا أبغى لمجدى من مرد
أنا كشاف شريف

مبدئى أخدمه مجتهدا فى ثبات فى اعتقاد بالنجاح
يبد أنى لن أرى معتمدا غير نفسى ، غير عزمى للكفاح
أنا كشاف شريف

يا بلادى فاسلمى من كل عاد كائد فى السر أو فى العلن
فى حمى رب رفيق العباد أنت يا روحى العلا يا وطنى
أنا كشاف شريف

أما الجزائر فقد كانت بعيدة المدى فى شعر الشعراء ، فى الجزائر ، وفى المغرب كله .

(١) نظم هذا النشيد كشاف جمعية الشروق عام ١٩٢٨ وهو أول كشاف بالمغرب (عبد الله كتون) .

يقول أحمد مهنون :

لا تطل لومي ولا تطلب نشيدي	أنا في شغل بتحطيم قيودي
أأغني ويدي مغسولة	وبرجلي قيود من حديد
أأغني ولساني موثوق	وبطوق حانق طوق جيدي

ومن تونس يتشد صالح بن صالح الحرقي :

مجد البلاد تشيده (أوراس)	والنار في نهج العلا نبراس
وإذا تنكر للمطالب غاصب	وبنا به يوم التفاوض راس؟
حكم غرار السيف فيه فإنما	الراس المزيف بالفرند ياس
مهلا فرنسا لن نمطنا القوي	نحن الأسود وجندك الأحلاس
وإذا اشأبت للعلا أعناق شعب	لن تذل أيها الأمراس

ويقول منور صمادح (تونس) :-

قسماً بأطفال تجز رقابهم	وأمومة أودت بها الأكدار
قسماً بكل بريئة قد لطخت	وعواطف الشرفاء حين تثار
وبكل شيخ عذبه وقتلوا	وبكل بيت بالظي ينهار
وبكل دم قد جرى مستصرخا	ودم يسيل كأنه أنهار
قسماً بمليون من الجرحى	ونصف قد قضى وبقية قد ناروا
لأمتن من الجوار حباله	حتى يفوز بمبتغاه الجار

من أعلام شعر الوطنية والكفاح

١- مفدى زكريا

من شعراء بنى ميزاب ومن أبرز الشعراء فى الحركة الوطنية الجزائرية أمثال أحمد سحنون ومحمد العيد آل خليفة، ولد ١٣٢٦ هـ بقرية بنى يسجن فى واحة ميزاب بجنوب الجزائر، تعلم فى تونس؛ درس القرآن والفرنسية ودخل الخلدونية ثم جامع الزيتونة ومن شعره :

نهضت على ذات الإله مناضلاً	وليس لغير الله سعي وإقبال
وقمت وسيف الحق فى الكف ساطع	لتهذيب أرواح وتقطيع أوصال
وأيقنت أن المجد سبل خطيرة	فقدت دون المجد روحى وآمالى
فما المجد إلا جنة دون وصلها	تناثر أعناق وتمزق آجال

يقول فى ترجمته لنفسه فى كتاب شعراء الجزائر للزاهرى : إن أساتذته فى البعثة العلمية إلى تونس هم أبو اليقظان إبراهيم، وإبراهيم أطفيش، وقد حضر هنالك مسامرات الأستاذ العربى الكبادى، بمدرسة الترجمة للغة العربية العليا، وقال : إنه درس جزءاً من كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة .

وتحدث عن مفاهيمه للشعر فقال : أما الشعر فأنا فيه أستاذ نفسى غير أنى أعرض بضاعتى على أساتذتى رؤساء البعثة الميزابية، ولقد قرأت الزحافات والعلل والدوائر على شاعر الحضراء « الشادلى خازندار » ولى اطلاع شخصى على العروض والموازن، وقد شغفت حباً بالآداب طفلاً، وبتاريخ الأبطال من عظماء الأوطان وقال إنه يحفظ عن الثعالبي قوله « كفانا إن نحفظ فى ماضينا بالدين والأخلاق وما عداهما فإلى الدمار أو البوار » ويتمثل به ويتخذه نبراساً له . وقد اشترك مفدى زكريا فى تأسيس حزب الشعب مع مصالى الحاج وكان من أبرز دعائه خطيباً وشاعراً، وله ديوان « اللهب المقدس » وهو صاحب النشيد الرسمى لجمهورية الجزائر ومطلعه « قسماً بالنازلات الماحقات، والدماء الزاكيات الداغقات » .

(١) تناولنا فى كتابنا الشعر العربى المعاصر دراسة رفيق المهدوى (ليبيا) ومحمد

العيد آل خليفة (الجزائر) .

٢ - عبد العزيز كرباكة

من أبرز الأسماء اللامعة في عالم الشعر الذى هو أبرز فنونه وأن عمل فى ميدان الكتابة والقصة . عرف بالكتابة النثرية والشعر والتأليف المسرحى والصحافة .

له روايات : ولادة وابن زيدون ، وعائشة الغادرة ، وأمرة المهدية ، وله أحاديث فى الصحف تحت عنوان « حديث الثلاثاء » ، وقام بتحرير جريدة الزمان ١٩٣٢ والمضحك وله أغان وموشحات .

أصله من الأندلس من شمال مرسية . ولد بحاضرة تونس ١٩٠١ ، وتعلم فى الزيتونه عرفت كتاباته النثرية بقوة الأداء واللذع والسخرية ، وكان أدباء تونس يجتمعون به فى سوق السرائرية حيث يعرضون عليه إنتاجهم ، ويصدر أحكامه التى يقبلونها دون مراجعة على حد تعبير عثمان الكعاك .

وله مجادلات أدبية مع محمد الحبيب ، وزين العابدين السنومى ، وطاهر الحداد ، وأحمد توفيق المدنى . (توفى ١٩٤٤)

وقد نشر كرباكة شعره فى جريدة الوزير ، ومن شعره قوله

فى صحوة شرفاء ناد فجـرها	غنت شواذها بلحن منغم
وتفتقت أزهارها عن حجة	وتدفعت أنهارها عن زمزم
ومشت بها الحور الكعاب رشيقة	تسعى وتسعى بالرحيق العندم
فلذا على مرماى نور ساطع	ورنين قيثار وحلو ترنم

٣ - أبو القاسم الشابي ١٩٠٩ - ١٩٣٤

حظى الشاعر التونسي بقدر كبير من الإعجاب والتقدير في مختلف أنحاء العالم العربي ، وكتبت عنه عشرات الأبحاث والمؤلفات ، حتى يمكن القول بأن كثيراً من الأدباء المرموقين أولوه اهتمامهم وتناولوه بالبحث .

ويهمنا أن نذكر أهم ماسجله الأدب المغربي من دراسات عنه :

١ - في ١٩٥٠ أصدر أبو القاسم كرو (تونس) أول كتاب عن الشابي وعرف به ثم أصدر بعد ذلك ديوانه ودراسة أخرى عنه بعنوان « كفاح الشابي » (١٩٥٤ بيروت)

٢ - في أكتوبر ١٩٥٣ صدر عدد خاص من مجلة « الندوة » كتب فيه زين العابدين السنوسي والشاذلي القليبي ، وعبد الله شريط ، ومحمد الصالح المهيدى ، ومصطفى أغه ، ومحمد المرزوقي .

٣ - ثم تابعت الدراسات فكتب عنه زين العابدين السنوسي ١٩٥٦ .
وكتب خليفة محمد القليبي (طرابلس الغرب ١٩٥٧) كتابه « الشابي وجبران »
وكتب محمد الحليوي كتابه « مع الشابي » (تونس ١٩٥٥) .

٤ - ودارت أبحاث ومساجلات حول بعض جزيئات حياة الشابي بن الدكتور عمر فروخ ، ومحمد الحليوي ، وكان الخلاف حول حياته الاجتماعية ودراسه ونوع مرضه .

ومن الشرق كتب عنه عمر فروخ كتابين : (شاعران معاصران طوقان والشابي) ، (بيروت ١٩٥٤) وكتابا آخر ١٩٦٠ ، وشعب وشاعر لنعمات فؤاد (القاهرة ١٩٥٨) ، وكتب أبو القاسم محمد بدرى عنه كتاباً بعنوان : الشاعران المتشابهان : الشابي والبيجاني ، كما صدرت عنه أخيراً دراسة من سورية بقلم مصطفى الحبيب بحري بعنوان : الشابي النبي المجهول ، ولكاتب هذه السطور دراسة عنه .

سادسا - أدب المرأة المغربية

برز أدب المرأة المغربية من وراء الغلالات والحجب حياً متوارياً ينجح إلى التوقيعات الرمزية ولا يكشف عن نفسه إلا قليلاً .

ولم تبد آثاره واضحة في دوريات وصحف المغرب إلا في نهاية الثلاثينات ، وكانت دعوته قائمة على تحرير المرأة وتعليمها ، وإتاحة الفرصة لها لتأخذ مكانها في المجتمع ، وقد شجعها على ذلك أن فتحت لها الصحف أبوابها ، وعنى الباحثون في المغرب على ضوء ما حدث في المشرق بمداومة قضية تحرير المرأة ، وعقد الاجتماعات والندوات لبحثها وتناولها بالاستفتاء .

وكان أبرز الكاتبات وأكثرهن عدداً في تونس والمغرب وأقلهن في الجزائر وليبيا ؛ ففي الجزائر لم تعرف غير ليلى أمين دياب وتكتب بالعربية ، وآسية جبار وتكتب بالفرنسية . وفي ليبيا زعيمة سليمان الباروني .

وقد وسع الفكر المغربي آفاق البحث في قضية تحرير المرأة ؛ فكتب عديد من الكتاب بين مؤيدين ومعارضين ، وجرى البحث أولاً حول حق المرأة في الإسلام ، وما أتاح لها من فرص التعليم والسفور والحرية ثم لم تلبث أن ظهرت دراسة لتحرير المرأة في هيئة كتاب مطبوع باسم « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » (١) لطاهر الحداد

ظهر عام ١٩٣٠ وأثار ثائرة رجال الدين والباحثين في الزيتونة . ومهما يكن مستوى الكاتب وكتابه ، باعتباره أول كتاب في هذا المجال فإنه كان علامة على الطريق

(١) طاهر الحداد (١٨٩٩ - ١٩٣٥) كاتب تونسي أصدر أول مؤلفاته عام ١٩٢٧ من العمال التونسيين ، وفي كتابه « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » دافع عن حقوق المرأة وطالب بمنع تعدد الزوجات وجعل الطلاق بيد المحكمة لا بيد الرجل ، وهاجم تفشي الزواج بالاجنبيات والتعليم في مدارس اجنبية ، وتحدث عن وضع المرأة في عصره وقال : ان الحقوق التي اعطاها الاسلام للمرأة لم تعد تتمتع بها وتمارسها بنفس الدرجة والمستوى اللذين وضع الاسلام المرأة فيهما وقال : ان الاسلام كان يجتهد للمساواة التامة بين المرأة والرجل .

الجديد ، وقد كتب في تقده فصول وصدر كتاب في الرد عليه باسم « الحداد على امرأة الحداد »

ثم توسع نطاق البحث فتناولت المجلة الزيتونة ومجلد (١٩٣٦) مشكلة المرأة التونسية من حيث التربية والتعليم وقدمت آراء المفكرين فيها ، وأقامت جماعة الصادقية منبراً عاماً لذلك في دارها ، عرضت فيه الآراء المختلفة ، وأعلنت عن اهتمام الفكر العربي التونسي بالمرأة التونسية ومكانها في المجتمع ، وألقى « محمد المختار بن محمود » مسامرة بسط فيها نظرية الإسلام في معاملة المرأة وترقية مستواها ، وتقرير مالها وما عليها من الحقوق التي منحها لها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً مما تفوق به المرأة الغربية حتى في هذا الزمان . وقدم برنامجاً عملياً في كيفية النهوض بها مع ما يتناسب وما جاء به الإسلام . وقد اشترك في المسامرة : الشاذلي النيفر ومحمود بيرم المصري ومحمد المهدي ابن الناصر وأحمد ميلاد الطيب ، ومحمود المسعدي .

ولم تلبث أن برزت آثار النهضة النسوية في تونس أيضاً ، ففي عام ١٩٣٩ أذيعت أسماء نسوية في تونس حققت نجاحاً وتفوقاً ، فمنهن :

زينب الكعك : أول فتاة تونسية قابلت هدى شعراوي في القاهرة ، ونالت البريفيه الفرنسية العليا ، وأذاعت محاضرات في الإذاعة ، ونادي الفتيات وزارت البقاع المقدسة .

وعائشة عمر : أول فتاة تونسية أحرزت شهادة الليسانس في العلوم الرياضية من السربون .

وفتحية عميرة : أحرزت البكالوريا اللاتينية واليونانية ، وإجازة الآداب في فقه اللغة . وزبيدة عميرة : نالت شهادة التعليم الفرنسي .

هذا في مجال التفوق العلمي ، أما مجال الكتابة والآداب والصحافة فقد برزت أسماء متقدمة في الأقطار الأربعة على هذا النحو :

١- ليبيا :

زعيمة سليمان الباروني : أصدرت مجموعة قصص ومذكرات واندماها المجاهد.

٢- تونس :

بشير الزهار : كتبت في مجلة الزيتونة (١٩٣٦) عن ذكرى رشيد رضا .

مفيدة الشاهد : كتبت في مجلة الزيتونة عام ١٩٣٦ .
عائشة بنت عمر : كتبت في مجلة الثريا ١٩٤٦ عن المرأة التونسية في مفترق الطرق
فتاة بنى سليم : كتبت في جريدة الصباح التونسية ١٩٥٤ عن الفتاة التونسية .
فتحية المختار مزالي : كتبت في مجلة الفكر ١٩٥٥ عن شخصية المرأة التونسية .
مديحة مشرفية كرو : كتبت في مجلة الندوة ١٩٥٦ عن نحو توجيه جديد للفكر
الإسلامي .

فاطمة سليم : كتبت في مجلة الشباب ١٩٦١ عن المرأة التونسية .

٣ - الجزائر :

آسية جبار : كتبت قصة «العطش» بالفرنسية .
ليلي أمين دياب : مقال عن تعليم المرأة في مجلة البصائر .

٤ - المغرب :

باحثة الحاضرة : بدأت تكتب منذ عام ١٩٣٥ في صحف المغرب .
فتاة تطوان : كتبت في الأنيس ١٩٥٢ مقالاً عن تحرير المرأة العربية .
أمنة اللوة الألي : كتبت في مجلة الأنيس ١٩٥٢ عن المرأة المسلمة في عهد النبوة
وقد نالت قصتها «الملكة خنانة» جائزة المغرب للآداب سنة
١٩٥٤ .

أمينة محمد السراج : كتبت في مجلة العلوم والفنون ١٩٥٢ رسالة موجهة إلى
مختار السومى عن ماهو أنصع لون في الحضارة المغربية
شفيفة السعدى : كتبت في مجلة الحديقة ١٩٥٤ عن الاتحاد
إحسان الوراكي : كتبت في مجلة النصر (١٩٥٨) عن صوت الفتاة المغربية .

ويبدو أن المرأة المغربية قد استهلت دورها في مجال الكتابة باللغة الفرنسية ،
فكتبت من وقعت بإمضاء «جيبه» لسان الشعب المسلمة رسالة باللغة الفرنسية بعنوان
(من وراء الحجاب) نقلتها مجلة الرابطة الشرقية بالقاهرة عن إحدى صحف تونس
ووصفتها بأنها شكاية من نظام التعليم النسائي التونسي في مدارس البنات . جاء فيها أن
تعليم اللغة بهذه المدارس سقيم إلى حد يبيع للسيدة أن تقول : إنه مفقود ، وإذا نحن

لخصنا المعلومات التي تحصل عليها التلميذة الصغيرة التي غادرت المكتب وجدناها لم تحصل إلا على لغة مهشمة باللسان الفرنساوى وبعض قطع آيات قرآنية . ثم قالت : إنها تستثنى البنات المتعلمات بالمكاتب الفرنسية البحتة ؛ فهؤلاء يجهلن حتى الألف والباء من لغة أمهاتهن .

وتساءلت الكاتبة هل فكر أحد بالإيالة الفرنسية فى تأسيس مدارس لتعليم بناتنا اللغة العربية تعليماً كافياً لتثقيف أفكارهم حسب الطريقة العصرية.

كاتبات من المغرب

باحثة الحاضرة	(المغرب)	فتحية المختار مزالي	(تونس)
فتاة تطوان	(المغرب)	فتاة بني سليم	(المغرب)
آمنة اللوة	(المغرب)	ناحية ثامر	(تونس)
أمينة محمد السراج	(المغرب)	عائشة بنت عمر	(تونس)
شفقة السعيدى	(المغرب)	مديحة مشرقة كرو	(تونس)
إحسان الوراكلى	(المغرب)		

باحثة الحاضرة

انتشر اسم « باحثة الحاضرة » في الصحف المغربية . وعرفت بمقالاتها منذ وقت بعيد ؛ فقد نشرت لها مجلة رسالة المغرب عديداً من المقالات بدأتها عام ١٩٣٥ ، وقد تناولت هذه الأبحاث موقف المرأة من مختلف قضايا الفكر والحياة ، وفي سنوات ممتدة إلى ١٩٥٢ قرأنا لها عن الزواج المبكر وتعليم الفتاة والموسيقى (١) الخ .

وباحثة الحاضرة هي السيدة « ملكة الفاسي » من هذه الأسرة العريقة التي عرفت بالفضل في ميدان العلم والفكر . يقول عبد الكريم غلاب رئيس تحرير جريدة العلم المغربية في ترجمة قصيرة لها (٢) : إنها واكبت التاريخ العلمى هذه البلاد منذ عدة قرون فكان منها العلماء والقضاة والأدباء والسياسيون . وهي في حدود الخامسة والأربعين من عمرها تعلمت على يد والدها وزوجها الأستاذ محمد الفاسي عميد جامعة الرباط ، وكانت مدارس الفتيات منعدمة في المغرب تقريباً إلا مدارس القرآن التقليدية وقد دفعها إلى الأمام إيمان والدها بتربية المرأة إلى جانب الرجل .

(١) من مقالاتها الزواج المبكر (يويه ١٩٥٢) الفتاة المغربية بين مراحل التعليم (ابريل

١٩٥٢) الموسيقى والمرأة المغربية (ديسمبر ١٩٤٧) .

(١) خطابه ١٩٦٤/٩/١٥ .

وقد ساهمت في الحركة الوطنية وكانت عضواً بارزاً في الهيئات النسائية لحزب الاستقلال وماتزال عضواً في المجلس الوطني للحزب .

وشاركت في تحرير المجلات العربية ، وكان لكتاباتها أثر ملحوظ في تنوير الحركة النسائية وأسلوبها يمتاز بالسلاسة والجدّة والطرافة وهي قليلة الإنتاج .

تقول في مقال لها عن الفتاة المغربية بين مراحل التعليم : في عام ١٩٣٥ نشرت في مجلة المغرب كلمة حول تعليم البنات ، وناديت بوجوب انتشالها من الهوة السحيقة التي تردى فيها ، والأخذ بيدها حتى تنال حقها من العلم والرقى . . وهكذا أخذت الفتاة المغربية تشق طريق العلم ، وتفتح ميدان العرفان ، وتأسست المدارس الخاصة بالبنات في كافة المدن المغربية ، ووصل أول فوج للشهادة الابتدائية العربية عام ١٩٤٥ .

واليوم .. أرى التواء في سير تقدم النهضة والتطور المنشود أن تسير الفتاة بقدّم نحو العلا ، وتجعل وجهتها ثقافية عالية ؛ فقد فات الزمن الذي تقف فيه الفتاة عند الشهادة الابتدائية ، وإذا قارنا أنفسنا بالجزائريات والتونسيات نجد أنهن سبقتنا بأشواط بعيدة ؛ فقد حصل عدد كبير منهن على الشهادات العالية ، والملاحظ أن بعض الطالبات ممن يدرسن في المدارس الفرنسية تكون معرفتهن باللغة العربية ناقصة نقصاً بيناً ، وهذا عار بالنسبة للمرأة المغربية ، إذ كيف تكون ثقافتها بلغة أجنبية ، ولا يجمل بها كامرأة عربية أن تكون ناقصة من هذه الناحية ، فوسطنا وسط عربي ، وأمتنا أمة عربية واتصالاتنا بدول الشرق والإسلام بواسطة اللغة العربية . وهذا ضروري ما دامت لغة الإسلام هي لغة القرآن .

وقد أخبرتني صديقة تحسن اللغة الفرنسية قراءة وكتابة ، ولكنها لم تتعلم العربية . أنه قد زار عائلتها أحد المشارقة فلما كان على مائدة الطعام ، ألقى قصيدة عصماء هزت مشاعر الحاضرين ولم تتمكن هي من فهمها ، وأحست بألم حاد في كيانها وانهلّت دموعها وقالت : تمنيت والله لو أنني لم أكن أفهم ولا كلمة واحدة من الفرنسية ، وتعلمت لغة أجدادي ، ولا أعنى بهذا الاقتصار على اللغة العربية ، فتعليم اللغات الأجنبية واجب ، والكل يعلم مزايا الثقافات الأجنبية ، خاصة بالنسبة للمرأة التي هي المدرسة الأولى ولأن واجبها كأم يجعلها مسئولة عن تلقين أبنائها لغة فصيحة مستقاة والطفل مرآة أمه . فما حفظه وتعلمه منها يلازمه طوال حياته .

فتحية المختار مزالى

من كاتبات تونس ، لها فصول بمجلة الفكر وعدد من مجلات تونس : ومن نماذج كتاباتها مقالها عن شخصية المرأة التونسية . (١) :

« هل عندنا مثقفات بتونس ، لا أدري ، ولكني ألاحظ أن المرأة المحافظة المحترمة للتقاليد والتي تتعلم من دون أن تتأثر بعلمها وتؤثر في مجتمعها تعتبر عندنا صالحة لأنها لم تخيب ظن مجتمعها فيها . ويلاحظ أن أغلب الفتيات التونسيات يتلقين تعليماً يسمى فنياً ، تلبية - على ما يقال - لرغبة أوليائهن ، وهؤلاء الأولياء راغبون أيضاً في أن يكون التعليم عربياً . وأكثر فتياتنا متعلّقات تعليماً أجنبياً ، من الصعب وجود نساء تونسيات مثقفات ثقافة قومية ، المرأة التونسية بحكم الظروف عديمة الشخصية .

يجب ألا تطير في القضاء دفعة واحدة بدون أجنحة ، مقلدة للرجل ، لأن منزلتها في المجتمع غير منزلته فيه ، وظروف عيشها غير ظروفه ، ولأن تحرير الفرد لا يحصل بالطرفة ، بل بالتغلب على الظروف الشخصية الخاصة وقهرها .

وبعض الحركات النسائية خابت لأنها قطعت كل العلاقات مع الحركات القومية الأخرى وغاية المرأة ليست في أن تبنى عالماً جميلاً تعيش فيه وحدها ؛ بل غايتها اندماجها في العالم الموجود ومحاولة التأثير فيه .

فتاة بنى سليم

وهي إحدى كاتبات تونس . نشرت لها الصحف والمجلات التونسية فصولاً متعددة منها مقالها : الفتاة التونسية تسير إلى غير غاية . (١)

« ما هو الهدف الذي ترمى إليه ثقافة البنت عندنا ؟ وماهى الشهرة التي تريد أن تجنيها فتاة كافحت من أجل تعليمها سنين طويلة ، المرأة المثقفة يجب أن تؤدي رسالتين : رسالة داخلية ، وهي تتمثل في تربية الأطفال والإشراف على المنزل ، ورسالة خارجية وهي خدمة المجتمع بما يعود عليه بالنفع والكسب .

والرأى عندى أنه في وسع كل امرأة حازمة أن تؤدي رسالتها الداخلية والخارجية ، إذا هي أحاطت بهما بشيء من الترتيب والدقة والنظام .

(١) مجلة الفكر م ١٩٥٥ .

افسحوا الطريق للمرأة لتتمكن من خدمة مجتمعنا في حدود الدين والكرامة والشرف ، حتى يتسنى لها أن تشارك في بناء صرح استقلالنا والذود عن قوميتنا .
وأنت أيتها المرأة ، فلتكن ثقتك بنفسك عظيمة ، وليكن سلاحك العفة والإخلاص في العمل » .

فتاة تطوان

من كاتبات المغرب . نشرت فصولاً في مجلة الأنيس . تقول تحت عنوان تحرير المرأة المغربية : (٢)

إن إصلاح الشعب وإقامة البنيان الجديد متوقف قبل كل شيء على دعمتين أساسيتين : هما دعامة الرجل ودعامة المرأة ، فكما لا يمكن أن يقوم سقف في الدنيا على حائط واحد أو دعامة واحدة . كذلك لا يمكن أن تقوم نهضة أمة على الرجال فحسب . أو على النساء فقط .

آمنة اللوة

من كاتبات المغرب . نشرت في المجلات والصحف مقالات . ولها قصة نالت بها جائزة المغرب ١٩٥٤ تقول في مقالها « نساء مدح الرسول » (١) بعد أن استعرضت كثيراً من شعر المرأة القديم في أمداح الرسول وقالت : « أوحى إلى هذا مانسمعه طيلة هذا الشهر (رمضان) من أمداح نبوية . وترايم دينية . لم تزل تتردد على أسماعنا صباح مساء . ليل نهار ، في المحافل والمجالس والمذايع وفي الصحف والمجلات ، كلها تشدو بأناشيد شجية وتراويل عذبة تعبر أصدق تعبير عن حب وفن . ما زالت هذه الأمة المحمدية – بنسائها ورجالها – تديه وتتفنن فيه بشتى الوسائل في مختلف المناسبات نحو الذات المحمدية ذات الأخلاق الندية ، إن مدحه سبيل الإقرار وعنوان الإخلاص . كيف لا ؟ والله قد مجده في الأزل وأثنى عليه في التتريل ثناء خالداً مرتلاً لدى الأولين والآخرين » .

(١) جريدة الصباح - ١٩٥٤ .

(٢) مجلة الأنيس - نوفمبر ١٩٥٢ .

ناجية ثامر

كاتبة عربية تونسية الأصل دمشقية المولد ، تملأ صحف المغرب العربي بكتاباتها القصصية والاجتماعية والمسرحية . مزجت الثقافة الفرنسية بالعربية . ولكنها عربية الفكر والأداء ، تلقت تعليمها بين بعلبك (لبنان) ودمشق (سورية) وهي من المعجبات بأدب الرافعي وجبران ونعيمة وشعر المتنبي .

أمامي كتابها « المرأة والحياة » (٢) من سلسلة كتاب « البعث » الذي يصدره « أبو القاسم كرو » وهي مجموعة خواطر لها تعطي صورة فكرها الأنثوي العربي :
. إننا إذ نتقد نفوسنا ونضعها تحت المجهر لنرى عيوبها فإننا بذلك نرنو إلى الكمال . ليس من القبح أن نسعى إلى الكمال وإن لم نصل إليه ، بل القبيح ألا نسعى وألا نحاول شيئاً ، وأن نكتفى بالقول بأن الكمال لن يصل أحد إليه . ونستمرى العيش في خضم عيوبنا .

كلمة « بودر » تصور للمرأة مسحوق التجميل وللرجل الأسلحة

والحديقة تصور للمرأة الأزهار وللرجل الأعشاب والحضار .

والدراهم تعطي صورة فساتين للأولى . وللثاني الأعمال والأسفار .

. يقول علماء النفس والاجتماع : قلما تشابه امرأتان في الأخلاق والمزاج ، وهذا القول ليس بعيداً عن الحقيقة ؛ فلكل إقليم نساؤه ، ولكل قطر فتاته ، ولا تختلف امرأة القطر الواحد عن القطر الآخر إلا بقدر ما تنوع المسافات بينهما ، وتتباعد المواصلات بين رقعتهما .

. المرأة التونسية تشبه السورية إلى حد كبير . بتمسكها بعاداتها القديمة وتحفظها وسعيها للحصول والتعلم .

. إن البحث عن شريك الحياة ليس من السهولة بالقدر الذي نتصوره ، بل هو مشكلة يصطدم بها الجنسان على السواء ، وكثيراً ماتبنى الحياة الزوجية على مستقبل مجهول النور ، لا على واقع ملموس اليد ، ذلك لأن الزواج يحدث تحت تأثير العاطفة لا العقل . وإذا ذكرت عيوب فلان أو فلانة ترك أمر إزالتها إلى ما بعد الزواج .

(١) مجلة الانيس - نوفمبر ١٩٥٢ .

(٢) صدر في يولية ١٩٥٦ .

• إن الذى يربط بين الزوجين هو حنان دافئ ، وتآلف روحيين ، وتماثل فى وجهات النظر .

• المرأة الجميلة مركبة من جسم وروح ، وقد يكون الجسم الجميل محتويًا على أنحس الأرواح وأبشعها .

• الفنان يكتفى بالنظرة المتألقة والابتسامة المشرقة . لأنهما تظلان على حال واحدة لا تتبدل ، ولا يذهب بعيداً فى البحث عما يكمن وراء النظرة ووراء البسمة . ويكتفى بالمظهر الحلاب البراق ، ولا يدع عقله يتدخل فيما تمليه عاطفته .

• لا بأس أن ينظر كل رجل نظرة الفنان إلى امرأة لا يعيش معها تحت سقف واحد ، أما إذا كان الزواج ، فمن الواجب أن يتعد عن الخيالات والأوهام ..

— قد يدل جمال الوجه على جمال الروح . ولكن ليس من اللازم أن يكون الشخص الجميل الروح ذا نظريات وآراء توافق آراء الآخرين ...

وللكاتبة عدة مؤلفات مخطوطة تتكون من مجموعات قصصية ومسرحيات وبحوث اجتماعية وأدبية . وهى متروجة لها بنت واحدة ، وقد نشرت فى أبريل ١٩٥٩ بمجلة الفكر بحثاً مطولاً عن فن المسرحية .

أمينة محمد السراج

من كاتبات المغرب . نشرت كتابات متعددة من أهمها مقالها الذى وجهته إلى الأستاذ المختار السوسى تحت عنوان :

ماهو أنصع لون فى الحضارة المغربية ؟

قالت : طالما عللنا هذا الركود المتجلى فى نهضتنا العلمية والأدبية . ويظهر أنه لم يبق اليوم مجال لتعليله دون أن نقول : إنه الحمول والركود ، وكل من يتبع حركة الإنتاج الأدبى عندنا يدرك هذا النقص ، لم يكن قصدى إلا تذكير الأدباء بالرجوع إلى ميدان الإنتاج المفتقر إلى أمثالهم . ولقد كنت أترقب أن تظفر ببعض تلك الذخائر المدفونة فى الصدور والآراء السديدة الراكدة (بمناسبة ما أثاره الأستاذ عبد القادر

الصحراوي) عن موضوع : ماهو أنصع لون في الحضارة المغربية . وقالت : لقد بقينا ننتظر دون أن نظفر بما يشق ظمأنا في هذا الموضوع ، وأن يجيبوا على هذا السؤال الذي هو دين عليهم ، فيكونوا بذلك قد أدوا واجبهم العلمي كاملاً غير منقوص ، واستجابوا لنداء الصحافة الحرة ترجمان الأمة .

عائشة بنت عمر

من كاتبات تونس ، من أبرز كتاباتها مقال نشرته مجلة الثريا سنة ١٩٤٦ عن المرأة التونسية في مفترق الطرق تناولت فيه قضية المرأة تناولاً علمياً :

تقول : إني طالبة للعلوم ولهذا سيكون عرضي للموضوع علمياً .. إن الفتاة التونسية لم تجد الفرصة الملائمة لها لإظهار شخصيتها وإبراز ذاتيتها ، ومع ذلك فإن هذه الشخصية لا تطلب إلا أن تفرض نفسها واستعداداتها الكامنة ، فهي رغبة ملحة إلى البروز في عالم هو عالمها ومحيط لا يستطيع الرجل أن يراحمها فيه .

إني أرى أن الغاية هي : المرأة للزواج والأمومة ليس إلا ؛ أما طريقة الوصول إلى هذه الغاية فهي التي يجب أن تكون موضع النظر من جديد ، فالتطور النسائي ليس معناه السعي وراء الشهادات وتكوين المستقبل .

ولست ألفتكم إلى شيء جديد إذا قلت لكم : إن المرأة والرجل في نظر العلم بشران مختلفان ، أما في نظري فهما متقابلان بالنسبة لمحيط واحد . خذوا مثلاً اليد اليمنى واليد اليسرى فهما كالمرأة والرجل متمم بعضهما بعضاً .

وبعد أن تحدثت عن ضرورة حصول المرأة على قدر من العلم يوجهها في حياتها قالت : إن العلم وحده لا يكفي الأم بل يتحتم عليها الشعور بالواجب ، شعورها بالدور الذي تقوم به وشعورها بشخصيتها حتى تستطيع أن تنهض بمسئولياتها .

مديحة مشرفية كرو

من كاتبات تونس ، قرأنا لها في مجلة الندوة ١٩٥٦ ترجمة لدراسة مطولة للمعهد العلمي للدراسات الإسلامية بالهند قالت : إنها آثرت ترجمتها لما احتوتها من آراء جديدة بالتمن والنظر . وقالت : إن موضوع الفكرة هو إيجاد طريقة جديدة مرتكزة على أسس علمية لدراسة وتنسيق (الحديث النبوي) عن طريق أساتذة أكفاء يمثلون العالم الإسلامي

ويفررون سنة النبي الصحيحة كمساعد ضروري للدراسة محكمات القرآن بأسلوب العالم الحديث .

شفيقة السعدى

كاتبة مغربية احتفلت مجلة الحديقة بنشر أول كلمة لها فى ديسمبر ١٩٥٤ فقالت :
هذه كلمة توصلنا بها من الآتية المحترمة وهى بادرة حسنة لدخول الفتاة المغربية الميدان العام ومشاركة الرجل فى الدعوة إلى الإصلاح ورفع مستوى الأمة ، تقول الكاتبة بعنوان (الاتحاد) :

إن الاتحاد هو الطريق الوحيد الذى سيوصل المغرب إلى عظمته ومجده ، وكل من رسخ الإيمان فى قلبه وامتزج جسمه وروحه بالإحساس والرفق على الضعفاء ، لا بد له أن يتصف بأوصاف تدل على كرم أخلاقه ، وحسن آدابه وكنهان سر أخيه ، ومن هذه الأوصاف يكون متمسكاً بشعار الوحدة مع أفراد أمتة .

وإذا بحثنا فى تاريخ كل أمة من الأمم السابقة والحاضرة ، وجدنا الاتحاد هو سنة الله فى الجمعيات البشرية فيكون وجودها وعظمتها بمقدار حظها من الاتحاد .

إحسان الوراكي

كاتبة من كاتبات المغرب ، نشرت لها مجلة النصر (١) مقالا تحت عنوان (صوت الفتاة المغربية) وهى رسالة موجهة إلى صديقتها (ر . ف) تقول فيها :

« تذكرتك وأنت فتاة متوقدة الذهن ، سريعة الإدراك ، ذكية المشاعر مجدة فى دروسك تلتهمين الكتب التهاماً ، تنافسين أخاك فى جل أعماله ، أين عبارتك التى كنت تردينها ، الحياة هى العمل ، الفتاة المغربية تريد حياة أفضل ، حياة مليئة بالعلم والمعرفة ، لا تسودها عادات الماضى . حياة لا تتلبد فى مبادئها سحب التقاليد العمياء ، إن وديعة المنزل لا تعرف من فنون الحياة إلا الطهى وتربية الأطفال على النهج القديم ، إنها تريد أن تتعرف على كل شىء فى الحياة .

أين منك اليوم كل هذا . لقد خبا ضوؤك وخمد صوتك ، لقد كنت بالأمس القريب مشوقة إلى الحرية ومحرومة منها . لذلك كنت تنشدتها فى كل مكان . أما اليوم فقد تحررت وحصلت على أملك العظيم الذى كنت تطليينه دائماً ، وأبداً ، اذ خلعت عنك

الحجاب وأزحت عن وجهك النقاب ، وارتديت الملابس الشبيهة بالصبيغة التي تبرز
المفائن والمحاسن .

عزيزتي : أهذا كل ما تطلبين ، من أجل هذا كنت تتحرقين شوقاً ، أنتظنين أن هذه
هي الحرية من التقاليد ، ما أغياك ، ما كنت أنتصور قط أن فتاة في مثل سنك ، وفي
مثل ثقافتك تجهل معنى الحرية ، إن حرية الفتاة ليست في أن تحرق الحجاب ، وتتهادى
في خطواتك كالطاووس ، بل معناه الحقيقي هي أن تتخلصي من الجهل ، وتتسلحي
بسلاح العلم ، وتقتحمي جميع ميادين الحياة التي يقتحمها أخوك الشاب مع المحافظة على
شرفك وعرضك ومراعاة مبادئ الإسلام ، عندئذ يمكن للوطن أن ينتظر منك خيراً ،
ثم يأمل فيك يوماً عماد بيت ، وأما مثالية لأولادها ، .

ومن مراجعة هذه النصوص يمكن القول بأن الأدب السوي المغربي يتسم بطابع
خاص قوامه :

- بروز الروح الإسلامية .
- الإيمان بالـ'شخصية المغربية' .
- الحفاظ على اللغة العربية .
- عدم الاندفاع .
- تأكيد شخصية المرأة المغربية في ميداني البيت والعمل معاً .
- ثم هو يلتقي بعد ذلك بالأدب العربي في المشرق في الأداء والمضمون ولا يتخلف عنه .

سابعاً - التاريخ المغربى

١ - مراجعة التاريخ المغربى

كان مجال (التاريخ) من أهم المجالات التى حاول الاستعمار الفرنسى والنفوذ الفكرى الأجنبى أن يختط فيها طريقاً إلى الترييف من أجل القضاء على مقومات الشخصية المغربية ووحدة الأمة العربية والقضاء على وحدة اللغة والتشكيك فى روابط :

- (١) البربر والعرب ، .
- (٢) المغاربة والعرب .
- (٣) المشرق والمغرب .
- (٤) روابط العالم الإسلامى .

ومجال التاريخ فسيح ومتعدد الجوانب ، وهو ميدان بكر ، لم يكن فى أيدى الناس منه إلا الكتب القديمة التقليدية ، ولذلك حرص النفوذ الأجنبى الفكرى على تقديم عشرات من الكتب مملوءة بالشكوك ، والسموم ، مستهدفاً من ذلك فرض نظريته وآرائه فى التجزئة وإثارة المشاعر ، والغض من عظمة الكفاح والبطولات ، وتغليب روح الإقليمية الضيقة ، للقضاء على معانى الوحدة الكبرى والروابط الشاملة بين أجزاء العالم الإسلامى والأمة العربية .

ومن أبرز النظريات التى حاول الغربيون تأكيدها :

- أن كل نهضة فى المغرب العربى إنما كان مصدرها الرومان الذين كانوا يحكمون المغرب قبل العرب .
- أن العرب كانوا مستعمرين ، وكانوا فى غاية العنف فى استعمارهم .
- أن العرب غزاة ، وأن البربر هم أصحاب الوطن الذين احتملوا الغزو . وقد كتب سومتيل وماسينون ولامانس ولوى برتران . صفحات فى تأييد هذه المغالطات .

وقد سجل محمد علي دبوز (المؤرخ الجزائري) في كتابه (تاريخ المغرب الكبير)
« أن الاستعمار اللاتيني قد حرم المغرب من معرفة تاريخ أجداده في مدارس ، وحاربه
وضيق عليه في المدارس الحرة ، واتخذ كل وسيلة ليكون المغرب على جهل بتاريخ أجداده
العظماء ، وبتاريخ دولته الإسلامية الزاهرة التي أيقظت أوروبا وأنقذتها من الهمجية
والضلالة » ويرى (دبوز) أن التاريخ هو إحدى القواعد الثلاث (اللغة العربية ، الإسلام ،
التاريخ) للشخصية العربية الإسلامية . وإن الاستعمار قد فجر على هذه القواعد العظيمة
الراسخة أجيالاً من الديناميت ليهدمها في المغرب فيقضي على الشخصية الإسلامية ، وقد
عنى « محمد علي دبوز » أن يحقق هذه القضايا الثلاث :

١ - قضية عروبة البربر .

٢ - هجرة بني هلال وأثرها في اللغة العربية .

٣ - المغرب بين العروبة والإسلام . ومن الخطأ عند القول بأن الفتح العربي
للمغرب كان غزواً ، وإنما هو نشر للإسلام .

وقد تبعه في هذا المعنى عدد من أعلام الفكر في المغرب العربي منذ وقت بعيد ،
وقدموا عدداً من البحوث ، وبهنا أن نقول : إن أبرز ما كتب قبل الاستقلال هو ما قدمه
حسن حسني عبد الوهاب ، وعثمان الكعك ، ومبارك الميلي (١) .

ويصور حسن حسني عبد الوهاب في مقدمة كتابه هدفه القائم على الاهتمام الإقليمي
بتاريخ تونس باعتبارها شعباً وأمة « لكل شعب حياة تشخصها الحوادث يقضيها في
في أدوار ، كما يمر الحي بأدوار العمر ، وهي حياته الذاتية التي تميزه عن غيره من
الشعوب حسب السن العمرانية ، والنواميس الكونية التي أودعها الهاري جل ثناؤه لنظام
هذا العالم » ولكل أمة تاريخ تختلف أهميته باعتبار حظ تلك الأمة ومشاركتها في حوادث
المجتمع العام . والمشاركة تكون على نسبة استعداد الأمة ومواهبها وموقعها الجغرافي ؛
فحوادث العالم القديم أجمع كان يدور محورها على ضفاف البحر المتوسط ، منبع الأديان
وأصل التاريخ .

وإذا مرح الإنسان ببصره في الخريطة يرى بين الأقاليم المحيطة بالبحر المتوسط بلاداً
صغيرة تقسم ذلك البحر إلى نصفين ، وتشق حافته ما بين الشرق والغرب على السوية .

(١) خلاصة تاريخ تونس - حسن حسني عبد الوهاب - ١٩١٦ . موجز التاريخ العام
للجزائر - عثمان الكعك - ١٩٢٥ . الجزائر في القديم والحديث - مبارك الميلي -
١٩٢٨ .

(٢) صحيفة الشهادة الفرنسية : نوفمبر ١٩٥٧ (نقلا عن مجلة الفكر ١٩٥٧ م)

« وتلك البلاد الصغيرة هي إفريقية قديماً أو القطر التونسي اليوم ، فهذه المنزلة الطبيعية جعلت تونس — من أول الدنيا — مسلك الزاهبين ، ومورد الوافدين ، ونصبتهـا مطمحاً لآمال الفاتحين .

وقد عني حسن حسني عبد الوهاب في بحوثه التاريخية التي قدمها بما يأتي :

• مقاومة الآراء التي تقول بتمزق الشعب التونسي ، وذلك بكتابه (امتزاج العناصر التي يتألف منها الشعب التونسي) أصدره عام ١٩١٧ وأبان بالمستندات التاريخية المتنوعة صورة دخول العناصر المختلفة إلى تونس في جميع أدوار التاريخ .

• العناية بأعجاد الأمة المغربية والأندلس . وذلك بالكشف عن صفحات هامة في حضارة القيروان ، واستيلاء المسلمين على صقلية وتقديم الموسيقى بالأندلس وتونس والكشف عن تاريخ المرأة التونسية ومن ظهر من الشهيرات والتابغات من الفتح الإسلامي إلى الزمان الحاضر .

وعندما قدم (عثمان الكعاك) كتابه (موجز التاريخ العام للجزائر ١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م) منذ العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي كان حريصاً على أن يكشف عن ضرورة اهتمام الأمة بتاريخها ، وأنها إذا نسبت هذا التاريخ فقد جهلت شخصيتها .

وقد كان حريصاً على أن تستيقظ كلمات « الجزائر والحضارة الجزائرية والأدب الجزائري ، وأن ترن إرادة الأمة الجزائرية في أذن الجزائري : الصغير ، الكهل ، الكبير . الرجل ، المرأة ، على السواء .. كما ترن تلك الموضوعات في أذن كل أوربي يحب أمته . ويجب أن تفعل فيه مفعولها في الغربي . ذلك المفعول الذي كون حضارة الغرب وإرادة الغرب .

يقول عثمان الكعاك : أي شيء يبقى لأمة من الأمم إذا جهلت تاريخها .. « فهي قد نسبت شخصيتها وما مثلها إلا مثل الرجل الذي أهمل ذاتيته ، وغاب عنه الشعور بشخصيته ، كذلك إذا نسبت الأمة الجزائرية تاريخها ، انتزعت منها تلك الروح التي تملك إرادات الجموع ، وتهيمن عليها ، وتسخرها للاندفاع إلى العمل المشترك .

وهاجم الكعاك نزعات التغريب ، ونعى على الذين تفاءلوا بها واعتقدوا أن سعادة الجزائر في فرنستها من الألف إلى الياء (الفرنسية في الجنس والثقافة واللغة والأدب) .
ويكشف الكعاك عن أهمية التاريخ في بناء القومية .

وقد دفعت كتابات الغربيين المحرقة « عثمان الكعاك » إلى كشف الحقائق في تاريخ الجزائر : « وقد رأيت أن الأمة الجزائرية قد أهملت تاريخها ، ونسيت مقامها في الحضارة الإسلامية ، وجهلت مركزها في التمدن العام ، وأصبحت هذه الأسباب مضرب الأمثال في الانحطاط . فحداني ذلك إلى أن أجمع من أشتات الكتب ما تفرق من أخبارها ، وأجعله سफراً يمثل تاريخها لأبنائها أولاً وللعالف الإسلامي ثانياً .. »

وكان كتاب « الجزائر في القديم والحديث » لمبارك الميلي (١٣٤٧ هـ ١٩٢٨ م) من أبرز المؤلفات التي حققت الهدف الأساسي لكتابة التاريخ المغربي في هذه الفترة . وهو الكشف عن حقائق التاريخ ، وإبراز عظمة الأمة ، والرد على أخطاء كتاب الغرب . ودحض الاتهامات المضللة .

وقد كشف مبارك الميلي عن الحاجة الماسة إلى كتابة تاريخ الجزائر فقال : « إن المعلمين اليوم من أبناء الجزائر قطعوا الصلة بينهم وبين ماضيهم ، فجهلوا آفاقه ، ترى المتعلم بالمدارس يعرف من تاريخ بعض الأمم الأجنبية ما يجدر به أن يعلم مثله من تاريخ شعبه ، يحسن منه تقديمه عليه . فكيف بالاختصار عليه والالتقاء به ؟

إن النسبة بين التاريخين الشعبي والأجنبي مثل النسبة بين الضروري والكمالي . وقد بلغت الحال ببعض هؤلاء المعلمين أنه صار ينظر إلى جنسه نظر المؤرخ إلى ما قبل التاريخ ، حتى قرأ واستعان بذكائه في تمييز الخطأ من الصواب ، واهتدى إلى حقيقة بني جنسه . وذهب ذلك بقنوطه وبأسه ، وهاجم كتب المناقب والحوارق وقال : إنها كتب سيئة الأثر في النفوس تطبع في المرء عقيدة الاتكال على ما وراء الطبيعة وعدم السعي في الدنيا . ودعا أن يشتغل الباحثون بكتابة تاريخ البشر وحياة الأمم لإنارة العقول . »

وقد فتد الأسباب التي دعت إلى كتابة تاريخ الجزائر فعزاها إلى رغبته في دفع التعصب الجنسي والوطني . حيث ينظر المؤرخ الأجنبي إلى جنسه بعين الإعجاب ، وإلى وطنه بعين الرضا . فيجهد فكره في تأويل المساوي . واختلاق المحاسن . وحب التفوق ، واستعباد الغير ، والجهل بالمصادر الصحيحة .

ويقصد مبارك الميلي بهذا اتهام فرنسا ومؤرخيها . غير أنه لم يكن في المستطاع إذ ذاك وهو يطبع كتابه في الجزائر خلال هذه المرحلة الدقيقة أن يفصح في التعبير وهذه عبارته : « أعان هؤلاء على خطتهم كذبهم لماضيها وسهل عليهم العبث بتاريخ الأمم الضعيفة أو المغلوبة على أمرها اندكاك صرح مجددا الغابر .. »

وكتب أحمد توفيق المدني كتابه « قرطاجنة في أربعة عصور ، أو تاريخ شمال إفريقيا قبل الإسلام » وذلك على إثر هجوم (لوى برتران) العالم الفرنسى ، والراهب هنرى لامانس على حقائق التاريخ المغربى ؛ فقد ذكر لوى برتران « أن الرومان كانوا فى الجزائر كل شئ ، وأنهم أصل الحياة فيها وأساسها ، وأنهم طبعوا وطن المغرب العربى بطابعهم الخاص ، فلو يزول هذا الطابع ، وأنهم صبغوه بصبغة لن تحول إلى الأبد ، وأن العرب سرقوا ذلك واختلسوه اختلاساً » .

يقول « أحمد توفيق المدني » كشفت خطل هذه النظرية وبسطت القول فى قرطاجنة الكنعانية وأثرها العظيم فى حياة هذه الأمة ، وعند احتلال الرومان المستعمرين ، حتى إذا ذهبت الأعاصير بدولتهم مضوا كأن لم يغتوا بالأمس ، وما تركوا فوق أديم أرضنا إلا الخراب ليس إلا .. »

ب - إعادة كتابة التاريخ المغربى

كان الاستعمار اللاتينى حائلاً دون كتابة تاريخ المغرب العربى على النحو المحقق ، وقد جرت محاولات لمراجعة التاريخ المغربى فى إبان الاحتلال ، وهى محاولات جريئة ولأصحابها فضل كبير ، ولكنها لم تحقق للمؤرخين والباحثين حرية القول ، أو إعطاء البحث العلمى مداه ..

غير أن تحرر تونس والمغرب فى عام ١٩٥٤ ، ونحررليبيا ١٩٥٢ أتاح الفرصة لأعمال متعددة واسعة النطاق اشترك فيها عشرات من أعلام الكتاب ، وقد بدأ هذا التطلع فى دعوات الكتاب والباحثين : وارتفع فى تونس صوت (محمد الفاضل بن عاشور) الذى يرى أن التاريخ التونسى بأجاده وحوافزه وعبره ومباهجه ليس له مرجع واف متصل بدروس النظريات ، محكم الأوصاف ، قوى الأسناد ، وعنده أن هناك ثغرة مجهولة فى التراث التونسى تتحرك نحوها روح الآباء ، وتذكر ابن خلدون . وتساءل : أين القلم الحديد الذى يتقمص روح ابن خلدون تقمصاً جديداً يعيد به عرض ما أبرزه من الكنوز على صورة تأنس بها الأفواق الشابة ، وتدرکها العقول المعاصرة . ، وأشار إلى أن هناك حصيلة ضخمة تضمها الخزائن العامة من المراسلات والعهود ، وما بين خزائن المحاكم من السجلات والدفاتر ، وخزائن الأوقاف من الوقفيات والمحاسبات ، وما تضمه أيضاً خزائن الكتب ..

وأن هذه الحصيلة في حاجة إلى من يراجعها ويستخرج منها تاريخ تونس ..
وقال : إن روح العزم في بناء المستقبل التونسي تقتضي إحياء الماضي المجيد ، ولن
يستطاع إظهار الماضي في عرض تاريخي جوهري شامل إلا بعد استجماع تلك العدد
الصغيرة ..

ومن المغرب "نادي" (محمد علي الكتاني) مطالباً بكتابه التاريخ المغربي « هل آن
الأوان لأن نعلن أن تاريخنا يكاد يكون مجهولاً ؟ » ، وأن كتابته على النهج العصري حلم
لم يتحقق إلى الآن ؟ » .

فقد كان الكتاب قديماً يتملصون من هذا العمل بحجة الاستعمار الذي كان يكبل
العقول ، ويلجم الأفكار ، ويحجز الكلام ، ويضع على الأيدي والألسنة قيوداً .. كانوا
يتملصون بحجة أن المصادر معدومة أو كالمعدومة ، وأن خزائن الكتب قد ضرب عليها
بسياج من حديد ، وأن الوصول إلى سفر من هذه الأسفار يعد ضرباً من المستحيل ..
أما اليوم فما هي حججهم ؟

وقد أشار إلى هذا الدكتور حسين مؤنس . أنه حين أراد دراسة تاريخ المغرب
العربي ، لم يجد أمامه إلا كتب الفرنسيين وقال : كان تاريخ المغرب هو فقط ما كتبه
الفرنسيون ، وما كتبه الفرنسيون ضلال ، نعم هناك فيض من الكتب والأطالس الجغرافية
والبحوث والدراسات تلخص في عبارة واحدة هي : « أن هذا المغرب لم يخلقه الله ،
وإنما خلقته فرنسا ، وأن أرضه قبل دخول الفرنسيين لم تكن إلا بقلعاً جرداء ، وأن أهله
لم يكونوا قبل الغزو الفرنسي إلا ضباباً شاردة .

هذا ما كتبه الفرنسيون عن المغرب خلال قرن ونصف .. ،
وتوالت البحوث حول مهمة المؤرخ فكتب عبد القادر الصحراوي دراسة مطولة عن
منهج كتابة التاريخ (١) .

وهكذا توالت الدعوات من كل مكان لإعادة كتابة تاريخ المغرب العربي قديماً

(١) جريدة الانوار (طوان) ١٩٥٤ .

وحديثه . ومن هنا برزت هذه الحصيللة الضخمة من البحوث التي أنشأها عدد من أعلام
البحث والمؤرخين :

١ - في ليبيا : بحوث على مصطفى المصراي : طاهر الزاوي . محمد فؤاد شكرى (١)
ومصطفى عبد الله بعبو محمد الطيب ، ادريس الأشهب ، وعمود الشنطى ، وأحمد
النايب الأنصارى.

٢ - في المغرب : علال الفاسى ، وعبد الله كتنون ، ومحمد داود ، ومحمد الفاسى .
ومحمد عبد السلام بن عبود ، والمختار السوسى ، وعبد العزيز بن عبد الله . ومحمد
التطوانى . ومحمد المتونى ، ومحمد بن تاويت الطنجى .

★ ★ ★

٣ - في الجزائر : مبارك الملى ، وتوفيق المدنى ، وعثمان الكعاك . ومحمد
على دبور . . .

٤ - في تونس : الفاضل بن عاشور ، وأبو القاسم كرو ، وحسن حسنى عبد
الوهاب ، وعثمان الكعاك .

وبرزت نظريات جديدة وفتوح وكشوف هامة ، استأثرت الاهتمام بتاريخ الأندلس
في المغرب وتاريخ ابن خلدون في تونس .

★ ★ ★

ج- دراسات عن ليبيا

لم تتمكن هذه الدراسة من استيفاء جوانب الفكر والأدب والصحافة في ليبيا
(طرابلس وبرقة) لظروف خاصة تتعلق بهذا القطر الذى عاش حياة كفاح مريرة
منذ ١٩١١ حتى ١٩٥٢ ، ولم يتمكن الكتاب والأدباء والمؤرخون خلال هذه الفترة من
إبراز إنتاجهم ، وظلت آثار الشعراء والكتاب مدفونة خلال هذه الفترة الطويلة ، إلا
ما تسرب منها إلى الصحف العربية في القاهرة أو تونس أو مراکش .

وقد صدرت في ليبيا خلال هذه الفترة عشرات الصحف ، ولكن لم يكن في
في استطاعتها نقد المحتل أو مهاجمته إلا في حدود ضيقة جداً ، وأن كل ما كتب في خلال

(٢) مؤرخ مصرى كان حتى وفاته استاذاً للتاريخ الحديث بجامعة القاهرة .

هذه الفترة كان تحت رقابة شديدة ، وقد استعمل الكتاب الرمز والإيماء وتسجيل ما بين السطور .

ومما يذكر أن الصحف لم تستطع حين أذيع نبأ أمر عمر المختار أن تضيف شيئاً إلى البلاغ الرسمي ، وإن استطاع عمر الميشتى في جريدته « بريد برقة » أن يصل إلى للدي في رثائه بين السطور فقال :

ودخل عمر المختار قاعة المحكمة ، وهو شخص ربيع القامة ، ملتف بردائه البرقاوى ، تعلو وجهه تجاعيد الشيخوخة ، وتم عيناه عن ماضيه الذى لا يحتاج إلى تعريف . «
وقد سرت هذه الحملة – على حد تعبير صالح بوصير – كأنها رثاء حزين لحياة بطل محبب إلى القلوب .

وفي ليبيا عدد من الشعراء المبرزين أمثال : أحمد رفيق المهدوى ، وإبراهيم الأسطى عمر ، وأحمد الشارف .

ومجاهدون مناضلون : رمضان السويحلى ، صالح الأطبوشى ، وعبد الحميد العبار ، محمد بوفروة ، وإبراهيم الفلاح ، وحسن الجوينى ، وفضل المهشمش ، عبد القادر الفركاشى .

ومن كاتبات ليبيا : حميدة العنبرى – وجميلة الزمرلى (طرابلس) ، وزعيمة البارونى : ابنة المجاهد سليمان البارونى : وصفت بأنها أول امرأة ليبية تجرأت فكتبت ووقعت باسمها الكامل ، تؤمن بأن يكون الأدب هادفاً ، وأن يركز على آثاره الروح الوطنية والقومية بين أفراد الشعب ، وتدعو للمحافظة على التقاليد القديمة والسير في خطا الأجداد .

★ ★ ★

طاهر الزاوى

ومن أبرز من خدم دراسات الفكر والأدب والصحافة والتاريخ في ليبيا : والشيخ الطاهر الزاوى .

وقد ألف الطاهر الزاوى عديداً من الآثار في مقدمتها : أعلام ليبيا ، وجهاد الأبطال . وكشف في كتابه أعلام ليبيا عن حياة الأعلام الذين جاهدوا في مقاومة الاستعمار الإيطالى ، « ومنهم من مات كدأ من ظلم الإيطاليين وجورهم ، ومن التحقير والإهانة

التي كانت تلحقه ، ولا يستطيع لها دفعاً ، ومنهم رجال عاهدوا الله على الدفاع عن الوطن وقاتل الأعداء فصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فقتل منهم عشرات ومئات بنيران المدافع وحبال المشانق ، وفازوا بالشهادة ، ومن لم يكتب له الشهادة هاجر بعد أن رمى في ميدان المعركة بكل ما يملك من مال ورجال ، ومات غريباً عن وطنه ، وكان يتمنى لو أتيحت له الفرصة ليعود فيحظى بالشهادة كما حظى بها إخوانه من قبل .

ويرى الزاوى أنه مازال هناك من هذا النوع جنود مجهولون يجب البحث عنهم في بطون الصحراء وأوديتها ، وفي بلاد المهجر وفاء بحقهم . « وأشار في كتابه (جهاد الأبطال) أنه سلخ في جمعه هذا الكتاب عشرين عاماً ، ما سمع بخاتمة إلا قيدها ، ولا وقع نظره على مسألة إلا نقلها ، وما اجتمع في مصر بعد هجرته إليها بذى شأن من الطرابلسيين ، أو ممن لهم صلة بالحرب أو إدارتها إلا روى عنه ، وناقشه فيما يتعارض مع رواية غيره ، ولا سمع بحاكم منطقة أو رئيس إدارة إلا أخذ عنه ما وسعه أخذه .

وقد روى عن أحمد السويلحي ، وعبد الرحمن عزام ، وعون سوف ، ومختار كعبار ، ومحمد العيساوي بوخنجر ، وعبد السلام المريض .

يقول « وكانت مشاهداتي من أكبر العوامل التي شجعتني على الكتابة . فقد شهدت أول الاحتلال (١٩١١) إلى قرب صلح أوشي ، وشهدت ما وقع من الحوادث بعد صلح نيادام ١٩١٩ ، إلى أوائل ١٩٢٤ ، وما لم أشهده كان يقع على مسمع مني .

وقد دون في كتابه « جهاد الأبطال » قصة المقاومة منذ المعركة الأولى (١١ أكتوبر عام ١٩١١ إلى ديسمبر ١٩١١) وبدأ الاعتداء الطلياني على مصراتة يناير ١٩٢٢ إلى ١٩٣١ بوفاة عمر المختار .

والطاهر الزاوى (طرابلس) من مواليد الحرشال (إحدى قرى مدينة المزاوية) سنة ١٨٩٠ وقد قدم مصر والتحق بالأزهر لإتمام دراسته حتى ١٩١٢ ، وقد عاد إلى طرابلس ١٩١٩ ، وبقي معاصراً للحركة الوطنية إلى آخرها ١٩٢٤ ، وفي هذه السنة هاجر إلى مصر ، والتحق بالأزهر مرة ثانية ، ونال العالمية ١٩٣٨ ، وتجنس بالجنسية المصرية في أبريل ١٩٤٠ .

د- دراسات عن الأندلس

أولى كتاب المغرب العربي اهتماماً كبيراً بدراسات الأندلس وخاصة كتاب « المغرب » ،
وهي دراسات لاتقع تحت الحصر.

ويقول المؤرخ المغربي محمد بن تاويت الطنجي : إنه من الطبيعي أن يهتم أهل
المغرب بالأندلس مثل اهتمامهم بالدراسات المغربية ، ولكل باحث لونه العلمي ،
ف (عبد الله كثرّون) متجه إلى الدراسات الأدبية المتصلة بالنصوص المغربية و (محمد
القاسي) يؤكد اهتمامه بأرحلات والتاريخ أكثر مما عدا ذلك و (محمد المنوني) معنى
بالمصادر الأدبية للتراث المغربي ، و (إبراهيم الكتاني) متصل بالمذهب الحزمي الذي
نشأ بالمغرب على يد ابن حزم ثم انتشر في المغرب ، و (المختار السوسي) يوجه عنايته
إلى الدراسات الأدبية المتصلة ببادية سوس ، و محمد داود له نفس الاتجاه ، وقد
ألف كتاباً ضخماً في تاريخ تطوان ، والعابد القاسي هو المرجع الأول في المغرب فيما يتعلق
بالمكتبة المغربية وما يلامسها من المكتبة الأندلسية ، و (ابن سودة) له نفس الطابع
والاختصاص ، وله (دليل مؤرخي المغرب) ، و (محمد بن تاويت) من المؤرخين
المتخصصين في دراسات الأندلس .

وقد عنت مجلة (تطوان) العربية ومجلة (هسبريس) الفرنسية والإسبانية بدراسات
الأندلس ، ويصدر المستشرقون الإسبان مجلة (الأندلس) كما نشروا عديداً من ذخائر
التراث العربي الأندلسي .

وقد اشترك (هويس ميراند) المستشرق الإسباني مع محمد بن تاويت وإبراهيم
الكتاني (رئيس قسم المخطوطات بمكتبة الرباط) في نشر كتاب (البيان المغرب) لابن
عذراي ، كما أصدر معهد مولاي الحسن كثيراً من المؤلفات .

وقد نشرت مجلة (الأنوار) مقالات لمحمد بن سودة عن (نقوش الحمراء)

هـ- دراسات عن ابن خلدون

أحرز ابن خلدون في الفكر الغربي المعاصر آثاراً ضخمة لا تحصى ، فقد كان موضع
عناية وتقدير وتكريم لاحد لما ، كان أبرز مظاهر ذلك في تونس ، ولكن ذلك لم يمنع من
أن تتناوله الدراسات المتعددة في المغرب والجزائر .

وإذا كان ابن خلدون قد حظى في المشرق بدراسات متعددة بوصفه مؤسس علم الاجتماع فإنه قد وجد من أهل وطنه في المغرب مزيداً من العناية لهذا الدافع نفسه ، مضافاً إليه أنه جزء من التراث العربي الإسلامي ومحل الفخر والتقدير .

وقد عيّنت جامعة محمد الخامس بالرباط بإقامة مهرجان لابن خلدون (مايو ١٩٦٢) بمشاركة اتحاد كتاب المغرب العربي ، وجمعية قدماء مولاى إدريس بفاس .

وقدم محمد بن تاويت الطنجي أطروحة الدكتوراة في موضوع التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً .

وكتب عنه عشرات من كتاب المغرب (ليبيا وتونس والجزائر ومراكش) وفي مقدمتهم حسن الزمرلى (تونس) وعلال الفاسى (المغرب) والفضيل الورتلائى (الجزائر) .

وعرض أبو القاسم كرو لموقفه من العرب في كتابه (العرب وابن خلدون) بمناسبة مرور ٥٥٠ سنة على وفاته . ورد على الذين هاجموه لرأيه في العرب وقال : إن ذلك نتج عن سوء فهم الباحثين والكتاب لمعنى كلمة عرب عند ابن خلدون ، وكلمة ابن خلدون المعروفة التي كانت مثار الجدل هي قوله « إن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب » وقصد ابن خلدون بكلمة العرب هنا « البدو الذين يعيشون تحت الخيام » لأن عبارته المتصلة تشير إلى هذا وتقصده ، حيث يقول : « فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغاب ، وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له ، فالحجر مثلاً إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافى للقدر ، فينقلونها من المباني ويخربونها عليه . والخشب أيضاً إنما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه ؛ » فالإشارة إلى القدر والخيام لا يعنى سكان القاهرة ودمشق وتونس بل يقصد أعراب البادية وحدهم ...

المؤرخون

١ - حسن حسنى عبد الوهاب

« اشتغلت بالتاريخ منذ النشأة المبكرة ؛ فعندما كنت فى مقتبل العمر ، كنت أكل عناية بما وضع فى التاريخ التونسى من المؤلفات ، عرفت حقيقة : هى أن كل المؤلفات سائر على منهج سرد الحوادث دون إسنادها ، ولا استنتاج منها ، فليس فى هذه الكتب محاولة لاستخراج العبر من الأحداث ، أو التفات إلى الجانب الاجتماعى من الحياة التى تؤرخ ، واسترعى انتباهى أن هذه الطريقة ليست طريقة المتقدمين من مؤرخى العرب ، ولا هى طريقة المتأخرين من مؤرخى أوربا ، بل هى طريقة المتأخرين من العرب المؤرخين ، فلو رجعنا إلى الطبرى مثلاً لوجدناه أميناً فى نقل الأحداث وإسنادها إلى رواتها ، على طريقة المحدثين ، حتى إنه ينقل رأى ومقابله ، ويترك للقارى الترجيح ، فلما حل عهد التفهقر الإسلامى أصبح المؤرخون نَقْلَةً ، وأصبح التاريخ سجل أحداث مجردة عن سنداتها ، وعن نتائجها ، منقولة نقلاً مجحفاً فى أكثر الأحيان .

وأنا أعتقد أن لتقوية هذه الملاحظات فى نفسى عاملاً رئيسياً آخر كان له تأثير كبير ، هو مطالعتى الكثيرة للمؤرخين الغربيين ، ومع ذلك فإن الأثر الأعظم يرجع إلى ابن خلدون لأن ما سجله فى المقدمة من آراء فى تدوين التاريخ وتمحيصه كان له وقع كبير فى نفسى ، خصوصاً وقد عانيت فى تلك الفترة من حياتى بدراسة المقدمة ، حتى لئنى لأعرفها سطوراً سطوراً ، وخلق أن أنبه إلى أنى تأثرت بآرائه فى كتابة التاريخ لا بالطريقة التى أرخ بها .

فأصبحت أتمس فى التاريخ جوانب جديدة غير التى كان يعنى بها المؤرخون ، مثل الجانب الاجتماعى ؛ ذلك أن التاريخ لم يكن ينظر إلا إلى السياسة ، وقد شجعتنى هذا ، الاتصال النظرى بالمستشرقين على الاتصال الفعلى . فكان حضور أحد مؤتمراتهم طالع نشاطى فى الحقل التاريخى (١) ثم شاركت فى أغلب مؤتمراتهم ، فلم يزدنى ذلك إلا ثقة بأن المستشرقين يعنون أبداً عناية بكل ما يهم العرب المسلمين .

(١) حضر مؤتمر المستشرقين بالجزائر سنة ١٩٠٥ وقدم بحثاً عن تاريخ المسلمين فى صقلية.

ويرى كتاب المغرب وباحثو تونس أن حسن حسنى عبد الوهاب هو « أول من تخلص من المؤرخين التونسيين (١) من قيود الأساليب القديمة في فهم التاريخ وفهم الغاية من التاريخ ، وأول من أدخل في تعليم التاريخ والكتابة في التاريخ بالنسبة للبلاد التونسية واللغة العربية مناهج التمهيد ، وتقدم الرواية والرواة . وتدعيم الاتصال بالتنصيص عن المصادر » .

وقد كان المترجم له يدرس التاريخ في المدرسة الحلدونية والمدرسة العليا ، وقد قدم عديداً من البحوث والمؤلفات منها :

• تقدم الموسيقى العربية بالشرق والأندلس وتونس ١٩١٨ (بالفرنسية) .

• امتزاج العناصر التي يتألف منها الشعب التونسي ١٩١٧ (بالفرنسية) .

• قواعد علم الاقتصاد - ١٣٣٨ هـ

• المنتخبات التونسية - ١٣٣٧ هـ

• خلاصة تاريخ تونس - ١٣٣٦ هـ

• شهيرات النساء - ١٣٥٣ هـ

• بساط العقيق في حضارة القيروان وشاهرها ابن رشيق .

• الاستيلاء الإسلامي على صقلية .

• جزيرة قوصرة العربية .

كما نشر عديداً من المؤلفات القديمة منها :

١ - الحمامة في إزالة الرطانة .

٢ - رسائل الانتقاد لأبي شرف القيرواني .

٣ - ملقى السبيل لأبي العلاء .

٤ - أعمال الأعلام للوزير لسان الدين ابن الخطيب الأندلسي .

٥ - آداب المعلمين لمحمد بن الإمام سحنون .

٦ - التبصر بالتجارة للحافظ .. الخ الخ .

(١) مجلة الندوة - مايو ١٩٥٦ .

وقد أشار إلى المناسبة التي دفعته إلى تأليف كتابه :

« شهيرات التونسيات » وضمّنه حياة النوابع بالقطر التونسي من الفتح التونسي إلى الزمان الحاضر . فقال : جرى حديث بيني وبين عبد الرحمن الكعك في شأن التأليف المسمى : « الدر المنثور في طبقات ربات الخدور » بقلم زينب خانم فواز ، وعلى ذكر هذا المصنف أظهر أسفاً من خلو تاريخ هذا القطر من أخبار نابغات تونسيات .

كما تأثر حسن حسني عبد الوهاب في مطالع شبابه بآراء المستشرقين في نظرية البحر الأبيض وإقليمية التاريخ ، والاهتمام بتونس بالذات باعتبارها شعباً وأمة منفصلة عن المغرب العربي وعن الأمة العربية ، وهذا رأيه في مقدمة كتابه « مختصر تاريخ تونس » .

« لكل شعب » حياة تشخصها الحوادث يقضيها في أدوار ، كما يمر الحي بأدوار العمر . وهي حياته الذاتية التي تميزه عن غيره من الشعوب حسب السنن العمرانية ، والنواميس الكونية ، التي أودعها البارئ جل ثناؤه نظام هذا العالم . وتلك البلاد هي إفريقية قديماً أو القطر التونسي اليوم ، فهذه المترلة الطبيعية جعلت تونس من أول الدنيا مسلك الداهبين ، ومورد الوافدين ، ونصبته مطمحاً لآمال الفانحين .

ولحسن حسني عبد الوهاب عشرات من البحوث والمقالات المنشورة في صحف مصر والشام وتونس في خلال مرحلة طويلة تتجاوز خمسين عاماً ، وأهمها ما تتحدث عن الروابط بين المشرق العربي والمغرب العربي عامة ، وبين مصر وتونس خاصة :

« إعجابي بالشرق مبعثه أن ينهض مستنداً على خير عماد من النهضة الغربية ، مصر تمتاز بروح عربية أكثر تغلغلاً من الروح التي فينا ، فالتأثير الذي تسلط على تونس من الشرق ومن الأندلس كلاهما كان واضحاً في تاريخنا ، حتى إن الخطوط التي كانت تكتب في ديوان المستنصر الحفصي مثلاً كانت مزيجاً من خطوط البلدين ؛ خط أندلسي وخط شرقي ، وليس معنى هذا أبداً أن التفات تونس إلى الغرب قد ضاهى التفاتها إلى الشرق أو قاربه ، فما زلنا نستطيع أن نقول : إن تأثير الغرب في تونس إنما جاءها عن طريق الشرق ، إن فكرة المدرسة عبرت من الغرب إلى الشرق بطريق بغداد فالشام فمصر فتونس ، ومنها إلى مراکش فالأندلس (غرناطة) ، ونظرة العرب ومصر إلى الحضارة العربية هي نظرة لحضارة موحدة لا فرق فيها بين

ما يكون تونسياً أو مصرياً ، لذلك نشر الشرقيون التراث الأندلسي أكثر من التراث الإفريقي ، »

٢ - مبارك الميلي

الشيخ مبارك الميلي (١٨٩٨ - ١٩٤٥) مؤرخ الجزائر ، ثمرة من ثمار جمعية العلماء ذات الفضل الكبير على اللغة العربية والإسلام والتاريخ ، وكتابة « تاريخ الجزائر في القديم والحديث » من أبرز الدراسات التاريخية في المغرب ، فقد كان إجابة علمية واعية عن كل ما عرض له خصوم تاريخ العرب والإسلام والمغرب من نظريات مضللة يراد بها فصل المغرب عن المشرق ، وفصل أجزاء المغرب ، وربط المغرب بالمغرب والرومان ، وإنكار روابط العروبة والإسلام .

وقد صور مبارك الميلي هدفه من كتابه فقال : « إن المتعلمين اليوم من أبناء الجزائر قطعوا الصلة بينهم وبين ماضيهم ، فجهلوا آفاقه ، نرى المتعلم بالمدارس يعرف من تاريخ بعض الأمم الأجنبية ما يجدر به أن يعلم مثله عن تاريخ شعبه ، ولا يحسن منه تقديمه عليه ، فكيف بالاعتصار عليه والاكتفاء به ، إن النسبة بين التاريخين الشعبي والأجنبي مثل النسبة بين الضروري والكمالي ، وقد بلغت الحال ببعض هؤلاء المتعلمين أن صار ينظر إلى جنسه نظر المؤرخ إلى ما قبل التاريخ » .

وعنده أنه متى قرأ واستعان بذكائه في تمييز الخطأ من الصواب اهتدى إلى حقيقة بنى جنسه ، وذهب ذلك بقنوطه ويأسه « وهاجم كتب المناقب والحواري وقال : إنها كتب سيئة الأثر في النفوس تطبع في المرء عقلية الاتكال على ما وراء الطبيعة ، وعدم السعي في الدنيا ، ودعا إلى أن يشتغل الباحثون بكتابة تاريخ البشر وحياة الأمم لإفارة العقول ..

وقد بلغ مبارك الميلي في عمله غاية ما يستطيع الباحث في مثل بيئته ، راجع كل ما كتب عن الجزائر في الكتب القديمة ، وألم إلاماً بكل ما كتب الأجانب عن بلاده . ولما كان يجهل اللسان الفرنسي ، فقد اتخذ أصدقاء من قراء تلك اللغة ، وبث فيهم الروح العربية ، وقوى فيهم الطموح ، واستعان بهم في تعريب ما احتاج إليه من المواد الأجنبية ، وكان من الساعين في التعريب والتوحيد بين حملة الثقافتين العربية والفرنسية في اتجاه واحد لعمل واحد .

وكان قد التقى بالمؤرخ (أحمد توفيق المدني) وجرى حديثهما عما كتب «لوى برتران» الفرنسي من هجوم على الإسلام والجزائر، وما أورده الكاتب الفرنسي من أن الرومان كانوا في الجزائر كل شيء، وأنهم أصل الحياة فيها، وأنهم طبعوا وطن المغرب العربي بطابعهم الخاص، وأن هذا الطابع لن يحول إلى الأبد، وأن العرب سرقوا المغرب واختلسوه اختلاساً.. إلى غير ذلك من نظريات تهدف إلى تخلص المغرب لفرنسا وعزله عن الأمة العربية الإسلامية.

ومن هنا جاء اتفاق المؤرخين (المبلى والمدنى) على تحرير هذه الحقائق، فكتب المدني كتابه الضخم الذى لم نجده فى دار الكتب بالقاهرة: «قرطاجنة فى أربعة عصور، أو تاريخ شمال إفريقيا قبل الإسلام»، وبدأ المبلى فى كتابه تاريخ الجزائر إجابة على تساؤله: هل فكر أحد فى تاريخ هذه الأمة واستجلاء غوامضه؟

وتعهد المدني للمبلى بأن يجمع له أهم المصادر الفرنسية، حتى إذا تم للمبلى إعداد أهم الأبواب فى كتابه قدم العاصمة، والتقى بصديقه المدني ومعه أصول الكتاب، حيث عملا معا عشرين يوماً فى مقابلة نص بنص..

ولقد كان المبلى يراجع كل كتاب من أجل البحث عن شيء للجزائر، مستشهداً بالحكمة القائلة (آكل أحياناً قنطاراً من الحطب فى سبيل الحصول على مثقال من العسل).

وسلك فى كتابه مسلك التحليل العصرى، لم يقف عند كشف الحقائق، بل ذهب إلى البحث عن البواعث والنتائج، وتبدو شخصية المبلى واضحة فى كتابه وأسلوبه، وعنده أن التاريخ يكون بعيد الأثر فى بناء الأمم إذا قام على أربع دعائم: (١) نقل الإثبات (٢) الابتعاد عن تدليس المغرضين (٣) الخلو من خرافات المتقدمين (٤) الخلو من عمايات المتعصبين من المتأخرين.

ويرى المدني أن مبارك المبلى مؤرخ ثبت أمين «لقد رأيت فيه خلاصاً جعلته فى نظرى أنموذج المؤرخ الصادق، صبره على البحث، خلوص التحقيق والتدقيق، مهارة منقطعة النظير فى المقابلة بين النصوص، نظرة صائبة فى استجلاء الغوامض، وحكم صادق على أسباب الحوادث ونتائجها، مهارة فى الترتيب والتبويب، وحسن سبك يجعل التاريخ كله كالسلسلة المفرغة..»

وقد صور مبارك الملي تجربته في العمل التاريخي في مقدمة كتابه « أنا من المتعلمين بالمساجد ، اشتغلت أيام الدراسة بما به يشتغلون ، وتقصيت دور التعليم بعيداً عن هذا العلم (نقصد التاريخ) - شأن رفاقي - لا عناية لي بكتبه ، ولا بحث لي عن دواوينه .

وأول ما قرأت من كتب هذا العلم ، كتب التراجم : تراجم الفقهاء والنحاة بعد عصر التلمذة ، ورأيتني في حاجة إلى زيادة الاطلاع في بعض العلوم .

وحبب إلي إذ ذاك من الكتب ، كتب الأقدمين ، أهل القرون الأولى من الإسلام ، وكتب المتأخرين أهل العصر الحاضر ، ونفرت نفسي نفاراً لم أملك زمامها معه من مؤلفات القرون الوسطى ، وطالعت بعض رسائل ألفت حديثاً في التاريخ فتعرفت بها إلى هذا العلم ، ورغبت في الاستزادة منه ، فأخذت أبحث عن موارده ، ولكن لم أحصل إلا على القليل منها ولم تحدثني نفسي بالكتابة في هذا العلم الذي يعجز عن تأديته على الطراز الحاضر ، من هو أوسع مني علماً وأغزر مادة وأقوى إدراكاً .

ودعاني بعض الأصدقاء إلى وضع كتاب في تاريخ الجزائر ، فحرك عزمي ، ووجه اهتمامي للبحث في تاريخ الوطن . فرأيت أن أبتدى العمل وأضع حجر الأساس معترفاً بأنني لست من فرسان هذا الميدان فالذهن قليل ، والمادة العربية قليلة جداً ، والفرنسية أجهلها ، وقد فات وقت تلقيها .

لم يحملني على الخوض في هذا الموضوع الهام ، غير الشعور بواجب خدمة الوطن وقراء العربية .

أكثر المؤرخين من المتقدمين يكتبون كل ما يسمعون ، وينقلون كل ما يجدون من غير تصحيح للرواية ولا تمحيص بالفكر والدراية ، ويعنون بالحكايات الغريبة والروايات المدهشة ، كأنهم يرون التاريخ مجموعة عجائب تحد الأفكار ، لا ديوان حقائق تهدي المتأخر سبل الاعتبار .

ونرى المؤرخين اليوم من كتاب الأفرنج يستنقصون المؤرخين الإسلاميين بالتساهل في النقل ، وينفرون القارى من كتبهم لكون أصحابها حشوها بما يخالف الواقع ، وأغرقوا في المبالغة عند وضعهم لبعض المواقع .

وعندي أن أحسن طريقة يسلكها المؤرخ هو أن يضع بين يدي القارى الحادثة التاريخية ، ثم يرشده إلى كيفية الاستنتاج منها ، وبذلك يكون المؤرخ نزيهاً في نقله والقارى في مأمن من عثرة ذلك المؤرخ .

والمؤرخون اليوم توسعوا في مباحثهم ، ونوعوها إلى أنواع خلت منها أسفار القدماء ، واستعانوا على أبحاثهم بالبيانات الأثرية ، والكتابات الحجرية ، ولكن أكثرهم يحجب عن القارىء المادة التاريخية ويقدم له أبحاثه واستنتاجاته ، حتى يحمله على رأيه ، وهو تغرير بالقارىء وتضليل بالفكر .

والأسباب الداعية إلى ذلك هي :

- التعصب الجنسي والوطني : ينظر المؤرخ إلى جنسه بعين الإعجاب وإلى وطنه بعين الرضا ، فيجهد فكره في تأويل المساوى واختلاق المحاسن .
- حب التفوق واستعباد الغير .
- الجهل بالمصادر الصحيحة .

وقد أعان هؤلاء على خطتهم المنحرفة عظمة أمهم في الحال ، فاشتقوا من تلك العظمة كذبهم لماضيها ، وسهل عليهم العبث بتاريخ الأمم الضعيفة أو المغلوبة على أمرها اندكاك صرح مجدها الغابر .

وقد أتاح الميلى بعمله هذا تحقيق هدف بعيد في معركة المقاومة العربية الإسلامية للقوى الغربية ، ولذلك فقد احتفلت به دوائر جمعية العلماء ، وكتب إليه أستاذه عبد الحميد بن باديس :

« إذا كان من أحيا نفساً واحدة فكأنما أحيا الناس جميعاً ، فكيف من أحيا أمة كاملة ؛ أحيا ماضيها وحاضرها ، وحياتها عند أبنائها حياة مستقبلها ، فليس والله كناء عملك أن تشكر الأفراد ولكن كفاءة أن تشكر الأجيال »

وقد كان مبارك الميلى من مؤسسى جمعية العلماء ، ولد ١٨٩٨ في قرية الحلية (من أجواز قسنطينة) ، انخرط مع تلاميذ العلامة ابن باديس وتلقى دروسه في الجامع الأخضر ، وقصد إلى تونس ، حيث زاول بها دروس جامع الزيتونة ثلاث سنوات حتى عام ١٩٢٤ .

فلما عاد إلى الجزائر أحدث تغييراً كبيراً في التعليم ، فقد أسس بقسنطينة قسمين للتعليم على النمط العصرى ، واشترك في تأسيس جمعية العلماء (مارس ١٩٣١) ، وهى بحق أعظم حدث في تاريخ الجزائر الحديث ؛ فقد « أحدثت (١) دويلاً عظيماً في أوساط

(١) أحمد توفيق المدنى - البصائر (١٩٤٨/٤/٨) .

الجزائر ، وزلزلت معاقل المنومين للآمة ، وتضعضت لها صروح المستغلين باسم الدين ، وأسس للبنين والبنات مدرستين ، وهو صاحب فكرة إنشاء مطبعة كبرى تطبع المخطوطات ، وتنشر الصحف والمجلات ، وقد استطاع أن يقنع العلامة ابن باديس بهذا العمل ثم تولاه ، وعمل معه في صحف : المنتقد ، والشهاب ، والبصائر ، وكان يكتب بإمضاء « البيضاءوى » .

وكان يقصد من ميله إلى قسنطينة كل أسبوع الإشراف على إصدار البصائر في المطبعة الجزائرية الإسلامية التي هي من بنات أفكاره ، وكان يصدرها بانتظام إلى أن قررت جمعية العلماء إيقافها عام ١٩٣٩ ، بمناسبة اندلاع الحرب العالمية الثانية .

ولم يصدر الميلي غير جزئين من تاريخ الجزائر ، تناول الجزء الأول (تاريخ الجزائر قبل الإسلام) والثاني (تاريخ الجزائر إلى أوائل الاحتلال الفرنسي) ولم يكمل عمله ، فقد شغل عنه ببعض الدراسات الأخرى حتى توفي عام ١٩٤٥ .

وقد اعترف له كل من اتصل به بتفوقه في الموهوب والمكسوب وإصابة الرأي ، وحدة الذهن ، والقدرة على تمحيص النصوص ، وسمو الإدراك في المعقول ، واستكناه المعاني الأساسية .

وقال زميله في الدراسة بالزيتونة (عبد الحفيظ الجحان) إنه كان خلال دراسته يمر بنظره على أوراق دروسه ثم يطويها في المحفظة ولا يحملها وقت الدرس ، وبعد الفراغ من الدروس يوجه إلى أساتذته أسئلة غريبة فينكرونها ويدهشون لها ..

وقيل لو أنه أتيح له الذهاب إلى الشرق لوسع دائرة اطلاعه ، أو لو كان في وسط غير وسطه لكان من أفذاذ عباقرة الإسلام ، ويكفيه أن ابن باديس قال عنه « أما تاريخ الجزائر فوالله ما كنت أظن أن في الجزائر من يفري هذا الفري » .

وقد عرف بالتواضع ، فرغم علمه واعتداده كان يكره الإعلان عن شخصه ، ولما توفي العلامة ابن باديس ، كلف بأن يجلس مكانه في مكتب البصائر ، فاستهول الموقف ، وسالت عبراته تواضعاً وإشفاقاً .

وكان كتابه مصدر اعتزاز كامل ، كقوة للمقاومة ورد الفعل ، بعيدة المدى إزاء أخطاء المستشرقين ودعاة التغريب ، يقول أحمد سحنون :

وجلوت تاريخ الجزائر بعد ما عني معالمة غبار سنين
أحكمت من لغة البيان أصولها وجمال أسلوب أغرّ مبین

ومن عباراته الدقيقة في تاريخه قوله :

« تم للعرب استيطان الجزائر بالرهبة من سيوفهم أولاً ، وبالرغبة فيها أخيراً ، فأقطع لهم ملوك البربر الإقطاعات ، وأجزلوا لأمرأهم الصلات . وأضيفت إفريقيا الشمالية إلى جزيرة العرب جنسياً ، بعدما تبعثها دينياً وسياسياً .

والقضايا التاريخية ناطقة بانسراح صدور الإفريقيين عموماً للحضارات الشرقية ، وسرعة تأثرهم بها ، ومحاربة المذنيات الغربية ، وتقززهم منها ، وقد يعثر الباحث في بطون التاريخ على جزئيات لا تؤيد هذا الحكم ، ولكنها نادرة ، ولا تقوى على مضادته أو نقضه .

من حاول إصلاح أمة إسلامية بغير دينها فقد عرض وحدثها للانحلال ، وجسمها للتلاشي ، وصار هادماً لعرشها بنية تشييد ، ومن أعرض عن اللغة العربية فقد أعرض عن ذكر ربه .

٣ - عثمان الكعاك

من أبرز الأعلام المناضلة ، التي اتخذت من الكلمة سلاحاً للمقاومة ، وجه نظره نحو رد عدوان الدعوة التغريبية على الفكر العربي الإسلامي ، والتاريخ المغربي ، وهو أول من كتب موجز التاريخ العام للجزائر ١٣٤٤هـ ١٩٢٥م وكتابه « البربر » يعالج قضية شائكة استغلها الاستعمار واتخذها سلاحاً للتفرقة بين عنصرى الأمة ، المترجين منذ آلاف السنين ، هذا إلى عشرات من أبحاثه ومقالاته في تحرير قضايا التاريخ والفكر ، وله أبحاث في مراكز الثقافة في المغرب .

ولقد كان اهتمامه الكبير قبل الثلاثينات بتحرير تاريخ الجزائر والكشف عنه ، دليلاً على وحدة المغرب الفكرية والسياسية ، فقد كان عثمان الكعاك في تونس يعالج جوانب من تاريخ الجزائر كما فعل حسن حسنى عبد الوهاب ، ولكنه كان صادق الإيمان بأن التاريخ روح الأمة ، وأن الجزائر - التي إذ ذاك تسعى نحو المائة من الأعوام في ظل الاحتلال - في أشد الحاجة إلى أن يرن بها اسمها وتاريخها .

يقول في مقدمة كتابه « موجز التاريخ العام للجزائر » .

أى شىء يبقى لأمة من الأمم إذا جهلت تاريخها ؟ فهي إن فعلت فقد نسيت شخصيتها ،

وما مثلها إلا مثل الرجل الذى أهمل ذاتيته وغاب عنه الشعور بشخصيته ، كذلك إذا نسيت الأمة الجزائرية تاريخها انتزعت منها تلك الروح التى تملك إرادات الجموع وتهيمن عليها وتسخرها للدفاع إلى العمل المشترك .

وكذلك إذا نسيت الأمة الجزائرية تاريخها انتزعت منها تلك الروح التى تملك إرادات الجموع .

وهاجم الذين يتفائلون خيراً بالتغرب ، ويعتقدون أن سعادة الجزائر فى فرنستها من الألف إلى الياء « الفرنسية فى الجنس والثقافة واللغة والآداب »

وقال إن سبيل البقطة فى الجزائر هو أن تسمع الجزائر نفسها ، وإن الشعور بالقومية سبيله التاريخ .

« يجب أن ترن كلمات الجزائر والحضارة الجزائرية والأدب الجزائرى وإرادة الأمة الجزائرية فى أذن الجزائرى الصغير والكهل والكبير ، الرجل والمرأة على السواء ، كما ترن تلك الموضوعات فى أذن كل أوربوى يحب أمته ، ويجب أن تفعل فيه مفعولها فى الغربى ، ذلك المفعول الذى كون حضارة الغرب وإرادة الغرب ..

« إن الشعور بالقومية لا يتأتى بغير التاريخ ، لأنه ، وهو ذكر الماضى الجميل ، يبعث الروح ، ويحيى الأمل ، ويكون الحماس ، ويستبين حد الغريمة ، ويرسم المثال المقتدى به ، ويسن الشريعة القومية التى تسير الأمة على مقتضاها .

وقد أحصى بعض دارسى أعمال عثمان الكعاك أنه أخذ على نفسه إنجاز عملين كبيرين :

الأول : الموسوعة العربية الكبرى (أو القاموس) ، وقد شرع فيه منذ عام ١٩٣٦ .

الثانى : تاريخ الشمال الإفريقى الذى جمع عناصره وبوبه ونظمه .

هذا بالإضافة إلى عمله الذى قام به منذ سنوات طويلة فى تعريب المكتبة العمومية .

ويؤمن عثمان الكعاك بتاريخ المغرب العربى ككل قبل الإسلام وبعده ، ويؤمن بتاريخ تونس القومى المتصل بحضارة البحر الأبيض المتوسط وهذه عبارته :

« نحن بين جاذبية الحضارة التونسية المتولدة من خلاصة حضارات البحر الأبيض : البونيقية والمغربية واليونانية واللاتينية والبربرية ، وبين جاذبية الحضارة الإسلامية

التي ورثت خلافة المعنويات والماديات الشرقية من صينية وهندية وفارسية ويونانية وزادت عليها ، وبين جاذبية الحضارة الغربية التي سحرتنا بمظاهرها المادية التي تخلب لأول نظرة سطحية دون تمحيص ، ويظهر أن الجيل الأول ، أي جيلنا نحن ، متمسك غاية التمسك بالحضارتين الأخيرتين ، ويظهر أن الجيل الصاعد يريد أن يطرح عنه التقيد ببلون من الألوان .. ،

وقد تحدث عثمان الكعاك عن تطور حياته الفكرية فقال : كنت إلى سن الثانية عشرة أحتقر اللغة العربية وآدابها ، وأهزأ بالحضارة العربية والتاريخ الإسلامي ، وأرى أنه من العبث تعلم العربية ، بل من الواجب تعلم اللغة الفرنسية ، واللغة الفرنسية ليس إلا ، وكنت أحمد الله على أنني لا أعرف شيئاً من لسان العرب ، حتى ولو مجرد الحروف ، وفي شهر ماي ١٩١٥ لما دخلت تركيا الحرب ، كنت ماراً بـ (المواحية) وعلى رأس شاشية (مجيدى) حسب العادة ، فأدركتني كوكبة من الجنود الفرنسيين وصفعني أحدهم ، وبعثوني على الأرض وداس الشاشية ، فمن ذلك التاريخ أقبلت على تعلم العربية وآدابها بحزم ما عليه من مزيد .. ،

ثم أقبل على مكتبة أخيه عبد الرحمن الكعاك فقرأ كثيراً ، قرأ عيسى بن هشام ، ثم أسس مع أحمد بن ميلاد جمعية بالصادقية لتعلم المفردات الاصطلاحية في الرياضيات والحسابيات . وعاش عامين يقرأ بتلهف ما يوجد في مكتبة المقدسي ، حتى قرأ مؤلفات زيدان كلها ، وكتاب وفيات الأعيان . فلما رفع الحجر عن الصحف التونسية عام ١٩١٩ أقبل عليها بلهف ثم حرر فيها المقالات الأدبية والاجتماعية ، ثم حرر المقالات السياسية عام ١٩٢٢ .

ودرس الأدب الفارسي في لغته الأصلية ودرس الأدب التركي ، ثم تحول من دراسات التاريخ إلى دراسات الأدب .

ويعصور كيف انحلت عقده النفسية فيقول : « سمح لي أن أعرف شيئاً من الأدب المقارن الذي تعشقت به ، فعلمت منه مأخذ كل أمة عن أختها ، فعرفت ما أخذه العرب من الفرس واليونان ، وما أخذه الإفرنج عن العرب ، ثم ما أخذه العرب عن الإفرنج الآن ، وهنا زال من نفسي الإعجاب بالآداب الأجنبية ، وظهرت عقلي من مركب

النقص الذي يجعلني أفضل أدباً بعينه لأنني أجهل غيره من الآداب ، وحملني هذا على أن أقدر كل أدب حق تقديره .

وقد كتب من ذكرياته (١) انه حين كان طالباً بالمدرسة الصادقية ١٩١٨ كان اهتمامه هو وجماعة من زملائه بالناحية الأدبية ، يطالعون المنفلوطي أو قطعة من شعر عبد الرازق كرباكة الشاعر الوطني ، ففي عام ١٩٢٠ كانوا يرسلون مقالاتهم إلى جريدة الوزير ، ويجتمعون بسوق السرائرية يقرءون فصولها ، فإذا نشرت مقالة أحدهم إلى جوار قصيدة كرباكة كان ذلك نصراً كبيراً .

وتحدث كيف اجتمع من بعد شمل طائفة الصفوة من كتاب تونس : زين العابدين السنوسي ، والطاهر الحداد ، وتوفيق المدني ، وكرباكة ، وعثمان الكعك . كانوا يتناقشون ويعتز كل واحد برأيه ، وإذا بالخصومة تتسع ، وإذا بها تستغرق شطرا صالحاً من كتاب العريية فإذا جاء الغد عادوا إلى الالتقاء ، ويكون شاعرهم كرباكة قد قضى ليلته يطالع أمهات الكتب ، فيصب على رؤوساً جميعاً نصوصاً كثيرة العدد وافرة المقدار ، وحينما ينتهي من هذا يرفع برنسه على شطر كتفه ويجر ذيله على بقايا لفائف الدخان .

وتحدث عن ذكرياته مع « كرباكة » فيما بين ١٩٢٦ - ١٩٣٦ حيث كانا يجتمعان في مطبعة العرب التي أنشأها العلامة زين العابدين السنوسي وطبع فيها عشرات من بحوث التاريخ واللغة والإسلام ، وقدمها بأسلوبه الجميل ، حيث كان ثلاثة أرباع الشباب التونسي المثقف يقد إلى هناك .

وبعد فعثان الكعك من المدرسة الوسطى التي تؤمن بالبناء على الأساس .

« إن الأمم تعيش مع بعضها وتحمل فوق ظهورها أعباء ماضيها ، فلا بد لها أحبت أم كرهت - أن تتقيد بماضيها من جهة ، وأن تسير أبناء عصرها بما جد من الآداب والعلوم والفنون . المسألة ترجع إلى اختيار نسب وجعل إطار وسلم ومقاييس ، للاحتفاظ بما يجب الاحتفاظ به من الحضارات القديمة ، واقتباس ما يجب اقتباسه من الحضارات المعاصرة ، فلا سبيل أن نعرف هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب فقط دون أن نعرف لويس الرابع عشر ، ولا أن نعرف لويس الرابع عشر فقط دون أن

(١) مجلة الثرياء م ١٩٤٣ .

نعرف هنرى الثامن ، وفردريك الأكبر ، وبطرس الأعظم ، وإبراهيم لنكولن .
ولا سبيل أن نعرف الغزالي دون ديكارت ، ولا ديكارت دون الغزالي ، ولا كليهما
دون فيخت وهيوم . فنحن الآباء الروحيين من أصحاب الجيل الأول مسئولون عن
تبين الحقائق لأبناء الجيل الثانى ، وإقناعهم بها وترسيخها فى أذهانهم ، وتوجيههم
نحو إيجاد الصيغة الموقفة لحضارتنا وثقافتنا فى مستقبل الأيام .. »
ويقول : نحن فى حاجة إلى دراسة أدبنا جاهلية وإسلاماً .

وقد نعى على الأمة العربية أنها لاتعرف غير آداب الأمم المحتلة لها : الريفيون
فى المغرب يعرفون الإسبانية ، والمغاربة والجزائريون والتونسيون يعرفون الفرنسية ،
والليبيون : الإيطالية .

وقد عمل عثمان الكعاك فى دراسات الأدب والتاريخ والمكتبات والآثار ، وتولى
دروس التعريب ، وتولى إدارة القسم العربى فى الإذاعة (١٩٣٨ - ١٩٤٣) ، وتولى
المكتبة الأهلية ، فبذل الجهد فى إعدادها وتنظيمها وتعريبها ، فهى تضم ٧٠ ألف كتاب
عربى ، ومجموعة كبرى من الصحف وستة آلاف مخطوط ، وهى أقدم المكتبات فى
العالم .

٤ - أحمد توفيق المدنى

« إننا - قوم الشمال الإفريقى ، أبناء الأطلس الأبرار - لأحق بإحياء هذه الصفحة
الصقلية ، وبنفض ما تراكم فوقها خلال عصور الانحطاط من غبار ، ذلك لأنها
صفحة خاصة بأجدادنا فى هذا الشمال ، فهم الذين فتحوا هنالك ومدنوا وتغلبوا ،
وهم الذين انخذلوا بعد ذلك تحت تأثير عوامل شتى ، وتحت ضربات أعداء الداخل
والخارج ، فضاع منهم ما فتحوه حساً ومعنى بعد طول جلال .

فعلينا ونحن أبناؤهم أن ندرس تراثهم وتاريخهم فى حالتيه لنحيى ذكرهم ، وننصف
حقهم ، ولنقيم لهم بأقلامنا وفى قلوبنا تمثالاً خالداً .

هذه الصفحة الغامضة الثرية ، صفحة التاريخ الإسلامى بصقلية لم تكتب بعد ، ولم
يقيض الغد لها من يفردها بدراسة قيمة . »

هكذا وجه أحمد توفيق المدنى قلمه منذ أوائل الشباب منذ بدأ يكتب ١٣٤١ هـ ،

١٩٢٣ م ، كان هدفه واضحاً ، هذه الأمة لكي تنهض لابد أن تعرف تاريخها وأمجادها .

و كتابه عن المسلمين في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٥ م ليس إلا ثمرة من ثمار هذا العمل الذي بدأه قبل ربع قرن عندما اهتز لمغالطات المستشرقين وكتاب الغرب ، وتحريفهم صفحات التاريخ المغربي الإسلامي ، وهذه أبرز مؤلفاته في هذا المجال :

— قرطاجنة في أربعة عصور : أو تاريخ شمال إفريقيا قبل الإسلام .

— تاريخ الجزائر .

— جغرافية القطر الجزائري ١٩٤٨ (تونس) .

— هذه هي الجزائر ١٩٥٧ (القاهرة)

— المسلمون في جزيرة صقلية ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٥ م (تونس) .

— محمد عثمان باشا : داي الجزائر .

— رواية (حنعل) البطل الإفريقي الأعظم ١٩٥١ م .

فهو معنى بتصحيح حقائق التاريخ ، والكشف عنها وتجديد التاريخ وتنقيته ونفض الغبار من حوله ، وإبرازه نقياً خصباً : « إنها للذكريات أجداد كرام برة ، تركوا لنا رأساً في التاريخ عالياً ، وذكرآ في الحافقين مجيداً ، إنهم قهروا في سبيل الله ، وسبيل المدنية أشاوس الأرض وطغام البحر ، وتغلبوا بقوة إيمانهم ومثانة سواعدهم وشدة شكيبتهم على كل معترض لهم .. كان رائدهم تكران الذات وتضحية النفس في سبيل المثل الأعلى .. »

كما أصدر (المدني) تقويمه (المنصور) خمس سنوات كاملة ، متخذاً منه عملاً تاريخياً يكشف دائماً عن مجالي الأجداد وتاريخ الأمة العربية الإسلامية المغربية ، وإن كنا مع الأسف لم نجده في دار الكتب المصرية .

ولقد وصفه الباحثون بأنه جعل هدفه : « الفحص عما في أيدي الجزائر مما خلفه الماضي أو أوجده الحاضر ، واستحثاث همم الشباب الجزائري ليعمل الأبناء البررة على إزالة عوامل النقص التي تركها الماضي ، وأوجدها الحاضر ليشبوا إلى معارج الكمال في الحياة ، وليعلموا ما الوطن وما الإسلام الذي هو وحدة متينة . هدفه اكتشاف كل

ما كان للوطن من عز وسؤدد ، ومما امتاز به قيامه بذلك المجهود العظيم المادى والأدبى فى إنجاز تلك الخريطة التى هى أول خريطة لبلاد الجزائر ، تناولت جغرافية البلاد الطبيعية والاقتصادية والسياسية ، وقد تقرر دراستها بالمدارس العربية فى الجزائر (١) .

يمثل (توفيق المدنى) وحدة المغرب العربى ، فهو تونسى جزائرى ، نشأ فى تونس ثم تفاه الفرنسيون عنها ١٩٢٧ إلى الجزائر ، فارتبط بها ارتباطه بالوطن المغربى الكبير ، كما جمع بين صداقة شخصيتين من أبرز شخصيات المغرب العربى والشمال الإفريقى ؛ كان من تلاميذ عبد العزيز الثعالبى ، ومن زملاء عبد الحميد بن باديس ، عمل مع الثعالبى فى تونس فى مطالع النهضة بعد الحرب العالمية الأولى ، واشترك مع ابن باديس فى تأسيس جمعية العلماء ، وكان له دوره الواضح فى بناء هذا الصرح الشامخ .

وهو أحد خريجي الزيتونة التى خرجت الأعلام والقادة فى الشمال الإفريقى ، كما خرجهم جامع « القرويين » ، واستطاع أن يجمع بين الثقافة العربية والثقافة الغربية . عمل فى مجال النهضة الوطنية ، فألقى القبض عليه ، وأودع السجن شاباً دون العشرين ، فأتقن فى السجن اللغة الفرنسية ، وتعاطى لغات أوربية كثيرة ؛ وطالع كتب الفلسفة والاجتماع والسياسة ، وخالط الصحف والمجلات الراقية فكوّن لنفسه نبوغه وعصاميته علماً واسعاً ، وفكرة اجتماعية ناضجة ، وثقافة سياسية قليلة النظر ، فلما خرج من السجن ارتقى بكليته فى الحياة السياسية والفكرية بخطب ومحاضر ، ويحرر ويترجم ، وبرزت قيمه الإنشائية فى المقالات التى كان ينشرها بالصحف ، وإمضائه المستعار (المنصور) ، وهى مقالات تسودها القوة المنطقية مع الحماس الخطابى ، ويزينها التعبير المتين الصافى السهل الممتع ، المتحرى دقة الاستعمال اللغوى ، وكشفت مقالاته فى منهجها ومادتها عن أسلوبه العلمى ، وثقافته الفكرية ، فرفع ذلك قدره بين أهل العلم والفكر ممن لا يهتمى إلى وسطهم السياسى . وجذبته ناحية نبوغه العلمى إلى النشر الثقافى ، فأصدر ١٣٤١ هـ - ١٩٢٣ م تقويمياً سنوياً سماه (تقويم المنصور) ، وإلى إصداره خمس سنين ، حتى أصدر الجزء الخامس بالجزائر بعد نفيه إليها .

وفى الجزائر كان عمل أحمد توفيق المدنى أكثر مشقة ، حيث فرنسا تسيطر على الفكر

(١) (الشهاب م ٧ - ١٩٢١) .

والثقافة والتعليم ، غير أنه لم يلبث أن شق طريقه مع حركة النهضة الإسلامية العربية التي قادها عبد الحميد بن باديس ، وشارك فيها كأبرز أعضاء جماعة العلماء ، مع البشير الإبراهيمي ، والطيب العقبي ، ومبارك الميلي .

وكان له عمله في توجيه مبارك الميلي إلى كتابة تاريخ الجزائر ، ثم كتب هو في جوانب مختلفة : كتابه عن قرطاجنة يكشف تاريخ شمال إفريقيا قبل الإسلام ، وكتاباه عن جغرافية القطر الجزائري يعطى رداً على اتهامات الأعداء ، « وتاريخ الجزائر » يكشف حقائق هامة ، « والمسلمون في جزيرة صقلية » يكشف عن بطولة المغرب في مجال الفتح ، « وحياة محمد عثمان باشا داي الجزائر » إنما هو خلاصة واقية عن تاريخ الحكم التركي في بلاد الجزائر منذ فتح خير الدين بربروس إلى الاحتلال الفرنسي ، ويفصل الحوادث الكبرى في التاريخ العالمي ، وخاصة الأوربي والفرنسي .

وله بعد ذلك عديد من البحوث في البصائر ، وصحف المغرب العربي كله ، ثم إذا هو بعد الحرب العالمية الثانية يواصل العمل الضخم الذي خلفه ابن باديس ، فتمضي جمعية العلماء في فتح المدارس ، وإنشاء المعاهد ، والمدنى في مقدمة العاملين ، ثم إذا هو بعد ثورة الجزائر في صفوف العاملين في القاهرة ، يكتب ويخطب ويؤلف كتابه : « هذه هي الجزائر ١٩٥٦ » يكشف فيه عن اغتصابات الاستعمار وأعماله فيقول : « لم أكتبه للدعاية ، وإنما كتبه تسجيلاً للواقع ، وتعريفاً بهذا القطر ، وبهذا الشعب ..

.. هذه الأمة التي أدهشت العالم بجهادها ، وبهرت الدنيا بشيائها أمام أعظم قوة استعمارية جردت في قطر من الأقطار ، في أي عصر من العصور ، وأشرأت إليها أنظار سائر الشعوب ، تشهد على يدها مصرع الظالمين وتمزيق آخر صفحة من صفحات الاستعمار .

البلاد التي يسجل التاريخ فوق جبالها ونجودها . وبين شعبها وكتبانها صفحة من أروع صفحات البطولة والمجد .

تلقت هذه الأمة عن أجدادها ، فوق أديم هذا الوطن ، علماً وسيفاً وضميراً ، وتوارثت ذلك كابرأ عن كابر ، منذ أقدم العصور ، فما سقط ذلك العلم ، علم الحرية ، من يد شهيد حتى تلقته أيدي الذين يقتفون في ميدان الشرف خطاه ، وما استقر ذلك السيف سيف الكفاح والنضال في عمدة يوماً ، فهو دولة بين الأجداد والآباء والأحفاد ، لا يزال مشهوراً منذ آلاف السنين ، يمجد الماضي ، وينشئ الحاضر ، ويهيئ المستقبل ،

وما خبت نار تلك الضمير المتقدة ، ولا خفت نوره الرضاء ، فهو ضمير الإيمان والعقيدة والشعور ، هو روح قدسية جماعية ألقت بين قلوب عشرة ملايين من البشر ، قصيرتهم جسماً واحداً عملاقاً ، يقف موقف الجبار العنيد ، يحمى الحمى ، ويصون المقدسات ، ويقاوم الغاصبين ، ولا يضعف ولا يلين .. »

٥ - محمد علي دبور

« لقد حارب الاستعمار اللاتيني الحقود تاريخ المغرب الكبير بكل وسائله ، فحزم تدريسه في مدارسنا العربية الحرة ، وقيد أقلام مؤلفينا في المغرب فلم يستطيعوا كتابته كما يجب ، ليبينوا ماضينا الأغر المحيد ، وعظمة أجدادنا وبطولاتهم ومجدهم الأثيل ، وحتى يستطيع أبناء المغرب بالتاريخ أن يعيشوا مع أجدادهم ، فيتأثروا بهم ويقتفوا خطاهم في طريق العظمة والمجد .

لقد ثار المغرب الكبير على الاستعمار في كل عهوده ، وزلزل أقدام المستعمرين بثوراته العارمة ، وأدى للإسلام ببطولته في ثوراته الحربية والسياسية والثقافية فخراً وعزاً ، وجعل المستعمرين يحسبون للمسلمين حسابهم ، ويقدرّون المغرب ، ويعرفون صولته .

إن شخصيتنا الإسلامية تقوم على ثلاث قواعد ، هي أساسها وجذعها الذي تنفرع عنه : اللغة العربية ، وديننا الإسلام ، وتاريخنا ، وقد فجر الاستعمار على هذه القواعد العظيمة الراسخة جبلاً من الديناميت ليهدمها في المغرب فيقضي على هذه الشخصية الإسلامية .

إن الاستعمار اللاتيني قد زال من مغربنا الكبير والحمد لله ، ولكنه ترك في كثير من خربجي مدارس وجامعانه من أبنائنا عقداً نفسية خطيرة هي أضر لنا من الاستعمار ، وأوحى إلى كثير منهم بأن الإسلام ليس دين المدنية والعظمة ، وأن اللغة العربية لا تسير المدنية .

وكان أولئك المستعمرون اللاتينيون ، إذا قرروا شيئاً من تاريخ المغرب في مدارسهم الاستعمارية الابتدائية ، حيث التلاميذ الصغار الذين يسهل الإيحاء إليهم والتأثير فيهم ، لا يتقنون من فصول تاريخ المغرب إلا ما يعج بأكاذيب الملوك (القدامى) ، ودعايتهم المغرضة ، فيبنون على ذلك ما يشاءون من أكاذيبهم ، وتراهم يستغلون كل الاستغلال

الصراع الذى وقع بين المغرب وبين الملوك المستبدين من الأمويين والعباسيين ، فيثون ما يشاءون من عصبية فى النفوس وأحقاد فى القلوب ، ليبعدوا المغرب عن المشرق ، ويقطعوا قطرنا المغربى عن ديار العروبة ، فلا يعد نفسه أصيلاً فى أرومة قحطان .

وترى أولئك المستعمرين يستغلون هذا الصراع فيجعلون الناشئ " يعتقد أن المغرب فى كتف الدولة الإسلامية كانت أيامه مصبوغة بالدماء ، وأن أجدادنا كانوا أشقياء فى دولهم ، لا يتمتعون بما يتمتع به المغرب فى جحيم الاستعمار اللاتينى ، ليهيئوا نفوسهم للرضوخ للقيود ، واستحلاء المرارة ، فلا يثيرون عليها ، والرضا بواقعهم الأليم ، فلا يسخطون عليه ، وتراهم يستخدمون تاريخ المغرب المجيد الذى يحرفونه ، فى الإزراء بأجدادنا ، وتشويه سمعة دولتنا الإسلامية ، ليخلقوا فى نفوس أبنائنا عقائد سيئة فى أجدادهم وعقداً نفسية تصرفهم عن الاعتناء بتاريخهم ، فلا يرون ما كان يرقل فيه المغرب فى عهود دوله الإسلامية الزاهرة من رقى وتقدم .

وكان الاستعمار اللاتينى فى المغرب الكبير قد اتخذ كل وسيلة للقضاء على اللغة العربية التى هى مفتاح الدين والتاريخ ؛ ليلغى ما يتلهمف عليه من تجريد المغرب من دينه وعروبه فحارب التاريخ الإسلامى ، فحرم تدريسه فى المدارس العربية الحرة ، وكان التاريخ الإسلامى وتاريخ المغرب على الخصوص أول مادة يسأل عن وجودها فى حملاته التفتيشية على هذه المدارس التى يراها خطراً عليه .

إن الاستعمار اللاتينى قد حرم المغرب من معرفة تاريخ أجداده فى مدارسه ، وحاربه وضيق عليه فى المدارس الحرة ، واتخذ كل وسيلة ليكون المغرب دائماً على جهل بتاريخ أجداده العظماء ، وبتاريخ دولته الإسلامية الزاهرة التى أيقظت أوربا وأنقذتها من الهمجية والضلالة .. »

لا شك كان استقلال الجزائر إيذاناً ببدء مرحلة فكرية جديدة فى المغرب العربى تتصل باللغة العربية والتاريخ ، ومختلف شئون الثقافة والأدب والنشر ، وكانت كتابة تاريخ المغرب العربى الكبير وتحريره من أخطاء الغربيين والمستشرقين فى مقدمة الأعمال الضخمة التى بدأت فعلاً بعد معركة الحرية ، للقضاء على ما حاوله الاستعمار خلال أكثر من مائة وثلاثين عاماً بتحريف هذا التاريخ ، واستغلال نصوصه وأحداثه للقضاء على الوحدة المغربية ، وخلق قوميات ضيقة ، وإثارة ثغرات تمزق الصف وتحاول أن

تجعل من كل الأقطار الأربعة (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) إقليماً قائماً بنفسه ، له طابع ثقافته ، في حين أن الحقيقة التاريخية تستطيع أن تثبت وحدة المنطقة وتلاقيها تلاقياً كاملاً أمام ملامح واحدة لا تختلف كثيراً ، وكذلك للرد على محاولات الاستعمار في تمزيق الروابط بين المشرق العربي والمغرب العربي ، للحيلولة دون التقاء الأجزاء العربية كلها من المحيط إلى الخليج في وحدة كبرى .

لذلك كانت موسوعة (تاريخ المغرب الكبير) التي يوالى إصدارها العلامة محمد علي دبوز أستاذ التاريخ بمعهد الحياة بالجزائر عملاً مقدوراً في مجال الفكر المغربي المعاصر ، وهو عمل كبير الدلالة على أن العمل الفكري المدروس قد أخذ طريقه فعلاً في هذه المرحلة الجديدة ، على أساس البحث العلمي والمراجعات الكاملة لكل ما كتب ، مستعرضاً تاريخ هذه الأجيال ، مراجعاً كل ما كتب في هذا الصدد .

وقد صور المؤلف كيف كان هذا العمل صعباً كل الصعوبة ، وكان طريق هذه العهود مطموساً ، والسبل غير معبدة ، وأغلب من كتبوا في تاريخ المغرب من المحدثين قد اغتروا بالمصادر المزيفة ، فرددوا أغلاط المؤرخين القدماء ، فكان عليه أن يكتب فصولاً جديدة معتمداً في ذلك المصادر الصحيحة ، وإن كان يسلك طريقاً غير معبدة .

وقد بدأ العمل في كتابة هذه الفصول منذ عام ١٩٥٠ ، بعد أن أتم مراجعاته الأولى ، وقد حالت الثورة الجزائرية دون ذلك ، مما أتاح له فرصة في المراجعة ، وتوسيع دائرة البحث ، والقيام بجولات واسعة لمطالعة عديد من المخطوطات الموجودة في الخزائن القديمة ، وهي خزائن في جنوب الجزائر لم تمتد إليها يد ، كما زار مكاتب تونس والقاهرة .

وكانت أخطر مرحلة في حياة موسوعته هي مرحلة الثورة ، حيث تعرضت بلدته (القرارة) للتفتيش عشرات المرات ، وكان قد وضع مسودة كتابه في صندوق خشبي لامسامير فيه لكيلا تكشفه الآلات التي تدل على الحديد ، وردمه في الحديقة زمناً ، وكان كلما هوجمت البلدة يضرع إلى الله أن يحفظه ، ومن أغلى ما كان يخشى عليه الخرائط التي أمضى ثلاث سنوات في العمل بها من أجل التقييد عن حدود الدول المغربية في القرنين الثاني والثالث الهجري وقبل الإسلام .

والمؤلف عالم باحث درس في الجزائر وتونس والقاهرة ، وشغف بدراسة التاريخ منذ شبابه . وكان أول من قدم القاهرة عام ١٩٤٤ ، من المغرب سائراً على قدميه قاطعاً

حدود تونس وليبيا حتى وصل إلى مصر إبان الحرب العالمية ونزول الحلفاء في صقلية ، ولم يكن من اليسر أن يسمح له بالسفر في هذه الفترة .

ويحمل تاريخ المغرب العربي الكبير دعوة حارة إلى الوحدة : « إن المغرب كان وطناً واحداً يسكنه شعب واحد ، ولم يعرف هذه التجزئة التي صار إليها الآن .. » .

ويمكن القول بأن محمد علي دبوز هو وكتابه « تاريخ المغرب الكبير » قد جاء بعد عملين كبيرين قدمهما مبارك الميلي ، وتوفيق المدني في هذا المجال ، فهما قد سبقاه في الثلاثينات ، أما مبارك الميلي فلم يكمل تاريخه بعد أن أصدر جزءين كبيرين ، وكتب توفيق المدني كتابه الموجز « تاريخ الجزائر » الذي أعيد طبعه في العام الماضي دون أن يضاف إليه شيء .

وفي هذا نذكر كتاب التاريخ العام للجزائر لعثمان الكعك ، ومؤلفات أخرى قليلة اهتمت بتاريخ تونس وتاريخ ليبيا وتاريخ المغرب ، لأبي القاسم كرو وطاهر الزاوي ، ومحمد داود .

وتختلف هذه المؤلفات عن كتاب تاريخ المغرب الكبير في أمرين :

الأول : هو أن أغلب هذه المؤلفات موجزة ، وكتبت في ظل الاحتلال والحماية ، فلم يكن من اليسر أن تتوسع في كثير من المجالات مع التحفظ في العبارة وإن كانت ميزتها أنها كتبت لإيقاظ العقيلة المغربية ، والرد على ادعاءات كتاب الغرب في وقت المعركة .

الثاني : أن محمد علي دبوز (الجزائري) لم يكتب تاريخ الجزائر ، وإنما كتب تاريخ المغرب العربي الكبير بأقطاره الأربعة على نحو مستفيض ، وأنه أصدر ألف صفحة ليصل إلى ختام حكم الدولة الرستمية في نهاية القرن الثالث الهجري . .

ويضاف إلى هذه الميزة ميزة أخرى هي اتساع مجال البحث بالمراجعة الكاملة ، وحرية الكلمة في مواجهة ادعاءات الغريبين بشأن تاريخ المغرب العربي .

٦ - عبد العزيز بن عبد الله

إن عبد العزيز بن عبد الله من ذلك الرعيل الثابه الذي تلفت إلى تاريخ المغرب العربي وعنى بدراسته وتعمقه والتوسع فيه . أبرز مؤلفاته : (مظاهر الحضارة المغربية) وهو دراسة واسعة للحضارة المغربية من خلال الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية ونظام الحكم

وطبيعة البلاد . تتبع نمو الحركة الاقتصادية منذ ألف عام ، والمراكز التي كانت منبعاً لهذه الحركة ، والعلاقات التجارية بين المغرب والبلاد الأجنبية ، واستغلال النفوذ الأجنبي لهذه الحركة . وأبدى اهتماماً بالفن المعماري ومضى في تقويم هذه الحضارة ومدى تأثيرها على الحضارات الأخرى وتأثيرها بها ، ومكان الحضارة المغربية بالنسبة للحضارتين الإسلامية والعربية .

وقد قرأنا للسيد عبد العزيز عشرات الدراسات في مختلف مجالات المغرب الكبرى كشف فيها عن جوانب غامضة فعلاً حاول تجليتها ، وكلها تدل على جهد عميق مبذول .

ومن أبرز هذه الأبحاث بحثه عن التبادل الفكري بين المغرب والمشرق . حيث قدم عشرات من أسماء الأعلام الذين سافروا من المغرب إلى المشرق وبالعكس ، متعرضاً لآثارهم وأعمالهم (ديسمبر ١٩٦٠ مجلة دعوة الحق) .

وقد أولى عبد العزيز بنعبد الله اهتمامه للجذور السلافية واللغوية والفكرية لوحدة المغرب ، وكتب عنها عديداً من الدراسات في مجلة « دعوة الحق » وهو يعد ليبيا - كما نعتها - داخلة في الوحدة المغربية .

ولد عبد العزيز بنعبد الله (١) عام ١٩٢٣ وحصل على ليسانس الآداب وبكالوريوس الحقوق ، واشتغل في الصحافة فكان من محرري جريدة العلم ، وتقلب بعد الاستقلال في عدة وظائف ويشغل الآن منصب الأمين العام للمكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي بالرباط ، وله ثقافة واسعة في التاريخ الإسلامي وتاريخ حضارة المغرب ، ويشغل إلى جانب ذلك منصب أستاذ الحضارة المغربية بكلية الآداب بجامعة المغرب ، وله عدة مؤلفات منها غير ما ذكرنا : الفن المغربي وكتاب عن ابن الخطيب بالاشتراك . وله كتب بالفرنسية عن حضارة المغرب وتاريخه ، وله دراسات عن التصوف الإسلامي .

٧- محمد داود

من مؤرخي (المغرب) له كتاب في ثمانى مجلدات عن تاريخ تطوان ، استهدف من دراسته اهتمام المفكرين والباحثين والمؤرخين بالدراسات الموسوعية وإبراز ذاتية المغرب وشخصيته واستقلاله .

(١) خطاب عبد الكريم غلاب في ١٥/١١/٦٤ .

مذهبه في كتابه التاريخ - كما أورد في كتابه - : أن يثبت المؤرخ المعلومات ويصور الحوادث كما هي أو كما يراها دون تزوير أو تضليل ، ثم لكل قارئ أن يستفيد ويستنبط على حسب ذوقه ومذهبه واستعداده .

وعنده أن كتاب (تاريخ تطوان) ليس كتاب دعاية ، وأنه لم يؤلف لبيان المحاسن أو المساوي ، ولم يكتب بالأسلوب الإنشائي الذي تنمق عباراته .

ويقول : إنه على الرغم من كوني أنجزته في عدة مجلدات تحتوي على آلاف الصفحات فما زلت أشعر بنقص فيه كبير .

وقد عرّف « عبد الكريم غلاب » مدير تحرير جريدة العلم المغربية المؤرخ « محمد داود » في خطاب خاص (١) إلى بأنه من الرعيل الأول في الميدان الوطني والثقافي ، يبلغ الآن نحو الستين من عمره ، واشتغل بالتعليم في أول الأمر ، ثم كان مندوباً للتعليم (بمثابة وزير) في المنطقة الشمالية حينما كانت مفصولة تحت الحكم الأسباني عن المغرب ، وأسس حوالى سنة ١٩٣٣ مجلة اسلام ، وكانت من أرقى المجلات الشهرية التي صدرت بالمغرب ، ولم تعمر غير نحو ستة ، وتوقفت بعد أن منعها الفرنسيون من الدخول إلى المنطقة المشمولة باستعمارهم ، وحوالى عام ١٩٣٥ أسس مجلة أسبوعية باسم « الأخبار » لم تعمر طويلاً لأسباب نفسية ، وقد انصرف منذ زمن طويل إلى دراسة تاريخ تطوان وكتابته ولم يكتب غيره ، وإن كان له مختصر باسم مختصر تاريخ تطوان .

(١) في ١٥/١١/١٩٦٤ .

مراجعة عامة

أولاً - ثورة الجزائر والفكر المغربي

لا شك أن ثورة الجزائر التحريرية (١٩٥٤ - ١٩٦٢) من أبرز أحداث العالم الإسلامي والأمة العربية في تاريخها الطويل والمعاصر ، فهي لا تقل من حيث الوزن عن أخطر التحولات الكبرى والمواقف الحاسمة في تاريخ الإسلام ، فهي توضع بجوار مقاومة التتار والصليبيين وفتوح القسطنطينية وغيرها .

ولا أعتقد أن عملاً من أعمال المقاومة العربية الإسلامية في سبيل الحرية والتخلص من الاستعمار يرقى إلى درجة هذه الثورة .

فقد استطاعت مصر والسودان وسورية ولبنان والعراق أن تحصل على استقلالها وتحرر ، كما استطاعت ذلك ليبيا وتونس والمغرب ، وقامت في كل هذه الأقطار معارك وثورات ومقاومات دامية وقدمت شهداء وضحايا .

ولكن معركة الجزائر تقف وحدها مهية رهيبة ، لتعطي صورة أخرى أشد قسوة وضراوة وإصراراً . وترسم للأمة العربية والعالم الإسلامي صفحة من أروع صفحات التضحية والمقاومة والقداء والاستبسال .

وحتى يظهر الباحث الذي يتناول فلسفة التاريخ في ثورة الجزائر سيظل جانب كبير من هذه المعركة بعيداً عن الأضواء الكاشفة .

ولا شك أن السبب في هذه الثورة يرجع إلى صورة الاحتلال الجزائري عام ١٨٣٠م ومرماه ، وهدفه ، وتوسعه إلى المغرب وتونس . ومفاهيم فرنسا في اعتبار الجزائر قطعة من فرنسا أو فرنسا الجنوبية ، واعتبار أهلها مسلمين فرنسيين . وما يتصل بهذا من محاولات للإدماج ، وقضاء على مقومات الشخصية العربية الإسلامية ، وإلغاء اللغة العربية والإسلام والقومية الجزائرية ، وجعل الناشئ الجزائري عبداً للفكر الغربي ، يدرس أمجاد فرنسا وبطولات رجالها ولا يعرف شيئاً عن تاريخه وأمته وأبطاله .

وكيف استطاعت هذه الخطة بعد مائة عام من احتلال الجزائر أن تقضي فعلاً على اللسان العربي ، وأن ينشأ جيل جديد لا يعرف العربية وأن تحتفل فرنسا ١٩٣٠ بعيد تحول

الجزائر إلى قطعة من الدولة الفرنسية ثم ظهور اليقظة العربية الإسلامية العارمة في حركة جمعية العلماء الجزائريين ، وتصدى عبد الحميد بن باديس للعمل الضخم في بناء المدرسة العربية في أنحاء الجزائر ، وكيف لقي في هذا العمل مشقة وعناء ، وكيف استطاعت هذه المدارس مع الصحافة العربية الجزائرية أن تعيد للغة العربية كيانها من جديد ، وأن تنشئ جيلًا جديدًا يؤمن بضرورة تحرير الجزائر .

ثم تتطور الحركة الوطنية الممثلة في صورة الأحزاب السياسية من دعوة إلى الاندماج لدعوة إلى وطن مرتبط مع فرنسا إلى دعوة إلى الاستقلال الذاتي ..

ثم كانت حركة التحرير الجزائرية التي اندمجت فيها كل القوى الوطنية العاملة والتي أعلنت حرب التحرير عام ١٩٥٤ لتقوم أعنف ثورة في تاريخ الأمة العربية ، ومن قلب الثورة نشأ أدب جزائري له طابع خاص يبنى قضية الجزائر ، أسهم في إعداد هذه المرحلة ، ثم أسهم في دعمها ودفعها ، وكان أغلب هذا الأدب مكتوبًا باللغة الفرنسية .

إن نظرة شاملة إلى الفكر العربي في الجزائر ترى آثار عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي ومالك بن نبي وتوفيق المدني ، وأبي القاسم سعد الله ، ومحمد علي دبور ، وأبي اليقظان ، وترى شعر سحنون ومحمد العيد الحليفة ، ومفدى زكريا .

ثم نرى الأدب العربي المغربي الجزائري الفرنسي ممثلًا في محمد ديب ، ومولود فرعون ، وكاتب ياسين ، ومولود معمري ، وإدريس الشرايبي .

وقد مرت الجزائر بمراحل ثلاث :

المرحلة الأولى : هي المقاومة التحررية العسكرية التي بدأها الأمير عبد القادر ١٨٣٠ واستمرت دون توقف أكثر من أربعين سنة . ثم دخلت الجزائر في مرحلة الركود .

المرحلة الثانية : مرحلة الكفاح السياسي ، بدأت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بظهور نجم شمال إفريقيا ، وحزب الشعب الجزائري ، وحزب البيان ، وظهر في هذه المرحلة مصالي الحاج ، وعباس فرحات . وخلال الثلاثينات ظهرت « جمعية العلماء » بقيادة ابن باديس ، والبشير الإبراهيمي ، وأحمد توفيق المدني ، والطبيب العقبي ، والعربي التبسي .

وقد أخذت طريق التشييب والإيقاظ الفكري الإسلامي في مجال اللغة والإسلام .

المرحلة الثالثة : هي مرحلة الثورة والحرب والمقاومة المسلحة التي بدأت في نهاية

عام ١٩٥٤ والتي ظنت فرنسا أنها إحدى محاولات العصيان السهلة القمع ، غير أن الثورة ما لبثت أن اتسعت وشملت مناطق كبرى ، قر أهمها « وهران » ، واستطاعت أن تستمر وتعمق وتقوى وتقدم مليوناً من الشهداء ومليوناً من المطاردين .

وقد كان إعلان الثورة الجزائرية عاملاً هاماً في تطوير المفاهيم الاستعمارية لدى فرنسا ، على نحو متصل وسريع ؛ فقد أسرعت فرنسا بالتفاهم مع تونس والمغرب ، وعقدت معهما معاهدتي الجلاء ، وذلك لتحول دون ارتباط أجنحة الثورة في المغرب كله ، وظنت أنها بذلك تقضي على الثورة وتقص أطرافها ، غير أن المغرب وتونس ظلتا موصلاً هاماً لأعمال الثورة ، وكان للجمهورية العربية المتحدة دورها الهام في المؤازرة ، مما دفع عجلة العمل الثوري ، ووسع نطاق المعركة فاضطرت فرنسا إلى التراجع .

والواقع أن مرحلة الكفاح السياسي كانت مرحلة طبيعية (١٩٢٠ - ١٩٥٤) في خلال ثلاثين عاماً لتأريث الثورة ، وإعداد المغرب نفسياً لمواجهة أضخم عمل استعماري وقع في العالم العربي ، وهو القضاء على القومية العربية الإسلامية الجزائرية وتصفية العربية والإسلام تصفية كاملة .

ذلك بأن فرنسا لم تكن تهدف إلى السيطرة الاقتصادية أو السياسية أو العسكرية فحسب ، بل كانت تهدف إلى تحويل الإنسان الجزائري نفسه إلى إنسان فرنسي ، بالقضاء على لغته ودينه وتاريخه ؛ ولقد أحس الذين ذهبوا إلى الجزائر بعد انتصار ثورة الجزائر كيف كانت فرنسا تسيطر فكرياً على هذا الجزء من الوطن العربي الإسلامي « إلى درجة تجد القرى فيها حافلة بالكنائس ذات الأجراس ، ولا تلمح في بلاد المسلمين مثذنة جامع واحد ، إلى درجة أن الجزائريين الذين يعرفون اللغة العربية قراءة وكتابة لا بد أن يكونوا قد تعلموها في كتاتيب تحفيظ القرآن القليلة ، أو خارج الجزائر ، إلى درجة أني كنت أرى الشعارات تكتب على الجدران باللغة العربية وبالحروف اللاتينية ، فيكتبون الشعار المشهور « الله يرحم الشهداء هكذا » (Allah Yarham El Shohada) هذه الدكتاتورية الفرنسية الأوربية التي تفيد امتداداً فرنسياً للحرب الإسبانية في الأندلس ضد العرب ، وتحظى بالعدوان عبر البحر المتوسط كي تشترك فرنسا وإسبانيا في حرب صليبية ضد عرب الشمال الإفريقي ، كان الرد عليها أن تقوم ثورة شعبية عربية إسلامية في بلاد المغرب العربي كلها كي تدفع بهذه الدكتاتورية الأوربية الصليبية مرة أخرى عبر البحر إلى حيث جاءت . (١) .

(١) الدكتور سهيل ادريس - جريدة الجمهورية (٢ أغسطس ١٩٦٢) .

وكانت مرحلة حضارة للأفكار الثورية قد بدأت منذ ارتفع صوت عبد الحميد ابن باديس : « حوربت فيكم العروبة حتى ظن أن قد مات منكم عرقها ، ونسخ فيكم نطقها » .

« حورب فيكم الإسلام حتى ظن أن قد طمست أمامكم معالمه ، وانتزعت منكم عقائده ومكارمه » .

« حورب فيكم العلم حتى ظن أن قد رضيعتم بالجهالة وأخلدتم للنذالة .
ثم ماذا كان بعد قرن :

« جثتم بعد قرن تصدح بلبلكم بأشعار العربية تثير الشعور والمشاعر » .

« جثتم بعد قرن ترفعون علم التوحيد وتنشرون من الإصلاح لواء التجديد ، وتدعون إلى الإسلام كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

جثتم بعد قرن ترفعون للعلم بناء شامخاً ، وتشيدون له صرحاً سامقاً » وبعد أن ذكرت دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة جزائر « بلاد من أملاك فرنسا في شمال إفريقيا » انفتح الطريق إلى الحديث عن الشخصية الجزائرية والوطن الجزائري ، ومن ذلك كتابات عمروشي (٢) .

« لا بد من الاعتراف بوطن للجزائريين ، ووطن كما يرغبون ، ذلك جوهر المشكلة الجزائرية . وإن أنسى لا أنسى أنه بعدما اغتصبت فرنسا وطنهم ، وبعدها أقصتهم عنه مسلوبين من كل حقوق الفرد التي تفتخر فرنسا وتمن بها على العالم .

إن أنسى لا أنسى أن الجزائريين وعدوا بأن يحفظوا أجمل وأمجد وأعز وطن في الوجود . وكل الناس يعلمون أن الجزائريين ماهم إلا أولئك المارقون على القانون ، الذين لم تعترف لهم فرنسا بحالة أنهم مجاهدون ، وأنهم بذلوا دماءهم - من كان يدرى أن فلاحى أوران وعمالة وهران سيكتشفون في جوهر مأساتهم وجوهر يؤسهم ، الطريق الوحيد المؤدى إلى النور ، الطريق الذى أداهم فعلاً منذ أول نوفمبر ١٩٥٤ إلى أن يعلنوا لأنفسهم أمام العالم أنهم أحرار وأنهم سادة ..

ولقد صنعت الثورة الجزائرية في خلال سنواتها السبع أدباً عربياً ضخماً المحصول

(١) صحيفة الشهادة الفرنسية : نوفمبر ١٩٥٧ (نقلا عن مجلة الفكر ١٩٥٧ م)

لم يخل منه قطر من أقطار الأمة العربية ، فقد اشترك أغلب كتاب وشعراء الأمة العربية في استيحاء الثورة الجزائرية في القصة والمقال والقصيدة ، وكان لأدباء الجزائر أنفسهم ثمر وشعر ، ظل (حداء) للمقاومة ، ودافعاً للكفاح ، وبرز دور هذا الأدب ومكانه في مختلف صحف تونس والمغرب ومجلاتهما .

وقد ارتبطت الثورة المسلحة بالثورة الفكرية التي قادتها حركة العلماء بإحياء اللغة والتراث والعودة بمفاهيم الإسلام إلى منابع الأولى ، وبناء المدارس العربية الأهلية ، يقول جمال البغدادي القادري في دراسة للفكر الجزائري المعاصر (١) « إن أول بداية صحيحة قد حصلت سنة ١٩٣١ حينما نهض رجل عملاق في الجزائر لينذر الشعور بالوجود الجزائري ، ويرفع راية الجهاد الأكبر على العدو الأكبر ، نعم استطاع عبد الحميد بن باديس أن يثير الحماس ويهز الناس ، ويجعلهم يتفهمون رسالتهم وواجبهم ، وذلك في كلمات ثلاث تلخص فلسفة أول مصلح جزائري وأبى نهضتها الحديثة ، هذا الثالث : هو « العروبة والإسلام والجزائر » والعروبة كامنة في اللغة العربية ، والإسلام هو مضمون دستورها الخلق والفلسفي ، والجزائر هي الأرض المحتلة التي يجب أن تظهر من رجس المستعمر الظالم » .

وقال البغدادي القادري إنه يلتحق المرحلة الإعدادية مفكر آخر يمثل هذا الاتجاه الفلسفي الديني ، وهو الكاتب المبدع « مالك بن نبي » هذا المفكر الخلاق صاحب مفاهيم إسلامية عميقة تعتمد على معطيات العلم الحديث ، وربط الإسلام بالركب الحضاري العام ، ويعتبر مالك بن نبي حجة التفكير الصادق للإسلام في الجزائر ، وفيلسوفها الرسمي ، بإنتاجه الغزير أن يفرض على المجتمع العربي مكانة الفكر الجزائري العميق .

ويرى البغدادي أن الخطوط العريضة للفكر الجزائري هي أنه « فكر عقدي يؤمن بالله وحده ، ولا يكاد يفصل بين مفهوم العروبة ومفهوم الدين » .

(٢) مجلة دهره الحق - يونيو - يوليو (١٩٦١) .

ثانياً — مرحلة جديدة للفكر المغربي

يمكن القول في كلمة أن الفكر المغربي خلال مرحلة الاحتلال كان بالغ الاهتمام بالعمل الوطني ، والنضال السياسي ، ومقاومة دعوات التغريب ، والرد على الاتهامات ، والتكيف ، لتطور والحركة والحياة ، بحيث يستطيع المقاومة ، وهو في أغلبيه يحمل طابع التحدي ورد الفعل ، والحفاظ على القيم الأساسية للثقافة العربية الإسلامية ، والشخصية المغربية ، في نطاق اللغة والإسلام ، ووحدة التراث المغربي . وقد مُنِيَ الفكر المغربي بثقافة وحيدة مقفلة مغرصة ، هي الثقافة الفرنسية التي أجبر عليها ، وحيل بينه وبين غيرها من الثقافات ، كما فرضت عليه اللغة الفرنسية بآدابها وتاريخها . ومن أجل هذا ، وحتى عام ١٩٥٢ بالنسبة لليبيا ، و ١٩٥٤ بالنسبة لتونس والمغرب . و ١٩٦٢ بالنسبة للجزائر ، كان الفكر المغربي كله يعمل في مجال المقاومة . ولكنه لم يلبث أن تطلع إلى الغد بمجرد حصوله على الاستقلال ، وتناول الكتاب والمفكرون صورة الغد في كل قطر من هذه الأقطار ، محاولين رسم خطوط العمل الفكري خلافاً .

فبعد الكبير الفاسي يتحدث عن المغرب بين أمسه (١) وغده ، ويرى المشكلة في المغرب هي التوفيق بين النظام الاستعماري وبين مقتضيات العهد الجديد ، وخلق الأشياء أسير من التوفيق ، ويشير إلى تشعب الأنظمة في جميع الميادين الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، يقول : « لما انتهت الحماية ، وأزابت الحواجز وجدت التيارات الفكرية التي تجتاح العالم سبيلها للبلاد ، لذلك التقى قديم بحديث ، وأوشك أن يكون بينهما اصطدام . والمنطاب هو العمل بحكمة للمحافظة على الرصيد الحضاري الإسلامي ، والتراث الروحي والعمراني ، والأخذ بما هو صالح من التيارات الغربية التي تجتاح جميع ما يعترضها في طريقها اجتياح الزوابع » .

ويقول علال الفاسي « إننا نحن ان عرب المسلمين المغاربة ، يجب أن نشعر أننا غير الأوروبيين ، وغير الأمريكيين ، وغير النصارى واليهود ، نعرف ماضينا ،

(١) مجلة العربي .

وعوامل تقدمنا وانحطاطنا ، إننا نعيش في هذا الوطن العملاق الذي تمتد من أقاصي إفريقيا إلى أقاصي الصين ، وإن مكاننا الذي نحن منه وإليه يفرض علينا اتجاهات وروابط لا يمكن أن تمحوها أفكار الشرق أو الغرب ، ولا أن تنفصم عراها وروابط الفكر المتحل ، والاستغراب المصطنع .

وقال « إن ما خلفه لنا الاستعمار من بقايا هي أخطر على مستقبلنا من الاستعمار نفسه ، لقد أصبحنا لا نعرف أنفسنا ولا مكاننا وأين نسير . أصبحنا نفكر بأفكاره التي أملاها علينا في المدرسة والمعهد والجامعة والسينما وفي كل مكان .

ويعرض « محمد شفيق (١) » للصراع الداخلي الثقافي بين الثقافة العربية والثقافة الفرنسية .. ويرى أن ذوي الثقافة الفرنسية ينفرون من الثقافة العربية وأصحابها عن مركب يعترهم ، أما الذين لهم ثقافة أجنبية وليس لهم من الثقافة العربية نصيب فيرون أن لا شيء يستحق الذكر من العلوم العربية ، قديمها في نظرهم كله دين وفقه ، وربما كان إيماناً بالأساطير والخرافات ، وحديثها كله تقليد للأوروبيين والأمريكيين ، وقد يكون تقليداً مشوهاً .

والذين ليس لهم ثقافة أجنبية قد لا يعتبرون أن هناك ثقافة غير ثقافتهم وأن كل ما يدعى الآخرون أنه علم ما هو إلا جهل .

وعنده « أنه يحق للمتفرنسين أن يعجبوا بالكتاب والشعراء الفرنسيين وأن يقدرهم لأنهم أتوا في الأدب ببدايع لا سبيل إلى إنكارها ، ولكن هل عرف المتفرنسون من روائع الأدب العربي شيئاً ؟ هل قرءوا في نثر العرب شيئاً فضلاً عن شعرهم ؟ إنهم يفضون عنه لأنهم يجهلونه . أو هم إلى جهله أقرب منهم إلى العلم به : وهم يجهلونه لأن دراسته صعبة حقاً تكلفهم جهوداً ليس لهم بها طاقة .

ويرى أن هذا هو اندى دعا المتفرنسين وأصحاب الثقافة الفرنسية إلى التقصير في تعريب شئون الدولة إلا مع شيء من التخوف والقلق ، وهذا من مظاهر حرصهم على مناصبهم ووظائفهم ، وعلى الأقل امتيازاتهم المعنوية .

* * *

وفي هذا المجال أذكر كتابين حاول مؤلفاهما معالجة هذا المستقبل :

(١) مجلة التربية الوطنية مارس ١٩٦٠ .

الأول : (إلى أين يتجه المغرب ؟) بالفرنسية لأحمد الشرايبي (الدار البيضاء)
بالمغرب .

الثاني : (من المغلق إلى المفتوح) بالفرنسية للدكتور محمد عزيز الحبابي .

أما كتاب « إلى أين يتجه المغرب » فيعالج ما أسماه المؤلف « جوانب التناقض في المغرب » والعوامل التي تؤثر في كيانه ، ومنها التقاليد ، وما طرأ على الدين من تشويه وتمويه .

أما كتاب من « المغلق إلى المفتوح » فيعالج الثقافات القومية وصلتها بالحضارة العالمية ، ويرد على مزاعم بعض الغربيين الحاقدين على الإسلام وحضارته .

خلاصة البحث

في محاولة لإعطاء صورة عن الفكر والثقافة المعاصرة في المغرب العربي نجد صورة واضحة قوية ممتدة من صور المقاومة التي لم تستسلم في خلال قرابة قرن من الزمان على نحو متصل قوامه حركات فكرية ممتدة في الأقطار الأربعة ، دعامتها جامعتا القرويين والزيتونة ، وعناصرها « الكلمة » في عنصرها النثر والنظم وفي مجال التعليم والصحافة في الدفاع عن الإسلام واللغة العربية والحرية والتراث المغربي وتأكيد الشخصية العربية .

وقد عبر « روم لاندو » عن نتيجة هذه المعركة حين أكد أنه على الرغم من الجهود التي بذلت لفرنسة المغاربة فإن هؤلاء أخذوا يتجهون أكثر وأكثر إلى ثقافتهم الخاصة وتاريخهم الماضي . وأن محاولات التغريب والفرنسة والتجنيس والتمسيح والإذابة والإدماج كلها قد ردت المغاربة إلى استمسك أشد قوة وعنفاً بالعربية والإسلام ، ووجد بعد الجهد الطويل أنه من المستحيل أن يتفرنس المغاربة .

وفي خلال هذه المعركة الطويلة الممتدة كان المغاربة يقولون كلمتهم المعروفة « نريد أن نتعلم إنسانيتنا لا إنسانية الآخرين ، إننا لا نعتبر أنفسنا أحراراً إلا إذا حررنا فكرنا من اللغة الأجنبية ودلالاتها . وفي الجزائر كانت الصيحة هي أن اللغة العربية قطعة من وجود الأمة . ومرآة لعصورهم الطافحة بالمجد والعلم والبطولة والسيادة ، ولطالما دعا كتاب المغرب إلى ما أسماه « محمد البشروش » تخلص روح الأمة ومقوماتها من خطر المسخ والتشويه الذي كان يهددنا » .

ولذلك فقد كانت دعوة المصلحين بعد الاستقلال هي أنه إذا كان المستعمر قد خرج من البلاد فلا بد أن يخرج من القلوب « إن نوعاً من الحلول والاتحاد قد وقع بنا فأصبحنا نشكر لوجودنا لنظهر وكأننا أولئك الذين استعبدونا بالأمس » ، ومعنى هذا ضرورة استمرار معركة المقاومة لتحرير الفكر العربي الإسلامي المغربي من بقايا العبودية للفكر الغربي الذي فرض سلطانه في خلال هذه الفترة الطويلة حين فرض على المغرب ثقافة واحدة مقفلة هي الثقافة الفرنسية، دون أن يتيح أي فرصة لتلقي ثقافات أخرى .

وإذا كانت أهداف الغزو الفكرى اللاتينى للمغرب هى إعادة المغرب إلى الحضيرة اللاتينية كما كان قبل الإسلام ، أو النظر إلى شواطئ مراکش والجزائر وتونس وليبيا على أنها امتداد لأوروبا سياسياً واقتصادياً وحريةً ووجدانياً – على حد تعبير جون جنتز – فإن ذلك قد انتهى بالحرية السياسية ، ولكنه لا بد أن ينتهى بالبناء على الأساس العربى الإسلامى الذى يمثل الشخصية الحقيقية للمغرب الذى هو جزء من العالمين العربى والإسلامى ، وهنا يبدو معنى دعوة عبد الكبير الفاسى إلى المحافظة على الصالح من القديم فى قوله : « مهما يكن للجيل الحاضر فى المغرب من حق ، فالحق الذى لا ينازع فى مشروعيته أحد ، هو فى مسيرة التطور مع السعى للمحافظة على الصالح من تراثنا فى سائر الميادين . من غير محاولة للقضاء عليه بأجمعه ، لأن القضاء على كل تراث خسران مبین » .



ونقد آثار الغزو الفكرى فى وجه الفكر والثقافة المغربية العربية المعاصرة كثيراً من الشبهات ، محاولاً بها :

- تمزيق وحدة المغرب وبعث القوميات الضيقة وذلك بالادعاء أن هناك فروقاً حقيقية بين الجزائر وتونس ومراكش مثلاً .
- تمزيق وحدة الفكر فى الأمة العربية كلها القائم على الإسلام واللغة العربية والتاريخ .
- القضاء على اللغة العربية بإلغائها من أنظمة التعليم أو الثقافة الإسلامية بالقضاء على الفكر العربى وتحويل الدراسات كلها إلى العلوم الغربية ، وتاريخ فرنسا وأمجادها ، على أساس أن التربية الأجنبية ترمى إلى إحلال قيم أجنبية مقام القيم الوطنية .
- تزييف التاريخ المغربى والفرقة بين عنصرى (١) الأمة المغربية وخلق دعوات قديمة بائدة ومحاولة ربط المغاربة بأوروبا جنسياً ومحاولة إلغاء المرحلة الوسطى بين الحكم اللاتينى القديم والحكم التونسى الجديد فى مدى ثلاثة عشر قرناً وهذه المرحلة هى تاريخ المغرب الإسلامى .

(١) يقول كرجدوه دمينى فى كتابه عمل فرنسا بالمغرب « من الخطر أن تترك كلمة ملتحة من المغاربة تتكون ولعنها واحدة وأنظمتها واحدة ولا بد أن تستعمل لفائدتنا العبارة القديمة وهى (فرق تسد) » .

- إلغاء فضل العرب والإسلام على حضارة أوربا وإنكار هذا الفضل .
- محاولة إحلال اللغة الفرنسية مقام اللغة العربية وفي إحلال اللغة إحلال العقل والثقافة ، موقناً بأن الذين يتكلمون لغته يفكرون بلغته ويستعملون منطقته وأسلوبه (٢)
- خلق طبقة من المثقفين المؤمنين بالغرب وصدائقه والمُعظمين لفكره ، وتأهيلهم للسيطرة عن طريق الأحزاب والحكم والتمثيل النيابي ، وذلك بعد انقراض الطبقة الأولى من المجاهدين التي قاومتهم ، وذلك لخلق :

١ - انحراف وطني بالمساومة والالتقاء في منتصف الطريق وقبول سياسة المراحل

٢ - انحراف فكري ليتولى الوطنيات الضعيفة . والاتجاه إلى فرنسا وإنكار المقومات والقيم والتراث العربي الإسلامي .

- إثارة الشبهات العقائدية لزعة العقيدة الإسلامية التي هي رباط المقاومة للمستعمر والقوة التي انتصرت بها ثورة الجزائر .

وقد واجه الفكر المغربي العربي الإسلامي هذه التحديات وانتصر عليها ، واستطاع أن يثبت للمستعمر اللاتيني أنه من المستحيل تحويل هذه الأمة إلى أمة أخرى أو مسحها ، وكان هذا هو قمة الانتصار في المعركة الفكرية بعد الانتصار في المعركة الحربية التي سبقت ذلك في كل أجزاء المغرب .

ويمكن القول : إن العمل الفكري في المغرب يتمثل في عمليتين كبيرتين :

الأول - الحركات الإصلاحية والسلفية التي غمرت المغرب العربي منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر ١٨٣٠ بالدعوة السنوسية ، وامتدت إلى « جمعية العلماء » التي كانت نواة الثورة الجزائرية . والتي يمكن القول بأن كل من يتكلم العربية في الجزائر مدين لها .

الثاني - الحركات السياسية والفكرية عن طريق الأحزاب والهيئات والجماعات وجامعتي الزيتونة والقرويين وقادة الفكر الأعلام ، في مجلات الصحافة والتاريخ والأدب أمثال : عبد العزيز الثعالبي وعلال الفاسي ، ومحمد التهامي ، وعبد الحميد باديس ، وعبد الله كنون ، ومالك بن نبي ، والحضر حسين والفاضل

(٢) يقول موكس مولار : إن الفكر واللغة شيء واحد وهما كوجهي قطعة النقد ، فمانسبه الفكر ليس الا وجهها من وجهي النقد والاخر هو الصوب المسموع .

ابن عاشور ، وزين العابدين السنوسى ، والبشير الإبراهيمى وعبد المجيد
ابن جلون ، وأبو اليقظان ، والشابى ، وأبو شنب ، وكرو ، والمصراوى ،
والشناقطة ، والزواوى وتوفيق المدنى ، وحسن حسنى عبد الوهاب ،
والحبابى ، ومبارك الميلى ، وعثمان الكعاك ، ودبوز

ولقد كافح الفكر والثقافة المعاصرة فى المغرب العربى فى ثلاثة ميادين كبرى ،
هى :

١ - الإسلام

٢ - اللغة العربية

٣ - التاريخ

١- فى مجال الإسلام كانت الدعوات الفكرية تحمل طابع تجديد الإسلام وتنقيته
من الزيوف ، وفتح باب الاجتهاد والعودة به إلى منابعه الأولى .

وقد حملت دعوة الإسلام متحررة نقية من غير جمود ولا تحجر ،
فجددت فكره وتراثه ، وكشفت عن بطولاته وأمجاده ، ودافعت عن كل ما وجه
إليه من اتهام . وكان الإسلام هو القوة الكبرى من قوى المقاومة ، والسلاح
الأكبر فى وجه الاستعمار والنفوذ الأجنبي .

وقد كشف الإسلام عن قدرته فى تقبل الحضارات والمدنيات ، وأثبت صلاحيته
لكل زمان ومكان ، فالمسلم ينشد الحكمة والحقيقة أينما يجدهما ، ويجمع بين الروح
والمادة ، ويزاوج بين الحضارة والدين . ويلتمس أسباب القوة والحياة والنهضة ،
ويفتى على مقتضيات الظروف ، ولا يمانع من أن يقبل الجسديد على شريطة أن
يحوله إلى كيانه ، ويلبسه طابعه ، ولا يستسلم له فيتحول به .

ولقد كانت الحركات الإسلامية فى المغرب كلها علامات يقظة ومناورات
قوة وحرية على نحو متفتح متطور ، قوامها الحرية والحفاظ على التراث المغربى
والوحدة ، وتجديد القيم الأساسية لشخصية الأمة دون أن تفنى فى غيرها . وفى نطاق
هذه الحركات كانت الدعوة إلى نشر اللغة العربية ، وتوسيع نطاق التعليم
العربى ، وبناء المدارس والمعاهد والمصانع ، وقد عرف أن السنوسية هى الى

أسست أول مصنع للأسلحة في العالم الإسلامي ، وربت هذه الدعوات أجيالاً من الشباب المثقف المؤمن المنفصم عن شهوات الحياة ، الراغب في الاستشهاد من أجل الحرية .

٢ - وفي مجال « اللغة العربية » دافع الفكر والثقافة المغربية أحر دفاع وأصدقه ، وقاومت ما وسعتها المقاومة كل تيارات التغريب ، والعامية ، والكتابة بالحروف اللاتينية ، ودفع اللغة الفرنسية إلى الأمام ، وفتحت مجالات مختلفة لتوسيع نطاق اللغة العربية . وأكدت اللغة العربية قدرتها على البقاء وحققها في أن تكون لغة الحضارة والمدنية العصرية ، فلم تجمد عن قبول الألفاظ الجديدة بالنحت أو الاشتقاق أو التغريب .

وظلت الثقافة المغربية حقيقة بحماية اللغة العربية وتنميتها والدفاع عنها طوال هذه الحقبة .

٣ - وفي مجال « التاريخ » قاومت الثقافة المغربية والفكر المغربي كل مؤامرات الغرب ، ورد على كل ما وحه من اتهامات إلى التاريخ المغربي ، وعنى مؤرخو المغرب بمقاومة الآراء التي تقوم على تمزيق الأمة المغربية أو التي حاولت رد نهضتها إلى الرومان . وواجهوا أهمية كبرى لإحياء أمجاد الأمة المغربية والأندلس بالكشف عن الصفحات الناصعة من البطولة والنضال .

وكان إيمانهم صادقاً بأهمية التاريخ في بناء الأمة خلال أيام الاحتلال ، ولطالما رددوا حقيقة تقول : إن الشعور بالحرية لا يتأتى بغير التاريخ ، فهو الذي يبعث الأمل ، ويرسم المثال المقتدى . وعندما ركر الاستعمار على محو تاريخ الجزائر بالذات قام المؤرخون في كل مكان يكتبون تاريخ الجزائر ويكشفون عن صفحاته الناصعة .

ولقد كان التاريخ سلاحاً بتاراً قام بدور كبير في معركة المقاومة ورد التحدي التي وجهها الفكر الغربي إلى المغرب ، بغية القضاء على مفهوم هام من مقومات كيانه وحياته .

أما الأدب العربي : شعره ونثره فقد دافع عن الشخصية المغربية (الإسلامية العربية) وأكد وحدة المغرب ، ودافع عن التراث المغربي وأمجاد الأمة المغربية .

* * *

وكانت الصحافة العربية المغربية مرآة لهذه الحركة كلها ، وقواماً لكل هذه الحركة الضخمة ، فكان لها دورها الفعال في إحياء اللغة العربية وتعميمها ، وإعطائها المرونة والحيوية ، والتخلص من المحسنات البديعية ، وبالرغم من مختلف صنوف الاضطهاد والمقاومة التي وجهت إلى الصحافة العربية الحرة في المغرب ، فإن المغاربة لم يتوقفوا عن إصدار الصحف باللغة العربية ، بل إنهم في سبيل إبلاغ آرائهم الوطنية أصدروا الصحف باللغة الفرنسية .



ولا شك أنه يمكن تصوير الفكر والثقافة في المغرب في هذه المرحلة التي بسطناها في كلمة ، هي عمل مقاومة شامل ؛ فقد عاشت وقتاً على العمل الوطني والنضال من أجل الحرية والمقدسات والمقومات الثلاث : التراب والإسلام واللغة العربية ، وقد كان إحياء الثقافة العربية والكشف عن بطولات الأعلام وصفحات التاريخ والكفاح عملاً هاماً في سبيل الدفاع عن الشخصية المغربية العربية الإسلامية الحية التي لم تمت .

ولا شك أن أغلب البحوث والدراسات في مجال الصحافة والأدب والتاريخ كانت تهدف إلى صد تيار التغريب والفرنسة عن السيطرة على العقل المغربي . وجملة القول أن هذا العمل قد نجح إلى حد كبير ، وأن الفكر والثقافة في المغرب العربي خلال مرحلة الاحتلال قد حقق نجاحاً كبيراً في الحفاظ على مقوماته ، ورسم الطريق إلى النهضة بعد الاستقلال ، وهو بناء الفكر الجديد على « أساس » واضح :

١ - الإسلام .

٢ - اللغة العربية .

٣ - الشخصية المغربية التي هي جزء من الأمة العربية والعالم الإسلامي .

ومن خلال ألوف الخزازات والنصوص والكتب والقراءات تبدو الصورة واضحة ، وهي فتح الأبواب لكل الثقافات للانتفاع بها والتزود منها ، بما يزيد شخصيتنا قوة وحياء ، ويدفعها إلى الأمام ، مع المحافظة على ملامحها وقيمها الأساسية . وهو منهج « المدرسة الوسطى » في المشرق .

أعلام كتاب المغرب العربي ومؤلفاتهم

أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (المغرب): الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ... المغرب ١٩٥٨

أبو القاسم سعد الله (الجزائر): محمد العيد آل خليفة .. مصر ١٩٦١

أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة (ديوان شعر) تونس ١٩٥٨
امرأة جزائرية ... بيروت

الخيال الشعري عند العرب بيروت ١٩٦٣

أبو القاسم كرو (تونس): شهر الدماء والدموع ...

٥. ... بغداد ١٩٥١ تونس ١٩٥٦

الشابي (حياته وشعره) ...

... مصر ١٩٥٢ بيروت ١٩٥٤

كفاح الشابي بيروت ١٩٥٤ تونس ١٩٥٧

حصار القلم ... مصر ١٩٥٤

نداء للعمل ... تونس ١٩٥٥

العرب وابن خلدون ... تونس ١٩٥٦

شوقي وابن زيدون ... تونس ١٩٥٦

صوت الجزائر ... تونس ١٩٥٦

التعليم التونسي ... تونس ١٩٥٦

الظاهر المداد ... تونس ١٩٥٨

الشهيد أحمد حوحو ... تونس ١٩٥٨

شخصيات أدبية (بالاشتراك) ...

... تونس ١٩٥٨

خير الدين التونسي ... تونس ١٩٥٨

- أحمد بن الأمين الشنقيطي (شنقيط) : الوسيط في تراجم أدباء شنقيط القاهرة ١٩١١
- أحمد بلا فريح (المغرب) : الأدب الأندلسي ... تطوان ١٣٦٠ هـ
- أحمد توفيق المدني (الجزائر) : كتاب الجزائر ... الجزائر ١٣٥٠ هـ
- قرطاجنة في أربعة عصور ، أوتاربخ
شمال أفريقيا قبل الإسلام تونس ١٩٢٦
المسلمون في جزيرة صقلية .. تونس ١٩٤٥
جغرافية القطر الجزائري .. تونس ١٩٤٨
رواية حنبعل الإفريقي الأعظم ... ١٩٥١
هذه هي الجزائر ... القاهرة ١٩٥٦
تقديم المنصور ... تونس ١٣٤٨ هـ
- إدريس الشرايبي (المغرب) : التيوس (قصة) بالفرنسية . (باريس)
- أحمد الشرايبي (المغرب) : إلى أين يتجه المغرب... بالفرنسية
- البشير حزيق (تونس) : برق الليل (قصص) ... تونس
- آسيا جبار (الجزائر) : العطش (قصة) ... بالفرنسية
- أمنيه اللوة الألقى (المغرب) : الملكة خنانة ... المغرب ١٩٥٤
- حسن حسني عبد الوهاب (تونس) : بساط العقيق في حضارة القيروان
- تونس ١٣٣٠ هـ
- المنتجات التونسية ... تونس ١٣٣٧ هـ
- قواعد علم الاقتصاد ... تونس ١٣٣٨ هـ
- شهرات النساء ... تونس ١٣٥٣ هـ
- خلاصة تاريخ تونس ... تونس ١٩١٦ م
- امتراج العناصر التي تألف منها
- الشعب التونسي ... بالفرنسية ١٩١٧
- تقدم الموسيقى العربية بالشرق
- والأندلس وتونس بالفرنسية ١٩١٧
- الاستيلاء الإسلامي على صقلية...
- جزيرة قوصرة العربية

الإمام المازري
المتخب المدرسي في الأدب التونسي
... .. تونس

- د . الحبيب تامر (تونس) : هذه تونس القاهرة ١٩٤٨
خير الدين التونسي (تونس) : اقوم المسالك في معرفة أحوال
الممالك تونس ١٨٦٧
زين العابدين السنوسي («) : الأدب التونسي في القرن الرابع
عشر ١٩٢٧
سليمان مصطفى زيبس (المغرب) : آثار المغرب العربي ١٩٥٨
الصادق مازيع (تونس) : بين عصرين ١٩٦١
الطاهر الحداد («) : العمال الفرنسيون وظهور الحركة
الثقافية في تونس ١٩٣٧
طاهر الحميري («) : مرآة في الشريعة والمجتمع ١٩٣٠
(«) : زعماء الأدب العربي المعاصر
(بالاشتراك) بالانجليزية ١٩٣٠
مفهوم العصية عند ابن خلدون
(بالألمانية) هامبورج ١٩٣٧
القضية التونسية ... (بالانجليزية) ١٩٤٧
مرآة المجتمع ١٩٥٦
مكافحة الثقافة ١٩٥٧
(ليبيا) : جهاد الأبطال القاهرة ١٩٥٠
اعلام ليبيا ١٩٦١
تاريخ الفتح العربي في ليبيا ١٩٦٣
(تونس) : شخصيات أدبية (بالاشتراك)
... .. تونس ١٩٥٨
(المغرب) : مدخل إلى تاريخ المغرب ...
... .. قطوان ١٣٣٩ هـ

- واحة الفكر « ١٩٤٨
- خل وتقل « ١٩٤٨
- ذكریات رجال المغرب
- (٣٠ حلقة) بیروت ١٩٦١
- احادیث عن الأدب المغربي
- الحديث مصر ١٩٦٣
- الحبيب شیبوب (تونس) : صلة الرحم الفكرية بين أقطار
المغرب العربي (بالاشتراك) . بيروت
- عبد الرحمن بن محمد الجیلالی (الجزائر) : تاریخ الجزائر العام ... الجزائر ١٩٥٤
- عبد العزيز الثعالی (تونس) : روح القرآن الحرة ... تونس
- تونس الشهيدة بالفرنسية (باريس) ١٩٢٠
- حياة سيدنا محمد تونس
- تاریخ تونس والأسر المعروفة فيها
... .. (مخطوط)
- عبد العزيز بن عبد الله (المغرب) : الطب والأطباء بالمغرب
- جغرافية المغرب
- معطيات الحضارة المغربية
- (٢ جزءان) ... الرباط ١٩٦٣
- مظاهر الحضارة المغربية. الدار البيضاء ١٩٥٧
- الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب
(بالاشتراك)
- الفن المغربي في مختلف العصور
(بالعربية والفرنسية)
- التيارات الكبرى لحضارة المغرب
(بالفرنسية)
- عبد الكريم غلاب (المغرب) : صحفي في أمريكا ... الدار البيضاء ١٩٦٣
- هذا هو الدستور الرباط ١٩٦٣
- الاستقلالية ... الدار البيضاء ١٩٦٠

- نبضات فكر... الدار البيضاء ١٩٦١
- في الإصلاح القروي ... الرباط ١٩٦٣
- (المغرب) : هذه مراکش
- في الطقولة بيروت ١٩٥١
- مارس استقلالك ... طنجة ١٩٥٤
- وادي الدماء (قصة) ... تونس ١٩٥٧
- براعم (ديوان شعر) ... الرباط ١٩٦٣
- (تونس) : تونس وفرنسا في القرن ١٩.. تونس ١٩٥٧
- (تونس) : بلاغة العرب في الجزائر ... تونس ١٩٢٥
- موجز التاريخ العام بالجزائر . تونس ١٩٢٥
- البربر تونس ١٩٥٦
- (المغرب) : الحركات الاستقلالية في المغرب العربي
- القاهرة ١٩٤٨
- حماية أسبانيا في مراکش . القاهرة ١٩٤٨
- النقد الذاتي . مصر ١٩٥٢ الدار البيضاء ١٩٦٣
- السياسة البربرية في مراکش.. مصر ١٩٥٢
- محاضرات عن المغرب العربي منذ
- الحرب الأولى .. مصر ١٩٥٥
- نداء القاهرة الرباط ١٩٥٩
- مقاصد الشريعة ومكارمها
- الدار البيضاء ١٩٦٣
- (تونس) : ثورة الفكر ومشكلة المعرفة عند
- الغزالي تونس
- تونس النائرة
- (ليبيا) : أعلام من طرابلس ... طرابلس ١٩٥٥
- جحا في ليبيا طرابلس ١٩٥٨
- صحافة ليبيا في نصف قرن
- بيروت ١٩٦٠
- عبد المجيد بن جلون
- عبد المجيد المطوي
- عثمان الكعك
- علال الفاسي
- على البلهوان
- على مصطفى المصراحي

- أبو قشة بيروت ١٩٦١
مرسال (قصص) ... بيروت ١٩٦٢
المجتمع الليبي من خلال أمثاله
الشعبية لبناء ١٩٦٣
غومة فارس الصحراء ... بيروت ١٩٦٣
لمحات أدبية من ليبيا
(تونس) : الشعب التونسي والتجنيس . تونس ١٩٣١
(الجزائر) : نجوى (ديوان شعر) بالفرنسية
الجنة المطوقة (قصة) بالفرنسية
... .. باريس ١٩٥٥
(الجزائر) : نجمة (قصة) .. بالفرنسية
(الجزائر) : الجزائر في القديم والحديث (جزءان)
... .. الجزائر ١٩٢٨
د . محجوب بن ميلاد (تونس) : تونس بين المشرق والمغرب ...
الفكر الإسلامي اليوم
تحريك السواكن تونس ١٩٥٦
(تونس) : الباجي المسعودي تونس ١٩٦٢
(الجزائر) : مجموعة أمثال العوام بأرض الجزائر
والمغرب (ثلاثة أجزاء) .. الجزائر ١٩٠٥
تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب
... .. الجزائر ١٩٠٦
(المغرب) : قدر العدس (قصص) الرباط ١٩٦٤
(الجزائر) : عيون البصائر القاهرة ١٩٦٣
(تونس) : صفوة الاعتبار القاهرة ١٣٠٢ هـ
(المغرب) : الأدب المغربي (بالاشتراك) بيروت ١٩٦٠
تحقيق كتاب التعريف بابن خلدون
ورحلته شرقاً وغرباً (القاهرة)
- الفلاح الجيلالي
كاتب ياسين
مالك حداد
مبارك الميلي
محجوب بن ميلاد
محسن بن حميدة
محمد أبو شنب
محمد بن أحمد اشماعو
محمد البشير الإبراهيمي
محمد بيرم الخامس
محمد بن تاويت الطنجي

- محمد الحجوى : الفكر السامى فى تاريخ الفقه الإسلامى (المغرب) المغرب
- محمد الحايوى : اتجاهات الأدب التونسى المعاصر تونس (تونس) مع الشابي تونس ١٩٥٥
- محمد الحضر حسين : الحرية فى الإسلام تونس ١٩٥٩ رسائل الإصلاح (٣ أجزاء) ... القاهرة ١٩٣٩ نقض كتاب الشعر الجاهلى ... القاهرة ١٣٤٥
- محمد الحبيب بن الحوجة : الرحلة القلبارية بالمملكة التونسية .. تونس ١٩١٢ تاريخ معالم التوحيد فى القديم وفى الحيد تونس ١٩٣٩ الورغى تونس ١٩٦١
- محمد داود : تاريخ تظوان (٧ مجلدات) ... الرباط ١٩٥٩
- محمد ديب : النساجة .. (بالفرنسية) باريس الحريق ... (بالفرنسية) باريس البيت الكبير .. باريس
- محمد الصالح المهدي : تاريخ الصحافة العربية فى الجزائر (تونس) (بالاشتراك) ... بيروت
- محمد الصباغ : العبير الملهب (المغرب) ١٩٥٣
- النهات البخريج ١٩٥٥
- شجرة النار (بالإسبانية) ١٩٥٥
- شلال الأسود ١٩٥٥
- أنا والقمر ١٩٥٦
- فسوارة الظمأ ١٩٦٤
- عتود (ندى) ... الدار البيضاء ١٩٦٤
- محمد الطاهر بن عاشور : الحركة الفكرية والأدبية فى تونس (تونس) القاهرة ١٩٥٦

- محمد الطيب بن أدريس الأشهب (ليبيا) : برقة العربية أمس واليوم ... ١٩٤٧
المهدى السنومى ... ١٩٤٢
- محمد عباس القباج (المغرب) : الأدب العربى فى المغرب الأقصى
... الرباط ١٩٢٩
- محمد عبد السلام بن عبود (المغرب) : تاريخ المغرب ... تطوان ١٩٥١
- محمد العرومى المطوى (تونس) : ومن الضحايا ... تونس ١٩٥٤
الحروب الصليبية ... تونس ١٩٥٦
فرحة الشعب (ديوان شعر) ... ١٩٦٣
امرو القيس ...
- د. محمد عزيز الحبابي (المغرب) : من الكائن إلى الشخص ... القاهرة ١٩٦٢
: مفكرو الإسلام ... المغرب ١٩٤٦
: يؤس وضياء (ديوان شعر) .. بيروت ١٩٦٢
: من المغلق إلى المفتوح .. بالفرنسية ١٩٦٢
: إفلاس الحضارة ... ١٩٦٣
- محمد على دبوز (الجزائر) : تاريخ المغرب الكبير (٣ أجزاء)
... القاهرة ١٩٦٣
- محمد الفاسي (المغرب) : التعريف بالمغرب ... القاهرة ١٩٦١
: الأدب والنصوص (بالاشتراك) .. مصر ١٩٦٢
- محمد مزالي (تونس) : الديمقراطية ... تونس ١٩٥٦
- محمد المكى الناصرى (المغرب) : الأحباس الإسلامية فى المملكة المغربية
... تطوان ١٩٣٥
- محمد النخلى (تونس) : حياة اللغة العربية ... ١٣٣٧هـ
- محمد النيفر (تونس) : عنوان الأريب عما نشأ فى المملكة
التونسية من عالم وأديب ... تونس ١٩٣٢
- محمد اخادى الزاهرى (الجزائر) : شعراء الجزائر فى العصر الحاضر ... ١٩٣٦
- محمد مبارك الميلي (الجزائر) : جميلة بوحيرد ... تونس ١٩٥٨

صحراؤنا تونس ١٩٥٨	
(تونس) : السد « قصة » تونس ١٩٥٦	محمود المسعدى
(تونس) : أوراس (ديوان) تونس ١٩٥٨	مصطفى الحبيب
(تونس) : شاعران (سعيد أبو بكر والشابي)	مصطفى رجب
... .. تونس ١٩٥٧	
(ليبيا) : دراسات في التاريخ العربي .. القاهرة ١٩٤٧	د. مصطفى عبد الله يعقوب
: المجمل في تاريخ لوبيا ... اسكندرية ١٩٤٧	
(الجزائر) : اللهب المقدس « شعر » ... بيروت ١٩٦١	مفدى زكريا
(الجزائر) : ابن الفقير دمشق ١٩٦٢	مولود فرعون
: الأرض والدماء ... بالفرنسية باريس ١٩٥٣	
(الجزائر) : التل المنسى ... بالفرنسية باريس	مولود معمري
: نوم الرجل العادل .. »	
(الجزائر) : تأملات في المجتمع العربي ... القاهرة ١٩٦٠	مالك بن بني
: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة »	
: مشكلة الثقافة » ١٩٥٩	
: وجهة العالم الإسلامى » ١٩٥٨	
: فكرة الإفريقية الآسيوية » ١٩٥٥	
: شروط النهضة » ١٩٥٦	
: الظاهرة القرآنية »	
: في مهب المعركة القاهرة ١٩٦١	
(تونس) : المرأة والحياة تونس	فاجية تامر
: عدالة السماء (قصة) »	

(١) مراجع عامة

- أبو القاسم سعد الله : محمد العيد آل خليفة (دار المعارف) ١٩٦١
- عبد الله كنون : واحة الفكر (تطوان) ١٩٤٨
- » » : ذكريات مشاهير رجال المغرب
- » » : بيروت (١-٣٠)
- » » : النبوغ المغربي في الأدب العربي ١٩٦١
- » » : (٣ أجزاء)
- الدكتور حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا
- » » : (الجزء الأول) مصر ١٩٦٣
- روم لاندو : أزمة المغرب الأقصى . ترجمة
- » » : إسماعيل علي (جاو ٢) مصر ١٩٦١
- » » : تاريخ المغرب في القرن العشرين ،
- » » : ترجمة نقولا زيادة بيروت ١٩٦٣
- محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي : الأدب المغربي (بيروت) ١٩٦٠
- الدكتور صلاح العقاد : المغرب العربي (مصر) ١٩٦٢
- إحسان حقي : تونس العربية بيروت
- محمد انقاسي وعمر اندسوقي ومحمد الصادق عفيفي : الأدب والنصوص (القاهرة) ١٩٦٢
- محمد انصاف عفيفي : الشعر والشعراء في ليبيا القاهرة ١٩٥٧
- خلال انقاسي : خصائص التمريرة ومكارمها
- » » : (مكتبة الوحدة العربية الدار البيضاء) ١٩٦٣
- خلال انقاسي : النقد الذاتي (دار الفكر
- » » : المغربي (المغرب) ١٩٦٣
- » » : خير الدين التونسي (سلسلة كتاب
- » » : (البعث) تونس ١٩٥٨

عبد الله كنون	: التعاشيب المطبعة المهدية (تطوان)
إبراهيم الكيلاني	: أدباء من الجزائر
عبد المجيد بن جلون	: مارس استقلالك (طنجة) ...
أحمد توفيق المدني	: هذه هي الجزائر - القاهرة ... ١٩٥٦
عبد الكريم غلاب	: الاستقلالية ، الدار البيضاء ... ١٩٦٠
عبد الكريم غلاب	: نبضات فكر ، الدار البيضاء ... ١٩٦١
على مصطفى المصراي	: صحافة ليبيا في نصف قرن دارالكشاف بيروت ١٩٦٠
على مصطفى المصراي	: أبي قشه وجريدته ، كفاح صحنى بيروت ١٩٦١
محمد الفاضل بن عاشور	: الحركة الأدبية والفكرية في تونس ، القاهرة ١٩٥٥
علال الفاسي	: الحركة الاستقلالية في المغرب العربي ، القاهرة ١٩٤٨
علال الفاسي	: السياسة البربرية في مراكش
علال الفاسي	: محاضرات عن المغرب العربي منذ الحرب
محمد السنوسي الغزالي	: البلد الحديث في تاريخ برقة القديم والحديث ١٩٣٩
محمد البشير عبد الله الفاسي	: قبيلة بني زوال ، الرباط ١٩٦٢
عبد العزيز بن عبد الله	: مظاهر الحصار العربية ، الدار البيضاء ... ١٩٥٧
محمد العربي الخطابي	: المغرب في طريق الاستقلال ، الدار البيضاء ١٩٥٩
أحمد النائب الأنصاري	: المنهل العذب في تاريخ طرابلس ، طرابلس ١٩٦١
'لمهدي السنوسي	: محمد الطيب بن إدريس الأشيب ١٩٥٢
الدكتور الحبيب تامر	: هذه تونس ، القاهرة ١٩٤٨
عبد المجيد بن جلون	: هذه مراكش
عثمان الكعك	: موجز التاريخ العام للجزائر - تونس ١٣٤٤ هـ ١٩٢٥
محمد علي دبوز	: تاريخ المغرب الكبير ج ١ و ٢ و ٣ القاهرة ١٩٦٣

أحمد الشرايبي	: إلى أين يتجه المغرب (بالفرنسية) (المغرب)
عبد الرحيم غنيمة	: تاريخ الجامعات الإسلامية (مطبوعات معهد الأمير الحسن (تطوان) ١٩٥٢م
على البهلوان	: ثورة الفكر - تونس
محمد بيرم الخامس	: صفوة الاعتبار - القاهرة ١٣٠٢هـ
محمد فؤاد شكرى	: السنوسية دين ودولة - القاهرة ١٩٤٨
محمد فؤاد شكرى	: ليبيا الحديثة - القاهرة ١٩٥٧
حسن سليمان محمود	: ليبيا بين الماضي والحاضر - القاهرة ١٩٦١
محجوب بن ميلاد	: الفكر الإسلامى اليوم - تونس
عبد العزيز بن عبد الله	: مظاهر الحضارة المغربية (الدار البيضاء) ... ١٩٥٧
لبنى بروفنسال	: الإسلام فى المغرب والأندلس
على مصطفى المصراتى	: لمحات أدبية عن ليبيا

(٢) مراجع من مؤلفات المغرب

- حسن حسنى عبد الوهاب : بساط العتيق - تونس ١٣٣٠ هـ
- عثمان الكعك : البربر - تونس ١٩٥٦ م
- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام - الجزائر ١٩٥٤
- أحمد توفيق المدني : قرطاجنة في أربعة عصور - تونس ١٩٢٦
- حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس - تونس ... ١٣٣٦ هـ ١٩١٦
- مصطفى عبد الله بعيو : المجمل في تاريخ ليبيا - اسكندرية ١٩٤٧
- أحمد توفيق المدني : تقويم المنصور ١٣٤٨
- محمد العروسي المطوى : الحروب الصليبية - تونس ١٩٥٤
- محمد داود : تاريخ تطوان (٧ مجلدات) - الرباط ١٩٦٣
- محمد بن عبد السلام بن عبود : تاريخ المغرب - تطوان ١٩٥١
- أحمد توفيق المدني : تاريخ الجزائر
- مبارك الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ١٣٤٧ هـ ١٩٢٨ م
- أحمد توفيق المدني : محمد عثمان باشا
- مصطفى عبد الله بعيو : دراسات في التاريخ اللوبى ١٩٥٣
- محمد الطيب بن إدريس الأشهب : المهدي السنوسي ١٩٥٢
- محمد الطيب بن إدريس الأشهب : برقة العربية أمس واليوم ١٩٤٧
- طاهر أحمد الزاوى : أعلام ليبيا ١٩٦١
- طاهر أحمد الزاوى : جهاد الأبطال في طرابلس الغرب ١٩٥٠
- محمد الإمام بن ماء العينين : الجأش الربيط في النصال عن مغربية شنجيط ١٩٥٧
- حسن حسنى عبد الوهاب : شهبيرات التونسيات

(٣) مراجع من صحف المغرب

محمد بن تاويت	:	المائدة الأندلسية بالمغرب (دعوة الحق)	مايو ١٩٥٨
محمد داود	:	تاريخ تطوان المطول (دعوة الحق)	يوليوز ١٩٥٩
عبد القادر العمراوي	:	يوسف بن تاشفين	يوليوز ١٩٥٩
محمد الفاسي	:	تأثير الشعر العربي في الأندلس في الآداب العربية (دعوة الحق)	يوليوز ١٩٥٩
عبد اللطيف مليه	:	نظرية ابن رشد (دعوة الحق)	ابريل ١٩٦٢
حسن السايح	:	ابن بطوطة « مارس يونيه ١٩٦٢	
الدكتور محمود علي مكي	:	الأسلام بالأندلس	ابريل ١٩٦٢
عبد العزيز بن عبد الله	:	مراكز الثقافة في المغرب (رسالة المغرب)	ابريل مايو ١٩٤٨
عبد العزيز بن عبد الله	:	من تراث المغرب الفلسفي «	يونيه ١٩٤٨
محمد الفاسي	:	أبو الحسن المراكشي «	مايو ١٩٥٢
محمد الفاسي	:	واكتشاف أمريكا «	ابريل ١٩٥٢
محمد الفاسي	:	ذكرى دخول المولى إدريس إلى المغرب «	سبتمبر ١٩٥٢
عبد العزيز بن عبد الله	:	معاهدات المغرب وأوربا في العصور الوسطى «	اكتوبر ١٩٥٢
أحمد زياد	:	مذكرات الملوك العلويين «	نوفمبر ١٩٥٢
عبد العزيز بن عبد الله	:	الحركة الفكرية في العهد العلوي «	ديسمبر ١٩٥١
محمد الفاسي	:	عبد الواحد المراكشي «	غشت ١٩٤٧
عبد العزيز بن عبد الله	:	من تراث المغرب الفلسفي «	مارس ١٩٤٨
حسن السايح	:	الإدريسي (البينة)	يوليو ١٩٦٢

حسن السايح	: الشخصية المغربية وأثرها في إسلام المغرب وعروبه وثقافته	(البينة)	نوفمبر ١٩٦٢
محمد بن البشر	: شعر ابن الخطيب وموشحاته	(البينة)	نوفمبر ١٩٦٢
أحمد مختار العبادي	: حياة ابن الخطيب المغربية	»	مايو ١٩٦٢
عبد العزيز بن عبد الله	: الفن المغربي قبل التاريخ	»	مايو ١٩٦٢
محمد الفاسي	: الرحلات القارية المغربية	»	أكتوبر ١٩٦٢
إدريس الكناني	: لغتنا المحلية (دعوة الحق)	مارس ١٩٥٩	
حسن السايح	: أصول الثقافة المغربية	»	نوفمبر ١٩٦٠
جعفر الطيار الكناني	: الثقافة في المغرب	»	مارس ١٩٦٢
قاسم الزهري	: العرب أول من دونوا تاريخ إفريقيا البينة	يونيه ١٩٦٢	
محمد إبراهيم الكناني	: اثر ابن حزم في الفكر المسيحي	»	يونيه ١٩٦٢
محمد عبد المالك الكناني	: تاريخ الحضارة المغربية	دعوة الحق	يناير ١٩٦٤
محمد الحمداوي	: الحضارة المغربية	»	مارس ١٩٦٣
عبد الله الجزائري	: اللغة العربية في المغرب	»	يناير ١٩٥٩
سيدي محمد العمري	: الموسيقى الأندلسية بالمغرب	(الثريا)	مايو ١٩٣٩
محمد المنصوري العشري	: البحرية الإفريقية العربية	(البصائر)	مايو
الطاهر بن عاشور	: مصير الأندلسيين	نشر الجمعية الخلدونية	١٩٣٠
	يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد (السلام)		١٩٣٢
أحمد المهدي النيفر	: الأمام سحنون	(الثريا)	١٩٤٦
عبد الوهاب بن منصور	: بكر بن حماد التاهرتي	(البصائر)	
»	: ابن مرزوق الخطيب	»	
»	: ابن خميس التلمساني	»	
»	: محمد المقرئ التلمساني	»	
عبد العزيز بن عبد الله	: وحدة المغرب العربي	حملة تطوان	م ١٩٥٦

(٤) صحف من المغرب العربي

الشهاب	:	١٩٣٦ - ١٩٣١
مجلة الأنوار	:	١٩٥٣ (المغرب)
مجلة التربية الوطنية	:	(المغرب)
مجلة البدر	:	(تونس) ١٩٢١ - ١٣٤٠ هـ
مجلة الأنيس تطوان (المغرب)	:	يناير ١٩٥٢
مجلة المغرب	:	١٩٥٧
مجلة تطوان المغرب	:	١٩٥٦ و ١٩٥٧
المجلة الزيتونية	:	١٩٣٦
للوحدة المغربية	:	١٩٣٧ المغرب (تطوان)
صحراء المغرب	:	١٩٥٧ الرباط والمغرب
الشهاب	:	١٩٣١ قسنطينة (الجزائر)
الثريا	:	١٩٤٦ - ١٩٤٥ نور الدين محمود
البصائر	:	١٩٤٩ - ١٩٥٤ (البشير الإبراهيمي) الجزائر .
النودوة	:	تونس ١٩٥٣
الحياة التونسية	:	١٩٥٣ (تونس)
الفكر	:	١٩٥٥ - ١٩٥٦ (تونس)
الفجر	:	(تونس) ١٩٢٠
مجلة السلام	:	(المغرب) ١٩٣٢ محمد داود
نشر الجمعية الخلدونية	:	١٩٣٠ (تونس)
وادي ميزاب	:	(١٩٢٦) الجزائر
الأمة	:	(١٩٣٣)

كشاف الأعلام

- (أ) إبراهيم الأبريكي ١٤٥
إبراهيم الأسطى عمر ٢٥٦ ؛ ٢٦١ ؛ ٢٦٢ ؛ ٢٩١
إبراهيم أطفيش ١٠٥ ؛ ٢٠٠ ؛ ٢٠١ ؛ ٢١٣ ؛ ٢٦١
إبراهيم بيوض ١٤٥ ؛ ٢٠٥
إبراهيم الفلاح ٢٩١
إبراهيم غافر ٨٢ ؛ ٢٢٩
إبراهيم الكتاني ٢٩٣
ابن باديس : راجع عبد الحميد بن باديس
ابن سودة ٢٩٣
أبو اسحق إبراهيم أطفيش : انظر إبراهيم أطفيش
أبو بكر الممتونى ٢٦٢
أبو زيان ٧٦
أبو القاسم الحفناوى ٢٢٧
أبو القاسم سعد الله ٢٢٣ ؛ ٢٢٧ ؛ ٢٦٢ ؛ ٣٢٠
أبو القاسم الشابي ١٨٩ ؛ ٢٦٢ ؛ ٢٦٩ ؛ ٢٧٠ ؛ ٢٩٤
أبو القاسم كرو ٨١ ؛ ١٠٦ ؛ ١٥٥ ؛ ٢٥٠ ؛ ٢٥١ ؛ ٢٥٢ ؛ ٢٥٣ ؛ ٢٦٩ ؛
٢٩٠ ؛ ٢٩٤ ؛ ٣٣٠
أبو قشة ٢٥٦
أبو اليقظان إبراهيم ١٤٥ ؛ ١٩٩ ؛ ٢٠٥ ؛ ٢١٣ ؛ ٢١٤ ؛ ٢١٥ ؛ ٢١٦ ؛
٢١٧ ؛ ٢٦١ ؛ ٢٦٨ ؛ ٣٢٠
أبو يوسف الدكالى ٢٩
أحمد الأخضر ٩٧
أحمد ادريس الفاسى ٢١

أحمد بن الأمين الشنطى ٢٢٤ ؛ ٢٥٩
 أحمد بلافريج ٧٧
 أحمد البلقينى ٢٦١
 أحمد توفيق المدنى ٥١ ؛ ٥٣ ؛ ٧٩ ؛ ٨٨ ؛ ١٧٩ ؛ ٢٠٥ ؛ ٢٩٠ ؛ ٢٩٩ ؛
 ٣٠٧ ؛ ٣٠٨ ؛ ٣٠٩ ؛ ٣١٠ ؛ ٣٢٠ ؛ ٣٣٠
 أحمد تيمور ٧٥
 أحمد التيجانى ١٠٧
 أحمد خان ٢٨
 أحمد بن الخوخه ١٧٣
 أحمد رضا حوحو ٢٥١
 أحمد رفيق المهدوى ٢٦٢ ؛ ٢٩١
 أحمد زكى باشا ١٠٩ ؛ ١٥٥
 أحمد سحتون ٢٦٢ ؛ ٢٦٤ ؛ ٢٦٦ ؛ ٢٦٧ ؛ ٣٢٠
 أحمد السطائى ٨
 أحمد السويحلى ٢٩٢
 أحمد الشارف ٢٥٦ ؛ ٢٦١ ؛ ٢٦٢ ؛ ٢٩١
 أحمد الشرايبي ٣٢٦
 أحمد الشريف السنوسى ٧٦ ؛ ١١٨
 أحمد شفيق ١٥٥
 أحمد فارس الشدياق ٢٢٢
 أحمد كاتب بن الغزالى ٢٦١
 أحمد محمد شاكر ٣٢
 إدريس الأشهب ٢٩٠
 إدريس الجائى ١٠٨
 إدريس الكفانى ٩٦
 إحسان الوراكي ٢٧٣ ؛ ٢٧٥ ؛ ٢٨٢
 آسيا جبار ١٤٧ ؛ ٢٢٨ ؛ ٢٧١ ؛ ٢٧٣
 آمنه اللوة الألفى ٢٧٣ ؛ ٢٧٥ ؛ ٢٧٨

- أمينة محمد السراج ٢٧٣ : ٢٧٥ : ٢٨٠
أوجين كومب ١٣٤
باحثة الحاضرة (ملكة القامى) ٢٧٣ : ٢٧٥ : ٢٧٦
يا عزيز بن عمر ١٦٨
البشير الإبراهيمي (محمد) ٤٨ : ٤٩ : ٥٧ : ٨٢ : ١٠٨ : ١٣٦ : ١٦٣ ؛
١٨٢ : ١٨٣ : ١٨٤ : ١٩٨ : ١٩٩ : ٢٠٥ : ٢٠٦ : ٢٢٧ : ٢٢٨ : ٣١٠ ؛
٣٢٠ : ٣٣٠
(ب) بشير السعداوى ٢٦ : ١١٨
البشير صفر (محمد) ٣٩ : ١١٠ : ١١٥
بشيرة الزهار ٢٧٢
بونار (الأب) ١٣٤ : ١٣٦
بونس (الأب) ١٥٧
(ت) تقي الدين الخلالى ١٩٠ : ٢٥٩
(ث) الثعالبي (انظر عبد العزيز الثعالبي)
(ج) جمال البغدادى القادري ٨٥ : ٢٣١ : ٣٢٣
جمال الدين الأفغانى ٢٨ : ٣٢ : ٣٩ : ١٠٧ : ١٠٩ : ١٢٣ : ١٢٦ : ١٤٩
جميلة الزمرلى ٢٩١
جون جنتر ١٠٣
جيرار ١٥٧
جيوم ٧٦
(ح) الحبيب بورقييه ٧٧ : ٩٠ : ١٠٥
حسن الزمرلى ٢٩٣
حسن حسنى عبد الوهاب ١١٤ : ١١٩ : ٢٨٥ : ٢٨٦ : ٢٩٠ : ٢٩٥ ؛
٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٣٠
حسن الجونى ٢٩١
الحسن السائح ٣١ : ٩٥ : ١٨٨
حسونه العياشى ٧٨

حسين الجزيري ٧٨

حسين مؤنس ٢٨٩

حمزه بوكوشه ٤٧

حميده العنبري ٢٩١

(خ) خلدون (ابن خلدون) ١١ ؛ ٣٨ ؛ ٩٢ ؛ ٩٣ ؛ ٩٩ ؛ ١٢٠ ؛ ١٢١ ؛ ١٤١ ؛
١٥٨ ؛ ٢٩٣

الحضر حسين : انظر (محمد الحضر حسين)
خير الدين التونسي ٣٤ ؛ ٣٦ ؛ ٣٨ ؛ ١١٨ ؛ ١٦٠

(ر) الربيع أبو شامه ٢٦٢
رشيد رضا ١٠٩ ؛ ١٩١
رفاعه الطهطاوي ٣٨
رمضان محمود بن سليمان ٢٦١
رمضان السويحلي ٢٩١
رمضان محمود سليمان ٢٦١
روم لاندو ٨٦ ؛ ٣٢٧

(ز) زبيدة عميرة ٢٧٢
زعيمة الباروني ٢٧١ ؛ ٢٧٢ ؛ ٢٩١
زين العابدين السنوسي ١٧٩ ؛ ١٨٠ ؛ ١٨١ ؛ ١٨٢ ؛ ٢٠٥ ؛ ٢٢٤ ؛ ٢٢٥ ؛
٢٦١ ؛ ٢٦٩ ؛ ٣٣٠
زينب الكعك ٢٧٢

(س) ساطع الحصري ٩٦ ؛ ١٢٣
سامي الدروبي ٢٩١
سحتون : انظر (أحمد سحتون)
سالم أبو حاجب ٣٨ ؛ ١٤١ ؛ ١٧٤
سلمان العاوي ٣١
سلمان بن حمزه ٧٦
سلمان الجادوي ٧٨

- سلمان بن الحاج داود ١٤٦
 سليمان الباروني ٢٦ ؛ ٧٦ ؛ ١١٨ ؛ ٢٥٧ ؛ ٢٦١
 السيد بن رجال ٢٠٦
 سيكوتوري (أحمد) ١٤٩
 (ش) الشاذلي خزنة دار ١٧٠ ؛ ٢٦٢
 شعيب الركالي ٣٠ ؛ ٢٥٩
 شفيقة السعدى ٢٧٣ ؛ ٢٨٢
 شكيب أرسلان ٥١ ؛ ٨٠ ؛ ١٠٥ ؛ ١١١ ؛ ١٢٢
 الشنقيطي التركي ١١٨
 الشناقطة ٢٥٧ ؛ ٢٥٨
 (ص) الصادق عقيقي ٢٦١ ؛ ٢٦٢
 صالح الأطبوشي ٢٩٢
 صلاح العقاد (الدكتور) ١٤٨
 الطاهر الحداد ٧٨ ؛ ١٧٩ ؛ ٢٧١
 الطاهر الخميري ٨٧ ؛ ٢٥١
 طاهر الزاوي ٢٩٠ ؛ ٢٩١ ؛ ٢٩٢ ؛ ٣٣٠
 طاهر بن عاشور ١١٠ ؛ ١٤١ ؛ ١٨٤
 الطيب العقي ٥٣ ؛ ٦٨ ؛ ٦٩ ؛ ١٦٣ ؛ ٢٠٥ ؛ ٢٦١ ؛ ٣١٢ ؛ ٣٢٠
 الطيب بن عسي ٧٨
 (ع) العابد السومى ٢٩٣
 عامر غديره ١٧٠
 عائشة عمر ٢٧٢ ؛ ٢٧٣ ؛ ٢٧٥ ؛ ٢٨١
 عباس فرحات ٧٧ ؛ ١٦١ ؛ ١٦٢ ؛ ٣٢٠
 (ج) عبد الجبار الجومرد ١٤٨
 (ح) عبد الحميد بن باديس ٣١ ؛ ٤١ ؛ ٤٢ ؛ ٤٣ ؛ ٤٥ ؛ ٤٧ ؛ ٤٨ ؛ ٤٩ ؛
 ٥٣ ؛ ٥٤ ؛ ٥٥ ؛ ٥٦ ؛ ٥٧ ؛ ٥٨ ؛ ١٤١ ؛ ١٤٩ ؛ ١٥٧ ؛ ١٦٠ ؛ ١٦٢ ؛
 ١٦٣ ؛ ١٨٣ ؛ ١٨٤ ؛ ٢٢٧ ؛ ٢٦٣ ؛ ٣٠٩ ؛ ٣١٠ ؛ ٣٢٠ ؛ ٣٢٩

عبد الحميد الثاني (السلطان) ٣٦

عبد الحميد العيار ٢٩١

عبد الحميد سعيد ٨٠

عبد الحى الكتانى ٣١ ؛ ٥٢

عبد الرحمن الدرقاوى ٣١

عبد الرحمن الزباني ١٦٥

عبد الرحمن الصّهمازى ٦٧

عبد الرحمن بن عمر ١٤٦

عبد الرحمن الكعك ٧٨

عبد الرحمن الكواكبي ١٤٩

عبد الخالق الطريس ٧٧

(س) عبد السلام الهراس ٦٤ ؛ ٦٧ - ١٨٨

عبد السلام الحريض ٢٩٢

عبد العزيز الثمينى ١٤٥

عبد العزيز الثعالبي ٤٠ ؛ ٧٧ ؛ ١٠٥ ؛ ١٢٣ ؛ ١٢٤ ؛ ١٢٥ ؛ ١٢٦ ؛

١٤١ ؛ ١٤٤ ؛ ١٤٧ ؛ ١٧٠ ؛ ١٧٩ ؛ ٣١٠ ؛ ٣٢٩

عبد العزيز جاويش ١١٣ ؛ ١١٤ ؛ ١١٨ ؛ ١٧٥

(ع) عبد العزيز بن عبد الله ١٠٠ ؛ ١٠٤ ؛ ١٥٦ ؛ ٢٩٠ ؛ ٢١٤ ؛ ٣١٥

عبد العزيز كريباكه ٦٢٨ ؛ ٢٦٢ ؛ ٢٦٤

عبد القادر الجزائرى ٣٩ ؛ ٥١ ؛ ٥٢ ؛ ٧٦ ؛ ٩٢ ؛ ١٠٥ ؛ ٢٠٢

عبد القادر الجيلاني ٢٦

عبد القادر الصحراوي ٨

عبد القادر التمركاشي ٢٩١

عبد القادر المجاوى ٢٢٧

عبد القادر المقدم ٢٦٢

(ك) عبد الكبير القاسمى ٣٢٤

عبد الكريم بن ثابت ٢٦٢

عبد الكريم الخطابي ٣٣ ؛ ٥٢ ؛ ٧٦ ؛ ٩٢ ؛ ١٠٥

عبد الكريم العقون ٢٦٢

عبد الكريم غلاب ٨٧ ؛ ٩١ ؛ ١٥٩ ؛ ٢٠٨ ؛ ٢٠٩ ؛ ٢١٠ ؛ ٢٧٥ ؛

٣١٦ ؛ ٣٣٠

(ل) عبد الله الستومي ٢٩ ؛ ٣١ ؛ ٣٢

عبد الله شريط ١٤٤

عبد الله العامل الكتاني ١٠٤

عبد الله كتون ٣٠ ؛ ٩٠ ؛ ١١١ ؛ ١٤٠ ؛ ١٤١ ؛ ١٤٣ ؛ ١٥٠ ؛ ٢٢٣ ؛

٢٢٧ ؛ ٢٣٦ ؛ ٢٣٧ ؛ ٢٣٨ ؛ ٢٣٩ ؛ ٢٤٠ ؛ ٢٦١ ؛ ٢٦٢ ؛ ٢٦٣ ؛

٢٦٤ ؛ ٢٦٥ ؛ ٢٦٦ ؛ ٢٩٣ ؛ ٣٢٩

عبد اللطيف خالص ١٠٣ ؛ ١٤٩

عبد الله النفرني ٩٢

عبد المجيد بن التهامي ٩٢

عبد المجيد بن جلون ٢١١ ؛ ٢١٢ ؛ ٢٥١ ؛ ٢٦٢

عبد الهادي التازني ١٤٢ ؛ ١٤٣

عبد الهادي الستومي الزاهدي ٢٦١

عبد الوهاب منصور ٩١ ؛ ١٠٤

عثمان سعدى ١٦٣

عدون ١٤٦

عراي (أحمد) ٢٥

العربي التبسي ٥٣ ؛ ٢٠٥ ؛ ٣٢٠

العربي الدرقاوي ٥١

العربي الكباري ٢٦٨

عزيز الحبابي انظر (محمد عزيز الحبابي)

عثمان الكعك ٧٨ ؛ ٧٩ ؛ ٩٦ ؛ ١٥٦ ؛ ١٦١ ؛ ٢٢٤ ؛ ٢٢٥ ؛ ٢٢٦ ؛

٢٥١ ؛ ٢٨٥ ؛ ٢٨٦ ؛ ٢٩٠ ؛ ٣٠٣ ؛ ٣٠٤ ؛ ٣٠٥ ؛ ٣٠٦ ؛ ٣٠٧ ؛ ٣٣٠ ؛

العقي (راجع الطيب العقي)

علال الفاسي ٣١ ؛ ٣٣ ؛ ٣٦ ؛ ٥٩ ؛ ٥٧ ؛ ٩٣ ؛ ٩٦ ؛ ٩٧ ؛ ١٠٠ ؛

١٠٥ : ١١١ : ١٤٣ : ١٤٩ : ١٥١ : ١٥٢ : ١٥٧ : ١٦٤ : ٢٦٢ : ٢٦٣ -
٢٦٤ : ٢٩٤ : ٣٢٤

على باش حاقبه ٤٠ : ٧٧ : ١٠٣ : ١١١ : ١١٨ : ١٢٥

على البلهوان ٨٧

على الحللى ٢٦٣

على مصطفى المصراتى ٨٩ : ٢٥٣ : ٢٥٤ : ٢٥٥ : ٢٥٦ : ٢٥٧ : ٢٦١ -
٢٦٢ : ٢٩٠ : ٣٣٠

على كاهية ٧٨

عمر رضا كحالة ٢٥٩

عمر بن الشيخ ١٧٣

عمر فروخ ٢٧٠

عمر المختار ٢٦ : ٢٩١

عمر بن يحيى ١٤٥

عون سوف ٢٩٢

فارس الشدياق ١١٧

الفاضل بن عاشور ٣٩ : ١١٠ : ١٧٦ : ١٧٩ : ٢٦١ : ٢٩٠ - ٣٢٩

فاطمة سليم ٢٧٣

فتاة بنى سليم ٢٧٣ : ٢٧٥ - ٢٧٧

فتاة تطوان ٢٧٣ : ٢٧٥ : ٢٧٨

فتحية عميرة ٢٧٢

فتحية المختار مزالى ٢٧٣ : ٢٧٥ : ٢٧٧

فرحات حشاد ٢٦٣

الفضيل الورتلائى ١٠٥ : ١٨٤ : ٢٩٤

فصل المهمش ٢٩١

الفلاح الجيلاى ٢٠٣

كاتب ياسين ١٤٧ : ٢٢٨ : ٢٣١ : ٢٣٩

كريا كه : انظر (عبد العزيز كرياكه)

كحول ٦٨

كولون ١٦٨
 لاله فاطمة ٧٦
 لافيغري (الكردينال) ١٥٥ : ١٦١
 ليوطي (المارشال) ٢٠٤
 ليلي أمين دياب ٢٧١ - ٢٧٣
 مالك حداد ١٤٧ : ٢٢٨
 مالك بن مني ٦٤ : ٦٥ - ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ : ١٤٧ : ١٤٩ : ١٨٨ - ٣٢٠ :
 ٣٢٩
 ماء العينين ٧٦ - ٩٢
 ماسينون (المستشرق) ١٦٨
 مبارك الملي ٥٣ : ١٦٣ : ١٨٤ : ٢٥١ : ٢٨٥ : ٢٨٧ - ٢٩٠ : ٢٩٨ :
 ٢٩٩ : ٣٠٠ : ٣٠١ : ٣٠٢ : ٣٠٣ : ٣١٠
 محمد إبراهيم ٢٦٢
 محمد البشير النيفر ١٢٠
 محمد أبو شنب ٢٣٣ : ٢٣٤ : ٢٣٥ : ٢٣٦
 محمد بن أبي شعب ٢٢٧
 محمد بن أمين الشنقيطي ٢٥٩
 محمد البدوي ٧٦
 محمد بيرم ٣٨ : ٣٩ - ١١٩ : ١٢٠ : ١٤١
 محمد بن تاويت الطنجي ٢٩٠ : ٢٩٣ : ٢٩٤
 محمد التطواني ٢٩٠
 محمد الحبيب شلي ١٠٨
 محمد الحجيج ١٢٠
 محمد الخليوي ١٨٩ : ٢٦١ : ٢٦٩
 محمد الخضر حسين ٤٠ : ٥٠ : ١٠٥ : ١١٨ : ١٧٣ : ١٧٤ : ١٧٥ :
 ١٧٦ : ٢٠١ : ٢٦٢ : ٣٢٩
 محمد بن الخوجه ٤٠ : ١٨٧ : ٢٢٢
 محمد داود ١٠٧ : ٢٦٥ : ٢٩٣ : ٢٣٥ : ٢٣٦ : ٢٦١

محمد ديب ١٤٧ : ٢٢٨ : ٢٣١
 محمد زثير ١٠٤ : ١٥٩ : ١٩١
 محمد زيتونة ١٢٠
 محمد بن سليمان ٩٢
 محمد سعيد الزاهري ٩٦ : ٩٨ : ٢٣٣ : ٢٣٥ : ٢٣٦ - ٢٦١
 محمد السنوسي ٣٩ : ١٤١ : ١٧٩
 محمد الشاذلي المرالي ٢١٤
 محمد الشنطي ٢٩٠
 محمد شفيق ٣٢٥
 محمد الصباغ ١٩٠ : ٢٥١
 محمد الطيب الأشهب ٢٦٢ - ٢٩٠
 محمد عبد الله ٢٣
 محمد عبده ١٩ : ٢٨ - ٣٢ - ٣٣ : ٣٩ : ٥٥ : ١٠٦ : ١٠٧ : ١٠٩ -
 ١١٠ : ١١١ : ١١٨ : ١٢٣ : ١٤٩ : ١٧٥ : ١٨٣ : ٢٢٢
 محمد العربي العلوي ٢٩ : ٣٠
 محمد عزيز الحبابي ٨٦ : ١٦٤ : ٢٤٦ : ٢٤٧ : ٢٤٨ - ٢٤٩ : ٣٢٦ - ٣٣٠
 محمد العروسي المظوي ٢٥١ : ٢٦٢ : ٢٦٣
 محمد علي دبوز ١٠٩ : ٢٨٥ : ٢٩٠ : ٣١١ : ٣١٢ : ٣١٣ : ٣١٤
 محمد علي السنوسي ١٨ : ٢٠ : ٢١ - ٢٢ : ٢٤ : ٢٥ : ٢٦
 محمد علي الكتاني ٢٨٩
 محمد علال القاسمي : انظر (علال القاسمي)
 محمد العيد آل خليفة ١٦٣ : ٢٦١ : ٢٦٢ : ٣٢٠
 محمد العيد حم علي : انظر (محمد العيد آل خليفة)
 محمد العيساوي بوخنجر ٢٩٢
 محمد العيسوي ١٦٤
 محمد غريظ ٢٦١
 محمد القاسمي ١١١ : ١١٨ : ١٤٣ : ٢٤٠ : ٢٤١ : ٢٤٢ : ٢٤٣ : ٢٤٤ :
 ٢٤٥ : ٣٢٩

محمد فريد ١٠٩ ؛ ١١٢ ؛ ١١٣ ؛ ١١٤ ؛ ١١٥ ؛ ١٣٥
 محمد فؤاد شكرى ٢٩٠
 محمد القباج ٢٢٤
 محمد الكبير ٥٢
 محمد بن كنون ٢٩
 محمد الملقاني بن السائح ٢٦١
 محمد لحول ٢٢٧
 محمد محي الدين ٧٨
 محمد مزالي ٢٥١
 محمد المقراني ٧٦
 محمد المقرى ٢٦١
 محمد المكى الناصرى ٩٦ ؛ ١٠٤ ؛ ١٥٠ ؛ ١٨٦ ؛ ٢٦١
 محمد المهدي العلوى ٢٦٢
 محمد المنوتى ٢٩٠
 محمد نعمان ٧٨
 محمد النيفر ١٨٧ ؛ ٢٢٤
 محمد النخلى ١٦٩
 محمد الحاج ناصر الجزائرى ٢٠٦
 محمد النجار ١٧٣
 محمد الوزانى ٧٧
 محمد بن يوسف أطفيش ٢٨ ؛ ١٤٥ ؛ ٢١٣
 محبوب بن ميلاد ٨٧ ؛ ١٥١ ؛ ١٥٢ ؛ ١٥٩ ؛ ١٨٤ ؛ ٢٥١
 محمود قبادو ٣٨ ؛ ١٦٠
 محمود المسعدى ١٥٢ ؛ ١٦٠ ؛ ١٨٥
 محب الدين الخطيب ٨٠ ؛ ١٠٥ ؛ ١٨٥
 محي الدين القليبي ١٧٩
 مختار بن الحاج سعيد ١١٤
 مختار السوسى ٢٦٢ ؛ ٢٩٠ ؛ ٢٩٣

مختار كعبار ٢٩٢

مدحت ٣٨

مديحة مشرفة كرو ٢٧٣ ؛ ٢٧٥ ؛ ٢٨١ ؛ ٢٨٢

مصالي الحاج ٧٧ ؛ ٢٠

مفدى زكريا ١٤٦ ؛ ٢٦١ ؛ ٢٦٧ ؛ ٢٦٨ ؛ ٣٢٠

مفيدة الشاهد ٢٧٣

المهدى الوزانى ٣٣

منور صمادح ٢٦٢

مولود معمري ١٤٧ ؛ ٢٢٨ ؛ ٢٣١

المولود بن الموهوب ٢٢٧

ناجية ثامر ٢٥١ ؛ ٢٧٥ ، ٧٩

نزيرة الديلمي ٢٥١

نور الدين محمود ١٧٠ ؛ ١٩٨ ؛ ٢١٨ ؛ ٢١٩

الهادي السنوسي ١٠٦ ؛ ٢٦٢

الهادي العبيدي ٢١٨ ؛ ٢٦٢

الهادي المغربي ٢٦٥

الورتلاني: أنظر (الفضيل الورتلاني)

موضوعات البحث

صفحة

تقديم ٥
تمهيد ١١

القسم الأول :

حركات اليقظة والنهضة ١٥
مدخل ١٧
١ - الحركة السنوسية ٢٠
٢ - الحركة السلفية ٢٨
٣ - الحركة الإصلاحية ٣٤
٤ - جمعية العلماء ٤١
٥ - الطرق الصوفية ٥٠

من أعلام اليقظة والنهضة

١ - عبد الحميد بن باديس ٥٤
٢ - علال الفاسي ٥٩
٣ - مالك بن نبي ٦٤
٤ - الطيب العقبي ٦٨

القسم الثاني :

٧١	فمايا العروبة والوطنية والإسلام
٧٣	مدخل
٧٥	١ - الكفاح الوطني من أجل الحرية
٨٢	٢ - امتزاج العروبة والإسلام
٨٩	٣ - التراث المغربي والتراب المغربي
٩٥	٤ - عروبة البربر
١٠٠	٥ - وحدة المغرب العربي
١٠٥	٦ - التقاء المغرب بالشرق
١٢٣	من أعلام الوطنية عهد العزيز الثعالبي

القسم الثالث :

١٢٧	مقومات الثقافة والفكر :
١٢٩	مدخل
١٣١	(١) التعليم ١ -
١٣٧	٢ - جامعا الزيتونة والقرويين
١٤٤	إبراهيم يوض
١٤٦	(٢) الثقافة ١ - مقاومة الفرنسة الفكرية
١٥٤	٢ - حركة التغريب
١٥٨	٣ - الثقافة العربية الإسلامية
١٦٦	٤ - كفاح اللغة العربية

صفحة

١	— محمد الخضر حسين ١٦٦	من أعلام الثقافة
٢	— محمد الفاضل عاشور ١٧٣	
٣	— زين العابدين الشومسي ١٧٦	
٤	— البشير الإبراهيمي ١٧٩	
٥	— محبوب بن ميلاد ١٨٢	
٦	— محمود المسعدي ١٨٤	
٧	— محمد المكي الناصري ١٨٥	
٨	— محمد النيفر ١٨٦	
٩	— الحسن السائح ١٨٧	
١٠	— عبد السلام الهراس ١٨٨	
١١	— محمد الخليوي ١٨٩	
١٢	— محمد الصباغ ١٩٠	
١٣	— الدكتور تقي الدين الهلالي ١٩٠	
١٤	— محمد زنيير ١٩١	

(٣) الصحافة المغربية

١	— مهمة الصحافة المغربية ١٩٣	
٢	— الصحافة والحركة الوطنية ٢٠٠	
١	— عبد الكريم غلاب ٢٠٧	من أعلام الصحافة
٢	— عبد المجيد بن جلون ٢١٠	
٣	— أبو اليقظان ابراهيم ٢١٢	
٤	— الهادي العبيدي ٢١٧	
٥	— نور الدين محمود ٢١٧	

(٤) أدب الكفاح المغربي

٢١٩	١ - الأدب المغربي : أدب مقاومة
٢٢٦	ب - الأدب العربي المغربي فرنسي اللغة
٢٣١	من أعلام الأدب ١ - محمد أبو شنب
٢٣٤	٢ - عبد الله كتون
٢٣٩	٣ - محمد القاسمي
٢٤٤	٤ - محمد عزيز الحبابي
٢٤٨	٥ - أبو القاسم كرو
٢٥١	٦ - علي مصطفى المصراي
٢٥٦	٧ - الشناقطة

(٥) شعر الوطنية والكفاح

٢٥٩	من أعلام الشعراء ١ - مقلدي زكريا
٢٦٦	٢ - عبد العزيز كركباكه
٢٦٧	٣ - أبو القاسم الشابي

(٦) أدب المرأة المغربية

كاتبات من المغرب :

٢٧٣	باحثة الحضرة
٢٧٥	فتحية المختار مزالى وفتاة بني سليم
٢٧٦	فتاة تطوان ، آمنة اللوة
٢٧٧	ناجية ثامر ..
٢٧٨	أمينة محمد السراج
٢٧٩	عائشة بنت عمر ، مديحة مشرفية كرو
٢٨٠	شفقة السعدى ، إحسان الوراكي

(٧) التاريخ المغربي

- ١ - مراجعة التاريخ المغربي ٢٨٢
- ب - إعادة كتابة التاريخ المغربي ٢٨٦
- ج - دراسات عن ليبيا (انطاهر الزاوي) ٢٨٨
- د - دراسات عن الأندلس ٢٩١
- هـ - دراسات عن ابن خلدون ٢٩١
- المؤرخون :
- ١ - حسن حسني عبد الوهاب ٢٩٣
- ٢ - مبارك الميلي ٢٩٦
- ٣ - عثمان الكعاك ٣٠١
- ٤ - أحمد توفيق المدني ٣٠٥
- ٥ - محمد علي ديبوز ٣٠٩
- ٦ - عبد العزيز بن عبد الله ٣١٢
- ٧ - محمد داود ٣١٣

القسم الرابع :

- مراجعات عامة : ٣١٥
- أولا - ثورة الجزائر والفكر المغربي ٣١٧
- ثانيا - مرحلة جديدة للفكر المغربي ٣٢٢
- خلاصة البحث ٣٢٥
- قائمة بأعلام كتاب المغرب العربي ومؤلفاتهم ٣٣١
- مراجع البحث ومصادره ٣٤٠
- كشاف الأعلام ٣٤٧

الجمهورية العربية المتحدة
الثقافة والارشاد القومي

المكتبة العربية
- ٣٨ -

التأليف [٢٣]

الأدب (٢٤)

المتاهرة

١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م